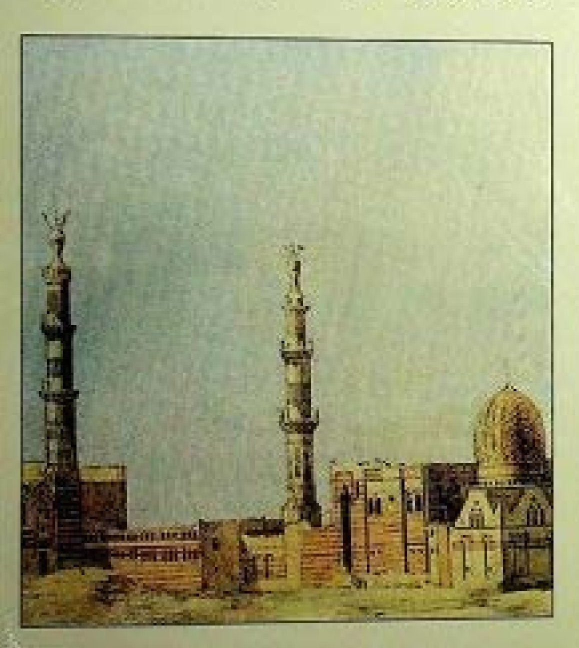
د. عبد الرحيم العطاوي

الاستشراق الروسي

مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا



المركز الثقافي العربي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الكتاب

الاستشراق الروسي

تأليف

عبد الرحيم العطاوي

الطبعة

الأولى، 2002

عدد الصفحات: 424

القياس: 17 × 24

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

طُبع هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة

في المملكة المغربية



عبد الرحيم العطاوي

الاستشراق الروسي

مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا

أصل هذا الكتاب أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الأدب نوقشت عام 1993 في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الحسن الثاني - الدار البيضاء - عين الشق.
وقد ناقشها السادة الأساتذة المحترمون أحمد الطريسي أعراب وعبد اللطيف الشاذلي وعبد الغني أبو العزم ومحمد بلجي.

الإهــداء

إلى والديَّ رحمهما الله،

إلى زوجتي سعاد وأبنائنا الغالية وعمر وعلي.


مكتبة المهتدين الإسلامية

تصدير

كنت منذ أمد بعيد أفكر في إنجاز عدد من الدراسات حول ألمع ممثلي المدرسة الاستشراقية الروسية أمثال "گيرگس" و"روزين" وكراتشكوفسكي" و"كريمسكي" و"بارتولد" وغيرهم من المستعربين، وذلك قصد التعريف بهم وبأعمالهم. غير أنني عدلت عن هذه الفكرة لأسباب اتضحت لي أهميتها من خلال قراءة الكتابات العربية حول الاستشراق الروسي. وأذكر من بين هذه الأسباب على سبيل المثال:

- أولاً: إن تاريخ العلاقات الروسية الإسلامية يكاد يكون مجهولاً خاصة ما تعلق بالإسلام داخل الإمبراطورية الروسية وبعلاقة هذه الأخيرة بالدول الإسلامية المجاورة لها قبل قيام الدولة العثمانية.

- ثانياً: إن تاريخ الاستشراق الروسي الأكاديمي يكاد يكون بدوره مجهولا. فلا يمكن تناول فترة منه بالدرس أو الحديث عن أحد أعلامه دون الرجوع إليه والتعريف به.

- ثالثاً: إن تاريخ الاستشراق الروسي في مجال دراسة الدين الإسلامي يبقى، رغم وجود عدد من الدراسات المتفرقة في بعض المجلات، غير معروف.

- رابعاً: كان للدور الذي لعبته المجموعات الهائلة من المخطوطات العربية المحفوظة في المكتبات الروسية أثر بالغ الأهمية على مسيرة المدرسة الاستشراقية الروسية. فكان من الضروري إبراز هذا الدور، خاصة

وأن دراسة المخطوطات العربية الإسلامية شكلت نقطة انطلاق الاستشراق العلمي العالمي.

تلك أهم الأسباب التي جعلتني أعدل عن فكرتي الأولى، واخترت إنجاز عمل أقدم من خلاله صورة، أريدها شاملة قدر المستطاع، للعلاقات التي كانت تربط الروسيين القدامى بجيرانهم المسلمين، وكذلك لمختلف المراحل التي قطعها الاستشراق الروسي حتى يتكون لدى القارئ العربي تصور عام للموضوع. إنني إذاً اخترتُ سلوك نهج "البدء بالبداية" . وغايتي بالدرجة الأولى إعطاء نظرة تاريخية لمسيرة المدرسة الاستعرابية الروسية منذ نشأتها إلى حدود منتصف القرن العشرين. وأعتقد أنني بسلوكي هذا النهج قد مهدت الطريق للبحث المستقبلي في هذا المجال المتمثل أساساً في دراسة مميزات الاستعراب الروسي من خلال أعلامه ومؤلفاتهم.

مقدمة

جرت العادة، كلما دار الحديث عن الاستشراق، أن لا ينظر إلى هذا الموضوع سوى من خلال الدراسات الاستشراقية التي أنجزت في بلدان أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية. وغالبا ما يسقط عن بال الدارسين عدد من الأقطار الأوروبية الشرقية التي لها تاريخ طويل وتقاليد راسخة في هذا الميدان، ونقصد بهذه البلدان على الخصوص روسيا الفيديرالية وأوكرانيا وكذلك بولونيا والمجر وجمهوريات ما كان يسمى سابقا بيوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا... وإن المدارس الاستشراقية في هذه البلدان، شأنها شأن نظيراتها الغربية، أنجبت مجموعة من العلماء الذين كانت لهم إسهامات كبيرة في هذا الفرع من المعرفة لا تقل أهمية عن إسهامات زملائهم الغربيين. غير أن تاريخ الاستشراق في هذه الأقطار يكاد يكون مجهولا في وسط المثقفين العرب. ويعود سبب ذلك إلى ندرة المؤلفات العربية حوله. فإذا ما نحن حاولنا إحصاء ما كتب باللغة العربية حول الاستشراق الروسي مثلا، فإننا سنجد أن هذه المؤلفات تعد على رؤوس أصابع اليد، وهي عبارة إما عن بضع صفحات بداخل دراسات عامة حول الاستشراق العالمي أو مقالات متفرقة صدرت في بعض المجلات.

ولهذا السبب، وقصد ملء جانب من الفراغ الحاصل في هذا الميدان، فإننا سنحاول في هذه الدراسة معالجة عدد من القضايا المرتبطة بتاريخ الاستشراق في مجال الدراسات الروسية حول الدين الإسلامي واللغة والأدب العربيين وحضارة العرب وتاريخهم، كما سنسعى إلى إبراز

خصوصيات الاستعراب الروسي ومميزاته والتعريف بألمع أعلامه منذ أقدم العصور إلى منتصف القرن العشرين[1].

والمقصود بالاستشراق الروسي - الدراسات والأبحاث الجامعية التي تعالج الموضوعات المشار إليها أعلاه والتي لها صلة بها بشكل أو بآخر والتي أنجزت داخل حدود دولة روسيا الفيديرالية الحالية في مراكزها الرئيسية الثلاثة: سان پيترسبوگ وقازان وموسكو.

ولقد اعتمدنا لإنجاز هذا العمل على أربعة مصادر أساسية هي:

1- «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»[2] للعالم الكبير "كراتشكوفسكي"، وهو كتاب جامع يقع في 298 صفحة استعرض فيه مؤلفه جميع مراحل الدراسات العربية في روسيا وخاصة منها الأدبية واللغوية منذ نشأتها إلى حدود أربعينيات القرن العشرين. كما أنه عرف بأكبر أعلام الاستشراق وبأهم أعمالهم العلمية. ومن خلال هذا الكتاب تظهر بجلاء ميول "كراتشكوفسكي" الأدبية واللغوية التي كان لها نصيب وافر فيه. غير أنه يجب الاعتراف بأن المؤلف أعطى التخصصات الأخرى كالتاريخ والجغرافية ودراسة الدين الإسلامي... حقها كذلك في الكتاب.

2- «تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا»[3]، تأليف المستشرق

---

(1) لقد تطورت المدرسة الاستعرابية الروسية كثيراً منذ الخمسينيات من القرن العشرين، كما تنوعت أهدافها ومقاصدها وأعطت العديد من العلماء المرموقين على الصعيد العالمي. ونتمنى أن يوليها الباحثون العرب كل ما تستحقه من عناية.

(2) Kratchkovskiy, I. Otcherki po istorii ruskoy arabistiki, izd. AN SSSR, Moskva - Leningrad, 1950.

إ، كراتشكوفسكي.، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، منشورات أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، موسكو – لينينگراد، 1950، (بالروسية).

(3) Bartold, V. V. Istoriya izutcheniya vostoka v Evrope i v Rosii. Petersburg, 1911, (pervoye izd.), Leningrad, 1925, (vtoroye izd.).

ف، بارتولد.، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا»، پيترسبورگ، 1911، الطبعة الأولى، لينينگراد، 1925، الطبعة الثانية (بالروسية).

ترجم الأستاذ نيكيتين B. Nikitine، هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية:

Barthold, V. V., La Découverte de l'Asie. Histoire de l'Orientalisme en =

"بارتولد" الذي يعتبر بحق أحد كبار الاختصاصيين في مجال دراسة تاريخ حضارة الشعوب الإسلامية عموماً وحضارة شعوب تركيا وإيران والقوقاز وآسيا الوسطى خصوصاً. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الكتاب يختلف عن مؤلف "كراتشكوفسكي" آنف الذكر من حيث أهدافه وشكل تصميمه. فهدف "بارتولد" لا يقتصر على الاستعراب، بل هو دراسة كافة أرجاء الشرق الذي لا يمثل فيه العالم العربي والإسلامي سوى جزء واحد. كما أن المؤلف ركز بالأساس على نظرة الأوروبيين إلى الشرق والشرقيين وحاول معالجة العديد من المسائل التي لها صلة بعلم التاريخ عموما وتاريخ الشرق خصوصا. ولقد خرج العالم بعدد من الاستنتاجات الجديدة التي تتعارض وآراء جل المؤرخين المستشرقين آنذاك. ويعتبر هذا الكتاب في غاية الأهمية لا من حيث المعلومات الثمينة التي يحويها فحسب، بل وكذلك من حيث الآراء الجديدة التي أتى بها حول الشرق ودراسة تاريخه وحضارته...

3- «أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي»[4]، تأليف المستشرق "سميرنوف". إذا كان كتاب "كراتشكوفسي" يشكل دراسة شاملة للاستعراب الأدبي في روسيا، وكتاب "بارتولد" يسلط الأضواء على تاريخ الاستشراق عامة ويركز على الدراسات التاريخية خاصة، فإن مؤلف "سميرنوف" يشكل بحثاً شاملاً لتاريخ دراسة الدين الإسلامي في روسيا والاتحاد السوفييتي، ويعكس الخطة الرسمية التي رسمها

=

Europe et en Russie, traduit du russe et annoté par B. Nikitine, Payot, 1947.

(4) Smirnov, N.A., Otcherki istorii izutcheniya Islama v SSSR. izd. AN SSSR, Moskva, 1954.

ف، سميرنوف.، «أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي»، منشورات أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، موسكو، 1954، (بالروسية).

كتب الأستاذ "يليسييف" (N. Elisseef) ملخصا لهذا الكتاب باللغة الفرنسية وعلق عليه. نشر هذا الملخص في إحدى منشورات "المعهد الفرنسي" بدمشق، عام 1957.

Elisseef, N., L'Islamologie en URSS, d'après un ouvrage récent. in: Mélanges Louis Massignon, T. II, Publication de l'Institut Français de Damas, Damas, 1957, pp. 23-76.

الحزب الشيوعي الحاكم في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين لمعالجة قضايا الاستشراق عامة والدراسات الإسلامية خاصة.

ومن خاصيات هذا الكتاب أنه يعرض أمام القارئ مميزات الدراسات الاستشراقية السوفييتية وكيفية تعاملها مع موضوع دراسة الدين عامة والدين الإسلامي خاصة خلال فترة معينة من تاريخ الاتحاد السوفييتي.

4- «المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفييتي»(5)، تأليف مجموعة من الباحثين نذكر من بينهم "باتسييڤا" (S. Batseyeva) و"گريزنييڤيتش" (P. Griznievitch) و"ميخايلوڤا" (A. Mikhaylova)) و"شوموڤسكي" (T. Chumovskiy) وأشرف عليه "خاليدوف" (P. Khalidov)، وهو آخر مؤلف صدر حول مجموعات المخطوطات العربية المحفوظة في مكتبة ملحقة معهد الاستشراق "بسان پيترسبورگ". ويقع الكتاب في جزئين موزعين على الشكل التالي: يتكون الجزء الأول من ثلاثة أقسام، يعطي القسم الأول تعريفا شاملا لمكتبة المعهد، ويستعرض الثاني محتويات المكتبة وهي مصنفة إلى مجموعات، ويشكل القسم الثالث عرضا مختصرا باللغة الإنكليزية عن محتويات الكتاب. أما الجزء الثاني فهو عبارة عن كشاف لعناوين المؤلفات وأسماء المؤلفين...

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بالشكر والامتنان للدكتور عزت حسن الذي نوّه كثيراً بهذا العمل بعدما عرضته عليه ليراجعه قبل طبعه، وقد أبدى فضيلته جملة من الملاحظات القيمة التي أخذتها بعين الاعتبار. وأتوجه بالشكر كذلك إلى الأستاذين المحترمين أحمد الطريسي أعراب

---

(5) AN SSSR, Institut Vostokovedeniya. Arabskiye rukopisi Instituta Vostokovedeniya - Kratkiy Katalog - Pod redaktsiey A. B. Khalidova, izd. "Nauka", Moskva, 1986, (T. 1-2).

أكاديمية العلوم السوفييتية، معهد الاستشراق، المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق - فهرست صغير - تحت إشراف خاليدوف، دار النشر ناووكا، موسكو، 1986، ج 1-2.

وعبد اللطيف الشاذلي اللذين ساعداني وشجعاني كثيراً على إنجاز هذا البحث. كما أشكر الأستاذ "ألكْساندْر گيرْد" من كلية الفيلولوجية بجامعة سان پيترسبورگ والأستاذة "أوَلْگا فْرُولوڤا" من كلية الدراسات الاستشراقية بنفس الجامعة والأستاذ "ألكْساندَر كودْيِيلين" من معهد الاستشراق بموسكو على ما قدموه إليَّ من مساعدات تمثلت بالأساس في عددٍ من المراجع التي مدُّوني بها. ولا يفوتني كذلك أن أتقدم بالشكر للسادة الأساتذة المحترمين عبد الغني أبو العزم ومحمد بلجي وعبد العزيز الساوري ومحمد الظريف ولكل من اهتم معي بموضوع هذه الدراسة في كلية الآداب بالرباط وخاصة لموظفي مكتبتها.


مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الأول

الـروسـيـون الـقـدامـى والإسـلام،
بداية الاستشراق في روسيا.

I- الإسلام والروسيون القدامى

إن الاستشراق الروسي الذي نسعى دراسة تاريخه يمثل الجانب الأكاديمي للعلاقات الثقافية العربية الروسية. غير أن الحقبة التي سنركز عليها في دراستنا سبقتها فترات أخرى متعددة يمكن نعتُها بالمراحل العملية للتعارف المباشر وغير المباشر بين الروسيين والمسلمين عامة والعرب منهم خاصة، ويتعلق الأمر بفترات قديمة جداً. وتجدر الإشارة إلى أن الدين الإسلامي ليس جديد العهد في البلاد الروسية، فلقد عُرف فيها وانتشر في عدد من جهاتها قبل انتشار المسيحية بها. ويرجع تاريخ دخول الإسلام إلى عدد من المناطق الموجودة حالياً ضمن جمهورية روسيا الفيديرالية إلى فترات زمنية متفرقة كانت أولاها حين تم فتح بلاد الداغستان[1] في القوقاز في عهد خلافة عمر بن الخطاب وتلتها فترات أخرى امتدت حتى القرن العشرين. وكان الإسلام ينتشر خلالها في مختلف الجهات - وخاصة في المناطق المعروفة حالياً باسم "الجمهوريات والجهات الإسلامية ذات الاستقلال الذاتي" وكذلك في سيبيريا - بطريقة سلمية بفضل الدعاة من علماء وتجار ومريدي الطوائف الصوفية وخاصة منها النقشبندية والقادرية.

وكان للدين الإسلامي وللمسلمين دور بالغ الأهمية في تاريخ روسيا وذلك منذ نشأتها مروراً بالإمارات السلافية الأولى ثم بالإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفييتي. وما زال الإسلام يؤثر بقوة في عصرنا على السياستين الداخلية والخارجية لجمهورية روسيا الفيدرالية الحالية. ويستطيع المهتم

(1) لم تكن بالطبع لداغستان آنذاك أية صلة بالقبائل السلافية عموماً والروسية منها على الخصوص.

بموضوع تاريخ الإسلام والمسلمين في هذه الربوع أن يجد ضالته بالرجوع إلى العديد من المؤلفات المتخصصة في علوم شتى كالتاريخ والحفريات والمسكوكات واللسانيات وغيرها من العلوم[2].

ومن المؤكد أن معرفة العرب للروسيين كانت لا بأس بها منذ أن اعتنق الإسلام بعض القبائل التي كانت تقطن مناطق مجاورة لبلاد الروس. وأهم هذه القبائل "البُلغار" وهم من أصل تركي اعتنقوا الإسلام في القرن التاسع الميلادي، وكانوا يسكنون على طول ضفتي نهر "الڤولگا".

فمن خلال شعب البُلغار هذا كان العرب يستقون بعض الأخبار عن القبائل الروسية، ومن المؤكد كذلك أن الصلات الأولى بين العرب والروس يرجع عهدها إلى العصر العباسي الأول حين كان بعض التجار من بغداد يقصدون البلدان السلافية للاتجار بها. ومن المعروف أن أول وصف عربي للبلغار والخزر والروس كتبه أحمد بن فضلان[3] في رسالته المشهورة «الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ»[4].

---

(2) للمزيد من المعلومات حول الإسلام في روسيا، انظر على سبيل المثال:

-A. Bennigsen et Ch. Lemercier - Quelquejay. Les Musulmans oubliés. L'Islam en Union Soviétique, Petite Collection Maspéro, Paris, 1981.

-A. Bennigsen et Ch. Lemercier - Quelquejay. Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, Mouton, 1960.

-Amir Taheri, Islam/ U. R. S. S. La Révolte de l'Islam en U. R. S. S. Traduit de l'anglais par J. Lahana, ed. Tsuru, Paris, 1990.

- كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1988، الطبعة الحادية عشرة.

- روبيرت لاندا، الإسلام في تاريخ روسيا، دار النشر "الأدب الشرقي" ران، موسكو، 1995، (بالروسية).

- محمد السيد غلاب وحسن عبد القادر صالح ومحمود شاكر، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، الرياض، 1979.

- عبد الرحيم العطاوي، نفض غبار النسيان عن بعض أمجاد شعب تتارستان، مجلة "التاريخ العربي"، العدد الثاني، 1997، صص. 217-229.

(3) هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد، مبعوث الخليفة المقتدر إلى ملك البلغار (921-922م).

(4) طبعت رسالة ابن فضلان في بيروت، انظر: رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ/ 921م. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور سامي الدهان، مكتبة الثقافة العالمية، بيروت، 1987، الطبعة الثانية، 208 ص.

1- من هم الروسيون القدامى؟

قبل متابعة الحديث عن العلاقات المباشرة وغير المباشرة التي جمعت عبر القرون الماضية العرب بالروس، نرى أنه من الواجب أن نعطي نظرة ولو سريعة عن أصل الشعب الروسي وعن تاريخه ومعتقداته...

يشكل الروسيون أهم فرع لمجموعة بشرية كبيرة تعرف تحت اسم "السلاڤيين". وهم يقطنون في الوقت الحاضر جزءاً مهما من شرق ووسط وجنوب أوروبا، وكذا منطقة من آسيا. وكانت قبائل أسلافهم القدامى تتنقل داخل منطقة شاسعة من أوروبا بين نهر "الدنييپر" (Dniepr) وشمال "الڤولگا" (Volga) و"أوكا" (Oka) شرقاً، ونهر "أودرا" (Odra) ثم نهر "الألب" (Elb) غرباً، وبحر البلطيق شمالا ومنطقة "الكاربات" (Carpattes) جنوباً، ثم سكنوا بعد القرن الخامس الميلادي شبه جزيرة البلقان[5]. ولقد ذكرهم المؤرخون الأقدمون تحت اسم "ڤينيدي" (Venedi) أو "ڤينيتي" (Veniti)[6]، ثم عرفت هذه القبائل "بالسلوڤين" (Slovenes). كما عُرفت إحدى أهم فرقهم باسم "الروس". ونجد هذا الإسم في الكتابات العربية أول مرة عند أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذَبَه (المتوفي عام 300هـ) في كتابه «المسالك والممالك» حيث يقول عنهم: «فأما مسالك تجار الروس وهم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي[7] فيعشرهم صاحب الروم وإن ساروا في "تنيس"[8] نهر الصقالبة مروا بخَمْليج مدينة الخزر فيعشرهم

= وتجدر الإشارة إلى أن الخزر هم شعب من جنوب أوروبا الشرقية تقلب على عدد من الأديان قبل أن يستقر في اليهودية، وقد أسسوا خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين دولة قوية في مناطق الڤولگا السفلى وبحر آزوف.

(5) عبد الرحيم العطاوي، اللغات السلافية، مجلة "البحث العلمي"، عدد 20-21، يوليوز 1972، يونيو 1973، ص. 52-53.

(6) Amir Taheri. Islam / URSS. La Révolte de l'Islam en URSS, ed. Tsuru, Paris, 1990, p. 32.

(7) هو البحر الأسود.

(8) هو نهر "الدون" (Don).

صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جُرْجان[9] . . . وربما حملوا تجارتهم من جُرْجان على الإبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدّعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية . . . »[10].

وإذا كان يصعب الوقوف على المعنى الأصلي لكمة "الروس" فإن "سْلوڤن" قد تكون مشتقة من كلمة "سلوڤا" (slovo) أي "الكلمة"، ويكون إذاك معناها «الناس الذين لهم ملكة الكلام» في مقابل "الأباكم" (nemtsy)[11] وهو الإسم الذي كانوا ولا زال الروس يطلقونه على جيرانهم الجرمانيين الذين لا يستطيعون التفاهم معهم بالسلاڤية. غير أن اسم "سلوڤين" صار يطلق فيما بعد لا على مجموع هذه القبائل، لكن على البعض منهم فقط. أما الإسم العام الذي عرفوا به فهو "السلاڤيون"، وهي الكلمة المشتقة من "سْلاڤا" (slava) ومعناها "المجد"، فيكون معنى كلمة "سلاڤيون" إذا "الأمجاد" أو "أصحاب المجد".

يرجع عهد أول الوثائق المكتوبة عند السلاڤيين إلى فترة اعتناقهم الديانة المسيحية الأورثودوكسية التي كانت تابعة آنذاك لبيزانطة. فانطلاقا من هذه الفترة ظهرت الكتابة عندهم. ولقد وضع أسسها الأخوان "كيريل" (Kiril) و"ميفوديا" (Mefodia)[12] اللذين أوفدهما إمبراطور القسطنطينية إلى السلاڤيين لتعليمهم الدين الجديد. والجدير بالذكر أن الأبجدية الجديدة التي بقيت تعرف حتى الآن باسم "كيريليتسا"[13] (Kyrilitsa) وضعت على أسس الحروف اليونانية وأن تسميتها مشتقة من اسم أحد واضعيها وهو

---

(9) هو بحر قزوين.

(10) انظر الصفحة 154 من كتاب المسالك والممالك لأبي القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذَبه . . . حققه دوگويي (M. J. De Goeje) وقدم له بالفرنسية ووضع له معجماً وفهرستين. طبع بهولاندا (بريل Brill) عام 1889.

(11) اسم "النامْسا"، وهو البلد الجرماني المعروف في أوروبا (Autriche)، هو في نظرنا، نفس الإسم الروسي نامتسي (Nemtsy) أي "الأباكم". وقد يكون دخل اللغة العربية عن طريق اللغة التركية التي أخذته بدورها عن الروسية.

(12) يعرفان في اللغات الأوروبية بـ"سيريل" (Cyril) و"ميثودي" (Methodie).

(13) كيريليتسا (Kirilitsa) تعرف في اللغات الأوروبية بـ"cyrillique"، من اسم "Cyril".

"كيريل" . غير أنه كانت للسلاڤيين القدامى أبجدية أخرى كانت تعرف باسم "گلاگوليتسا" (Glagolitsa)[14]، وهي من ابتكارهم، لكنها لم تكن تستعمل إلا في بعض الكنائس. وسرعان ما توقف استعمالها بسبب صعوبة كتابتها.

تنقسم اللغات السلاڤية حاليا إلى ثلاثة فصائل كبيرة، هي :

1- الفصيلة السلاڤية الشرقية التي تنتمي إليها اللغات الروسية والأوكرانية والبيلاروسية.

2- الفصيلة السلاڤية الجنوبية التي تنتمي إليها اللغات البلغارية والماقدونية والصربية والسلوڤينية والكَرْواتية.

3- الفصيلة السلاڤية الغربية، وتنتمي إليها اللغات التشيكية والسلوڤاكية والپولونية[15].

ولقد احتفظت الفصيلة الأولى وجل لغات الفصيلة الثانية بالأبجدية السلاڤية "كيريليتسا"، بينما اختارت الفصيلة الثالثة الأبجدية اللاتينية. وترجع أسباب هذا الاختيار إلى عوامل دينية، ذلك أن شعوب "پولونيا" و"تشيكيا" و"سلوڤاكيا" اعتنقت الدين المسيحي الكاثوليكي، فترتب عن هذا الاختيار ربط علاقات دينية وثقافية وثيقة بين هذه البلدان والڤاتكان وكذا مع بعض شعوب أوروبا الغربية، وخاصة منها اللاتينية.

من المؤكد الآن أنه في الوقت الذي بدأ فيه الإسلام ينتشر في مناطق آسيا الوسطى، كان الخزر - وهم شعب يدين باليهودية ويقطن شرق أوروبا الجنوبية - يسعون إلى توسيع مناطق نفوذهم إلى الغابات المجاورة التي كانت تسكنها قبيلة سلاڤية كان يطلق عليها اسم "روس"[16].

---

(14) "گلاگوليتسا" مشتقة من الفعل السلاڤي القديم "گلاگولاتي" (Glagolati) ومعناه: تكلم.

(15) عبد الرحيم العطاوي، اللغات السلاڤية، ص. 54-55.

(16) Amir Taheri, Islam / URSS, p. 31.

في النصف الأخير من القرن التاسع الميلاي اتحد أمراء المدينتين السلاڤيتين الرئيسيتين "نوڤگورود" (Novgorod) و"كييف" (Kiev) وكوّنوا أول دولة روسية موحدة يرأسها الأمير "أوليگ" (Oleg). وكان من الأهداف المستعجلة التي رسمتها لنفسها هذه الدولة الجديدة التحرر من حكم الخزر وتمتين السيطرة على شعب البُلغار المجاور. وهي أهداف تحققت في أقل من قرن، وبتحقيقها تحول الاهتمام إلى مناطق أخرى في الجنوب والجنوب الشرقي كان يسكنها العديد من القبائل المنحدرة من أصل تركي وإيراني(17). وبدأ، منذ هذا التاريخ، فصل جديد من الصراعات الدموية الذي استمر عدة قرون كانت من أسبابه الرئيسية محاولة الروسيين توسيع مجال نفوذهم على حساب هذه القبائل تارة، وتارة أخرى دفاعهم عن أرضهم وتصديهم لغزوات جيرانهم. ولم يكن هذا التوسع، في بدايته، رغبة من الروسيين في المغامرات أو الطموح إلى تشييد إمبراطورية، بل كان الدافع الأساسي إلى خوض هذه الحروب ظروفهم الحياتية والمناخية الصعبة التي كانت تجعل نتائج كل عمل فلاحي غير مضمونة. فدفعتهم هذه الظروف القاسية إلى البحث عن أراض أخصب في مناطق بعيدة ذات مناخ ألطف(18).

بدأت الدولة الروسية الجديدة "روس الكييفية" (Kievskaya Rus) التي كان مقر حكمها في مدينة "كييف" تبحث لنفسها عن دين رسمي من بين إحدى الديانات السماوية التي اعتنقتها جل الشعوب المجاورة. وهكذا طلب رئيسها، الأمير "ڤلاديمير" (Vladimir) من ملوك وأمراء عدد من البلدان أن يبعثوا إليه برسل ليحدثوه عن دينهم حتى يتمكن مع باقي الأمراء الروسيين من اختيار أحد هذه الأديان ليتخذه دينا رسميا للبلاد قصد توحيدها أكثر وتعزيز شرعية الحكم بها. إلا أن الروسيين في هذه الفترة لم

(17) نفسه، ص. 32.

(18) يتحدث بإسهاب عن بعض هذه الحروب أقدم مؤلف أدبي روسي، وهو كتاب يجهل مؤلفه، وعنوانه "حكاية كتيبة الأمير إيگور" (Slovo o polku Igorovi) الذي قد يكون ألف خلال القرن الثاني عشر الميلادي.

يكونوا يجهلون تماما أهم تعاليم هذه الديانات، فهم - كما سبق وأشرنا إلى ذلك - كانوا على اتصال مستمر مع الخزر اليهود، كما كانوا على اطلاع على مضمون الدين المسيحي الأورثودوكسي في بيزنطة والكاثوليكي عند جيرانهم في الغرب. أما الدين الإسلامي فلقد تعرفوا عليه من خلال شعب "البُلغار".

ولقد اختار الأمراء الروسيون، وعلى رأسهم "ڤلاديمير"، المعروف في الكتابات العربية القديمة باسم "بولْمير"، الدين المسيحي في شكله الأورثودكسي البيزنطي. وقد يكون هذا الأمير اعتنق الإسلام، ثم ارتد عنه إلى المسيحية كما جاء في بعض المخطوطات. تقول الدكتورة مكارم الغمري عن هذا الحدث: «... ثمة مخطوطة يرجع تاريخها إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي (حوالي 1113م) وتعد من أقدم الأدبيات الروسية المكتوبة، وهي "قصة السنوات الغابرة"، وفيها نتعرف على قصة الأمير ڤلاديمير الذي اعتلى الحكم في روسيا عام 980م، واعتنق الإسلام ثم ارتد عنه إلى المسيحية، التي صارت فيما بعد ديانة رسمية لروسيا...» [19].

ولا نرى أهمية في الوقوف عند الأسباب المتداولة التي رجحت هذا الاختيار، وهي أقرب ما تكون إلى الخرافات. والحقيقة أن هذا الاختيار كانت له أبعاد سياسية واقعية... [20] غير أنه ترتب عنه كثير من العواقب، أهمها أن روسيا انعزلت عن باقي أوروبا الكاثوليكية وأصبحت تمثل العدو الأول في آسيا المسلمة. فالأوروبيون كانوا يرون فيها بلدا أسيويا غريبا عنهم، في حين أصبح المسلمون يعتبرونها قلعة متقدمة لأوروبا المسيحية داخل بلدانهم الإسلامية [21]...

---

(19) د. مكارم الغمري، مؤثرات عربية إسلامية في الأدب الروسي، سلسلة "عالم المعرفة"، عدد 155، الكويت، نوفمبر 1991، ص. 31. يتعلق الأمر بالقصة المعروفة تحت عنوان:
"Povest vremennykh let".

(20) A, Taheri., Islam / URSS, p. 35.

(21) نفسه، ص. 36.

2- الحرب والسلم في العلاقات بين الروس والمسلمين:

كانت المنطقة على موعد مع أحداث خطيرة قلبت الموازن كلها وغيرت الخريطة السياسية وتركت فيما بعد بصماتها واضحة في نفوس شعوبها. إنه الغزو المغولي - التتري الذي قضى على جميع المملكات والإمبراطوريات القائمة آنذاك في كل من الصين وأوكرانيا وروسيا وآسيا الوسطى والشرق الأوسط.. ونعتقد أنه لا داعي لتكرار ما آلت إليه هذه المناطق من العالم من خراب على أيدي هؤلاء الغزاة.

لكن الأمر ما لبث أن تغير حين اعتنق الإسلام خان الأسرة الذهبية "بركة خان" عام 1256م. وتبعه جنده وشعبه فيما بعد ليصير الإسلام الدين الرسمي لدولتهم عام 1312م. فانقلبت الصورة حتى صار ألد أعداء الإسلام دعاة له وأشد المتحمسين لنصرة تعاليمه... فعرفت مدينة "سراي"، وهي حاضرتهم على ضفتي نهر "الڤولگا"، ازدهارا كبيرا وتكاثرت فيها المساجد والمدارس الدينية. كما أنه كانت لدولتهم علاقات جد متينة مع الشرق العربي في المجالات السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية[22].

كانت أول هزيمة روسية أمام الجيوش المغولية التترية عام 1233م، بالقرب من نهر "كالكا"، ثم تلتها هزائم أخرى، ففي الفترة الممتدة من 1237 إلى 1241م. قام الغزاة بالهجوم على أغلب الأقاليم الروسية ونهبوا مدنها وقراها... كما أن مدينة "كييف" وهي مقر حكمهم قد تم إحراقها عن آخرها... واستمر الاحتلال المغولي التتري أزيد من قرنين اثنين عرف خلالهما سكان البلاد جميع أنواع الذل والاحتقار والاضطهاد.

وكانت هذه العوامل مجتمعة سببا في إذكاء حقد الروسيين على أعدائهم المغوليين والتتريين، ومن خلالهم على الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية. وتحت تأثير هذه المشاعر صار العديد من الروسيين يعتقدون

---

(22) انظر حول هذا الموضوع على الخصوص:

- أمين الخولي، صلات بين النيل والفولجا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، في كتاب «أعمال المؤتمر العالمي الخامس والعشرين للمستشرقين»، (موسكو 9-16 غشت 1960)، ج. 2، دار النشر الشرقية، موسكو، 1963، صص. 5-8.

بأن الإله جعل من بلادهم قلعة مسيحية ضد الإسلام، واستغلت بعض الاتجاهات في الكنيسة هذا الوضع وظلت تذكي نار العداء والحقد. فترسخت هذه المعتقدات في الأوساط الشعبية وبقيت حية عبر القرون خاصة بعد فتح القسطنطينية وانتقال مركز الكنيسة الأورثودوكسية إلى موسكو. ولقد تطورت هذه الأطروحات عند الحركات القومية السلاڤية. ونجد اليوم، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، أن عددا من التنظيمات السياسية والثقافية ترتكز بالأساس على هذه المعتقدات. وتجدر الإشارة إلى أنه، ابتداء من سنة 1450 صارت مدينة "قازان" التترية أهم القلاع الإسلامية التي تقف في وجه أوروبا المسيحية، وهي كما كان يعتبرها المسلمون «النجم الساطع الذي يحارب ظلمات الغرب المسيحي»[23]. وبعد تفكيك الدولة التترية وتحولها إلي إمارات ضعيفة أخذت الجيوش الروسية تحت قيادة "إيڤان" الثالث، منذ الربع الأخير من القرن الخامس عشر، تهاجم عددا من المناطق الإسلامية على طول نهر الڤولگا كما أن بعض وحداتها استطاعت أن تصل إلى جهات من سيبيريا[24]. ولم تكن الدولة الروسية الصاعدة ترغب في إظهار قوتها لجيرانها فحسب، بل كانت تخطط في ذات الوقت لاحتلال الأراضي التترية الشاسعة وإبعاد أهلها أكثر ما يمكن عن روسيا والانتقام منهم عن أزيد من مائتي سنة من القهر والعبودية. ولقد تأتت لها فرص كثيرة للانتقام أولاً ثم للتوسع فيما بعد وكانت البداية خلال القرن السادس عشر وفي مرحلتين أساسيتين:

- المرحلة الأولى عام 1552 عندما استطاعت الدول الروسية بقيادة "إيڤان" الرابع - المشهور باسم "إيڤان گروزني" أي المُرعب والمُخيف - أن تحتل أولاً "قازان" وأن تبيد جل سكانها، ثم عام 1556 "أسترخان" ومنطقة الڤولگا الجنوبية بأكملها، والوصول بالتالي إلى الجزء الشرقي الشمالي لبحر قزوين.

(23) Amir Taheri, Islam / URSS..., p. 61.

(24) نفسه، ص. 66.

- المرحلة الثانية، لما تمكن الجيش الروسي من الوصول إلى سلسلة جبال "الأورال" واجتيازها والقضاء على الدولة الإسلامية المعروفة باسم "خانة سيبير" (سيبيريا) عام 1598 [25].

ولقد بدا واضحا منذ بداية القرن السادس عشر أن سياسة الدولة الروسية تسعى إلى تحقيق هدفين رئيسيين اثنين، هما: 1- الزحف دون توقف بداخل أراضي المسلمين المجاورة وابتلاعها الواحدة بعد الأخرى بضمها إلى روسيا، 2- تنصير الأمم المغلوبة و"ترويسهم"، وفي حالة رفضهم أو مقاومة من طرفهم يتم القضاء عليهم جسديا [26].

ومنذ ذلك العهد انطلق الزحف الروسي نحو الشرق والجنوب والجنوب الشرقي وبقي مستمرا طيلة قرون، وبدأت في الجنوب وخاصة في شبه جزيرة القرم بعض المواجهات بين الروسيين والمسلمين وتزايدت فيما بعد لتشمل شمال القوقاز في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر في عهد الإمبراطور "بطرس" الأول. ومعلوم أن الدين الإسلامي دخل هذه الجبال في فترات متفاوتة، وكان الداغستانيون سباقين لاعتناقه وذلك خلال العقود الأولى لظهوره، أما الشيشانيون فلم يبدؤوا الدخول فيه إلا في القرن السابع عشر. وكانت تلك المناطق تخضع بشكل أو بآخر للنفوذ الفعلي أو الروحي للدولتين المسلمتين المجاورتين - إيران وخاصة تركيا - وأخذت هاتان الدولتان تتخليان تدريجيا عن مسلمي تلك الربوع بعد الهزائم التي منيت بها جيوشهما في سلسلة من الحروب منذ أن احتلت روسيا شبه جزيرة القرم وضمتها إلى ترابها عام 1783 . ففتح لها الباب لأول مرة لتنفذ إلى البحر الأسود وعبره إلى البحر الأبيض المتوسط [27]، كما فُتح لها الباب على مصراعيه، خاصة بعد هزيمة أخرى للأتراك عام 1792، لحشد جيوشها في القوقاز قصد غزو المنطقة برمتها. لكن المهمة لم تكن هيّنة، ذلك أن القوقازيين المسلمين تصدوا، وبدون مساعدة عسكرية من

---

(25) A. Bennigsen et Ch. Lemercier - Quelquejay. Les Musulmans oubliés, p. 17.

(26) Amir Taheri, Islam / URSS..., p. 8.

(27) نفسه، ص. 82.

الخارج، للجيش الروسي القوي وقاوموه في حروب دامت عشرات السنين على امتداد القرن التاسع عشر بأكمله. وقد شارك في هذه المعارك إلى جانب روسيا محْميُّوها المسيحيون القوقازيون وخاصة منهم أهل جورجيا وأرمينيا. وكان المسلمون في هذه الربوع يؤمنون دوماً بأن الجيوش الروسية لم تكن، وهي تهاجمهم، تخوض حرباً كلاسيكية باسم روسيا وعظمتها فحسب، بل أن عملياتها العسكرية تدخل في إطار مخطط أوروبي مسيحي شامل يهدف إلى القضاء نهائياً على الدين الإسلامي في جميع أنحاء العالم، لذا فإنهم كانوا يرون في التصدي للغزو الروسي - المسيحي والجهاد في سبيل نصرة الإسلام والاستشهاد من أجله - واجبا مقدسا لا غبار عليه[28].

ولا بد من تأكيد الدور الطلائعي الذي قامت به الطرق الصوفية في الحياة اليومية العادية وكذلك في الحروب التي دارت رحاها في القوقاز على امتداد القرن التاسع عشر. فقد كانت هذه الطرق وخاصة منها الطريقة النقشبندية تتزعم المعارك وتؤطر المقاومة. ولقد جاء المرشدون والمريدون النقشبنديون الأوائل في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من آسيا الوسطى إلى القوقاز حيث توطدت دعائم طريقتهم وترسخت تعاليمهم بصفة نهائية في أوساط جل المسلمين في شمال القوقاز مع بداية القرن التاسع عشر[29].

إن الحروب التي خاضتها روسيا في القوقاز كانت طويلة ودامية. وكانت البداية عام 1782 حين تجمع عدد كبير من المقاتلين في جبال الداغستان تحت قيادة الإمام منصور أوشورماه وهاجموا عددا من القلاع العسكرية الروسية. وفي عام 1783 انتصروا في معركة كبيرة أخرى. وقام الإمام منصور بعد ذلك بدعوة جميع مسلمي القوقاز للجهاد وخوض حرب شاملة ضد الغزاة. ولم يستجب لهذا النداء إلا القليل وخاصة أهل الشيشان وكذلك بعض القبائل الإنكوشية التي سبق للبعض منها أن اعتنق الإسلام.

(28) نفسه، ص. 88.
(29) نفسه، ص. 96.

واستمرت الحرب حتى عام 1791 ، وهي السنة التي أُسِر فيها الإمام منصور بعدما حوصر في إحدى القلاع العثمانية التي لجأ إليها لإعادة تنظيم فصائله المقاتلة في انتظار المساعدات التركية التي لم تصل إليه (30).

وكانت روسيا، في مواجهاتها مع إيران قد استطاعت سنة 1809 ثم عام 1828 أن ترغم هذه الأخيرة على التخلي عن مواقع نفوذها في القوقاز الجنوبي وخاصة في شيراوان (آذربايدجان الحالي)، ثم فرضت عليها فيما بعد عام 1854 الاعتراف بسيادة الإمبراطورية الروسية على الشاطئ الشمالي لبحر قزوين الذي أصبح في نهاية القرن التاسع عشر بحرا روسيا تتحكم فيه الإمبراطورية بعسكرها وتجارها (31).

بعد تخلي إيران عن نفوذها في القوقاز عادت روسيا لمواجهة تركيا التي كانت قد تخلت لها بدورها عن شبه جزيرة القرم عام 1783 . وكانت المواجهة هذه المرة عام 1828 بعيداً عن المنطقة، ذلك أن الحرب دارت في البلقان. ومن أغرب نتائج هزيمة تركيا أنها تنازلت عن مصالحها في بلاد الشراكشة في القوقاز لفائدة الإمبراطورية الروسية. فرفض الشراكشة هذا الوضع الجديد وهاجر جلهم إلى خارج وطنهم. وتقول بعض الإحصائيات أن حوالي 60٪ منهم تركوا بلدهم إما عن محض إرادتهم وإما مرغمين. أما الباقون فلقد اختاروا مقاومة الجيوش الروسية التي تكبدت الكثير من الخسائر البشرية والمادية في تقدمها البطيء داخل التراب الشركيشي (32). ويعتبر الأمير حاجي بارزاق دكماه آقا أحد أبرز قادة المقاومة الشركيشية ضد الزحف الروسي في منتصف القرن التاسع عشر.

أما الداغستان، وبعد الانتفاضة التي عرفتها البلاد في أواخر القرن الثامن عشر، بقيادة الإمام منصور، فإنه كان منذ عام 1824 على موعد مع سلسلة من الأحداث التي أثرت كثيراً وبشكل مستمر على مستقبل جميع

---

(30) نفسه، ص. 88.

(31) نفسه، ص. 94.

(32) نفسه، صص. 94-95.

المسلمين بداخل الإمبراطورية الروسية. ولقد سبقت الإشارة إلى أن الطريقة النقشبندية كانت منذ بداية القرن التاسع عشر قد توطدت ركائزها في كل من الداغستان والشيشان. وقام عام 1825 أحد مرشديها، وهو غازي محمد الگمْراوي، بالدعوة للجهاد ضد الغزاة. واستمرت المناوشات مع الجيش الروسي عدة سنوات حتى برز على الساحة العسكرية الإمام شامل الگمْراوي الداغستاني (المولود بقرية گمْره عام 1798) بعد انتصار ساحق على الروسيين في إحدى قلاعهم عام 1831. وبعد بضعة شهور تقدمت فيالق روسية قوامها 10.000 رجل معززين بآلاف المرتزقة الجورجيين فحاصرت القلعة التي تحصن فيها شامل و500 من المريدين المحاربين الذين قتلوا عن آخرهم ولم ينج منهم سوى اثنين كان أحدهما شامل. وفي عام 1834 اختير هذا الأخير إماماً وأميراً للمؤمنين. وحاول الإمام الجديد تنظيم الشأن العام المدني والعسكري في المناطق التابعة له، فعين عددا من النواب لتمثيله في جميع الجهات في كل من الشيشان والداغستان، وسن نظاما ضريبيا مبنيا على أساس الزكاة كما أنه حاول إقامة علاقات دبلوماسية مع عدد من الدول كإيران وتركيا ومصر وانگلترا. وهكذا استطاع بعبقريته الخارقة أن يجمع حوله جميع مسلمي القوقاز وأن يحقق انتصارات باهرة في كثير من المعارك، كما أنه استطاع أن يصل عام 1840 إلى شاطئ بحر قزوين وأن يبسط سيطرته على هذه المنطقة الاستراتيجية. وكانت للإمام ومقاتليه فيما بعد انتصارات متعددة أخرى نذكر منها على الخصوص المعركة التي خاضوها عام 1847 في منطقة تسمى "غَرْغَبيل" حيث سحقوا جيشاً روسياً قويا مكوناً من آلاف الجنود ومجهزاً بأحدث الأسلحة الخفيفة والثقيلة، فاستطاع الإمام التوغل في عمق الأراضي الشيشانية.

وخلال الحرب الروسية - التركية (1853-1856) في شبه جزيرة القرم حاول الإمام شامل أن يفتح جبهات جديدة ضد روسيا لإضعافها بتشتيت قواها، فناشد عدداً من الدول الإسلامية الدخول بجانبه لفتح جبهة جديدة في الداغستان قصد طرد الجيش الروسي من القوقاز والتوغل في منطقة

الڤولگا الجنوبية لتحرير "أسترخان" في مرحلة أولى ثم قازان من بعد[33]. لكن هذا المشروع بقي حبراً على ورق ولم يلق الاقتراح أي رد فعل.

ونعتقد أنه لم يكن لهذا الاقتراح أن يتبلور إلى واقع لأن الإمام شاملٍ - وهو القائد الديني والسياسي والعسكري المحنك - لم يكن يمثل خطراً على روسيا وحدها بل ربما على جميع الأنظمة الضعيفة والهشة في البلدان الإسلامية المجاورة، فمن غير المستبعد إذن أن تكون هناك تحالفات غير معلنة بين الروس وعدد من تلك الأنظمة للحيلولة دون تمكن الإمام من الخروج عن نطاق القوقاز الشمالي، كما أن المصالح السياسية لكل دولة إسلامية كانت في بعض الأحيان تتلاقى ومصالح دول غير إسلامية ضد دولة إسلامية أخرى. والتاريخ غني بمثل هذه الحالات. ولا ننسى أن روسيا مثلاً ساندت وآزرت الدولة العثمانية في حربها ضد محمد علي باشا في مصر[34]. أضف إلى ذلك ما عُرف عن العلاقات التركية الإيرانية من عداوة وتطاحن قبل وبعد وصول الروس إلى القوقاز.

أخذ المخطط الحربي الروسي في القوقاز يتغير منذ أن تم تعيين الأمير "بارياتينسكي" عام 1853 نائباً للإمبراطور في المنطقة. فبدأ الجيش يتجنب المواجهات المباشرة مع المقاتلين ويركز اهتماماته بالأساس على تشييد الطرق عبر الجبال والغابات متقدما ببطء كبير لكن بثبات وسط الأراضي الشيشانية[35]. واستطاع بعد بضع سنوات حصار الإمام شامل عدة مرات كانت آخرها في شهر غشت من عام 1859، وهو التاريخ الذي استسلم فيه بعد مفاوضات أجراها مع الأمير "بارياتينسكي" حول مستقبله الشخصي ومستقبل جنوده وكافة السكان المسلمين[36].

ولا بد من الإشارة إلى أن الإمام استُقبل من طرف السلطات العليا الروسية بكثير من الحفاوة والتكريم. وهذا ما جاءت به عدة شهادات وخاصة منها تلك التي وردت في كتاب "بارقة السيوف الداغستانية في

(33) نفسه، صص. 95-96-97-98.

(34) لاندا، الإسلام في تاريخ روسيا، ص. 101.

(35) Amir Taheri, Islam / URSS...., p. 98.

(36) نفسه، ص. 99.

بعض الغزوات الشاملية" للقاضي محمد طاهر القراخي[37] الكاتب الخاص للإمام الذي رافقه خلال سنوات المحنة من عام 1851 إلى غاية 1858. يقول القاضي عن اللحظات الأولى بعد الاستسلام: «... وصل شمويل[38] وعياله إلى جبل گاهال وأنزلوهم بجوار السردال[39] في خيمة فاخرة جداً، وبها من البُسط وسائر الفُرش الجيدة النفيسة والبهاء شيء كثير لا يُعرِب عنها ناطق بفم، وأحضروا لهم في تلك الساعة طباخاً مسلماً... وقدموا لهم أطعمة ناعمة وفواكه مختلفة لذيذة في أواني الذهب والفضة...»[40] ويعد المؤلف فيما بعد الهدايا التي قدمت للإمام ولسائر أفراد أسرته ويقول في آخر تعداده: «... وفروة للإمام نفسه... وهذه الفروة كانت على السردال فخلعها له مبالغة في الإكرام...»[41] واقتيد الإمام بعد ذلك إلى منفاه داخل الأراضي الروسية في عربة «السردال التي لم يُرَ مثلها في روسية»[42]. ولما وصل مدينة "كييف" استقبله الإمبراطور ألكساندر الثاني الذي جاء لحضور الاستعراض العسكري والمناورات الفخمة التي تنظم كل سنة في هذه المدينة. ويقول القاضي محمد طاهر عن هذا اللقاء: «... وخلاصة كلامه (أي الإمبراطور) عند الملاقاة: «طبْ نفساً، إنك لا تندم بالقدوم علي، فصار الأمر أحسن مما قال...»[43].

وكان الإمبراطور يسعى من خلال هذه الحفاوة وهذا التكريم إلى

(37) محمد طاهر القراخي، بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملية، حقق النص في أصله العربي الأستاذ بارابانوف كما كتب له مقدمة باللغة الروسية ووضع له فهارس، منشورات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، موسكو - لينگراد، 1946.
أشرف على هذا العمل كراتشكوفسكي الذي كتب له مدخلاً.

(38) يردُ في مختلف الكتابات تارة شامل وتارة أخرى شمويل، والمقصود هنا نفس الشخص وهو الإمام شامل الذي يدور الحديث حوله.

(39) لم أتأكد من المعنى الصحيح لهذه الكلمة، غير أن المقصود منها هو القائد العام للجيش الروسي.

(40) محمد طاهر القراخي، بارقة السيوف الداغستانية...، ص. 223.
لم يكن المؤلف ضمن الوفد الذي استسلم. وهو في الصفحات الأخيرة من كتابه يروي عن بعض أفراد الأسرة الشاملية الذين كانوا حاضرين وخاصة منهم صهر الإمام السيد عبد الرحمن بن جمال الدين الحسيني القبدي الغازي غموقي مؤلف كتاب حول سيرة الإمام عنوانه "خلاصة التفصيل عن أحوال الإمام شمويل".

(41) بارقة السيوف...، ص. 224.

(42) نفسه.

(43) نفسه، ص. 225.

هدفين: أولاً، إظهار عظمة الإمبراطورية الروسية في مجال العلم والرقي والفنون الحربية...، ثانياً، أن تصل إلى الشعوب المسلمة في القوقاز أخبار قائدهم وإمامهم وهو يعيش موقراً ومكرماً في منفاه. وكان الهدف من كل هذا أن يتيقن الجميع في القوقاز بأن الدولة الروسية القوية لا تتنكر للوعود التي تعطيها وأنها تحترم مقدسات الشعوب الإسلامية. ولقد أعطت هذه السياسة ثمارها في الأوساط المسلمة[44].

واستمرت الحفاوة وتزايد التكريم في كل المدن التي حل بها الإمام مروراً ب"كييف" و"سان بيترسبورگ" و"موسكو" وأخيراً في مكان إقامته - مدينة "كالوگا" - وهي عاصمة الإقليم الذي يحمل نفس الاسم والذي يجاوره إقليم موسكو في الشمال. وقضى الإمام شامل معظم سنوات المنفى في هذه المدينة ثم رحل إلى "كييف" التي استقر بها إلى غاية 1869 وهي السنة التي سُمِح له فيها بمغادرة الإمبراطورية، فرحل إلى الشرق العربي مروراً بتركيا. وتوفي الإمام شامل عام 1871 في المدينة المنورة بعدما أدى فريضة الحج[45].

بعد استسلام الإمام شامل انضمت مجموعات من مقاتليه إلى صفوف المرشد كونتا حاجي كيشييف رئيس الطائفة القادرية، واستمر هؤلاء في رفضهم الاحتلال الروسي لكن بأشكال أخرى غالبا ما كان يغلب

(44) انظر على سبيل المثال:

- ما جاء على لسان صهر الإمام المذكور أعلاه في الصفحة 237 من كتاب "بارقة السيوف الداغستانية..." : «... غير أني لما تذكرت قانون رجالنا في تكفيل الأساري يقشعر جلدي وينقبض طلاقة وجهي خجلاً مما نراه هنا».

- وكذلك ما ورد في رسالة أبي الإمام الشيخ جمال الدين إلى ابنه شامل في الصفحة 239 من نفس الكتاب: «... فقد سمعنا عظم رحمه (أي الإمبراطور) وإحسانه إليكم بالنعم الكثيرة مع كونكم من المسيئين إليه كيف عامل معكم بالإنعام، فإذا كان هذا مع المسيئين إليه كيف يكون صنعه للمحسنين... فيجب عليكم وعلينا الشكر على نعمه والدعاء له بالخير كل وقت بازدياد جاهه لأن من لم يشكر الخلق لا يشكر الخالق وشكر المنعم واجب كما لا يخفى عليكم والسلام...».

(45) توجد صورة للإمام شامل مأخوذة في سويز بمصر صحبة الأمير عبد القادر الجزائري ونائب ملك مصر محمد سعيد وفيردينان لوسيبس، انظرها بعد الصفحة 192 من كتاب: "Vincent Monteil, Les Musulmans soviétiques, ed. Seuil, 1982" وجاء في الكتاب أن الصورة مأخوذة عام 1863. وهذا غير صحيح، ذلك أن الإمام لم يغادر روسيا إلا عام 1869. ومعلوم أن شامل توجه عام 1870 إلى شبه الجزيرة العربية واستقر بها حتى توفي عام 1871. فالصورة مأخوذة إذا خلال عام 1869.

عليها الطابع السلمي. وتجدر الإشارة إلى أن "الإنكوش"، وهم جيران الشيشانيين والداغستانيين، اعتنقوا كلهم الدين الإسلامي بصفة نهائية على يد الطائفة القادرية في المدة الممتدة ما بين 1850 و1865 [46].

في عام 1877 قامت الطائفتان النقشبندية والقادرية بتوحيد صفوفهما تحت قيادة الشيخ النقشبندي محمد عبد الرحمن الشهراتلي قصد تكتيف المقاومة من جديد، غير أن الجيش الروسي كان آنذاك قد تمكن من الانتشار في جميع المناطق الجبلية، وهذا ما مكنه من الانتصار في ظرف بضعة شهور على المقاتلين القوقازيين وأسر أزيد من 6000 منهم تم نفيهم إلى سيبيريا [47]. وبقيت مع ذلك بعض جيوب المقاومة تعمل إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر. غير أنه يمكن القول بكل تأكيد إن هذه المرحلة من حروب القوقاز قد انتهت عام 1888. وبانتهائها لم يتوقف الزحف الروسي بل إن هذه الوضعية الجديدة فتحت الباب أمام الإمبراطورية الروسية لمتابعة زحفها من جديد وهذه المرة في اتجاه بلدان آسيا الوسطى المسلمة...

وإذا كان الحديث عن الزحف الروسي نحو المناطق الإسلامية المجاورة وما ترتب عنه من أحداث مأساوية في كثير من الفترات يستحق كل الاهتمام فإننا في هذه الدراسة سوف نركز بالأساس على بعض من جوانب العلاقات التي نادراً ما يتطرق إليها الباحثون العرب والتي كانت تجمع أحياناً وتفرق أحياناً أخرى بين الروسيين وجيرانهم التتر المسلمين. ويستطيع المهتم بتاريخ الشعوب الإسلامية في كل من القوقاز وشبه جزيرة القرم أن يجد ما يفيده بالرجوع إلى مختلف الكتابات حول العلاقات الروسية التركية والحروب شبه الدائمة التي دارت رحاها بين الدولتين الجارتين على مر العصور [48].

---

(46) Amir Taheri, Islam / URSS..., p. 101.

(47) نفسه، ص. 102.

(48) صدر مؤخراً كتاب جامع وفي غاية الأهمية يتناول بالدرس موضوع الإسلام والمسلمين في روسيا، ويتعلق الأمر ب:

- روبيرت لانْدا، الإسلام في تاريخ روسيا، دار النشر "الأدب الشرقي"، ران، موسكو، 1995، (بالروسية) (R. G. Landa - Islam v istorii Rosii...).

إن معرفة تاريخ الشعب التتري وعلاقته بالشعب الروسي والتوتر شبه الدائم الذي ميز هذه العلاقات لتفتح الباب أمام الباحث في شؤون المسلمين في هذه المنطقة لفهم عدد من أحداث الفترات اللاحقة. لذا نرى أنه من الضروري التوقف عند بعض المراحل التي سوف تنير لنا عددا من المسائل التي تدخل في صميم موضوع دراستنا.

إن سقوط عاصمة "خانة التتر" "قازان" في يد الروس سنة 1552 شكل نقطة تحول سياسية ودينية في غاية الأهمية بالنسبة لشرق وجنوب شرق أوروبا والمناطق المجاورة لها. ذلك أن هذه المدينة كانت أهم مركز اقتصادي وثقافي وروحي لشعب التتر. يقول عنها المؤرخ السوفييتي "فيرسوف" (Firsov) : « ... كانت مدينة "قازان" مركزاً ثقافياً مهماً يعيش في رخاء... وبعد احتلالها تم القضاء على تراث قديم جمعه منذ قرون كل من التتر والبُلغار، ولم يتم القضاء على المآثر والممتلكات فحسب، بل على الإرث الروحي كذلك، إذ أن عدداً كبيراً من التتر قتلوا في مختلف المذابح... »[49].

والغريب في الأمر أن هذا الحدث التاريخي البارز لم ينل من لدن الباحثين المسلمين ما يستحقه من عناية، ذلك أن سقوط "قازان" في أقصى الشمال الشرقي من أوروبا لا يقل أهمية، على الصعيدين السياسي والديني، عن سقوط غرناطة في أقصى الجنوب الغربي من أوروبا نفسها قبل نصف قرن من الزمان[50]. ولقد تبع الغزو العسكري احتلال منظم للأراضي التترية وأبعد المسلمون من "قازان" ومن جميع الأراضي الخصبة التي تم توزيعها في بداية الأمر وإلى حدود سنة 1555 على الروسيين من النبلاء أو من المبعدين منهم إلى هذه المناطق، ثم على الأديرة وعلى أسقفية "قازان" التي صارت تملك ما لا يقل على 400 قرية[51]. واستمر زحف

---

(49) فيرسوف، ماضي تتريا، قازان، 1926، ص. 25، (بالروسية).
Firsov, N., Prochloye Tatarii.

(50) Amir Taheri, Islam / URSS..., p. 77.

(51) Bennigsen, A., et Quelquejay, Ch. Les Mouvements nationaux chez les musulmans de Russie, Mouton et C°, 1960, p. 22.

المعمرين إلى هذه المناطق خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر. وكان السكان الأصليون يفرون من أراضيهم ويتوجهون صوب جبال "أورال" و"سيبيريا" أو "تركستان" والقوقاز. وهكذا أصبح عدد الروسيين المعمرين يمثل في أواخر القرن الثامن عشر أزيد من 52٪ من مجموع السكان. وبقيت هذه النسبة دون تغيير يذكر[52]. ورغم الحياة القاسية التي كان يعيشها التتر المبعدون عن أوطانهم فإنهم كانوا في تشردهم يعملون دوماً على نشر الدين الإسلامي في جميع المناطق التي كانوا يلجؤون إليها.

بإزاء احتلال الأراضي كان الروسيون ينهجون تجاه السكان الأصليين سياسة "التذويب" أو القضاء عليهم ماديا ومعنويا. ولبلوغ هذا الهدف فإنهم كانوا يعتمدون على خطتين أساسيتين، ترمي الأولى إلى القضاء التام على ما تبقى من ملاكي الأراضي من التتر بإصدار العديد من المراسيم للتضييق عليهم وإرغامهم على ترك أراضيهم، أما الخطة الثانية فكانت تسعى إلى تنصير المسلمين وإرغامهم على الدخول في الدين المسيحي الأورثودوكسي. ولقد أخذت هذه الحملة بعداً جديداً في عهد الإمبراطور "بطرس الأول" (1672-1725). ففي سنة 1720 اتخذت الحكومة الروسية عدداً من الإجراءات الإدارية الرامية إلى تشجيع عملية التنصير. وهكذا تقرر إعفاء كل من تنصر من التجنيد ومن أداء الضرائب مدة ثلاث سنوات، أما الدعوة الإسلامية فلقد منعت[53] منعاً قاطعاً، وهدد المسلمون بالإعدام وبتهديم بيوتهم وما تبقى من مساجدهم في حالة مخالفة هذه القوانين.

تزايد الاضطهاد في عهد الإمبراطورة "آنا" (Anna) (1693-1740). ففي سنة 1731 أحدثت "مؤسسة المنصَّرين الجدد" التي ظلت تعمل مدة 33 سنة على إرغام الناس بشتى الوسائل على الدخول في النصرانية، ولقد قام أسقف "قازان" في الفترة ما بين 1738 و1755 بهدم ما لا يقل على 418

---

(52) نفسه، ص. 23.

(53) نفسه، ص. 25.

مسجداً من بين الـ 536 التي كانت توجد بالمنطقة[54]. لكن نتائج هذه الحملات كانت هزيلة باعتراف المؤرخين الروسيين أنفسهم ولم تتمكن من إيقاف الدعوة الإسلامية.

بعد أزيد من قرنين من الاضطهاد والقمع اتضح جليا بأن المسلمين ليسوا على استعداد للاستسلام وأنهم متشبثون غاية التشبث بعقيدتهم[55]. فتقرر تغيير السياسة المتبعة تجاههم بإرضاء عدد من مطالبهم لاستقطابهم... وكان ذلك إبان حكم الإمبراطورة "كاتيرينا" الثانية (Ekaterina II). ومن بين الإصلاحات التي طبقت نذكر على سبيل المثال:

1- إغلاق "مؤسسة المنصَّرين الجدد".

2- السماح للمسلمين بالسكنى في كافة المدن والقرى التترية وتشييد مسجدين اثنين في "قازان".

بعد ثلاث سنوات من هذه الإجراءات صدر مرسوم إمبراطوري يُمنح بمقتضاه المسلمون في جميع أرجاء البلاد الحرية الدينية المطلقة بما في ذلك حرية بناء المساجد والمدارس الدينية، وعين عام 1782 مفتي مسلمي روسيا وأسست "الجمعية الروحية للمسلمين" سنة 1788[56].

ولا بد من الإشارة إلى أن عهد الإمبراطورة "كاتيرينا" الثانية شكل بالنسبة للمسلمين فترة انفراج وتفتح نسبيين، ففي عهدها تم تشجيع وتوسيع استعمال الحرف العربي في الطباعة، وكان أول من أسس مطبعة عربية في روسيا هو بطرس الأول عام 1722، وفي عهدها كذلك تم في "سان

---

(54) نفسه.

(55) يقول الأستاذ "گريگورييف" في أحد أبحاثه: «إن جمعية التوراة" التي أسست سنة 1818 في "قازان" لم تستطع تنصير سوى تتري مسلم واحد خلال ربع قرن!". انظر: "مواد حول تاريخ تتريا"، قازان 1948، ج 1، ص. 234، (بالروسية) (Materialy po istorii Tatarii).

(56) Bennigsen, A. et Qulquejay, Ch. Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, p. 27.

بيترسبورگ" طبع القرآن الكريم في أصله العربي. وكان ذلك عام 1778[57]. وبهذا العمل تكون روسيا بطاقاتها المسلمة قد سبقت عدداً كبيراً من الدول الإسلامية في هذا الميدان. ويرجع الفضل لمسلمي روسيا عامة وللتتر خاصة في نشر الطباعة العربية في أوطانهم من خلال ما طبعوه من كتب وجرائد ومجلات...[58] غير أن الاختصاصيين العرب في تاريخ الطباعة العربية لا يعيرون، للأسف الشديد، أي اهتمام يذكر لهذه المرحلة الروسية الرائدة.

وكان الهدف الرئيسي من الإصلاحات التي قامت بها "كاتيرينا" الثانية هو، أولا: استقطاب المسلمين والتقليل من الدور الديني والسياسي المتزايد الذي كانت تلعبه الدولة العثمانية التي كانت في حروب شبه دائمة مع الإمبراطورية الروسية، وثانيا: الدخول إلى أسواق آسيا المسلمة وهي أسواق كانت محرمة على "الكفار"، فلم يكن يستطيع الدخول إليها من مجموع سكان روسيا سوى التتر المسلمين. وهكذا أصبح رؤساء القبائل التترية وسطاء يصدرون الصناعة الروسية الفتية إلى هذه المناطق ويستوردون المواد الأولية ومنتوجات إمارات التركستان[59]. ومنح هؤلاء الوسطاء جميع التسهيلات لتمكينهم من النجاح في مهمتهم، فتشكلت بالتالي طبقة من التجار الأغنياء التتريين الذين صار لهم نفوذ كبير في مجموع الدولة الروسية الواسعة الأطراف. وظل نفوذهم قويا خلال ما يقرب من قرن ونصف القرن، والمثير للانتباه أنه كلما تقدمت وترسخت الإدارة الروسية في زحفها نحو الشرق والجنوب الشرقي في المناطق التي لا تدين بإحدى الديانات السماوية لم يكن يرافق هذا الزحف تنصير سكانها بل كان يحدث عكس ذلك، إذ أن جميع قبائل هذه المناطق كانت تعتنق الإسلام.

---

(57) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي...، ص. 53، أعيد طبع المصحف الكريم في أصله العربي في سان بيترسبورگ في 1789 و1790 و1793 و1796 و1798.

(58) أنشئت مطبعة قازان العربية عام 1802.

(59) نفسه، ص. 28.

وسرعان ما أعطت هذه الإصلاحات نتائجها، فرجع جل المنصرين إلى الدين الإسلامي وشيد العديد من المساجد والمدارس وقامت نهضة ثقافية إسلامية عارمة استمرت أزيد من قرن ونشطت خلالها المطبعة العربية التي أنتجت أعداداً هائلة من الكتب الدينية وغيرها باللغتين التترية والعربية، وحسب بعض الإحصائيات فإن مطبعة جامعة قازان وحدها طبعت في الفترة الممتدة ما بين 1853 و1859 أزيد من 326.700 نسخة من القرآن الكريم ومن مختلف الكتب الدينية، كما أنها أصدرت خلال عشر سنوات (من 1854 إلى 1864) أكثر من مليون كتاب[60].

وكان من أبرز النتائج التي أتت بها النهضة والإصلاحات أن البورجوازية التترية أصبحت مع مطلع القرن العشرين تتزعم وتسير مجموع الحركات الوطنية المسلمة داخل روسيا.

غير أن التعليم الديني في "قازان" وغيرها من المدن التترية لم يساير هذه النهضة واحتفظ في مضمونه وشكله على النظام القديم الذي ميز التعليم في باقي الدول الإسلامية آنذاك. ويرجع السبب في ذلك، إلى أن الساهرين على التدريس كانوا كلهم من خريجي معاهد إمارة بخارى التي كانت تمثل أكبر مركز إسلامي في آسيا الوسطى. ومعلوم أن التعليم بمدارسها لم يعرف أي تغيير يذكر منذ قرون. فبالرغم من انتشار الكتاتيب والمدارس الدينية العليا في بلاد التتر فإن التعليم بها بقي متحجراً ولم يعرف أدنى إصلاح لمسايرة العصر.

كان عدد كبير من الروسيين ذوي الاختصاص في التاريخ وتاريخ الديانات يعتقدون بأن التقدم الاقتصادي الذي عرفته هذه المنطقة وما تبعه من تكوين بورجوازية قوية متفتحة على الغرب وعلى حضارته سوف يؤدي إلى التقليل من دور الدين في حياة التتر، غير أن ما حدث هو العكس تماما. فكان كلما حصلت قفزة نحو التقدم الاقتصادي رافقها تشبث أكثر

---

(60) A. Bennigsen et Ch. Quelquejay, Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, p. 25.

بالدين الإسلامي وتمسك أمتن بتعاليمه. ولقد كتب المؤرخ الروسي الكبير "بارتولد" سنة 1912 في محاولة منه لتفسير هذه الظاهرة أنه بالرغم من توغل الحضارة الأوروبية داخل المجتمع التتري (...) فإن الشباب المسلم بقي متشبثاً بعقيدته تماماً مثلما كان أسلافه متشبثين بها (...) لأن شعبا محروماً من استقلاله السياسي لا يجد سوى دينه للتعبير عن وحدته الوطنية...[61]

في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حصلت منافسة قوية بين البوجوازية الروسية التي بدأت تتوفر لديها إمكانيات جديدة في الإنتاج والمواصلات وبين البورجوازية التترية التي لم تتح لها الفرصة للاستفادة من هذه الإمكانيات. فما كان على السلطات الإدارية إلا التدخل لحماية مصالح الروس، ولم تتردد في الرجوع إلى الأساليب القديمة التي كان العمل جارياً بها قبل عهد الإمبراطورة "كاتيرينا" الثانية والقاضية إلى الحد من النفود الاقتصادي والثقافي للتتر في مناطق آسيا الوسطى. وفي ميدان التعليم سنت سياسة جديدة للتنصير تزعمها أحد أساتذة الأكاديمية الدينية بقازان "إيلمينسكي"[62] (Ilminskiy) الذي أسس سنة 1863 "المدرسة المركزية للمعلمين التتر المنصَّرين" وعددا آخر من المدارس المماثلة لها. وكانت الدروس تلقن بها باللغات المحلية التي وضعت لها حروف سلافية مأخوذة من الأبجدية "كيريلتسا" مكان الحروف العربية التي كانت تكتب بها من قبل. وكانت خطة "إيلمينسكي" التي تبنتها السلطات الإدارية رسميا عام 1870 تسعى إلى تحقيق هدفين اثنين، أولهما: تكوين طبقة من المثقفين المحليين مكونة من المنصَّرين وحدهم، لأنه، حسب رأي "إيلمينسكي"، «لا يوجد خطر بالنسبة لروسيا أكبر من خطر المسلم المثقف»[63]. وسوف يعهد فيما بعد إلى هذه

---

(61) نفسه، ص. 31، الهامش 3.

(62) انظر حوله: في الفصل الخاص بالدراسات الاستشراقية حول الدين الإسلامي، وكذا الصفحات التي خصصناها للاستشراق في مدينة قازان في الفصل الثاني من دراستنا هذه.

(63) A. Bennigsen et Ch. Quelquejay. Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, p. 34.

الطبقة بمهمة تنصير إخوانهم في القومية الذين يدينون بالإسلام، أما الهدف الثاني فإنه يتمثل في إحداث ما أسماه "إيلمينسكي" باللغات الأدبية لشعوب المنطقة، واستبدال الحروف العربية بالحروف السلاڤية لكتابتها، وذلك، قصد محو كل تأثير ثقافي - ديني إسلامي في حياة هذه الشعوب والقضاء على السجور الرابطة بينها وبين باقي الشعوب الإسلامية والمتمثلة في اللغة والكتابة العربيتين.

وتجندت الكنيسة كذلك، للقيام بحملات مناهضة للإسلام وتنصير السكان. وعهد إلى مديرية التبشير التابعة لأسقوفية "قازان" بتنفيذ هذا العمل. ويبدو حسب إحصائيات مختلفة أن هذه الحملة نجحت، إلى غاية 1905، في تنصير عدد كبير من الناس. وهو الأمر الذي شكل خطراً على القومية التترية وعلى استمرار وجودها ككيان له مميزاته الخاصة. لكن الأمور تغيرت بشكل مثير للانتباه منذ عام 1905، وهي السنة التي عرفت صدور مرسوم تمنح بمقتضاه الحريات الدينية في الإمبراطورية الروسية. فاشتدت مقاومة المسلمين وضعفت الحملات التنصيرية. فبدأ المنصَّرون يعودون تدريجيا إلى الإسلام[64].

كان لهذه الحملات التنصيرية أثر عميق في نفوس المسلمين الذين أحسوا بالخطر الذي كان يتربص بهم ويهدف إلى "ترويسهم" والقضاء عليهم نهائيا[65]. واشتد عداؤهم للنظام الروسي ووقفت النخبة المثقفة المسلمة وقفة رجل واحد لتدافع عن حقوق قوميتها. ولقد كتب المفكر التتري "علم جان ابراهيموف" عن الوضعية السائدة آنذاك، يقول: «... إن السياسة القيصرية جنت من حملاتها عكس ما كانت تصبو إليه: فعوض استقطاب الناس صار الناس يبغضون كل ما هو روسي...»[66].

---

(64) الإحصاء الرسمي في الاتحاد السوفييتي سنة 1939.

(65) انظر على سبيل المثال: «روسيا، أحوال المسلمين في الممالك الروسية»، وهو مخطوط يوجد في ملحقة مكتبة معهد الاستشراق التابع للأكاديمية الروسية بسان بيبرسبورگ ويحمل رقم A1219، وهو يعرض لأحوال المسلمين في روسيا القيصرية. ويرجع تاريخ نسخ المخطوطة التي يجهل مؤلفها إلى عام 1902، وقد كتبت هذه الدراسة باللغة العربية في مدينة "قازان".

(66) علم جان إبراهيموف، التتر في ثورة 1905، قازان، 1926، ص. 27، الترجمة الروسية.
A. Ibragimov. Tatary v revolutsii 1905 goda.

ومنذ تلك الفترة بدأ التفكير بجدية في إيجاد أنجع السبل للتخلص من هذه الوضعية المزرية، وظهرت بوادر حركات إصلاحية تتفق كلها على ضرورة الالتحاق بمستوى الركب العلمي الذي وصلت إليه أوروبا عامة وروسيا خاصة، وارتفعت أصوات تنادي بالتخلي عن "العربة الأسيوية" وركوب "الآلة الميكانيكية الأوروبية"[67].

وهكذا اتخذ المسلمون قرارات لإصلاح نظام التعليم المأخوذ عن النظام المحافظ لمدارس بخارى الذي ظل يمثل النموذج الذي يجب على جميع المدارس التترية الاقتداء به. وفي عام 1880 بدأ تطبيق مشروع الإصلاح الذي تقدم به إسماعيل باي عسبرالي (1851-1914) الذي كان يهدف في واقع الأمر إلى توحيد صفوف المسلمين قاطبة داخل الإمبراطورية الروسية. وكان شعاره: «وحدة اللغة، وحدة الفكر، وحدة العمل»[68]. وكان إسماعيل باي يعرض أفكاره في مقالاته التي كتبها خلال 25 سنة (منذ 1883) على صفحات جريدته "ترجمان" التي كانت تصدر باللغة التترية وبحروف عربية في مدينة "باختشيساراي" بشبه جزيرة القرم.

وقد واكبت إصلاحات التعليم هذه حركة إسلامية تجديدية واسعة النطاق. ويعتبر الشيخ شهاب الدين المرجاني (1818-1889) صاحب العديد من المؤلفات[69] خير ممثل لهذا الاتجاه التجديدي ومتمم العمل الذي بدأه من قبله الشيخ أبو نصر الكرساوي (1783-1814) صاحب

---

(67) A. Bennigsen, et Ch. Quelquejay, Les Mouvements nationaux..., p. 36.

(68) نفسه، ص. 39.

(69) من أهم مؤلفاته نذكر على سبيل المثال:

- عرفة الحواكين، تاريخ آسيا الوسطى من القرن الرابع إلى القرن السادس الهجريين، قازان، 1864. (باللغة العربية).

- مستفاض الأخبار في أحوال قازان وبُلغار، ج 1، قازان، 1865، ج 2، قازان، 1900. (بالتترية).

- وفيات الأسلاف في تحفة الأخلاف، في سبعة أجزاء، طبع منهم الجزء الأول فقط، قازان، 1883، (بالعربية).

مؤلف بقي مخطوطاً عنوانه "إرشاد العباد" . وأبو نصر هذا تتري الأصل، كان أستاذاً بإحدى مدارس بخارى، وهو أول من حاول القيام بإصلاحات في ميدان التعليم الديني. ولقد كانت محاولاته هذه سبباً في اتهامه بالبدعة، فحكم عليه بالإعدام. حدث هذا في عصر الأمير حيدر البخاري، ففر الشيخ الكرساوي من بخارى وعاد إلى بلاده حيث أسس مدرسة في قرية "كرسة" . وهنا قام رجال الدين المحافظون ضده واتهموه بالزندقة، فرحل إلى تركيا التي توفي بها. وقد خصه الشيخ شهاب الدين المرجاني بكتاب باللغة العربية عنوانه: "تنبيه أبناء العصر بتنزيه أنباء أبي نصر" .

إن الشيخ شهاب الدين المرجاني قام بنشاط ثقافي متميز وكرس جزءا كبيراً من حياته لإقامة الدليل على أن لا تعارض بين الدين الإسلامي والعلوم الحديثة، ويمكن تلخيص أفكاره حول التجديد في ست نقط هي:

أ- الاجتهاد حر بالنسبة للجميع.

ب- يجب التخلي عن التقليد الأعمى.

ج- يجب التخلي عن الكتب المحافظة القديمة في مجال الفكر.

د- يجب الاعتناء بتدريس القرآن الكريم والحديث وتاريخ الإسلام في المدارس.

هـ- المطالبة بالسماح للمسلمين بتدريس العلوم الحديثة واللغة الروسية في مدارسهم.

و- يجب الرجوع إلي جو صفاء الدين الإسلامي في مراحله الأولى والأخذ من الثقافة الإسلامية القديمة[70].

وتستحق هذه الحركات التجديدية عند المسلمين في روسيا أن ترصد لها دراسات وافية لما كان لها من أثر بالغ الأهمية لا على مستقبل

---

(70) Bennigsen, A. et Quelquejay, Ch. Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, p. 37-38.

الشعوب المسلمة داخل الإمبراطورية الروسية فحسب، بل على الحركات الإصلاحية التي عرفها العالم الإسلامي برمته وخاصة في الشرق العربي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما يستحق رواد هذه الحركات أن يهتم الباحثون بهم وبمؤلفاتهم وبنشاطهم الديني والثقافي والسياسي. وإضافة إلى أبي نصر الكرساوي وشهاب الدين المرجاني وإسماعيل باي الذين سبق الحديث عنهم يجب الإشارة كذلك إلى عبد القيوم الناصري (1825-1902) صاحب العديد من المؤلفات العلمية والتعليمية خاصة في ميدان العلوم اللغوية والمعجمية نذكر من بينها على الخصوص كتابه باللغة التترية "فواكه الجلساء" الذي طبع عام 1884 في قازان، وهو كتاب جامع للحكم والنكت والعادات. ولقد حاول بعض الباحثين السوفييتيين تصنيف عبد القيوم الناصري مع الكتاب المناهضين للإسلام، غير أن هذا الكلام بعيد كل البعد عن الحقيقة[71]. ولا بد كذلك من ذكر رائد آخر من رواد هذه الحركة الإصلاحية، ويتعلق الأمر بعطاء الله بايازيتوف (1846-1911) صاحب المجلة الإسلامية "نور" التي صدر عددها الأول عام 1905 في العاصمة سان بيترسبورگ، وهو أيضاً صاحب مشروع بناء مسجد في هذه المدينة ورئيس اللجنة التي جمعت التبرعات وسهرت على إنجاز المشروع بعدما تغلبت على العديد من العراقل الإدارية المصطنعة. وقد ترأس عطاء الله بايازيتوف تدشين هذه المعلمة الإسلامية الرائعة في شمال روسيا في حفل حكومي رسمي كبير حضره معظم الشخصيات الدينية والثقافية والسياسية في الإمبراطورية الروسية من المسلمين وغير المسلمين، وكان ذلك يوم 3 فبراير 1910. ولم يكن لهذا الجمع الهائل من النخبة الروسية أن يحضر هذا الحدث التاريخي لولا المكانة الرفيعة التي كان يحتلها صاحب المشروع داخل المجتمع الروسي[72].

(71) نفسه، صص. 38-39.

(72) انظر حول عطاء الله بايازيتوف على الخصوص:

- أخون: إمام ومدرس، في مجلة "وقيت"، العدد 1، سان بيترسبورگ، 1993، صص. 50-55. (بالروسية).

ولا بد من الإشارة إلى أن لهذا العالم المسلم المتفتح على عصره وعلى ثقافات الكثير من الشعوب وعلى تاريخهم العديد من المؤلفات، ولعل أهمها على الإطلاق كتابه باللغة الروسية "علاقة الإسلام بالعلم وبغير المسلمين" [73] الذي رد فيه بمنهجية علمية عصرية على افتراءات المستشرق الفرنسي "إيرنيست رينان" على الدين الإسلامي في مختلف كتاباته وخاصة منها "الإسلام والعلم" (1883).

لقد حاولنا في الصفحات الأخيرة التعريف ببعض رواد الحركات الإصلاحية عند المسلمين في روسيا [74]، هذه الحركات التي انطلقت قبل نظيراتها في العالم العربي بعشرات السنين، غير أن هذه الإشارات السريعة لا تعطي فكرة واضحة لا عنهم ولا عن العديد مَن أمثالهم، وهم جديرون، في نظرنا، بأن ترصد لهم دراسات وأبحاث متنوعة الجوانب للتعريف بهم وبكتاباتهم ونشاطهم الديني والدنيوي.

---

(73) عطاء الله بايازيتوف، علاقة الإسلام بالعلم وبغير المسلمين، مؤسسة "نور"، سان بيترسبورگ، 1906، الطبعة الثانية، (بالروسية).

(74) يوجد العديد من الكتابات حول هذه الحركات، وهي مكتوبة بمختلف لغات تلك المنطقة، غير أن جلها بالروسية. ويمكن للمهتم أن يرجع على الخصوص إلى آخر ما أُلّف في هذا الموضوع، ويتعلق الأمر بـ:

- يوسف أيدار نيلوفيتش، الفكر الفلسفي التتري في أواخر القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر (تطوره، توجهاته الرئيسية، ممثلوه)، أطروحة لنيل الدكتوراه (Doktor filosofskikh nauk)، نوقشت بمعهد الفلسفة التابع لأكاديمية العلوم الروسية، موسكو، 1998. (بالروسية)، (تحت الطبع).

وهذه الدراسة الشاملة تمتاز بعمق بحثها وتنوع وغزارة مصادرها ومراجعها، كما أنها تمتاز بمنهجها العلمي الصرف البعيد عن كل تأثير سياسي وعقائدي...

II- المؤثرات الحضارية العربية الإسلامية الأولى على حياة الروس

إن النظرة الوجيزة لتاريخ المنطقة التي حاولنا تسليط النور عليها قد مكنتنا من تصور نوع العلاقات التي كانت سائدة بين شعوبها. غير أن هذه العلاقات لم تكن تميزها دائماً الصراعات والمعارك الدموية. فلقد كانت تتخللها فترات سلام طويلة كان يزدهر فيها التبادل التجاري والحضاري، وكلما تحدثنا عن هذا التبادل الحضاري فإننا نجد أن قسطا وافراً منه يشمل الثقافة العربية حيث أنه يصعب فصله عن باقي الثقافة الإسلامية... وإذا كان العارفون بالأدب الروسي يعلمون بأن القرن التاسع عشر هو العصر الذي تجلى فيه بوضوح تأثير القرآن الكريم والمؤلفات الأدبية العربية، فإن الفترات السابقة تبقى مجهولة إلى حد بعيد. وبهذا الصدد تقول الدكتورة مكارم الغمري: «... وإذا كان القرن التاسع عشر بالنسبة للأدب الروسي هو ذلك العصر الذي انعكس فيه هذا التأثير بشكل جلي، فإن هذه المرحلة قد سبقتها مرحلة أخرى من التلقي والاستيعاب تبدأ في القرن التاسع الميلادي، وتمتد حتى القرن التاسع عشر، وعلى امتداد هذه القرون تمت عملية اكتناز للعناصر العربية (حضارية وإسلامية) وهي العملية التي مهدت لحدوث أهم حلقة في حلقات التفاعل الحضاري (التأثير والتأثر) والتي اتضحت بشكل خاص في إنتاج أدباء الحركة الرومانتيكية الروسية...»[1].

(1) الدكتورة مكارم الغمري، «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي»، سلسلة "عالم المعرفة"، عدد 155، الكويت، 1991، صص. 31-32.

وتمضي الدكتورة الغمري في حديثها عن المراحل التي مرت بها عملية التفاعل الحضاري بين العناصر العربية والأدب الروسي وتقسمها إلى ثلاث مراحل:

1- المرحلة الأولى: الاستقبال والتلقي من خلال الوسائط التالية:

- العلاقات التجارية.

- الرحلات: زوار الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، الرحالة، البعثات الدبلوماسية.

- الاستشراق العلمي.

- الترجمات.

- الصحافة.

2- المرحلة الثانية: الاستيعاب.

تفاعل بين العناصر العربية وظروف القرن التاسع عشر واحتياجات تطور الأدباء الروس.

3- المرحلة الثالثة: الانعكاس والتأثير.

تأثير واضح في أدب القرن التاسع عشر وبخاصة في إنتاج أدباء الحركة الرومانتيكية[2].

وعن هذه الفترات يقول العالم الروسي كراتشكوفسكي في كتابه "دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي": «... تمتاز المواد التي تراكمت عندنا تدريجياً حول العرب بتنوعها، ويمكن تقسيمها ودراستها من خلال ثلاثة محاور رئيسية، هي: 1- محور لغوي، 2- محور تاريخي ثقافي أو ديني - إسلامي، 3- محور أدبي صرف...»[3]. وسوف نتوقف عند أهم ما يميز كل واحد من هذه المحاور التي أفرزها "كراتشكوفسكي".

(2) نفسه، ص. 32.

(3) إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 14.

1- يتعلق الأمر بالنسبة للمحور الأول بالكلمات التي استعارتها اللغة الروسية من اللغة العربية في مختلف العصور، ومما لا شك فيه أن عدد الكلمات التي انتقلت مباشرة إلى الروسية قليل جداً، إذ أن العلاقات العربية الروسية نفسها نادراً ما كانت مباشرة ولم تكن متينة ومكثفة في أي وقت من الفترة التي نحن بصددها، بالرغم من أن العلاقات التجارية بين روسيا ودولة الخلافة العربية بدأت منذ القرن التاسع الميلادي، أي في الفترة التي تأسست فيها أول دولة روسية، وهي التي اتخذت مدينة "كييف" مقراً لحكمها. وكانت مواد التجارة آنذاك هي الفراء والعسل والحرير التي كانت تباع للشرق العربي مقابل عملات فضية عربية عثر على عدد كبير منها في أنحاء متفرقة من روسيا. ورغم كل هذا فإننا لا نجد سوى بعض الأخبار المتفرقة حول بعض العرب الذين أقاموا في روسيا مدة طويلة، كأخبار حول خياط بغدادي ماهر في القرن العاشر الميلادي(4) أو أخبار طبيب عربي يدعى "بطرس سيريانين" (أو "بطرس السوري") الذي اشتهر خلال القرن الثاني عشر لما كان يسكن مدينة "كييف"(5) التي كانت تعرف عند العرب آنذاك باسم "كُوَيْب".

وإلى هذا العهد يرجع تاريخ استعارة بعض المصطلحات الطبية وعدد من أسماء الأثواب "كمخيَّر" وكلمات عامة مثل "مثقال" و"ألماس"... غير أن جل هذه الكلمات كانت تدخل اللغة الروسية عن طريق لغات أخرى كالتترية ولغات شعوب آسيا الوسطى والقرم. ومعلوم أن هذه الشعوب تدين بالإسلام، وكانت لها بالتالي علاقات دينية وثقافية وتجارية متينة مع العالم العربي. وقد لعبت دور الوسيط بين العرب والروسيين في المجالين الثقافي والتجاري(6).

في نهاية القرن السابع عشر، بدأت تتدفق على اللغة الروسية، عن طريق اللغات الأوروبية، مجموعة كبيرة من المفردات العربية غطت

(4) ذكره ابن فضلان في رسالته، ص. 124.
(5) إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ...»، ص. 14.
(6) نفسه.

مختلف ميادين الحياة. والملاحظ أن الكلمات التي كانت تستعار في الفترات القديمة من العربية مباشرة غالبا ما كانت تحتفظ بحروفها الأصلية وتكون، من حيث نطقها، قريبة جداً من الأصل العربي، بينما كانت تشوّه الكلمات التي كانت تدخل عن طريق اللغات الأوروبية، كما أن بعض حروفها الأصلية كانت تضيع.

وفي هذا المجال كذلك، وخاصة بالنسبة لاستعارة كلمات الحياة اليومية، لا بد من الإشارة إلى الدور البارز الذي لعبه زوار الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين الذين كانوا يلقبون "بأصحاب النخلة" (Palomniki)، لأنهم كانوا يأخذون معهم عند عودتهم إلى وطنهم عروشا من النخل.

والجدير بالذكر أنه، رغم كثرة هؤلاء الزوار، فإن الكتابات حول هذه الرحلات قليلة جدا. ويرجع سبب ذلك إلى قلة انتشار التعليم في روسيا آنذاك [7]. ومن بين أصحاب هذه الزيارات الذين دوّنوا رحلاتهم نذكر على سبيل المثال: "الكاهن دانيل" (Igumin Dannil) و"أفاناسي نيكيتين" (Afanasi Nikitin) "وڤاسيلي" (Vasili) و"زوسيما" (Zosima) و"پوزنياكوف" (Pozniakov) و"إيگناتي سموليينسكي" (Ignati Smolenskiy) و"كوطوف" (Kotov) وغيرهم [8].

وهناك كتابات من نوع آخر لأشخاص مختلفي الهوية. وقد ساهمت هي كذلك في عملية الاستعارة اللغوية من العربية. ولعل "گيرييف" (Giryeev) و"دوروخين" (Dorokhin) أبرز ممثلي هذه الشخصيات. فالأول وهو أحد المثقفين البارزين في روسيا آنذاك، لقب بالمصري (مصيور - Misiour) لأنه قضى بعض الوقت بمصر خلال سنة 1493. وتكتسي الصفحات التي كتبها، رغم قلتها، أهمية كبرى لما تضمنته من معلومات

(7) ألكسيس بوغوليوبسكي، «رحلة السائح الروسي «دانيال»، إلى الأراضي المقدسة في أول عهد الصليبيين»، مجلة "المشرق"، عدد 9، 1926، صص. 641-648.

(8) انظر حول موضوع الرحالة الروسيين إلى البلدان العربية والإسلامية، المرجع أعلاه، وكذلك: - ب. دانتسيگ، «الرحالة الروس في الشرق الأوسط»، ترجمة وتعليق: الدكتور خزنه دار، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، 1981؛- إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ...»، صص. 15-20.

حول قصر السلطان في القاهرة ومقارنة معمار هذا القصر وقصر "الكريملين" في موسكو[9] . أما "دوروخين" فهو عسكري، سقط في أسر العثمانيين وقضى في الشرق حوالي عشر سنوات (1670-1680)، وقد ترك كتابا عنوانه "وصف الإمبراطورية التركية" . ويمثل هذا المؤلف مساهمة ثمينة في كتابة تاريخ هذه الدولة من لدن الروسيين. ويعطي المؤلف في كتابه وصفاً دقيقاً لمدينة القاهرة التي لم يخف اندهاشه أمام عظمتها وكثافة سكانها، كما يقدم وصفاً لعدد كبير من المدن العربية التي زارها مثل بيت المقدس والإسكندرية وأبو قير وطرابلس (الغربية) وتونس والجزائر وغزة وحيفا ودمشق وبيروت وحلب والموصل وبابل... وبحكم تخصصه العسكري فإن "دوروخين" أولى اهتماماً فائقاً بالجيش والمسائل العسكرية، وهي الموضوعات التي لم يسبق أن تطرق إليها رحالة من قبله[10].

2- أما المحور الثاني الذي تكونت من خلاله مجموعة من المعلومات حول العالم العربي عند الروس والمتعلق بالتاريخ والثقافة والدين، فبالإضافة إلى ما أسلفنا ذكره من كتابات، هناك مصدر أساسي مدون كان الروس يستقون منه معلوماتهم حول الدين الإسلامي، ويتعلق الأمر باللاهوت والمراجع التاريخية اليونانية البيزنطية التي بدأت تظهر في روسيا منذ القرن الحادي عشر. ومعلوم أن ما كان يكتبه اليونانيون والبيزنطيون، وهم أل أعداء الإسلام، لم يكن ليعطي صورة حقيقية أو قريبة من الحقيقة عن العرب والمسلمين. فجل كتاباتهم كانت عبارة عن تشويه وتحريف للحقيقة الدينية والتاريخية والحضارية. وهكذا تكونت عند الروسيين صورة خيالية عن الإسلام والمسلمين لا علاقة لها بتاتاً بالواقع[11] . وهذه الصورة المشوهة هي نفس الصورة التي نجدها عند باقي الشعوب المسيحية في بلدان أوروبا الغربية في ذلك العصر. وإذا ما أضفنا

(9) إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ...»، ص. 17.
(10) نفسه، ص. 19.
(11) نفسه، ص. 20.

إلي هذه الصورة ما كان الروسيون يكنونه من حقد وكراهية للشعب التتري، ومن خلاله للإسلام ولجيرانهم المسلمين الآخرين الذين كانوا دوماً معهم في صراعات ومعارك دموية، أمكننا أن نتنبأ بمصير دراسة الدين الإسلامي في روسيا وبما سوف يلحق بهذه الدراسات من تشويه على يد الروسيين كذلك.

من بين المؤلفات اليونانية الأولى المنقولة إلى اللغة الروسية نذكر على سبيل المثال "مدونة گريگوري أمارطول" (Grigori Amartol) التي ألفت في القرن التاسع الميلادي، وترجمت إلى اللغة السلاڤية القديمة في القرن الحادي عشر. وهذه المدونة التي تهدف إلى كتابة التاريخ العالمي إلى حدود عام 812م. تشتمل على كثير من المعلومات حول القبائل العربية إبان ظهور الإسلام وقبله. ويذكر مؤلفها النبي ﷺ ويسميه "بوخميت" (أو موخميت)، وأهم ما يسترعي البال هو أن هذا الاسم يختلف في الترجمة الروسية، ويقترب كثيراً، من حيث نطقه، إلى الاسم العربي الأصلي، فهو في هذه الترجمة "مخمد" وليس "بوخميت". وكما ذكرنا من قبل في سياق حديثنا عن موضوع الاستعارات اللغوية، فإنه لولا عدم وجود حرف الحاء في اللغة الروسية لكان هذا الاسم ينطق تماماً كما هو في الأصل العربي. وقد يعتبر البعض أن هذه المسألة هي من الجزئيات ولا تكتسي أهمية كبيرة. لكننا نعتقد أن مثل هذه الأشياء بالذات هي التي تثبت وجود علاقات مباشرة قديمة بين الروس والعرب قبل القرن الحادي عشر، ولو أننا لا نعثر على وثائق ودلائل تدعم هذا الافتراض إذا ما استثنينا تلك المعلومات التي سبق وأشرنا إليها والتي وردت عند كل من ابن خرداذبة في «كتاب المسالك والممالك» وابن فضلان في رحلته إلى بلاد البُلغار على طول نهر الڤولگا وكذلك الأخبار حول بعض التجار والأطباء العرب الذين قضوا بعض الوقت في مدينة "كييف" خاصة.

وإذا كانت "مدونة أمارطول" تهتم بتفاصيل العلاقات العربية البيزنطية، فإن جل المعلومات بها تبقى غامضة. وقد ازدادت غموضاً بعد

ترجمة الكتاب إلى الروسية، والخطير في الأمر أن هذه الترجمة أصبحت المصدر الأساسي لعدد كبير من الكتابات الروسية التي تناولت بالدرس موضوع الإسلام والمسلمين. فكانت استنتاجاتها بالطبع خاطئة وبعيدة كل البعد عن الحقيقة التاريخية والدينية. ومن أبرز مؤلفي مثل هذه الكتابات نذكر على سبيل المثال، لا الحصر، "ماكسيم گريك" (Maksim Grek) (1518-1556) الذي ذهب بعيداً في الشتم والقذف بالإسلام ونبيه في جميع مؤلفاته[12]، غير أنه يجب الاعتراف بأنه ظهر، في مرحلة لاحقة، نوع آخر من الكتابات التي حاولت الاقتراب شيئا ما من الحقيقة وسعت إلى تغليب المنطق في تناولها هذه الموضوعات. وكان ينتمي بعض مؤلفيها إلى فئة قليلة من المفكرين الروسيين الذين سبق لهم أن عاشوا فترة من الزمن داخل العالم الإسلامي. ونذكر من بين هؤلاء المفكرين "پيريسفييتوف" (Ivachko Peresvetov) وكذلك "كوسوي" (Feodosi Kosoy) الذي عاش في القرن السادس عشر والذي دافع في كتاباته على المساواة بين جميع الناس وبين جميع الديانات واللغات. ولقد لقيت أفكاره إقبالا في بعض الأوساط المثقفة الروسية. وبعد حوالي مائة سنة، تقريبا، أي في القرن السابع عشر كتب "پوسوشكوف" (Posochkov) مؤلفه "الفقر والثراء" الذي سار فيه على نهج "پيريسفييتوف" وأوصى بالأخذ من التشريع الإسلامي ما قد يفيد المجتمع الروسي[13].

وللمفكر "أندري كوربسكي" (Andriey Kurbskiy) مكانة خاصة في معالجة هذه المواضيع. فهو، رغم معارضته للإسلام، يضع عددا من تعاليمه في مرتبة أعلى من الكثير من تعاليم المسيحية[14]. والجدير بالذكر أن "كوربسكي" فر من إمارة موسكو عام 1563 خوفاً من القمع الذي كانت تمارسه الكنيسة على أصحاب الأفكار المتفتحة. ولقد قضى هذا المفكر ما تبقى من حياته في بلاد "ليتڤا" على شاطئ بحر البلطيق حيث

---

(12) نفسه، ص. 22.
(13) نفسه، ص. 24.
(14) نفسه، ص. 25.

توفي سنة 1583 . ويمثل "كوربسكي" ، في واقع الأمر، تحولاً مهماً في التعامل مع الإسلام والدراسات حوله. غير أنه لم يكن في استطاعته الوصول إلي ما يقارب حقيقة الأمور لأن جل المصادر والمراجع التي كان يعتمدها لم تكن سوى تلك الكتابات اليونانية البيزنطية ووليداتها التي جعلت من الشتم والقذف في الدين الإسلامي والمسلمين هدفها الأسمى.

تزايد اهتمام الروس بالإمبراطورية التركية وبالإسلام نتيجة تصاعد قوة الدولة العثمانية، ولم يكن لعظمة هذه الدولة أن يمر دون أن تسترعي اهتمام المفكرين والمؤرخين في بلدان أوروبا الغربية التي تكاثرت فيها المؤلفات التي تناولت بالدرس هذه الامبراطورية من جميع الجوانب. وكان لهذه الظاهرة الجديدة انعكاس ملحوظ على سير الحياة الثقافية في روسيا حيث بدأت تتنوع مصادر المعلومات حول الدولة التركية. ففي هذه الفترة أخذت تدخل البلاد كتب من أوروبا الغربية وخاصة من "پولونيا" و"هولاندا" . ولقد تم ترجمة البعض منها، ومن بين هذه المؤلفات التي تعد بالعشرات نذكر على سبيل المثال:

- "بلاط السلطان التركي" لمؤلفه "ستاروڤولسكي" (Starovolskiy) الذي يعتبر أول مفكر كتب عن سيرة العالم "كوپيرنيك" (Copernic). ولقد طبع هذا الكتاب في مدينة "كراكوڤيا" سنة 1646 وترجم فيما بعد إلى اللغة الروسية.

- "وصف مملكة الجزائر وتونس"، وهو ترجمة لكتاب طبع أصلا باللغة اللاتينية في ليدن عام 1634 تحت عنوان: "Turcici Imperii status. Acredit de regno Algeriano at que Tunetano Commentarius".

- "وصف فلسطين" لمؤلفه "أنسليم كراكوفسكي" (Krakovskiy). طبع هذا الكتاب باللاتينية عام 1512 وترجم سنة 1595 إلى البولونية، ثم إلى الروسية خلال القرن السابع عشر[15].

---

(15) نفسه، صص. 26-27.

3- أما المحور الثالث، الذي كان الروس القدامى، حسب كراتشكوفسكي، يتعرفون من خلاله على العرب فيتمثل في المؤلفات الأدبية العربية. ولم تكن بالطبع هذه الكتابات تصل إلى روسيا عن طريق الترجمة المباشرة، بل كانت تأتي عن طريق لغات أخرى كاليونانية. ولقد زاد الاهتمام بهذه المؤلفات إبان الاحتلال التتري الماغولي خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، رغم أن الدولة التترية الماغولية الأولى لم تكن لها اهتمامات تذكر في مجالات العلوم والفنون.

كان الروسيون يعرفون منذ القدم عدداً كبيراً من الحكايات العربية "كخبر الشيخ برلام وابن الملك يواصف" و"قصة حيقار الحكيم..." وخاصة كتاب "كليلة ودمنة" الذي قام البيزنطيون بترجمته من العربية إلى اليونانية خلال القرن الحادي عشر تحت عنوان "ستيفان وإخنلات" [16]، ثم انتقلت هذه القصص إلى اللغة السلافية القديمة في القرن الثالث عشر، ووصلت أخيراً إلى الروسية في القرن الرابع عشر. وكان لهذه الحكايات إقبال كبير في مختلف الأوساط. ولما بدأت حركة ترجمة الكتب الأوروبية الغربية في القرن الثامن عشر نقل الروسيون هذا الكتاب من اللغة الفرنسية، ولم يعد أحد في هذه الفترة المتأخرة يعلم بأن هذه الحكايات ليست سوى قصص "كليلة ودمنة" التي كانت شهرتها دائعة قديماً في روسيا الموسكوفية[17].

إن ظاهرة ترجمة القصص العربية إلى الروسية واقتباسها كانت منتشرة في هذه الفترة البعيدة، وشكلت أرضية لعدد كبير من الحكايات الشعبية الروسية[18]. أما الكتب الأدبية الكلاسيكية فإنها كانت شبه مجهولة في هذه الفترة، ولم يصل منها لروسيا سوى القليل، ككتاب "أمثال لقمان الحكيم" [19].

---

(16) نفسه، ص. 32.
(17) نفسه.
(18) نفسه.
(19) نفسه، ص. 33.

ولا بد من الإشارة كذلك إلى مرحلة مهمة من التاريخ الثقافي لمنطقة "نوفگورود" (Novgorod) بشمال روسيا. ويتعلق الأمر بفترة في نهاية القرن الخامس عشر تكونت فيها مجموعة من المفكرين المتفتحين كانت تعرف تحت اسم "مجموعة المرتدين" التي كان على رأسها الأمير "ميخائيل أوليلكوڤتش" (Mikhaïl Olelkovitch). وكانت هذه المجموعة تتعاطى دراسة الفلسفة، وقد استطاعت الحصول على مؤلفين عربيين في ترجمة عبرية، هما "سر الأسرار" و"مقاصد الفلاسفة" للغزالي. وقد وصل هذان المؤلفان إلى روسيا على يد مجموعة من الفلاسفة اليهود الذين أتوا من جنوب البلاد [20].

(20) نفسه، ص. 34.

III- بداية الاستشراق الروسي أو مرحلة تراكم المعلومات

بعد النظرة السريعة التي ألقيناها على التأثيرات الثقافية العربية على المجتمع الروسي إلى حدود القرن الثامن عشر، والتي سلطنا فيها الأضواء على بعض الفترات من العلاقات التي كانت تربط الشعب الروسي بجيرانه من الشعوب الإسلامية، بعد هذا كله قد يتساءل المرء عن الأسباب التي جعلت روسيا تتأخر عن القيام بدور طلائعي في أوروبا في ميدان الدراسات العربية الإسلامية خاصة وأن جزءاً من الشرق الإسلامي كان دائماً موجوداً بداخل الإمبراطورية الروسية التي توسعت، بعد تأسيسها على حساب دول إسلامية كدولة التتر بعد سقوط عاصمتها "قازان" سنة 1552 ، كما أن هذا الشرق وُجد فيما بعد في مستعمراتها في آسيا الوسطى والقوقاز، وهي بلدان بجوارها ولها معها حدود مشتركة، خلافاً لما كانت عليه الأمور بالنسبة للبلدان الأوروبية الاستعمارية الأخرى التي كان عليها قطع المسافات الطويلة للوصول إلى "ممتلكاتها" . فالإسلام وتعاليمه وتقاليده - عناصر حاضرة في هذه المناطق، واللغة العربية موجودة كذلك تتكلمها أقلية من أهل هذه البلدان ويستعملها الفقهاء والعلماء من رجال الدين والسلطة الذين كانوا يسهرون على تدريسها في المدارس والمعاهد . أضف إلى ذلك أن هذه المناطق الشاسعة كانت تلعب دوراً مهماً في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية داخل العالم الإسلامي، كما أنها، بحكم موقعها الجغرافي، كانت تقوم إبان أوجها وحتى بعد أفولها، بدور الوسيط بين الخلافة العربية ثم الدولة العثمانية من جهة والقبائل السلافية الأولى

ثم الإمبراطورية الروسية من جهة أخرى، وكانت هذه المناطق، بفضل الإشعاع الثقافي الذي تميزت به، تزخر بكنوز لا مثيل لها من المخطوطات الإسلامية، العربية منها وغير العربية، التي كانت في متناول كل مهتم بالشرق الإسلامي عامة والدراسات العربية خاصة. أضف إلى كل هذا أن شعوب المنطقة كانت تستعمل الحروف العربية لكتابة لغاتها ولم تستبدلها بالأبجدية السلافية - كيريلتسا - إلا مرغمة بعد الثورة البولشيقية وبالضبط في عهد "ستالين".

لماذا إذن لم تلعب روسيا دوراً مهماً في مجال الدراسات العربية إلا في فترة متأخرة رغم هذا المحيط الثقافي الإسلامي المميز؟

لعلنا سوف نتفق مع العالمين الروسيين "بارتولد" و"نيكيتين" في تفسيرهما لسبب هذا التأخر، فالأول يرى أنه كان بإمكان الاستشراق الروسي أن يخطو خطوات سريعة نحو التقدم، خاصة وأنه تتوفر لديه جميع المواد الضرورية لبلوغ أهدافه، ويأسف لكون العكس هو الذي حصل، ويرجع سبب ذلك إلى قلة الاهتمام بالدراسات حول الشرق عامة وقلة العاملين في حقلها، وكذلك لكون المناهج العلمية الغربية دخلت متأخرة إلى روسيا التي كان المستوى الثقافي بها منخفضاً[1]. ويعتبر "نيكيتين" أن النخبة في روسيا القديمة كانت تنظر إلى العالم الإسلامي والتركي "بعيون اليونانيين" (البيزنطيين) الذين لعبوا دوراً أساسياً في التكوين الديني والثقافي الروسي... بينما كانت النخبة الروسية العصرية المتشبعة بالأفكار الغربية ترى في كل فكرة آتية من آسيا إرثاً لفترة الاستعباد وللماضي الحزين لإمارة موسكو، هذا الإرث الذي يتعارض والأفكار الأوروبية. لذا فإن هذه النخبة لم تكن تشجع الاستشراق وتعتبر أنه على الروسيين أن يأخذوا ويتعلموا من أوروبا وليس من آسيا"[2].

(1) انظر المقدمة التي كتبها "نيكيتين" للترجمة الفرنسية التي أنجزها لكتاب «بارتولد»:
Barthold, V. V, La Découverte de l'Asie, Histoire de l'Orientalisme en Europe et en Russie, Traduit du russe et annoté par B. Nikitine, Payot, 1947, p. 12.
(2) نفسه.

ونعتقد من جهتنا أنه لم يكن ممكناً بتاتاً أن تدخل روسيا مجال الدراسات الإسلامية (وغيرها) رغم طاقاتها المسلمة الهائلة، وذلك لسبب بسيط، وهو تأخر الدولة الروسية آنذاك في جميع المجالات، كما أننا نعتقد أن مجرد التفكير في موضوعات علمية يقتضي أولاً وقبل كل شيء أن تكون الدولة متوفرة على أسس حضارية متينة. لذا فإن الاهتمام بالعلم عامة وبالدراسات حول الإسلام خاصة لم يبدأ إلا بعدما قام القيصر "بطرس" الأول بإصلاحاته العظيمة التي غيرت البنية الداخلية للدولة التي أخذت تتطلع تدريجيا إلى القيام بدور مهم على الصعيد العالمي. آنذاك بدأت فكرة الاستشراق تأخذ طريقها لتصبح إحدى ركائز استراتيجية الدولة. لكن الدراسات الأكاديمية الجادة لم تر النور إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

1- الاستشراق في عهد "بطرس" الأول:

لما قام الأمير "بطرس" (1672-1725) الذي أصبح فيما بعد يلقب "ببطرس الأول" أو "بطرس العظيم، قيصر الإمبراطورية الروسية" [3]، بزيارة إلى بلدان أوروبا الغربية قصد التعرف على منجزاتها العلمية والتقنية كانت الدراسات الاستعرابية، في هذا الوقت، قد وصلت مرتبة عالية وخاصة في هولاندا، وهو البلد الذي اجتذب الأمير أكثر من غيره.

بعد تولي "بطرس الأول" الحكم بدأت، لأول مرة في تاريخ روسيا، محاولات منظمة لتدريس اللغات الشرقية تدريسا رسميا. ففي عام 1716 صدر مرسوم «يقضي باختيار خمسة شبان من موسكو قصد إرسالهم إلى بلاد فارس لتعلم اللغات التركية والعربية والفارسية»[4]، وتلت هذا المرسوم مراسيم أخرى كانت تنصب كلها في هذا الاتجاه.

---

(3) ولد "بطرس" الأول في موسكو عام 1672 وتوفي بسان پيترسبورگ عام 1725، يعتبر مؤسس الدولة الروسية العصرية. أسس جيشا عصريا على النموذج الألماني، هزم جيوش السويد في الشمال وحارب مدة طويلة الدولة العثمانية في الجنوب، لكنه لم يستطع تحقيق حلمه في إيجاد منفذ إلى البحر الأسود.

(4) كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 41.

كان لأحد مستشاري بطرس الأول في قضايا الشرق، وهو الاختصاصي في الدراسات الشرقية "ديميتري كانتيمير" (Dimitri Cantémir) الفضل في بلورة اهتمام القيصر بالحضارة الشرقية عموماً والإسلامية منها خصوصاً. فلقد كتب هذا العالم مؤلفا باللغة اللاتينية حول الدين الإسلامي والدولة العثمانية عنونه "De Religione et statu Imperii Turcici"[5]. وقد قام "إلينسكي" (Ilinskiy) بترجمته إلى اللغة الروسية. لقد سلط "كانتيمير" «الأضواء في كتابه هذا على ظروف نشأة الإسلام، كما حاول شرح المخطط السياسي للأتراك الذين يوظفون الدين الإسلامي، حسب قوله، لمآربهم الخاصة. وكان الهدف الأساسي من وراء نقل هذا الكتاب إلى اللغة الروسية هو تعريف القيصر بالإسلام وتركيا بالذات»[6]. ويرجع الفضل كذلك للعالم "كانتيمير" إلى إحداث أول مطبعة تستعمل الحروف العربية في روسيا، وقد عرفت "بالمطبعة العائمة" لأنها كانت توجد بداخل باخرة كانت ترسو على مياه نهر "الڤولگا". وبدأت عملها سنة 1722 بطبع ما اصطلح على تسميته "بالمرسوم التركي" لبطرس الأول[7]، غير أن هذه المؤسسة لم يكتب لها الاستمرار في عملها، شأنها في ذلك، شأن العديد من مبادرات "بطرس" في الرفع من مستوى الاهتمام بالشرق. وبإنشاء هذه المطبعة تكون روسيا قد خطت خطواتها الأولى في مجال الاستشراق، ورسمت لنفسها عدداً من الأهداف، أهمها أربعة، وهي:

أولاً: إعداد أطر علمية روسية متخصصة في دراسة الشرق.

ثانياً: تأسيس معاهد لتعليم اللغات الشرقية ودراسة الحضارة الشرقية.

---

(5) نفسه، ص. 42.

(6) انظر: بيرتيلس، (D. E. Bertels) في مدخله إلى كتاب «المتحف الأسيوي»، ملحقة معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي»، منشورات أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي دار النشر «ناووكا»، موسكو، 1972، ص. 7، الهامش 11، بالروسية. (Bertels, D. E. Aziyatskiy Muziey).

(7) فرح سهيل، «الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية»، مجلة الفكر العربي، 1983، عدد 31، ص. 234.

ثالثاً: جمع المخطوطات والمسكوكات الشرقية...

رابعاً: ترجمة الكتابات الأوروبية حول الشرق، والشروع في تحقيق المخطوطات الشرقية الموجودة في روسيا[8].

وأرسل "بطرس" مجموعة من الشبان إلى إيران لتعلم اللغات الفارسية والتركية والعربية، ثم أمر بإنشاء متحف خاص بالحضارة الشرقية. وظل هذا المتحف الذي أسس عام 1721 يعرف بـ"مكتب النوادر" حيث كانت تجمع المسكوكات والمخطوطات العربية والفارسية والتركية التي كانت ترسلها إلي روسيا البعثات العلمية من مختلف المناطق المسلمة المجاورة. وشكل "مكتب النوادر" هذا النواة الأولى "للمتحف الأسيوي" الذي أسس عام 1818 في "سان بيترسبورگ" والذي كان له شأن عظيم في تقدم الدراسات الاستشراقية وازدهارها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين في روسيا[9].

وبصدد الحديث عن "بطرس الأول" وعن بعض منجزاته، لا بد من الإشارة إلى أن هذه الشخصية لعبت دوراً متميزاً في تغيير وجه روسيا التي أصبحت، خلال عهده وبعده، تحتل مكانة مرموقة على الساحة الدولية. ولعل أبرز ما قام به مباشرة بعد توليه قيادة البلاد هو سعيه المستمر نحو تغيير جميع مظاهر الحياة اليومية التي كان يطغى عليها الطابع الشرقي ومحاولة تقليد نمط العيش بأوروبا الغربية. فلقد أصدر عدداً كبيراً من المراسيم التي كانت تصب كلها في هذا الاتجاه، فأجبر الناس على حلق اللحى وترك لباسهم الشرقي من قفطان وسروال واستبداله ببذلات أوروبية غربية... كما أنه استدعى العديد من المهندسين المعماريين الأوروبيين، وخاصة الإيطاليين، قصد تشييد البنايات الضخمة والقصور، وكلفهم ببناء مدينة جديدة على شاطئ بحر البلطيق، تكون، حسب قوله، نافذة روسيا

---

(8) نفسه.

(9) بيرتيلس، «المتحف الأسيوي»، ص. 7. سنعود للمتحف الأسيوي في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

على أوروبا الغربية. إنها مدينة "سان بيترسبورگ" التي حملت اسمه وصارت عاصمة للبلاد ونموذجاً لنمط الحياة الجديدة الذي يجب أن يقتدى به في جميع أرجاء الإمبراطورية... لكن "بطرس"، بانحيازه إلى الغرب، لم يهمل الشرق، فلقد كانت له طموحات لمعرفة الغرب والشرق على السواء. وهكذا دفعته اهتمامته إلى تأسيس مراكز علمية متخصصة في كافة العلوم، واستدعى مجموعة من العلماء الأوروبيين المشهورين للسهر على تسيير هذه المؤسسات وتكوين الأطر الروسية بها.

ومعلوم أن اهتمام بطرس الأول بالشرق عموماً والإسلام خصوصا لم يكن مجرد صدفة، فهو نابع من رغبته في التعمق في معرفة عدوه الأول المتمثل في الدولة العثمانية المجاورة. فلا غرابة إذن أن تكون أول ترجمة كاملة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية قد تحققت في عهده بالذات، هذه الترجمة التي أنجزها پيوتر پوسنيكوف" (P. Posnikov) عام 1716 إنطلاقاً من الترجمة الفرنسية لـ "دو رييي" (A. Du Ryer) التي يرجع عهدها إلى سنة 1647. ويتفق جميع الاختصاصيين على أن "پوسنيكوف" لم يوفق في عمله هذا. وخير دليل على رداءة هذه الترجمة وبعدها عن مضمون كتاب الله عز وجل هو العنوان الذي أطلق عليها: "قرآن محمد أو التشريع التركي"[10].

ومن الأعمال الرائدة التي قام بها بطرس الأول كذلك إحداث أكاديمية العلوم الروسية التي جعلت من بين أهدافها دراسة اللغات الشرقية وإعداد دبلوماسيين متخصصين في شؤون الإسلام والشرق. وكان من بين أعضائها الأوائل العالم الموسوعي الألماني "بايير" (Z. T. Bayer) (1694-1738) الذي كانت له دراية واسعة بعدد كبير من اللغات الشرقية ومن ضمنها العربية. وقد كان هذا العالم سباقا إلى اعتماد المصادر العربية

(10) إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 43. إن عبارة "قرآن محمد" ترجمة حرفية للعنوان الذي اختاره "دو رييي" لترجمته الفرنسية، انظر: L'Alcoran de Mahomet Traduit par Sieur du Ruyer, Paris, 1647. (Première édition).

واستغلالها في كتابة بعض جوانب تاريخ روسيا المتصل بالعلاقات مع جيرانها في الجنوب وبلدان القوقاز. كما أنه قام بمحاولات كثيرة في علم التأثيل (etymologie) للبحث عن أصل جذور الكلمات الروسية، ووصل في بعض استنتاجاته إلى أن عدداً من هذه الجذور لها أصول عربية[11].

بعد موت "بطرس الأول" لم تسمح الظروف السياسية الصعبة للعلماء بالقيام بعملهم على أحسن وجه. وهذا ما حدث لعالم ألماني آخر، وهو: "كيهر" (Kehr) (1692-1740) الذي استدعي للعمل في روسيا قصد دراسة مجموعات المسكوكات التي كانت بحوزة الأكاديمية. واشتغل هذا العالم في ظروف جد صعبة. وقد استطاع، رغم كل هذا، أن يضع فهرساً ضخماً في مجلدين[12] لهذه المسكوكات. ويعتبر هذا الإنجاز أول مؤلف علمي جاء في هذا الميدان. غير أن "كيهر" كانت له طموحات أخرى في تعليم اللغة العربية واللغات الشرقية في وزارة الخارجية... ولم تمثل هذه الطموحات سوى جزء بسيط من مشروعه الكبير الذي يمكن تلخيصه في الاسم الذي كان ينوي إطلاقه على الأكاديمية الروسية، وهو"الأكاديمية أو جمعية العلوم واللغات الشرقية للإمبراطورية الروسية"[13]... غير أن المسؤولين آنذاك لم يولوا أهمية لهذا المشروع ومشاريع أخرى سبق للعالم أن تقدم بها. فتبخرت آمال المستشرقين... وبقيت الأمور على هذه الحال خلال القرن الثامن عشر الذي لم يظهر فيه عالم مستعرب آخر من مستوى "كيهر" الذي بقي يحتل مكانة خاصة في تاريخ الاستشراق الروسي بصفته أول مستشرق وأستاذ للغات الشرقية في وزارة الشؤون الخارجية[14].

---

(11) نفسه، صص. 45-46.

(12) نفسه، ص. 46.

(13) نفسه، ص. 47.

(14) مكارم الغمري، «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي»، سلسلة "عالم المعرفة"، عدد 155، الكويت، 1991، ص. 38.

2- الاستشراق في عهد "كاتيرينا" الثانية:

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر قامت الإمبراطورة الروسية "كاتيرينا" الثانية بمحاولة مماثلة للتي قام بها "بطرس الأول"، فأرسلت بعثات طلابية إلى كل من هولاندا وإنگلاتيرا وألمانيا، غير أن هؤلاء الطلبة لم يكتب لهم، بعد رجوعهم إلى وطنهم، ممارسة تخصصاتهم، رغم ما حصلوا عليه من تكوين رفيع تحت إشراف أساتذة كانوا يمثلون طليعة المستعربين في أوروبا الغربية. ومعلوم أن عهد الإمبراطورة "كاتيرينا" الثانية تميز بتفتح كبير نحو مسلمي روسيا وألغي فيه كثير من القرارات الجائرة التي سبق للإمبراطورة "آنّا" أن اتخذتها في حقهم[15]...

والملاحظ أنه، خلال هذه الفترة كذلك، تزايد اهتمام مختلف الأوساط الروسية بالشرق عامة والشرق العربي الإسلامي خاصة. ففي عام 1782 صدر مرسوم يقضي بتعليم اللغة العربية، إلى جانب اللغتين التترية والفارسية، في الأقاليم الجنوبية الإسلامية، كما أنه تم إدخال الحرف العربي بشكل واسع في الطباعة. وكان الغرض من هذه العملية هو طبع المزيد من الكتب الدينية الإسلامية بعدما تكاثر الاهتمام بالدولة العثمانية المجاورة نتيجة للحروب التي تكررت معها. وهكذا طبع القرآن الكريم سنة 1778 في العاصمة "سان پيترسبورگ" بحروف عربية رائعة حسب الاختصاصيين الأوروبيين الغربيين أنفسهم[16]. وكانت الإمبراطورة تسعى من وراء هذا العمل إلى استقطاب مسلمي الجنوب والحيلولة دون تحالفهم مع الأتراك، وهم إخوانهم في الدين وفي اللغة في بعض الأحيان. ولقد بقيت هذه الطبعة الرائعة تعرف، سواء في روسيا أو خارجها، بـ"نسخة قرآن سان پيترسبورگ". وانتقلت هذه الحروف فيما بعد إلي مدينة قازان ثم إلى القرم وتركيا فمصر والهند[17]. وقد تكون بعض النسخ من هذه الطبعة

---

(15) A. Bennigsen, et Ch. Quelquejay, Les Mouvements Nationaux chez les Musulmans de Russie, pp. 25-27.

(16) كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 53.

(17) نفسه، ص. 54.

دخلت المغرب. ونعتمد في هذا الافتراض على العلاقات الجيدة التي كانت تربط السلطان سيدي محمد بن عبد الله والإمبراطورة "كاتيرينا" الثانية[18]. ومعلوم أنه جرى بينهما تبادل رسائل جد ودية وهدايا. وأي هدية أغلى من الطبعة الروسية للقرآن الكريم ستجد الإمبراطورة لإرسالها إلى السلطان المغربي المسلم؟ لقد أعيد طبع المصحف الكريم بهذه الحروف خمس مرات في الفترة ما بين 1789 و1798. وتجدر الإشارة بهذا الصدد إلى الدور الكبير الذي لعبته فيما بعد مطبعة "قازان" الإسلامية التي أحدثت عام 1802 والتي طبعت، خلال القرن التاسع عشر، عشرات الآلاف من نسخ القرآن الكريم وعدداً كبيراً من المؤلفات الإسلامية الأخرى[19]. وكان اهتمام الأوساط السياسية والثقافية بالحضارة العربية الإسلامية في تزايد مستمر في نهاية القرن الثامن عشر. وتجلى هذا الاهتمام سنة 1774 بصدور كتاب "بوگدانوڤيتش" (Bogdanovitch) الذي يحمل عنوان "محمد والقرآن"، وعرف هذا المؤلف نجاحاً واضحاً، وأعيد طبعه عدة مرات[20]. كما أن مجلة "مرآة العالم" (Zerkalo Sveta) نشرت عام 1786 مقالات حول القرآن الكريم وأخرى حول الأدب العربي[21]. ومن مظاهر نمو الاهتمام الروسي بالحضارة العربية الإسلامية كذلك صدور ترجمتين اثنتين للمصحف الكريم إلى اللغة الروسية أنجزتا انطلاقاً من الفرنسية والإنگليزية. قام بالأولى "ڤيريوفكين" (Veryovkin) سنة 1790 عن الترجمة الفرنسية القديمة لـ"دي رييي" (A. Du Ryer) وأنجز الثانية سنة 1792 "كولماكوف" (Kolmakov) عن ترجمة "سالي" (J. Sale) الإنگليزية[22].

---

(18) موساتوفا، «العلاقات الروسية المغربية في القرن التاسع عشر»، تعريب عبد الرحيم العطاوي، مجلة "دار النيابة"، عدد 18، 1988.

(19) A. Bennigsen, et Ch. Quelquejay, Les Mouvements Nationaux chez les Musulmans de Russie, p. 29.

(20) مكارم الغمري، «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي»، ص. 48.

(21) كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 55.

(22) نفسه، ص. 55، يتعلق الأمر بـ:

The Koran, commanly called Alcoran of Mohammed, Transl. by George Sale, London, 1734. (the first ed.).

وكانت هاتان الترجمتان في مستوى حسن بالمقارنة مع ما سبقهما من ترجمات. وقد ألهمت إحداهن، فيما بعد، أمير الشعر الروسي "پوشكين" (A. Puchkin) لنظم سلسلة قصائده المشهورة "قبسات من القرآن"، التي عالج فيها شعرياً نصوصاً من ثلاث وثلاثين سورة قرآنية[23]. و« يعترف الشاعر بأن القرآن كان الكتاب الديني الأول الذي أذهل مخيلته... وأفلح پوشكين في إعطاء صورة دقيقة المعالم لمضمون القرآن الفلسفي والديني... وأعطت هذه القصائد لأول مرة في الأدب الروسي مفتاح الفهم الصحيح للقرآن الكريم، وساعدت إلى درجة كبيرة على استمرار نمو الاهتمام به عند أوسع أوساط القراء الروس »[24].

ومعلوم أن الاتجاه الرومانتيكي في الآداب الأوروبية في بداية القرن التاسع عشر كان شديد الارتباط بالشرق عامة والشرق العربي الإسلامي خاصة وبمختلف صوره. وعرف الأدب الروسي هو الآخر خلال تلك الفترة وبعدها اهتماما متزايدا بالشرق[25]. وحدث هذا الاهتمام تحت تأثير المؤلفات الرومانتيكية الغربية وخاصة منها الفرنسية والألمانية والإنكليزية. ولقد برز في الساحة الأدبية الروسية على امتداد القرن التاسع عشر العديد من الكتاب والشعراء الذين تناولوا موضوع الشرق في مختلف مؤلفاتهم. غير أن "الموضوع الشرقي في إنتاج "پوشكين" - تقول الأستاذة مكارم الغمري - يعد من الموضوعات الرائدة في إنتاجه، فمن الصعب تسمية كاتب روسي آخر كان اهتمامه الإبداعي بالشرق ثابتاً ومتنوعاً على هذا النحو. ويحتل "الموضوع العربي" مكانة مرموقة في دائرة اهتمامات "پوشكين" بالشرق، فقد كان "پوشكين" - حسب إشارة أحد نقاده -

---

(23) انظر قصيدتين منها في انطولجية الشعر الروسي التي أصدرناها بمناسبة مرور 200 عام على ميلاد پوشكين، « المشموم الزاهي المختار »، منتخبات من قصائد شعراء روسيا الكبار، أسفي، 1998، صص. 40-41.

(24) ب. غريزنيڤيتش، (P. Grizniyevitch)، « القرآن في روسيا »، في كتاب « أبحاث جديدة للمستعربين السوڤييت »، الكتاب الأول، موسكو، 1986، صص. 249-259، بالعربية.

(25) انظر حول هذا الموضوع البحث القيم الذي أنجزته الأستاذة مكارم الغمري تحت عنوان « مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي »، المذكور آنفاً.

يعرف الشرق الإسلامي أفضل من كل شيء وأكثر من كل شيء »[26].
وتضيف الأستاذة الغمري بهذا الصدد: «ولا يبرز اهتمام "پوشكين" بالشرق من فراغ أو كنتيجة لشطحات الخيال الإبداعية، بل يأتي كثمرة لقراءاته المتعمقة في تاريخ الشرق العربي وحضارته وآثاره الأدبية وقرآنه، فضلاً عن الجذور الشرقية الإسلامية التي ربطت بين الشاعر والشرق الإسلامي[27]... ومن بين مؤلفات "پوشكين" المتأثرة بالشرق العربي يمكن الإشارة إلى محاور أساسية تمثل الأركان الرئيسية في بناء "الموضوع العربي" في إنتاجه: "روسلان ولودميلا"، والقصائد العاطفية الغزلية و"نافورة باختشي سراي" و"قبسات من القرآن"». وإذا كان للمؤلفات الأدبية العربية مثل "ألف ليلة وليلة" أثر كبير في تأليف العديد من كتابات "پوشكين"، فإن "قبسات من القرآن" تعكس الدور الكبير الذي لعبه القرآن في التطور الروحي لأكبر شعراء روسيا، كما توضح سعي "پوشكين" نحو تمثل الفكر الديني للشرق العربي ومحاولته النفاذ الفلسفي إلى عمق هذا الفكر وجوهره... كذلك انعكس في "قبسات من القرآن" إعجاب الشاعر بالسيرة النبوية واستلهامه لها للتعبير بشكل مجازي عن أفكار الحرية والنضال المنكر للذات...»[28].

بإزاء ترجمة المصحف الكريم وطبعه باللغتين العربية والروسية، امتاز عهد "كاتيرينا" الثانية كذلك بصدور ترجمات لمؤلفات أدبية عربية انطلاقاً من لغات أوروبية غربية. ومن أبرز هذه المؤلفات نذكر على سبيل المثال كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي أعيد طبعه مرات متعددة بعد ذلك. وقد كان لهذا الكتاب تأثير ملحوظ على المثقفين الروسيين. وترجم بعده عدد من القصص والحكايات العربية التي طبع بعضها تحت عناوين مختلفة لأصلها، ونذكر من بينها على سبيل المثال: "عمر وقصص عربية"،

(26) مكارم الغمري، «مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي»، ص. 170.
(27) لقد ثبت أن أصل أحد أسلاف پوشكين وهو إبراهيم المشهور في مختلف الكتابات الأدبية الروسية من إيريتيريا، وأنه كان من أسرة مسلمة.
(28) نفسه، ص. 177.

و"طرائف أسيوية" و"حكايات شرقية"، و"هارون الرشيد، معاصر كارل العظيم"[29]...

هكذا تكون الثقافة العربية في عصر "كاتيرينا" الثانية، يقول الأستاذ سهيل فرح، قد دخلت اهتمامات ومخيلة المثقفين والأدباء الروس. وبرزت الحكم والطرائف وأخبار العلوم والفلسفة في صدر المجلات الثقافية، وأعدت قواميس لغوية، ولعل أهمها «القاموس المقارن لجميع اللغات واللهجات الأجنبية، حيث أدرجت اللغة العربية كإحدى اللغات الرئيسية إلى جانب الفرنسية والإنكليزية والألمانية والفنلندية»[30]... وبصدد الحديث عن هذا القاموس[31] الذي أنجزته الأكاديمية الروسية بطلب ملح من الإمبراطورة نفسها، نشير إلى أنه يضم كذلك عشرات الكلمات الأمازيغية التي دونها في مدينة أكادير ربان إحدى البواخر الروسية[32]... مما لا شك فيه أن الربع الأخير من القرن الثامن عشر امتاز بتزايد ملحوظ للاهتمام الروسي نحو العرب وتاريخهم ودينهم وحضارتهم[33]... وقد تجلى هذا الاهتمام في العدد الكبير من الكتب الأوروبية حول العرب التي نقلت إلى اللغة الروسية، كما أنه تجلى في صدور كتب روسية حول جغرافية وتاريخ البلاد العربية. وبهذا الصدد، لا بد من الإشارة إلى كتابين صدرا في هذه الفترة حول شمال إفريقية. وهما لـ"كوكوفتسوف" (Kokovtsov) (1745-1783) الذي كان ضابطاً في البحرية القيصرية وقضى

(29) إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 55.

(30) سهيل فرح، «الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية»، صص. 236-237.

(31) عنوانه: «القاموس المقارن لجميع اللغات واللهجات...»، سان بيترسبورگ، 1790، ج 1، 1791، ج 2، 3، 4.

(32) D. Olderogge, L'Etude des langues africaines en Russie. in Russie et Afrique, ed. Naouka, Moscou, 1966, p. 17.

(33) لقد استطاعت الإمبراطورية الروسية في عهد "كاتيرينا" الثانية أن تتفتح أكثر على العالم الخارجي ففي عصرها مثلا جرت أول اتصالات رسمية مع الدولة المغربية. وقد تم تبادل الرسائل بينها وبين السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي «أمر أمناء المراسي المغربية بمنح البواخر الروسية نفس الامتيازات التي تحصل عليها سائر سفن البلدان الصديقة...» انظر حول هذا الموضوع مقال الأستاذة موساتوفا، الذي نقلناه إلى العربية وصدر على صفحات مجلة "دار النيابة"، وقد سبقت الإشارة إليه في هذه الدراسة.

مدة طويلة وهو يبحر في عرض البحر الأبيض المتوسط. عنوان الكتاب الأول الذي صدر عام 1786 "وصف الجزر والساحل البربري" [34]، ويصف فيه صاحبه الجزر والمدن والقلاع والموانئ والأحجار البحرية... أما الكتاب الثاني فإنه صدر عام 1787 تحت عنوان "الأخبار الحقيقية حول الجزائر وعادات سكانها وطبائعهم، وأخبار حول حكومتهم...» [35]. ويعتبر هذان المؤلفان في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ منطقة شمال إفريقية كلها...

وفي المجال الأدبي، فإن هذه الفترة عرفت إنجاز أول بحث روسي حول الشعر العربي، وهو البحث الذي صدر تحت عنوان "عن الشعر" في مجلة "الترفيه المفيد" (Polieznoye Uveseleniye) سنة 1762. وقد قام صاحبه "دوماشنيف" (Domachnyev) (1743-1795) بدراسة لشعر عدد من الشعوب وخصص فصلاً كاملاً للشعر العربي... غير أنه يجب الاعتراف بأن الدراسات الروسية حول الثقافة العربية كانت سطحية ولا تستند إلى أسس علمية. ورغم كل هذا، فإنه يمكن اعتبار القرن الثامن عشر في روسيا مرحلة تراكم المعلومات التي كانت تستقى في غالبيتها من الكتابات الأوروبية الغربية. ومن أهم الأسباب التي عرقلت الترجمة المباشرة هو ضعف مستوى معرفة اللغة العربية عند الاختصاصيين فيها أنفسهم [36]...

---

(34) Opisaniye arkhipelaga i varvariyskovo berega...

(35) Dostoviernye izvestiya o Aljire...

(عن: كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي»، ص. 56).

(36) إ. كراتشكوفسكي، «دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 67.


مكتبة المهتدين الإسلامية

الفصل الثاني

الاستشراق الروسي الأكاديمي

I- تأسيس شعب الاستشراق في الجامعات الروسية

بعد التجارب التي مرت منها الدراسات الشرقية في الإمبراطورية الروسية والمبادرات الرسمية التي حاولت الدفع بها إلى الأمام خلال القرن الثامن عشر خاصة في عهدي بطرس الأول وكاتيرينا الثانية، اتضح أن نجاح هذا النوع من الدراسات لن يتم إلا بداخل إطار منظم بقوانين عصرية على غرار التنظيم الجامعي في بلدان أوروبا الغربية. وهكذا صدر عام 1804 مرسوم جديد منظم للجامعات الروسية، أحدثت بمقتضاه شعب خاصة باللغات الشرقية. وشكل هذا الحدث نقطة انطلاق لما اصطلح على تسميته "بالمدرسة الاستعرابية الروسية" التي ذاع صيتها فيما بعد واشتهرت داخل الأوساط العلمية العالمية بمتانة أسسها العلمية. وتزامن هذا الحدث مع فترة تفتحت فيها الجامعات الروسية على النظريات العلمية الجديدة التي كانت تروج في أوروبا الغربية آنذاك وخاصة نظريات العالم الفرنسي "سيلڤيستر دوساسي" (Silvestre de Sacy) (1758-1839) . فكان لهذا التفتح أثر على مستقبل المدرسة الاستعرابية الروسية الفنية التي أيقنت أنه لا بد من استضافة أساتذة أجانب متخصصين في هذا المجال والعمل على استيراد مختلف الكتب والقواميس التي بدونها لا يستقيم أي عمل جدي.

1 - جامعة خاركوف:

تأسست أول شعبة للاستشراق بروسيا في جامعة "خاركوف" سنة 1805 ، وكان الألماني "بيريندت" (J. G. Bärendt) أول من درس بها، لكن

لمدة سنة واحدة فقط. ومعلوم أن الاستشراق في تلك الفترة كان ينحصر في الدراسات السامية بمفهومها الضيق القديم الذي يرتكز أساسا على دراسة اللغة العبرية القديمة ويعطيها حصة الأسد في البرامج التعليمية. فما كان على هذا الأستاذ إلا تجاهل اللغة العربية تجاهلا يكاد يكون تاما[1]. بعد "بيريندت" عمل في جامعة "خاركوف" عالم ألماني آخر وهو "روميل" (D. Chr. Rommel) (1781-1859) الذي ترك عدداً من الدراسات حول الجزيرة العربية والعرب...[2] بعد "روميل" توقفت دراسة اللغة العربية لمدة ربع قرن تقريبا كانت تتخلله من حين لآخر محاولات لاستجلاب بعض الأساتذة المستعربين من أوروبا الغربية وخاصة من ألمانيا. ولم تستأنف هذه الدراسات إلا سنة 1829 على يد أستاذ ألماني كذلك وهو "دورن" (B. A. Dorn) (1805-1881) الذي قضى ست سنوات بجامعة "خاركوف". وعرف هذا العالم فيما بعد تألقا في مجال اختصاصه بجامعات روسية أخرى، وأصبح عضوا في الأكاديمية الروسية وأكبر الاختصاصيين في اللغات الشرقية. وقد أدخل "دورن" لغات شرقية أخرى إلى برامج التعليم بالجامعة وأولى اهتماما خاصا لتدريس عدد من اللغات مثل العربية والفارسية والعبرية القديمة والسانسكريت وكذا التركية والحبشية. غير أنه لم يترك خلال إقامته "بخاركوف" أثرا يذكر في تكوين مختصين في اللغات الشرقية، وانتقل بعد ذلك إلى جامعة "سان بيترسبورگ"[3].

2- جامعة قازان:

انطلقت الدراسات الشرقية، بمفهومها الغربي، بجامعة قازان التترية عام 1807. فكانت بذلك إحدى المؤسسات العلمية الروسية الأولى التي تدخل هذا الميدان. ومعلوم أن هذه الجامعة كانت تتوفر منذ عام 1802 على مطبعة عصرية مجهزة بالحروف الروسية واللاتينية والعربية والأرمينية

(1) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 73.
(2) نفسه، ص. 74.
(3) نفسه، ص. 76.

والسانسكريتية وغيرها. وطبعت بها خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر آلاف من الكتب الشرقية والأوروبية. ولقد ذاعت شهرتها في جميع المراكز الاستشراقية الأوروبية التي كانت تتبادل معها الكتب والمجلات وتربطها بها علاقات علمية متينة. وكان العالم الألماني "فرين" (M. Chr. Frähn) (1782-1851) أول من درس بها، وظل يعمل بها مدة عشر سنوات من عام 1807 إلى غاية 1817، والملاحظ أنه انتقل بعد ذلك إلى "سان پيترسبورگ" شأنه في ذلك شأن الأساتذة الألمانيين الذين درسوا بجامعة "خاركوف". غير أن الفترة التي قضاها في قازان يمكن اعتبارها مرحلة حاسمة في حياته العلمية، ذلك أنه بدأ فيها يرسم الخطوط العريضة لعدد من المشاريع العلمية التي أنجزها فيما بعد. ففي هذه المدينة التترية انكبّ على جمع المصادر العربية حول تاريخ روسيا القديم وتعميق معلوماته في علم المسكوكات عموماً والمسكوكات الشرقية خصوصاً[4]. ولقد استطاع في مرحلة لاحقة أن يحتل الصدارة بين الاختصاصيين في هذا الميدان.

لقد كرس العالم "فرين" وقتاً لا يستهان به في قازان لتدريس اللغة العربية، كما أنه حاول تكوين اختصاصيين فيها قادرين على خوض البحث في مختلف علومها[5].

رحل "فرين" عام 1817 إلى العاصمة "سان پيترسبورگ" حيث عين سنة 1819 مديراً "للمتحف الأسيوي" بعد تأسيسه. ويمكن القول إن الدراسات العربية المبنية على أسس علمية متينة بدأت تخطو خطوات ثابتة في روسيا منذ وصول هذا العالم إلى "سان پيترسبورگ"[6].

(4) نفسه.
(5) نفسه، ص. 77.
(6) نفسه.

ومن أبرز العلماء الذين عملوا فيما بعد في جامعة قازان نشير على الخصوص إلى "كاظم بك" و"بيريزين" اللّذين سنرجع إليهما في معرض حديثنا عن جامعة "سان پيترسبورگ"، ويجب الإشارة كذلك إلى العالم الألماني گوتولد [7] (J. M. E. Gottwaldt) (1813-1897) الذي التحق بها عام 1849، ودرّس التراث الفكري العربي وترك عددا من المؤلفات نذكر منها على الخصوص "فهرس المخطوطات العربية بجامعة قازان" في جزئين الذي ساعده على إنجازه الشيخ محمد عياد الطنطاوي [8].

3 - جامعة موسكو :

عرفت الجامعة في موسكو منذ عام 1803 عدة محاولات لفتح شعبة خاصة بالدراسات الشرقية، واستدعت عدداً من الأساتذة الألمانيين للإشراف عليها. غير أن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح. ولم تنطلق بها هذه الدراسات وخاصة منها العربية إلا سنة 1811 على يد الأستاذ الروسي "بولد يرييف" (A. Boldyriyev) (1780-1842) [9]، المتخصص في الدراسات السامية عموماً والاستعرابية خصوصاً. وكان الأستاذ الجديد قد قام بجولة دراسية في ألمانيا وفرنسا. وتتلمذ في مدينة "گيتنگن" على العالم "إيخهورن" (J. C. Eichhorn) (1752-1827)، كما درس بباريز لغات الشرق الإسلامي عند المستشرق الفرنسي الكبير "سيلڤيستر دوساسي" (Silvestre de Sacy) [10].

تولى "بولديرييف"، بعد رجوعه إلى وطنه، منصب أستاذ اللغات الشرقية في جامعة موسكو. وركز اهتمامه على اللغة العربية ثم اللغة الفارسية في فترة لاحقة. وقد أدرك، منذ بداية نشاطه بالجامعة، أن نجاح

---

(7) عرّف به وبنشاطه الجامعي والمطبعي الأستاذ "كاطانوف" في كتاب عنوانه" يوسف گوتولد الأستاذ والمكتبي في جامعة قازان. . .، قازان، 1900، (بالروسية).

(8) سنعود إلى الشيخ محمد عياد الطنطاوي بتفصيل في المبحث الخاص به في معرض حديثنا عن جامعة "سان پيترسبورگ".

(9) انظر حوله: العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 67-68.

(10) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 79.

التدريس رهين بتوفر الكتب الخاصة بتعليم المواد التي يلقنها. لذا تجند لتحقيق أهدافه، فأنشأ مطبعة بحروف عربية في موسكو وشرع في إعداد كتب في مختلف فنون اللغة العربية. وقد استطاع فعلا طبع كتاب قام بتأليفه في نحو اللغة العربية[11]. وظل هذا المؤلف متداولا في الجامعات الروسية أزيد من أربعين سنة. كما أنه ألف كتاباً آخر خاصاً بمطالعة النصوص العربية[12]. وكان لهذين المؤلَّفين شأن كبير في تدريس اللغة العربية في روسيا والتعريف ببعض جوانب أدبها، وبقي الكتابان يحتلان مكانة خاصة في تاريخ الاستعراب الروسي لأنهما يعتبران الأدوات العلمية الروسية الأولى للبحث العلمي في هذا الميدان[13].

وبإزاء المهمة التي ألف من أجلها لعب "كتاب مطالعة النصوص العربية" دوراً آخر لا يقل أهمية عن دوره في مجال التعليم. ذلك أن عددا من نصوصه تمت ترجمتها إلى اللغة الروسية، ونشرت على صفحات الجرائد والمجلات. فتعرفت بالتالي عليها أوساط عريضة من القراء والمثقفين، وألهمت عدداً من الكتاب والشعراء الذين سحرهم الشرق العربي فتغنوه في مؤلفاتهم[14].

ويرجع الفضل في إرساء هذه الخواطر الشرقية في وسط المثقفين إلى "بولديريف" وإلى عدد من طلبته، وخاصة منهم "كوركونوف" (M. Korkunov) (1806-1858) وكذا "أوزنوبيشين" (D. Oznobichin) (1804-1877) الذي اشتهر فيما بعد بالترجمة التي أنجزها من اللاتينية إلى الروسية لمؤلفات المستشرق الدانماركي "راسموسين" (J. L. Rasmussen) (1785-1826) حول التجارة العربية في أوروبا الشرقية....[15] ويظل الأستاذ "بولديريف" في تاريخ الجامعة الروسية أول

---

(11) A. Boldyriyev, Grammatika arabskovo yazyka, M., 1827.

(12) A. Boldyriyev, Arabskaya khrestomatiya, M., 1824.

(13) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 81.

(14) نفسه، ص. 81-82.

(15) يتعلق الأمر على الخصوص بكتاب "تجارة الشرق مع روسيا واسكاندنافيا في القرون الوسطى".

عالم من أصل روسي متخصص في الدراسات الاستعرابية. وتبقى إسهاماته في ميداني التدريس والبحث العلمي تكتسي أهمية قصوى.

4- جامعة ڤيلنيوس:

قبل الانتقال إلى مدينة "سان بيترسبورگ" التي أصبحت فيما بعد مهد الدراسات الاستشراقية الروسية، لا بد من الإشارة إلى الدور الهام الذي لعبته جامعات أخرى في مدن صغيرة. ونخص منها بالذكر جامعة "ڤيلنيوس" (Vilnius) التي ترسخت فيها بشكل عميق التقاليد الجامعية متأثرة بالجو الاستشراقي العلمي في "پولونيا" المجاورة[16]. لقد تخرج من "ڤيلنيوس" عدد من العلماء الذين كرسوا حياتهم لتدريس اللغة العربية وفنونها خاصة في جامعة العاصمة الروسية. ولم يكن تعليم اللغات الشرقية بهذه الجامعة البلطيقية مجرد صدفة، بل إن اهتمامها بالشرق يرجع عهده إلى عشرات من السنين خلت ويستمد جذوره من "أكاديمية ڤيلنيوس" الضاربة في القدم التي ظلت تشتغل بشكل يكاد يكون منتظما من عام 1579 إلى غاية عام 1773[17]. ومن أشهر علمائها خلال الفترة التي نحن بصددها نذكر على الخصوص عالمين كانت لهما دراية واسعة باللغة العربية، وهما "گروديك" (Groddeck) وخاصة "ليليويل" (J. Lelewel) الذي

---

(16) للمدرسة البولونية تقاليد عريقة في ميدان الاستشراق. وقد اهتم ممثلوها بالشرق الإسلامي وغربه على السواء. ويعد "يان پوتوتسكي" (J. Potocki) أحد أبرز علمائها الذين كتبوا عن المغرب. فلقد قام هذا العالم والتاجر والدبلوماسي برحلة إلى المغرب عام 1791. فخصص لرحلته هذه كتابا قيما يعد مرجعا ثمينا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبلدنا في أواخر القرن الثامن عشر. ودوّن فيه صاحبه مذكراته حول المدن والمناطق التي زارها كطنجة وتطوان وأصيلا والعرائش وسلا والرباط حيث استقبل من لدن السلطان مولاي يزيد. وعنوان هذا المؤلف الذي كتب أصلا باللغة الفرنسية "رحلة إلى الإمبراطورية المغربية"، قام بها "يان پوتوتسكي" عام 1791.

(Voyage dans l'Empire du Maroc fait en l'année 1791 par Jean Potocki).

انظر حول الرحالة الروسيين الذين زاروا المغرب مقالتي "كتابات روسية حول مدينة طنجة" في كتاب: طنجة في التاريخ المعاصر 1800-1956، دار النشر العربي الإفريقي، الرباط، 1991، ص. 187-195.

(17) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 86.

ترك مؤلفاً حول تاريخ الخرائط العربية لم يفقد قيمته العلمية إلى يومنا هذا، ويتعلق الأمر بكتاب عنوانه "جغرافية القرون الوسطى"[18].

ومن الشخصيات العلمية التي تخرجت من جامعة "ڤيلنيوس" والتي كانت لها إسهامات وافرة في مجال الدراسات الاستعرابية، هناك العالم "سينكوفسكي" (Senkovskiy) الذي سوف نرجع إليه للحديث عنه وعن أعماله بتفصيل عند تناولنا موضوع جامعة "سان پيترسبورگ"، وكذلك "بوبروفسكي" (M. K. Bobrovskiy) (1784-1848) الذي تتلمذ، بعد تخرجه من "ڤيلنيوس"، في "ڤيينا" على "أوبيرليتنير" (A. Oberleitner) وفي باريز على "سيلفيستر دوساسي". غير أن هذا العالم لم يساعده الحظ لما عاد إلى وطنه. فبعدما قدم تقريره حول اللغة العربية وأدبها سنة 1823، قررت رئاسة الجامعة عام 1824 فصله عن العمل بدعوى أن آراءه لا تسير في الاتجاه الذي يجب أن تكون عليه آراء أستاذ متخصص في تفسير وتأويل اللاهوت، وهو التخصص الذي حصله قديما بجامعة "ڤيلنيوس". ولم تكتف الإدارة بفصله عن العمل، بل حبسته في دير تحت حراسة رهبانه. والحقيقة، حسب الأستاذ سهيل فرح، أن أحد العمداء من ذوي النفوذ بالجامعة الذي عرف بتحمسه لتعليم وإبراز اللغة العبرية، لم تعجبه محاضرات "بوبروفسكي"، فتم نفيه إلى أحد الأديرة بعيداً عن "ڤيلنيوس"، ولم يعد إلى الجامعة إلا بعدما أجبر على تغيير اهتمامته العلمية...[19] غير أن تقريره المشار إليه بقي يمثل أجود ما كتب حول اللغة العربية وأدبها في تلك الفترة[20].

ولم تكن محاربة اللغة العربية من طرف هذا العميد حدثاً استثنائياً في تاريخ الاستعراب في روسيا، بل كانت هناك ظاهرة مناهضة للغة العربية وللدين الإسلامي تظهر من حين لآخر. إلا أنه يجب التفريق، في نظرنا، بين

---

(18) Geografiya srednikh vekov.

انظر حوله: كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 87.

(19) سهيل فرح، الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية، ص. 239.

(20) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 88.

"الخطإ" المتعمد و"الخطإ" الذي لم يكن أحد في تلك الفترة يشك في صحته ولم تتضح حقيقة أمره إلا في مرحلة لاحقة. ومن بين تلك الأخطاء نذكر على سبيل المثال النظرية "العلمية" حول أصل اللغات التي لم يكن أحد يجادل في صحتها في أوروبا كلها إلى حدود القرن الثامن عشر، ويتعلق الأمر بتلك النظرية اللسانية التي مفادها أن اللغة العبرية هي أم اللغات ومنبعها. فالمؤرخ "أورلوف" (I.S. Orlov) مثلاً الذي أخذ هذه النظرية من الغرب ورددها في كتابه: "موجز تاريخ الكتابة مع وصف اللغات ونشأتها وانتشارها وما حدث فيها من تغييرات" كان معجبا أيّما إعجاب باللغة العربية، ولقد عرف بدورها العلمي العالمي وكتب يقول: «... يستطيع من يتكلم اللغة العربية أن يسافر بدون مترجم من الجزيرة العربية إلى الصين شرقاً وإلى حدود روسيا شمالا وأقصى إفريقية الغربية غرباً، لأنه يجد في كل مكان مسلمين يتكلمون هذه اللغة...»[21].

أغلقت جامعة "ڤيلنيوس" أبوابها عام 1832، والتحق جل علمائها بالعاصمة "سان پيترسبورگ"، غير أن أهمية هذه المؤسسة تظل كبيرة في مجال دراسة تاريخ الاستعراب الروسي.

5 - جامعة "سان پيترسبورگ":

إذا كانت جامعات "خاركوف" و"قازان" و"موسكو" قد عرفت عدداً من المحاولات لإرساء أسس متينة للدراسات الاستشراقية، فإن جامعة "سان پيترسبورگ" حققت أماني المستشرقين الروسيين وصارت فيما بعد مركزاً من أهم المراكز الاستشراقية في العالم بالرغم من أن تدريس اللغة العربية بها جاء متأخراً، إذ لم ينطلق إلا سنة 1818 بـ"المعهد التربوي المركزي" الذي تحول بعد سنة إلى "جامعة سان پيترسبورگ".

عرفت سنة 1819 حدثاً بارزاً في تاريخ الاستشراق الروسي، ويتعلق الأمر بفتح "المتحف الآسيوي" التابع لأكاديمية العلوم. وقد سبق في

(21) نفسه، ص. 95-96.

موضوع حديثنا عن القرن الثامن عشر أن أشرنا إلى أن "بطرس" الأول أنشأ "مكتب النوادر" الذي عهد إليه بجمع وصيانة المسكوكات والمخطوطات الشرقية، فكان بذلك النواة الأولى للمتحف الجديد الذي بدأت تتوارد عليه المخطوطات من مختلف أنحاء الإمبراطورية الروسية في شكل هدايا وهبات بالإضافة إلى مقتنيات المتحف...[22]، وإذا كانت مدينة "سان پيترسبورگ" قد صارت فيما بعد مركزاً مهما من مراكز الاستشراق العالمي، فإن الفضل يرجع قبل كل شيء إلى تضافر وتكامل جهود العلماء العاملين في الجامعة وزملائهم العاملين في "المتحف الآسيوي".

أ- نشاط "فرين" العلمي:

عهد برئاسة "المتحف الآسيوي" الجديد إلى الأستاذ الألماني "فرين"[23] الذي سبق أن أشرنا إليه في موضوع حديثنا عن جامعة "قازان" والذي ربط مصيره العلمي بهذا المتحف بصفة نهائية، وبقي يسيره إلى أن توفي عام 1851.

تعتبر إذاً سنة 1818 سنة انطلاق الدراسات العربية في "سان پيترسبورگ" على أسس جديدة، وهي الدراسات التي تطورت مع مر الزمان وكتب لها الاستمرار والازدهار إلى يومنا هذا. ويرجع الفضل في هذا النجاح إلى عاملين اثنين هما: أولاً: تعليم اللغة العربية الذي ظل يتسع حتى شمل عدداً كبيراً من المؤسسات التعليمية العليا، وثانياً: وفرة الوثائق والكتب المطبوعة منها والمخطوطة التي كان يتسلمها "المتحف الآسيوي" كهبات أو التي كان يقتنيها بميزانيته الخاصة. وقد اقترنت الدراسات العربية باسم "المتحف الآسيوي"، كما اقترن هذا الأخير باسم رئيسه الأول الأستاذ "فرين". يقول "كراتشكوفسكي" عن هذه الفترة: «... يحق لنا القول بأن عام 1818 يمثل بالتأكيد بداية عهد جديد في

(22) عبد اللطيف الشاذلي، مخطوطات عربية في خزائن سوفييتية، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، I، الدار البيضاء، عين الشق، العدد السابع، 1990، ص. 21.

(23) انظر حوله كذلك: نجيب العقيقي، المستشرقون، ص. 68.

تاريخ الاستعراب الروسي. . . »[24]. ويستحق العالم "فرين" - واضع الأسس العلمية للاستعراب الروسي - أن نتوقف عند نشاطه العلمي الذي كان جد متنوع، غير أننا سوف نقتصر على جانب الاستعراب فقط حتى لا نخرج عن موضوع بحثنا. ويمكن تقسيم اهتماماته العلمية في هذا المجال إلى ثلاثة محاور:

أولاً: عمله المكتبي المتمثل في جمع الكتب والمخطوطات وتوثيقها والمحافظة عليها.

ثانيا: أبحاثه في ميدان المسكوكات.

ثالثا: أبحاثه في مجال المصادر العربية لتاريخ روسيا[25].

لقد عمل "فرين" بمفرده مدة ثمان سنوات تقريباً كمدير وباحث "بالمعهد الآسيوي". وكان عليه أن يقوم بترتيب عشرات الآلاف من النقود الشرقية وعدد كبير من القطع التي تحمل نقوشاً عربية من جهة وتصنيف المخطوطات العربية والفارسية والتركية من جهة أخرى. وكان المعهد قد اقتنى سنة 1819 الدفعة الأولى من هذه المخطوطات التي بقيت تعرف بمجموعة "روسو"[26]. ومنذ عام 1826 التحق المستعرب "ڤولكوف" (Volkov) (1800-1846) بالمتحف وظل يعمل مساعداً "لفرين" لمدة عشرين عاماً. وقد تمكن العالم "فرين" سنة 1826 من إصدار الجزء الأول من مؤلفه الضخم "فهرس المسكوكات الإسلامية لأكاديمية العلوم لپيترسبورگ"[27] الذي صنف فيه 2264 قطعة نقدية اختارها من بين عشرين ألف وحدة. وكان هذا الكتاب الذي بقي يعرف في الأوساط العلمية بعنوان مختصر هو "Recencio" بمثابة الحجر الأساسي لعلم

---

(24) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 99.

(25) س، م، باتسييفا، . الدراسات العربية، في كتاب: المتحف الآسيوي، (Aziyatskiy Muzey)، دار النشر "ناووكا"، موسكو، 1972، ص. 271-272، (بالروسية).

(26) انظر حول مجموعة "روسو" في الفصل الخاص بالمخطوطات العربية من دراستنا هذه.

(27) "Recensio numorum muhammedanorum Academiae Imp. Scient. Petropolitanae", Petropoli, 1826.

المسكوكات الإسلامية في روسيا وخارجها. وخصص "فرين" عدداً من المؤلفات الأخرى لهذا الموضوع نذكر منها على الخصوص كتابه الذي صدر عام 1841 وعنوانه "استعراض توبوغرافي للأماكن التي توجد بها النقود العربية القديمة في روسيا" الذي استغرق العمل فيه حوالي 34 سنة أي منذ أن بدأ يدرِّس بجامعة "قازان" عام 1807 . ويمثل هذا الكتاب أول محاولة جادة لإلقاء بعض النور على العلاقات التجارية لروسيا القديمة مع بلدان الشرق الإسلامي. ولم يكتف "فرين" بدراسة هذه الموضوعات، بل كانت اهتماماته جد متنوعة، فقد تناول بالدرس كذلك موضوع الكتابات العربية المنقوشة على الحجارة وغيرها، كما أنه انكب على جمع المصادر العربية الخاصة بدراسة تاريخ روسيا، وهو الموضوع الذي تناوله في مؤلفه حول أحمد بن فضلان[28]، الذي كان أول عربي ترك وصفاً لبعض القبائل السلافية. وكان العالم الدانماركي "راسموسين" (J. L. Rasmussen) أول مستشرق أتى بعدد من المعلومات حول هذا الرحالة العربي سنة 1814، والجدير بالذكر أنه استقى جل معلوماته من "معجم البلدان"[29] لمؤلفه ياقوت الحموي. غير أنه يرجع الفضل للعالم "فرين" في تأليف أول عمل علمي جاد حول هذه الشخصية العربية. وقد اعتمد في عمله نسخة مخطوطة من كتاب "معجم البلدان" عثر عليها بالمتحف الأسيوي ضمن مجموعة "روسو"[30] التي سبق وأشرنا إليها. وكانت هذه المجموعة تضم عددا كبيراً من المخطوطات النفيسة والنادرة وشكلت منذ عشرينيات القرن التاسع عشر أساسا متينا للبحث العلمي الاستعرابي في روسيا.

---

(28) كتب هذا المؤلف بالألمانية: M. Chr. Frähn. Ibn Foszlan's und anderer araber berichte über die Russen älterer zeit... St-Petersbourg, 1823.

(29) عرّف ياقوت بابن فضلان وأتى بفصول من رسالته في كتابه: "معجم البلدان"، انظر:
- ياقوت الحموي، معجم البلدان، ليبيسگ، 1870، بيروت، 1955.
وكذلك: رسالة ابن فضلان، تحقيق وتعليق وتقديم: د. سامي الدهان، بيروت، 1987، الطبعة الثانية.

(30) خضع كتاب "معجم البلدان" للعديد من الدراسات في روسيا وخارجها.

بعد مغادرته مدينة "قازان" لم يعد "فرين" إلي مزاولة التدريس وانصرف كليا إلى البحث العلمي "بالمتحف الآسيوي" . ورغم هذا فإنه لم يفقد الصلة مع التدريس بجامعة "سان پيترسبورگ"، إذ أن "المتحف" صار قبلة يقصدها العديد من طلبة الجامعة الذين كانوا يجدون فيه مادة نفيسة لمباشرة العمل في ميادين شتى كميداني علم المخطوطات وعلم المسكوكات. ومن أبرز هؤلاء الطلبة نذكر اثنين على سبيل المثال، أولهما "ساڤيلييف" (P. Saveliyev) (1814-1859) الذي اشتغل بعد تخرجه من الجامعة مساعداً "لفرين" في قسم المسكوكات، وثانيهما "گريگورييف" (V. V. Grigoriyev)[31] (1816-1881) الذي تخصص في تاريخ الشرق وتقلد فيما بعد منصب عميد كلية اللغات الشرقية بجامعة "سان پيترسبورگ" ثم حاكما على مقاطعة "أورنبورگ" في جنوب تترستان.

إن العالم "فرين"، بفضل عمله الدؤوب في جمع المخطوطات والمسكوكات العربية وترتيبها وتصنيفها قد أسدى للدراسات العربية في روسيا عملا علميا جبارا ودفع بهذه الدراسات خطوات عملاقة إلى الأمام. كما أنه كان أول عالم في هذا الميدان استطاع أن يكوِّن مجموعة من الأطر الروسية على أسس علمية متينية. ولقد بقيت هذه الأطر تشيد بعمله وإخلاصه للعلم وتعترف على مر السنين بفضله الكبير على الاستعراب الروسي.

ب- نشاط "سينكوفسكي" العلمي:

في نفس الفترة التي كان فيها العالم "فرين" يعمل في "المتحف الآسيوي" كانت شعبة الدراسات العربية بجامعة "سان پيترسبورگ" تقوم بنشاط جامعي في غاية الأهمية. وكان الأستاذ "ديمانج" (J. F. Demange) (1789-1832)، وهو فرنسي الجنسية وأحد تلامذة "سيلڤيستر دوساسي"، أول من وضع الخطوط العريضة لهذا النشاط الجديد. لكن "ديمانج"

(31) انظر حول "ساڤيلييف" و"گريگورييف" :نجيب العقيقي، المستشرقون، ص. 71.

سرعان ما تخلى عن منصبه داخل الشعبة والتحق بقسم تدريس اللغات الأجنبية بوزارة الخارجية، ولم يترك "ديمانج" أي شيء يذكر في المجال العلمي[32]. وخلفه في الجامعة أستاذ من أصل پولوني لم تكن سنه تتعدى انذاك الثانية والعشرين عاما، إنه العالم "سينكوفسكي" .O (Senkovskiy .I)[33] الذي أشرنا إليه عند حديثنا عن جامعة "ڤيلنيوس" والذي اشتهر فيما بعد تحت اسم "البارون برامبيوس". ولقد بقي على رأس شعبة الدراسات العربية مدة خمس وعشرين سنة من 1822 إلى غاية 1847.

كانت جامعة "ڤيلنيوس" تبعث طلبتها المتفوقين إلى الغرب وخاصة إلى فرنسا وألمانيا وهولاندا للتعمق في دراسة الشرق في أكبر مراكز الاستشراق. غير أن "سينكوفسكي" كان أول طالب توجهه هذه الجامعة إلى الشرق العربي قصد استكمال دراسته في اللغة والأدب العربيين. فكان بذلك أول منحدر من الإمبراطورية الروسية يقوم بمثل هذه المهمة ويتعرف عن كثب على حياة الشعوب العربية وعلى العالم العربي وعلمائه، يقول عنه الأستاذ سهيل فرح: «... لقد كان "سينكوفسكي" الوحيد في عصره الذي مكث في العالم العربي عدة سنوات، حيث أتقن اللغة العربية بشكل جيد، رافق هذا، إلمامه الواسع العميق بكافة التيارات الثقافية السائدة، وموهبته الفذة»[34].

إذا كان "سينكوفسكي" قد قام بعمل في غاية الأهمية في مجالي تدريس اللغة العربية ووضع مناهج تبليغها، فإنه في ميدان البحث العلمي لم يترك إلا أعمالاً قليلة[35]. لكن دوره كان كبيراً في التعريف بالشرق العربي في أوساط الكتاب والشعراء الذين كانوا - بحكم الاتجاه الرومانتيكي السائد - يكتبون عن الشرق ولو أن غالبيتهم لم يسبق لهم أن

---

(32) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ...، ص. 105.

(33) انظر حوله: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 70.

(34) سهيل فرح، الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية، ص. 242.

(35) أهم أعماله: "قصص شرقية"، "مذكراتي حول سورية"، "محاضرات حول اللغة والأدب العربيين"، و ساعد "بيريزين" على وضع كتابه "دليل المسافر إلى الشرق"، 1844.

زاروه، فكانت "القصص الشرقية" التي ألفها بمثابة نافذة مفتوحة مكنت هؤلاء الأدباء من رؤية حقيقة الشرق العربي الذي كان "سينكوفسكي" يعرفه جيداً. ويرى "كراتشكوفسكي" أن "القصص الشرقية" وحكايات "ألف ليلة وليلة" كانت أكثر الكتب الأدبية تداولاً، وأشهرها في الساحة الأدبية وفي مختلف الأوساط الشعبية[36]. ومن حسن حظ مستقبل الدراسات العربية في روسيا عموماً و"سان پيترسبورگ" خصوصاً أن كان العالم "فرين" والأستاذ "سينكوفسكي" يعملان في نفس الفترة وفي نفس المدينة. وإذا كان طلبة اللغة العربية عند "سينكوفسكي" يعدون بالعشرات، فإن عدد الذين تفوقوا واشتغلوا فيما بعد في ميدان الاستعراب كان قليلاً. ومن غريب الصدف أن هذه الأقلية كانت تتردد كذلك على "المتحف الأسيوي" وتعمل فيه تحت إشراف العالم "فرين"[37]. وإن هذا الحدث وحده لدليل قاطع على أن الأنشطة التي كان يقوم بها "فرين" و"سينكوفسكي" - كل في مؤسسته - كانت متكاملة. وقد ذاعت شهرة هذين العالمين في مختلف ربوع الإمبراطورية وصار الطلبة يقصدونهما من مدن أخرى غير "سان پيترسبورگ". واستطاع هؤلاء الطلبة في وقت لاحق تحمل مسؤولية التدريس والبحث في مجال اللغة والأدب العربيين في مختلف مراكز الاستشراق في البلاد. كما كان لهم الفضل في المزيد من التعريف بالثقافة العربية من خلال الترجمات العديدة التي أنجزوها مباشرة من العربية إلى الروسية. ومن أبرز تلامذة "سينكوفسكي" الذين كان لهم شأن كبير في الساحة الاستعرابية الروسية نذكر على سبيل المثال "ڤولكوف" (M. G. Volkov) (توفي عام 1846) وكلاً من "ساڤيلييف" و"كريگوريف" اللذين سبق ذكرهما وكذلك "گوسيف" (A. N. Gusiev) (1810-1835) الذي يرجع له الفضل في القيام بأول محاولة لترجمة حكايات "ألف ليلة وليلة" مباشرة من العربية إلى الروسية، لكنه لم يتمكن من إتمام عمله. فلقد مات وعمره لا يتعدى الخامسة والعشرين سنة.

(36) كراتشكوفسكي، المؤلفات المختارة، موسكو - لينينگراد، 1957، ج 5، ص. 42.
(37) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 109.

غير أن "سينكوفسكي" لقي معارضة شديدة من طرف بعض الأوساط داخل جامعة "سان پيترسبورگ"، فتخلى عن عمله الجامعي بعد خمس وعشرين سنة من التدريس. «ولقد ترك في نفوس الذين عرفوه - يقول سهيل فرح - انطباعات مختلفة، فمنهم من أشاد بموهبته اللغوية والأدبية، وبمحاضراته القيمة والغنية بالمعلومات، ومنهم من حاول أن يسيء إليه ويشوه سمعته العلمية، وشارك في حملات التشويه ضده عميد وأساتذة جامعة بطرسبورغ آنذاك. ولم يعرف في الواقع سبب هذه الحملة: هل هناك أسباب سياسية[38]، أو أن هناك خلافات مع أصحاب المحبة للتسلط والأضواء، أم أن هذا يرجع إلى أنه كان المستشرق الوحيد في عصره الذي يرجع المصدر الأصلي إلى المخطوطات العربية، وإلى معرفته الواسعة بالثقافة العربية، مما كان يشكل مصدر قلق لأولئك الذين أدانوا بالولاء لما أسميناهم "بالمركزيين الأوروبيين"؟»[39].

ورغم كل هذا فإن "سينكوفسكي"، بفضل غزارة علمه وموهبته الأدبية بقي يحتل مكانة خاصة لا في ميدان الاستعراب فحسب، بل حتى في مجال الأدب الروسي الكلاسيكي[40].

ج- الشيخ محمد عياد الطنطاوي:

عرفت سنة 1840 حدثاً بارزاً في تاريخ الاستشراق الروسي، ففي هذا العام تم استدعاء الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وهو أحد مشايخ الأزهر، لتدريس اللغة والأدب العربيين في "سان پيترسبورگ". فكان بذلك أول عربي مسلم يقوم بمثل هذه المهمة في الإمبراطورية الروسية. والأستاذ

(38) هذا أمر مستبعد لأن "سينكوفسكي" استمر في عمله الأدبي دون عراقل... بل نال أكثر من ذلك شهرة متزايدة في جميع الأوساط الأدبية والفنية...

(39) سهيل فرح، الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية، ص. 242.

(40) له مؤلفات أدبية كثيرة، منها "الفانتازية الشعربية: عنترة" التي أصبحت التصميم الرئيسي لإحدى السانفونيات الأولى للفنان الموسيقي الروسي الكبير "ريمسكي كورساكوف". انظر: كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، ترجمة عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، 1989، ص. 18.

الجديد هو كما عرف به نجيب العقيقي. «من أهل مصر، تعلم وعلم في الأزهر إلى أن استدعاه القيصر (1840) للتعليم في مدرسة الألسن التابعة لوزارة الخاريجية، ثم خلف "سينكوفسكي" على كرسي العربية في جامعة بطرسبرج (1847-1861)»[41]، ويقول عنه الشيخ عبد المعطي السقاء أحد علماء الأزهر: «... هو الشيخ محمد بن سعيد الملقب بعياد الطندتائي الشافعي أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم البيجوري شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة 1276هـ. كان رحمه الله من أعيان علماء القرن الثالث عشر راسخ القدم في العلوم العقلية والنقلية آخذا بحظ وافر من الأدب، فله كثير من الشعر الحسن، والنثر المستحسن (...) وله رحمه الله مؤلفات كثيرة (...) وقد قدر له رحمه الله الذهاب إلى روسية، فذهب إليها وأقام بها إلى أن جاور ربه، ولم يؤثر ذلك في شيء من دينه وعقيدته كما يؤخذ من قوله في أول قطعة شعرية أرسل بها إلى أحد أصدقائه بمصر:

أنا بين قوم لا أدين بدينهم   أبدا ولا يتدينون بديني...»[42]

وقبل رحيله إلى روسيا درّس الشيخ محمد عياد الطنطاوي الأدب العربي في المدسة الإنكليزية في القاهرة، وكان يتردد على دروسه عدد من المستشرقين والدبلوماسيين الأوروبيين أمثال "فرينل" (F. Fresnel) و"ڤيل" (G. Weil) و"پيرون" (A. Perron) و"لين" (E. Lane) الذي قال عن أستاذه «إنه أكبر عالم لغوي في أكبر مدرسة عربية»[43]. وكان من بين تلاميذ الشيخ الطنطاوي كذلك دبلوماسيان روسيان كانا من خريجي شعبة اللغات الشرقية بجامعة "سان پيترسبورگ"، وهما "موخين" (N. Mukkin) و"فرين" (Kh. Frähn) وهو ابن العالم "فرين" مدير المتحف الأسيوي آنذاك والذي

(41) نجيب العقيقي، المستشرقون، الطبعة الرابعة، دار المعارف، 1981، ج 3، ص. 65.

(42) أحمد تيمور باشا، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة "المجمع العلمي العربي"، 1924، ج 8 و9، ص. 388-389.

(43) "The first philologist of the first arab college".
انظر: Lane, E., The Thounsand and one Nights..., vol. I. London 1939, p. XVI.

سبق الحديث عنه في هذا الفصل من دراستنا. وكان لهذين الدبلوماسيين الفضل في تنظيم رحلة العالم إلى روسيا.

وشكل مجيء الشيخ الطنطاوي إلى "سان پيترسبورگ" حدثا مهما بالنسبة للحياة العلمية والفكرية في البلاد. وكان الأستاذ الجديد يتمتع بحب واحترام كبيرين من طرف تلاميذه وسائر سكان العاصمة الروسية، كما أنه كان يبادلهم هذا الحب (44)، ولم يكن يخفي إعجابه بنظام وكيفية معيشة الأوروبيين عامة والروسيين خاصة، كما جاء في إحدى رسائله إلى صديقه رفاعة بك الطهطاوي: « ... وأنا مشغوف بكيفية معيشة الأوروبيين وانبساطهم وحسن إدارتهم وترتيبهم خصوصا ريفهم وبيوته المحدقة بالبساتين والأنهار، إلى غير ذلك مما شاهدتم قبلي بمدة في باريز، إذ "پيترسبورگ" لا تنقص عن باريز في ذلك، بل تفضلها أشياء كاتساع الطرق ... » (45).

عمل الشيخ الطنطاوي في العاصمة الروسية مدة عشرين سنة، وانتفع بعلمه عدد كبير من الطلبة والأساتذة الروسيين والأجانب وخاصة منهم الفنلنديين. وبهذا يكون هذا العالم قد ترك بصماته واضحة لا في المدرسة الاستشراقية الروسية وحدها، بل حتى في المدارس الأجنبية. ومن أبرز تلاميذه الفنلنديين نذكر على سبيل المثال "هيرمان كيلگرين" (A. H. Kellgren) وخاصة "گيورگ والين" (G. A. Wallin) الذي كانت تجمعه بأستاذه أواصر صداقة متينة و« الذي ساح في جزيرة العرب وفي بلاد مصر وسورية سنين عديدة تحت اسم عبد الوالي ... » (46).

(44) قلدت الحكومة الروسية صدر الشيخ محمد عياد الطنطاوي بأوسمة عالية، منها "وسام القديسة آنّا" (حنه). وقد كتب بهذا الصدد مازحا:

إني رأيت عجبا في بطرسبورغ وأنّهْ، شيخ من المسلمين يضم في صدره حنّهْ!

والجدير بالذكر أن الرسام الروسي الشهير "مارطينوف" رسم للشيخ لوحة فنية رائعة يظهر فيها هذا الوسام على صدره. وقد أتى "كراتشكوڤسكي" بهذه الصورة في كتابه "مع المخطوطات العربية" (انظر بين الصفحتين 232 و233 في الترجمة العربية، والصفحة 143 في الطبعة الروسية).

(45) أحمد تيمور باشا، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ص. 389.

(46) كراتشكوفسكي، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، 1924، ج 12، ص. 563.

توفي الشيخ محمد عياد الطنطاوي سنة 1861 في "سان بيترسبورگ" ودفن بها. وقد عانى العالم في السنوات الأخيرة من حياته من مرض عضال ألزمه الفراش وشل أعضاءه وحرمه من الكتابة...(47).

ويمكن القول إن الشيخ بقي مغموراً منذ وفاته (1861) إلى غاية العقد الثاني من القرن العشرين حتى كادت تنساه الساحة العلمية في وطنه العربي والبلاد الروسية. ومن طرائف الأمور أن السبب الذي دعا إلى الرجوع إليه والبحث في مختلف فترات حياته وفي مصنفاته راجع بالأساس إلى خطإ في كتابة اسمه ورد في مقالة حول تاريخ الدراسات العربية في روسيا كتبها السيد ديبو المعلوف سنة 1924 في مجلة «المجمع العلمي العربي في دمشق»، فقد جاء عند صاحب المقالة اسم الشيخ «محمد عياض» (بالضاد) عوض "عياد". فسارع العالم أحمد تيمور إلى كتابة مقالة في نفس المجلة صحح فيها الخطأ وأتى بعدد من المعلومات حول الشيخ الطنطاوي استقاها من بعض الأوساط العلمية في جامعة الأزهر(48). وكتب بعد ذلك في نفس السنة ونفس المجلة العالم الروسي الكبير "كراتشكوفسكي" مقالة(49) أتى فيها بعدد من المعلومات حول حياة الشيخ في "سان بيترسبورگ" وعن بعض مؤلفاته.

وهكذا انطلق الاهتمام بهذا العالم العربي، وتجندت أقلام كثيرة محاولة إزاحة غبار النسيان عنه. غير أن "كراتشكوڤسكي" كرس له جزءاً مهماً من حياته واستمر اهتمامه به إلى أن فارق الحياة عام 1951. وقد نجح بالفعل في التعريف بالشيخ محمد عياد الطنطاوي وبمؤلفاته ومختلف أطوار حياته في كل من مصر وروسيا وذلك من خلال عدد من دراساته،

---

(47) انظر عن معاناة الشيخ وصراعه من أجل الكتابة في كتاب كراتشوفسكي: «مع المخطوطات العربية»: صفحات الذكريات عن الكتب والناس، دار التقدم، موسكو، دون ذكر اسم المترجم وسنة النشر، ص. 240-241-242.

(48) أحمد تيمور باشا، المقالة المشار إليها أعلاه.

(49) إيگناتي كراتشكوفسكي، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، 1924، ج 12.

ولعل أهمها هو كتابه "الشيخ محمد عياد الطنطاوي الأستاذ بجامعة سان بيترسبورگ" (50) الذي صدر عام 1929 في لينينگراد (سان بيترسبورگ حالياً). وقد قامت فيما بعد الأستاذة كلثوم عودة ڤاسيليڤا بترجمته إلى اللغة العربية (51).

أما مؤلفات الشيخ الطنطاوي فلم ينشر منها إلا القليل، وكان آخرها كتاب "رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية" المسماة بـ"تحفة الأذكيا بأخبار بلاد الروسيا" الذي قدم له وحرره الدكتور محمد عيسى صالحية (52). ويقع هذا الكتاب في 193 صفحة، وهو موزع إلى ثلاثة أجزاء، هي: أ- مدخل للرحلة حتى وصول المؤلف إلى العاصمة الروسية، ص. 1-52، ب- تاريخ روسيا والتطور الحضاري الذي عرفته العاصمة إلى حدود عهد "نيكولاي" الأول، ص. 52-150، ج- العادات والتقاليد الروسية، ص. 151-193.

والحقيقة أن حياة الشيخ معروفة الآن بما فيه الكفاية ويمكن الرجوع إلى تفاصيلها في كتابي "كراتشكوفسكي" ومحمد عيسى صالحية المذكورين، لذا لن نعود للحديث عنها مرة أخرى. وسوف نتوقف بالمقابل عند مؤلفات الشيخ وهي كثيرة ومتنوعة (53).

من المعلوم أن الكتاب الذي أكسب الشيخ محمد عياد الطنطاوي شهرة في العالم العربي هو "تحفة الأذكيا، بأخبار بلاد الروسيا" الذي يعتبر أهم مؤلفاته، وقد تكون قيمته العلمية والتاريخية في نفس مستوى مؤلف صديقه رفاعة الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز". وقد أهدى

---

(50) كراتشكوفسكي، الشيخ عياد الطنطاوي، الأستاذ بجامعة سان بيترسبورگ، أكاديمية العلوم السوڤييتية، لينينگراد، 1929 (بالروسية).

(51) كراتشكوفسكي، حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ترجمة كلثوم عودة، القاهرة، 1964.

(52) رحلة الشيخ الطنطاوي إلي البلاد الروسية المسماة (1840-1850) بتحفة الأذكيا بأخبار بلاد الروسيا، قدم لها الدكتور محمد عيسى صالحية، عمان، دار البشير للنشر، 1992.

(53) يقول كراتشكوفسكي إن عدد مؤلفات الشيخ 41 مؤلفاً كتب معظمها في العاصمة الروسية. انظر: كراتشكوفسكي، حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ص. 85.

الشيخ مؤلفه إلى السلطان التركي عبد الحميد بعد عام 1850 . وتوجد من هذا الكتاب نسختان، الأولى وهي المهداة إلى السلطان محفوظة الآن في جامعة إستانبول وهي مسجلة تحت رقم 766 عربجة[54] . وقد ورد ذكرها لأول مرة عند المستشرق الألماني "ريشير" (Rescher) في إحدى دراساته البيبليوغرافية عام 1924 . وتمكن "كراتشكوفسكي" من الحصول على صورة منها بفضل مساعدة الأستاذ "فؤاد كوبريلو"، فسارع إلى إعطاء معلومات أولية حول هذا المخطوط في مقالة نشرت عام 1927 وعنوانها "مؤلف مجهول للشيخ الطنطاوي" . أما النسخة الثانية وهي في حالة غير جيدة فقد اكتشفت في مدينة لييننگراد (سان پيترسبورگ) . وقد تحدث "كراتشكوفسكي" عن ظروف اكتشافها في كتابه "مع المخطوطات العربية" . ويبرز كتاب "تحفة الأذكيا . . ." عبقرية الشيخ ومدى تفتحه على الحياة العصرية في أوروبا كما سبق وأشرنا إلى ذلك من خلال ما جاء في رسالة له موجهة إلى رفاعة الطهطاوي .

أما باقي مؤلفات الشيخ الطنطاوي فيمكن تقسيمها إلى نوعين اثنين من الدراسات :

1- المؤلفات التي يمكن نعتها بالتقليدية، أي ذلك النوع الذي كان متداولاً بين علماء الأزهر الشريف في ذلك الوقت .

2- المؤلفات التي كتبها الشيخ بعد احتكاكه بالأوروبيين في القاهرة أولاً ثم في "سان پيترسبورگ" .

إن مؤلفات الشيخ التي صنفناها في النوع التقليدي كثيرة، غير أن المستقلة منها قليلة، وجلها حواش وشروح وتقاييد وتعاليق على مؤلفات غيره . وقد ذكرها بتفصيل كل من "كراتشكوفسكي" ومحمد عيسى صالحية . ولا يزال البعض منها محفوظاً في مكتبة جامعة "سان پيترسبورگ" وعند بعض الخواص في مصر .

---

(54) عن محمد عيسى صالحية في كتاب "رحلة الطنطاوي إلى البلاد الروسية . . ."، ص . 24 .

أما النوع الثاني من مؤلفاته فهو متصل أساساً بالدراسات اللغوية والأدبية والتاريخية التي كان الشيخ يهيئها للاستعانة بها في التدريس. والملاحظ أن الطنطاوي لم يتأقلم مع البيئة فحسب بل دخل بشكل شبه طبيعي في جو الدراسات الاستشراقية كذلك، إذ نجد أن النوع الثاني من مؤلفاته يخضع لاهتمامات الاستشراق آنذاك كدراسة اللهجات العربية والحكايات والأمثال الشعبية... ونذكر من بين هذه المؤلفات على الخصوص:

- حال الأعياد والمواسم في مصر.
- كتاب الحكايات.
- التحيات المعتادة في كلام العامة.
- مجموعة أمثال عربية مصحوبة بترجمتها الروسية.
- قواعد اللغة العربية العامية (المصرية)...

وللشيخ أيضاً مؤلف صغير الحجم عرض فيه سيرته الذاتية، وقد سهر المستشرق الألماني "كوسيگارتن" (Kosegarten) على طبعه باللغتين العربية والألمانية[55].

ومن الأمور التي تسترعي الانتباه أن الشيخ الطنطاوي تعلم اللغة الروسية وأتقنها حتى ألف بها. وأهم مؤلفاته بهذه اللغة هو كتاب "قواعد اللغة العربية (الفصحى)، وهو محفوظ في مكتبة جامعة "سان بيترسبورگ". يقول عنه "كراتشكوفسكي": «... والقواعد فيه مشروحة بالتفصيل على حسب الأسلوب العربي الموضوع في أساس الكتاب (...)، وإن ما يسترعي النظر تصحيحاته الجدية والمنتظمة لعدد من الأخطاء الواردة في كتاب "سيلڤيستر دو ساسي..."[56].

---

(55) Kosegarten, I. G. L. Autobiographie des Scheich Ettantawi, Zu Petersburg, ZKM, Bd. 7, 1850, p. 48-63, 197-200.

(56) كراتشكوفسكي، حياة محمد عياد الطنطاوي، ترجمة كلثوم عودة، ص. 99.

ومعلوم أن كتب النحو العربي المكتوبة بالروسية والمعدة للطلبة المستشرقين كانت نادرة، وبقي عددها خلال قرن من الزمن لا يتجاوز الثلاثة، وكان الأول لبولديرييف (Boldyryev) الذي صدر عام 1827 بموسكو، والثاني لناڤروتسكي (Navrotsky) عام 1867 . أما الثالث فهو كتاب الشيخ الطنطاوي الذي بقي مخطوطاً والذي يرجع عهده إلي العقد الخامس من القرن التاسع عشر. ومعلوم كذلك أن ناڤروتسكي الذي كان يعمل مع الشيخ في نفس الجامعة ساهم في نسخ مخطوط الطنطاوي. لذا يقول كراتشكوفسكي: «عندما أصدر ناڤروتسكي مؤلفه برز سؤال حول العلاقة بين الكتابين... (...) إلا أن الأمر، يضيف العالم الروسي، يتطلب بحثاً خاصاً لأنه عند مقارنتنا بعض الفصول من البحثين مقارنة سريعة لم نر تشابها بينهما...»[57] غير أنه من المؤكد أن ناڤروتسكي استفاد كثيراً من كتاب الشيخ. ويبقى كتاب الطنطاوي "قواعد اللغة العربية" الكتاب الوحيد في النحو العربي المكتوب باللغة الروسية والمؤلف من قبل أستاذ عربي.

وللشيخ الطنطاوي كذلك ترجمة عربية لكتاب المؤرخ الروسي "أوسترالوف" (Ostralov) "تاريخ روسيا".

ومما يزيد في استغراب المهتم بهذه الشخصية الفريدة من نوعها أن الشيخ الطنطاوي تعلم اللغة الفرنسية كذلك وألف بها. ونذكر من مؤلفاته بهذه اللغة كتابه "Traité de la langue vulgaire"، الذي طبع في مدينة لايپزيگ الألمانية عام 1848 . كما نذكر من بين مقالاته بالفرنسية:

-Observations sur l'Extrait du voyage d'Ebn Djobeir par Amari.

-Observations sur la traduction de quelques vers arabes.

-Observations sur la Rhétorique des nations musulmanes.

وكانت مقالاته تنشر على صفحات بعض المجلات الاستشراقية مثل:

-Le Journal Asiatique.

---

(57) نفسه، ص. 100.

-Bulletin historique et philologique.

-Mélanges Asiatiques.

وللشيخ كذلك قاموس عربي - فرنسي، لكن هذا المؤلف يعد ضمن كتاباته التي ضاعت.

وبالإضافة إلى الروسية والفرنسية كان الشيخ يتقن كذلك اللغتين الفارسية والتترية، فلقد ترك ترجمة عربية للباب الأول من كتاب سَعْدي "گلِسْتان" وقاموسا "تتري-عربي". ويحتفظ بهذين المخطوطين في مكتبة جامعة سان پيترسبورگ.

ويبقى كتاب "تحفة الأذكيا..." تحفة حقيقية وأول كتاب عربي تناول موضوع تاريخ روسيا وثقافتها وأدبها وعادات أهلها. كما أنه أعطى في صفحة واحدة وصفاً جامعاً ودقيقاً للغة الروسية.

ويستحق هذا العالم العربي الكبير أن ترصد له دراسات مستفيضة وأن يعتني الباحثون العرب بجمع مؤلفاته وترتيبها والعمل على التعريف بها على غرار ما قام به الأستاذ "كراتشكوفسكي" من خلال عدد من دراساته، ولعل أهمها هو كتابه الذي سبقت الإشارة إليه وعنوانه "الشيخ الطنطاوي، الأستاذ بجامعة سان پيترسبورگ"، ويحتوي هذا الكتاب على:

أ- مقدمة.

ب- الفصل الأول وعنوانه: الطنطاوي في مصر وسفره إلى روسيا، 1810-1840.

ج- الفصل الثاني: الطنطاوي في روسيا، 1840-1861.

د- الفصل الثالث: مؤلفات الطنطاوي.

هـ- ملحقات (وعددها أربعة).

ونعتبر أنه من واجبنا أن ننوه في هذه الدراسة بالمجهود الجبار الذي قام به العالم "كراتشكوفسكي" للتعريف بالشيخ الطنطاوي. فلقد خصص

كثيراً من وقته لنفض غبار النسيان عنه ولإنقاذ عدد كبير من مؤلفاته من الضياع. وما كان للعالم أن يبذل كل هذا الجهد لولا إعجابه الكبير بالشيخ وحبه العميق له. ولا يخفي "كراتشكوفسكي" مشاعره هذه في جميع كتاباته حول الطنطاوي. ولعلها جاءت واضحة أكثر في الصفحات التي كتبها حوله في مؤلفه "مع المخطوطات العربية"، وخاصة في السطور الأخيرة منه حين قال: «صدر كتابي الصغير حول الطنطاوي في بداية عام 1930، ولست أدري لماذا لم يعجب البعض، لكن عزائي كان أن المستعربين والعرب وخاصة المصريين منهم، قدروه وأثنوا عليه بأحر العبارات، وقد واجهتني العديد من الصعوبات وقاسيت الأمرين وأنا أؤلف هذا الكتاب، وإنني، إلى غاية يومنا هذا، كلما سُئلت عن مؤلفاتي التي أعتبرها جديرة بأن تعد أثراً من الآثار العلمية الكبيرة، فإنني أشير دائما إلى أربعة كتب فقط، أولها دراستي حول شاعر دمشق المرح[58] (...) وثانيها بحثي حول الرسالة الهجائية الرائعة للحكيم الأعمى[59] (...) وثالثها دراستي حول نظرية الشعر لصاحبها الأمير الشاعر والعالم اللغوي[60] (...) ورابعها بحثي حول الشيخ المصري، الأستاذ "بسان پيترسبورگ"[61]. غير أنه يبدو لي من حين لآخر، ولست أدري لماذا، أنني أفضل الكتاب الرابع على باقي الكتب الأخرى. وإنني كثيرا ما أفتحه لأنظر إلى صورة الشخصية التي يدور الحديث حولها[62].

(58) يتعلق الامر بـ: أبو الفرج الوأوأ الدمشقي، مواد لوصف الإبداع الشعري، پيتروگراد، 1914، (بالروسية).

(59) يتعلق الأمر بـ: رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري، (النص العربي، ترجمة إلى الروسية وتعليق)، ليننگراد، 1932، (بالروسية).

(60) يتعلق الأمر بـ: Kitab al-Badï of Abd Allah Ibn al Mu'tazz, G. M. S., X, London, 1935.

(61) يتعلق الامر بـ: الشيخ الطنطاوي، الأستاذ بجامعة سان پيترسبورگ، ليننگراد، 1929.

(62) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، موسكو، 1965، (الطبعة الرابعة)، ص. 152، (بالروسية) (Nad arabskimi rukopisyami)، وكذلك: الترجمة العربية، ص. 242.

د- قسم تعليم اللغات الأجنبية بوزارة الخارجية:

كان لقسم التعليم بوزارة الخارجية أثر مهم في تطور الدراسات الاستعرابية، ومعلوم أن هذا القسم كان يعطي أهمية خاصة لتعليم اللغات الأجنبية الغربية منها والشرقية. ولقد سبق في موضوع حديثنا عن النصف الأول من القرن الثامن عشر أن أشرنا إلى أن العالم الألماني "كيهر" هو الذي أعطى انطلاقة تدريس اللغات الشرقية بهذه المؤسسة الدبلوماسية. ومن بين المتخصصين في اللغة العربية الذين تخرجوا منها نذكر على الخصوص السيد "گامازوف" (M. A. Gamazov) (1812-1893) الذي عمل فيما بعد ضابطاً في الجيش ومهندسا وقام برحلات كثيرة إلى الشرق العربي، وكان له تأثير ملموس على العديد من الكتاب والعلماء من خلال أعماله الأدبية والعلمية[63]. غير أن الدارسين في هذه المؤسسة، غالباً ما كانوا، بحكم طبيعة عملهم الدبلوماسي والإداري، يفقدون الصلة مع الأوساط العلمية...

هـ- دور الصحافة في التعريف بالشرق العربي:

كان لنشاط الصحفيين والمترجمين أثر بالغ الأهمية في عملية التعريف بأعمال المستشرقين، وبالتالي بالشرق عامة والشرق العربي الإسلامي خاصة، وقد اشتهرت بعض الدوريات الروسية بكتاباتها حول ثقافة الشرق العربي، كما أنها لعبت دوراً مهماً في تطوير حركة الترجمة الأدبية من العربية إلى الروسية. ومن بين هذه الدوريات الرائدة نذكر على سبيل المثال مجلات "المخبر الأسيوي" و"مخبر أوروبا" وخاصة "تلغراف موسكو" التي كان على رأسها أحد عشاق الأدب العربي وهو السيد "پوليفوي" (Polevoy) الذي تقول عنه الدكتورة مكارم الغمري: «... وقد انعكس حبه واهتمامه بالشرق العربي على نشاطه كرئيس تحرير لمجلة "تلغراف موسكو" التي اهتمت أعدادها بالموضوعات العربية المتنوعة

---

(63) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 112.

التي شملت مقتطفات من أدب الرحالة، وتحليلات لأعمال المستشرقين، ومختارات من الأدب العربي وبخاصة "ألف ليلة وليلة"، وترجمات للمؤلفات الغربية عن الشرق العربي. بالإضافة إلى ذلك فقد اهتمت المجلة بنشر ترجمات للأقوال العربية المأثورة ولقصائد امرئ القيس، وزهير وعنترة، وهي الترجمات التي كانت تنجز من خلال لغات وسيطة، وقد استمر صدور المجلة لمدة عشر سنوات لعبت خلالها دوراً ريادياً في الترويج للأدب العربي في روسيا في مطلع القرن الماضي، ولم يكن اهتمام مجلة "تلغراف موسكو" بالأدب العربي مجرد صدفة، بل كان تجاوبا مع القضايا العامة للاستشراق الروسي والأدب الرومانتيكي»[64]. وبصدد الحديث عن الصحافة والترجمة لا بد من الإشارة كذلك إلى إحدى الشخصيات التي أسدت كثيراً من الخدمات بالمساهمة في العمل الاستشراقي والتعريف به، ويتعلق الأمر بالسيد "بيرگ" (N. V. Berg) (1823-1884) وهو أديب وصحفي ومترجم. ومن أهم أعماله نذكر على سبيل المثال الأنطولوجية التي كتبها عام 1854 وعنوانها "أغاني مختلف الشعوب" التي احتوت - من ضمن ما احتوته - عدداً من القصائد الشعرية العربية التي جاءت ترجمتها الروسية في الكتاب بإزاء أصلها العربي[65].

(64) مكارم الغمري، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، ص. 51-52.
(65) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 114.

II- ترسيخ التقاليد العلمية في المدرسة الاستشراقية الروسية

شهدت بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر عدداً من الأحداث التي غيرت صورة الساحة الاستشراقية الروسية. ففي سنة 1851 توفي العالم "فرين"، ثم مات سنة 1858 "سينكوفسكي". وسوف يكون من باب الإطناب الإطالة في ذكر الخسارة الكبيرة التي منيت بها المدرسة الاستعرابية الروسية بفقدان هذين القطبين. لكن سنة 1855 عرفت حدثاً في غاية الأهمية، ويتعلق الأمر بتأسيس "كلية اللغات الشرقية" بجامعة "سان بيترسبورگ".

والملاحظ أن التقاليد العلمية الاستشراقية في تلك الفترة كانت قد ترسخت بصفة نهائية في الإمبراطورية الروسية، وبديهي أن الفضل في هذا يرجع إلى تلك المجموعة الكبيرة من الأساتذة الذين سبق وأشرنا إليهم، وخاصة منهم "فرين" و"سينكوفسكي". فقد كان عمل كل واحد منهما - الأول في "المتحف الأسيوي" والثاني في الجامعة - بمثابة الأسس المتينة التي شكلت الانطلاقة لتشييد بناء راسخ ومتكامل. يقول الأستاذ سهيل فرح عن ترسيخ تقاليد الاستشراق الروسي: «... وقد ساعد التراث الغني الذي تركه المستعرب الكبير "فرين" في إغناء خزانة المخطوطات في "المتحف الأسيوي" وفي ترسيخ وتكريس تقاليد علمية في ميدان الاستشراق، الأمر الذي أدى إلى دفع مسيرة الاستشراق إلى الأمام، تمثل هذا، بإقامة كلية خاصة للغات الشرقية... هذه الكلية التي تمركز وتمحور حولها الاستشراق والاستعراب الروسي...»[1].

---

(1) سهيل فرح، الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية، ص. 124.

1- كلية اللغات الشرقية في "سان بيترسبورگ":

بعد موت "فرين" خلفه ألماني آخر سبق ذكره في سياق حديثنا عن جامعة "خاركوف"، ويتعلق الأمر بالأستاذ "دورن" (B. Dorn)[2] (1805-1881) الذي التحق بالعاصمة عام 1835 واشتغل أستاذا بقسم التدريس بوزارة الخارجية الروسية، ثم اختير عضواً في أكاديمية العلوم. ومديراً للمتحف الأسيوي خلفاً للعالم "فرين". وقد قضى "دورن" بالعاصمة خمسا وأربعين عاماً وخصص جل وقته للعمل في "المتحف" وفى "المكتبة العامة". غير أن "المتحف الأسيوي" لم يعد في عهده يلعب ذلك الدور التنظيمي والريادي الذي كان يقوم به من قبل، فتعرض مديره الجديد للعديد من الانتقادات التي كانت تصدر عن المستعربين وخاصة منهم تلامذة "فرين" و"سينكوفسكي". لكنه، رغم كل هذا، يجب الاعتراف بأن "دورن" أسدى للدراسات الاستعرابية خدمات علمية كبيرة. ولعل أهم ما قام به يتمثل في النشاط المتنوع التالي: أولا: النشرات البيبليوغرافية الخاصة بالمراجع المخطوطة العربية والفارسية المتصلة بتاريخ القوقاز التي كان يعدها بانتظام، ثانيا: فهارس المخطوطات الشرقية عامة والعربية خاصة التي وضعها سنة 1852، ثالثا: البحوث التي قام بها في مجال دراسة الأسطرلابات العربية، رابعا: الفهرس المتعلق بالمطبوعات الإسلامية الأولى وخاصة تلك التي طبعت بمدينة "قازان"[3].

تكونت أطر كلية اللغات الشرقية التي أنشئت سنة 1855 من الأساتذة الذين كانوا يعملون بمختلف حقول الاستشراق في "سان بيترسبورگ"، وكذا من بعض أساتذة شعبة الدراسات الشرقية لمدينة "قازان" التي تم إقفالها. وعين أحد هؤلاء عميدا للكلية الجديدة. ويتعلق

---

(2) انظر حوله: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 71.

(3) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 124.
لـ"دورن" كذلك عدد من الأبحاث والدراسات في موضوع المسكوكات الإسلامية نذكر من بينها على الخصوص:

-Das Asiatische Museum des kaiserlichen Akademie der Wissenschaften zu St -Petersburg- St Petersbourg, 1846, -in- 8°, XII - 776p.

-Inventaire des monnaies des khalifes orientaux..., St Petersbourg, 1877. -In- 8°, XVI-64p. (...).

الأمر بـ "كاظم ميرزا بك" [4] (1802-1870) وهو أستاذ من أصل آذربيجاني عمل بقازان ثم انتقل إلى العاصمة قبل تأسيس الكلية بها. يقول عنه نجيب العقيقي: «إنه عجمي متنصر». حصل كاظم بك على تعليم شرقي تقليدي متين، وألم بعلوم اللغات العربية والفارسية والتركية، كما استطاع في ظرف وجيز أن يتقن عدداً من اللغات الأوروبية الغربية، وقد اكتسب شهرة واسعة في الغرب، وكانت له مراسلات مع العديد من المستشرقين الأوروبيين. ترك كاظم بك في مجال الدراسات العربية عدداً من المؤلفات نذكر من بينها على الخصوص "مفتاح كنوز القرآن" [5] و"التحفة المفيدة في علم الأدب عند أهل العرب" [6][7]، كما ترك عدداً كبيراً من المقالات تناول بالدرس في جلها موضوع التاريخ الإسلامي. وتجدر الإشارة إلى أنه كان سباقا لدراسة الحركة الدينية التحريرية في بلدان القوقاز التي تزعمها الشيخ شامل الكمراوي الذي سبق الحديث عنه في الفصل الأول من هذه الدراسة [8].

خلف "كاظم ميرزا بك" على رأس كلية اللغات الشرقية الأستاذ "موخلينسكي" (M. D. Mukhlinskiy) (1808-1877)، وظل عميدها من سنة 1859 إلى غاية 1866 . وبقي اسم هذا العالم مقرونا باكتشافه للمخطوطة الفريدة للجغرافي العربي اليعقوبي "كتاب البلدان" [9] المحفوظة حالياً في "سان بيترسبورگ" ضمن مجموعة "المكتبة الجغرافية العربية" (Bibliotheca Geographorum Arabicorum) .

ومن وجوه الاستشراق التي برزت بشكل مثير في تلك الفترة هناك أحد تلامذة "كاظم ميرزا بك"، وهو "بيريزين" (I. B. Berezin) (1818-1896) الذي كان متخصصا في الدراسات التركية بالدرجة الأولى،

---

(4) سوف نرجع إلى كاظم بك في الفصل الذي خصصناه للدراسات حول الإسلام. انظر حوله: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 65.

(5) طبع في سان بيترسبورگ عام 1859 .

(6) طبع في قزان عام 1269هـ.

(7) انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 65.

(8) سوف نعود لهذه الشخصية في الفصل الخاص بالدراسات حول الدين الإسلامي.

(9) طبع هذا الكتاب فيما بعد في هولاندا، انظر: اليعقوبي، كتاب البلدان، ليدن، 1861 .

غير أن إلمامه الكبير باللغتين العربية والفارسية جعله يحتل مكانة مرموقة في ميدان الدراسات الاستعرابية كذلك. تلقى "بيريزين" دراساته الجامعية في "قازان"، ثم قام برحلة دراسية إلى بلدان الشرق الأوسط، من إيران إلى مصر، استغرقت ثلاث سنوات. والجدير بالذكر أن "بيريزين" نشط كثيراً في مجال الأدب الروسي، فلقد ألف عدداً كبيراً من القصص ونظم بعض القصائد الشعرية التي غالباً ما كان يستقي موضوعاتها من رحلته العربية... أما أبحاثه حول الدين الإسلامي[10] وكتاباته حول رحلته إلى الشرق العربي فإن بعضها لم يفقد حتى الآن من قيمته، خاصة في مجال تاريخ وتطور هذا النوع من الدراسات في روسيا. وما زالت الدراسات التي أنجزها حول اللهجات العربية وخاصة منها لهجة بغداد والبصرة تشكل إلى يومنا مرجعا أساسيا لا مثيل له في ميدان الدراسات اللغوية عامة ودراسة اللهجات العربية خاصة[11]. ولعل أهم عمل علمي قام به "بيريزين" هو المؤلف الضخم الذي أشرف على إنجازه والمتمثل في "دائرة المعارف الروسية" (1872-1879) التي تتألف من 16 جزءا. فقد قام شخصيا بتحرير الأقسام الخاصة بالاستشراق والاستعراب والدراسات الإسلامية في روسيا[12]. وكانت "لبيريزين" مكانة خاصة في الساحة الاستشراقية الروسية[13] بفضل معرفته الواسعة بالعالم العربي الإسلامي وكثرة إنتاجه العلمي المتنوع. وقد «اكتسب شهرة واسعة في الأوساط العلمية وتقدير جميع الأدباء والمستشرقين واحترامهم»[14].

قام أحد المستشرقين الروسيين وهو الأستاذ "زوتوف" (V. Zotov) (1821-1896) بإصدار الجزء الأول من مؤلفه "تاريخ الآداب العالمية"، غير

---

(10) انظر حوله وحول أعماله: الفصل الخاص بالدراسات حول الإسلام من بحثنا هذا وكذلك: العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 73.

(11) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ....، ص. 128.

(12) نفسه.

(13) له كتب في وصف رحلته إلى الشرق، منها على الخصوص "رحلة إلى سورية في الشتاء"، و"دليل المسافر في الشرق" (1844) وقد ساعده على وضع هذا الكتاب الأخير العالم "سينكوفسكي". انظر حوله وحول مؤلفاته: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 73.

(14) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب، ص. 128.

أنه اتضح منذ البداية أن هذا العمل الضخم لا يستطيع أن ينجزه شخص بمفرده، فتجندت مجموعة من العلماء تحت إشراف الأستاذين "كورش" (F. E. Korch) و"كيرپيتشنيكوف" (Kirpitchnikov) لإعادة تأليف هذا الكتاب[15]، ونجحت هذه المجموعة في مهمتها التي استغرقت من 1880 إلى 1892 . ولقد تضمن الجزء الثاني دراسة حول تاريخ الأدب العربي بقلم الأستاذ "خولموگوروف" (I. N. Kholmogorov)[16].

ومن بين وجوه الاستشراق اللامعة في تلك الفترة نشير كذلك إلى الأستاذ "خڤولسون" (D. A. Khvolson) (1819-1911) الذي ترأس قسم الدراسات السامية بالجامعة زهاء نصف قرن. وهو صاحب "عدة مقالات عن الشرق من أشهرها: «الصابئة (1856) والزراعة عند الأنباط (مخطوط) وكتاب ما نقله العرب عن آثار البابليين الأقدمين (1859)، ونشر القسم الثامن من كتاب الفهرست لابن النديم عن الخرافات والشعوذة (بطرسبرج، 1856)، وما ورد في الأعلاق النفيسة لابن رسته عن الروس والصقالبة وشعوب البلقان متنا وترجمة (1869)»[17].

يعتبر الأستاذ "گريگورييف" (V. V. Grigoriyev) (1816-1881) إحدى الشخصيات التي كانت لها إسهامات كبيرة في إثراء محتوى الدراسات العربية بكلية اللغات الشرقية التي انتخب عميداً لها وسيرها من 1873 إلى 1878 ، كما أنه ترأس شعبة تاريخ الشرق أزيد من خمس عشرة سنة، وهو، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، أحد تلاميذ "سينكوفسكي"

(15) دراسات في تاريخ أدب القرن التاسع عشر، تحت إشراف "كورش" و"كيرپيتشنيكوف"، سان پيترسبورگ، 1880-1892 .

Otcherk istorii litertatury XIX stoletiya, SPb., 1880-1892.

كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ....، ص. 129-130 .

(16) خولموگوروف، دراسات في تاريخ الأدب العربي، تحت إشراف كورش وكيرپيتشنيكوف، ج. 2، سان پيترسبورگ، 1885، ص. 269-373 .

Kholmogorov, I. N., Otcherk istorii arabskoy literatury, pod. red. Korcha i Kirpirchnikovo, T. II., SPb, 1885, Str. 269-373.

كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ....، ص. 130 .

(17) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 73 .

الذين كانوا يترددون على "المتحف الأسيوي" كذلك للعمل فيه تحت إشراف "فرين". يقول عنه نجيب العقيقي: « ... وجه الدراسات العربية وجهة علمية، وجعلها فوق الأحداث السياسية، وكان واسع الاطلاع معنيا بعلم النقود والتراجم والمصادر التاريخية (العربية) لتحقيق تاريخ روسيا وآسيا الوسطى والقوقاز.... له مقالات وافرة عن الدراسات العربية في دائرة المعارف لـ"پلوشار" (Pluchar) وترجم إلى الروسية الرسالة الثانية في الجغرافيا لأبي دلف الينبوعي... »[18].

هكذا، يستطيع المهتم بتاريخ الاستعراب في روسيا أن يلاحظ أن كلية اللغات الشرقية استطاعت في ظرف وجيز أن تعطي ثمارها، فقد كانت تلقن تعليما من مستوى عال، كما كانت تحتضن مجموعة هائلة من العلماء أمثال "كاظم ميرزا بك" و"بيريزين" و"موخلينسكي" و"خْڤولسون" و"گريگورييف" وغيرهم...

كان على شعبة اللغة العربية في الكلية الجديدة أن تتعزز وتتنظم لمسايرة ما كان يجد من معرفة على جميع المستويات، فاستدعت لهذا الغرض الأستاذ "ناڤروتسكي" (M. T. Navrotskiy) (1823-1871)[19] الذي ينحدر من أصل أرميني ودرس بجامعة "قازان" على "كاظم بك" ودرّس بها قبل التحاقه "بسان پيترسبورگ". وقد واجهت الأستاذ الجديد صعوبات كثيرة في البداية، خاصة وأنه جاء ليخلف أساتذة ذاعت شهرتهم أمثال "سينكوفسكي" والشيخ محمد عياد الطنطاوي، لكنه وباعتراف الجميع، أدى مهمته بأمانة وكان في مستوى العلماء الذين سبقوه في الجامعة. ولقد اقترن اسم "ناڤروتسكي" بكتاب "نحو اللغة العربية"[20] الذي ألفه عام 1867 والذي سبقت الإشارة إليه ولعلاقته بمخطوط الشيخ الطنطاوي "كتاب قواعد اللغة العربية". وجاء هذا الكتاب ليسد فراغاً كبيراً في هذا

---

(18) نفسه، ص. 72.

(19) نفسه، ص. 74.

(20) M. Navrotskiy, Grammatika arabskovo yazyka, SPb., 1867.

المجال وليحل مكان "نحو..." "بولديرييف" الذي يرجع عهده إلى 1827 . وبغض النظر عن الثغرات والعيوب التي يمكن أن تنسب إليه، فإن هذا المؤلف ظل لمدة تزيد على ستين سنة كتاب قواعد اللغة العربية الفصحى الوحيد الذي درست به أجيال من الطلبة الروسيين[21].

إن التجربة الناجحة التي مرت بها الجامعة باستدعاء الشيخ محمد عياد الطنطاوي لتدريس اللغة العربية وأدبها، دفع المسؤولين عن الجامعة إلى استدعاء المزيد من الأساتذة العرب. وهكذا توافدت على مختلف مراكز الاستشراق بروسيا وخاصة منها "سان بيترسبورگ" و"موسكو" أعداد من هؤلاء المدرسين الشرقيين أمثال سليم نوفل (1828-1902) واللواء جرجس مرقص (1846-1912) وأنطون خشاب (1874-1919) وميخائيل يوسف عطايا (1852-1924) وبندلي جوزي (1871-1942) وتوفيق جبران قزما (1882-1958) وكلثوم نصر عودة ڤاسيليڤا (المولودة عام 1892)[22] وعبد الله كلزي (فيودور إيڤا نوڤتش كلزي) (1819-1912) وغيرهم... وكان الغرض من عملية استقطاب هؤلاء الأساتذة العرب هو توفير جميع الحظوظ للطلبة قصد الاحتكاك مباشرة مع مدرسين تكون اللغة العربية لغتهم القومية. كما أن أحد الأهداف الرئيسية كان هو التعرف على اللهجات العربية المتداولة في مختلف أقطار الشرق العربي. ويمكن القول بأن هذه السياسة أعطت ثمارها، فقد انصبت اهتمامات المستعربين على دراسة اللغة العربية الفصحى ولهجاتها. غير أن عدداً من هؤلاء الأساتذة العرب المسيحيين حادوا عن مهامهم التعليمية، وانصرفوا إلى الاشتغال بأمور لا علاقة لها بالعلم والتدريس كالأستاذ الذي خلف الشيخ محمد عياد الطنطاوي في الجامعة، وهو سليم نوفل الذي يقول عنه كراتشكوفسكي: « ... انصرف عن الاشتغال بالأدب، ورغم ذلك نشر بعض الكتب في الفقه الإسلامي باللغة الفرنسية، لكنها لم تكن كتبا

(21) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ...، ص. 73.
(22) انظر حولهم: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 65-66-67.

علمية، بل كانت أقرب إلى الكتب السياسية التي تحمل ظل ظله. وقد كان نوفل، كالكثير من العرب المسيحيين يعادي الإسلام بشدة. فغالبا ما كان يسمح لنفسه بالاستهزاء بالإسلام وبنبيه إلى درجة أن السفير التركي في روسيا احتج على صدور مثل هذه المؤلفات وطالب بمصادرة كتب نوفل...» [23].

2- معهد "لازارييف" [24] في موسكو:

بعد تخلي "بولديرييف" عن التدريس، توقفت الدراسات العربية في موسكو مدة طويلة كان يتخللها من حين لآخر بعض الاهتمام العابر بما يجري على الساحة الاستشراقية العالمية [25]. ويعتبر الأستاذ "پيتروف" (M. N. Petrov) (1826-1887) أهم شخصية علمية تستحق الذكر خلال هذه الفترة رغم أن اختصاصه الأول كان هو الدراسات الهندية. لقد درس "پيتروف" على "بولديرييف" وانتقل بعد ذلك إلى "سان پيترسبورگ" حيث كان يحضر محاضرات "سينكوفسكي". كما أنه كان يتردد على "المتحف الأسيوي" عند "فرين". وقد احتفظت المدرسة الاستشراقية الروسية باسم هذا الأستاذ اعترافا له بمساهمته الفعالة في تأليف "دائرة المعارف الروسية" التي أشرف عليها "پلوشار".

لم تعرف الدراسات الشرقية انطلاقة جديدة في موسكو إلا مع إنشاء "الأقسام الخاصة" التابعة لمعهد "لازارييف" التي كان من بين أساتذتها الأوائل اللواء جرجس مرقص، وهو مسيحي دمشقي الأصل، تلقى دراساته العليا في كلية اللغات الشرقية في "سان پيترسبورگ"، لكنه، يقول

---

(23) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، ص. 297-298، (الطبعة العربية). ص. 182، (الطبعة الروسية).

(24) نسبة لـ"آل أكيم لعزار لازارييف" الأرميني، وهو مؤسس مدرسة خاصة بتعليم الأطفال الأرمن لغتهم عام 1815. تحولت هذه المؤسسة عام 1841 إلى معهد لتدريس العلوم الدينية واللغات الشرقية.

(25) نذكر هنا على سبيل المثال الاهتمام الكبير الذي أولاه "گرانوفسكي" (Granovskiy) سنة 1854 لأعمال المستشرق البولوني "دوزي" (Dozy) (1820-1883). (انظر: كراتشكوفسكي، دراسات...، ص. 157).

"كراتشكوفسكي" «كان أستاذا متوسطا بعيدا كل البعد عن اهتمامات العصر العلمية..»[26]. لقد كتب مرقص عدداً من المقالات الصغيرة و«ترجم إلى الروسية رحلة البطريرك "مكاريوس" الحلبي، ومعلقة امرئ القيس وطبعها مع تعليقات ورسائل أخرى (بطرسبرج، 1889)، وكان أول من كتب في روسيا عن الأدب العربي الحديث»[27]. وشارك مرقص في المؤتمر الثالث للمستشرقين في "سان پيترسبورگ" بعرض عنوانه "الوضعية الراهنة للتعليم العمومي في سوريا". غير أن اسمه بقي في تاريخ الاستعراب الروسي مقرونا أساسا بكتاباته حول وضع المسيحيين في الشرق وحقوقهم.

التحق سنة 1873 بمعهد "لازارييف" أستاذ سوري مسيحي آخر ليعمل كمساعد لمرقص، ويتعلق الأمر بميخائيل يوسف عطايا (1852-1924) الذي بقي يعمل في ميدان الاستشراق بموسكو طيلة خمسين سنة. ويرجع له الفضل في ترجمة كتاب "كليلة ودمنة" (1889) ووضع عدد كبير من كتب تعليم اللغة العربية ومعجم عربي - روسي[28].

والجدير بالذكر أن معهد "لازارييف" عرف توافد عدد من الأساتذة الذين كانوا يعملون في "قازان"، ومن بينهم نذكر على سبيل المثال أحد الاختصاصيين في اللغتين الفارسية والعربية، وهو الأستاذ "خولموگوروف" (I. N. Kholmogorov) (1818-1891) الذي اشتهر في الساحة الاستشراقية الروسية كأحد أجود مترجمي عصره. ولقد ساهم، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، في تأليف كتاب "تاريخ الآداب العالمية" لزوتوف بترجمته إحدى مقامات الحريري وتقديم مختصر لتاريخ الأدب العربي[29].

---

(26) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 162.
(27) نجيب العقيقي، المستشرقون، ص. 65-66.
(28) نفسه، ص. 66.
(29) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ...، ص. 165.

ومن أبرز وجوه الاستشراق الروسي الذين عملوا في معهد "لازارييف" أحد تلاميذ "بيتروف"، وهو الأستاذ "كورش" (F. E. Korch) (1843-1915)، المتخصص في اللغتين العربية والفارسية الذي كان يمتاز بثقافة عالية وجد متنوعة شملت آداب عدد من الشعوب الغربية والشرقية. فقد كتب مقالات حول صناعة الشعر الإغريقي (1893) وحول الشعر العربي والفارسي (1908)... كما أنه كان يتتبع كل ما كان يجد على الساحة الاستعرابية من دراسات وطبعات جديدة لمختلف الترجمات ويكتب عنها مقالات أو يرد على بعض ما كان ينشر على صفحات المجلات والجرائد[30]. وقد نال "كورش" شهرة كبيرة كأحسن المختصين الروسيين في مجال العروض العربي، وهو الموضوع الذي كرس له جزءا لا يستهان به من حياته، وكان ينوي تأليف كتاب فيه، غير أنه توفي قبل إتمام عمله[31].

لعل ألمع شخصية عرفها الاستعراب الروسي في موسكو هو العالم الكبير "كريمسكي" (A. E. Krymskiy) (1871-1941) الذي يمكن اعتباره أحد العلماء الأوائل الذين شكلوا ما اصطلح على تسميته بالمدرسة الاستشراقية الروسية الجديدة التي نشأت في نفس الوقت في "موسكو" و"سان بيترسبورگ". وسوف نتعرف عليه وعلى بعض أفراد هذه المدرسة في الصفحات التي خصصنا لما أسميناه بسن رشد الاستشراق الروسي في هذا الفصل من دراستنا.

3- الاستشراق في قازان:

أما في مدينة قازان فإن سير الدراسات الاستشراقية عرف بعض التعثر، فبعد نصف قرن من العطاءات العلمية رفيعة المستوى طغت على الساحة بعض المراكز المناهضة للدين الإسلامي، وأحدثت عام 1854

(30) من مقالاته نذكر على سبيل المثال: "الفرق بين صناعة الشعر في العربية والفارسية" (1897)، و"تمثيلية عربية في موسكو" (1880) و"أشعار مرسلة من دمشق" (1882) و"صدور الطبعة الثانية لمعلقة امرئ القيس مترجمة من طرف "مرقص" (1885).

(31) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 167.

شعبة للتبشير تابعة لأكاديمية الرهبان القازانية التي جعلت من القذف والشتم في الإسلام ومقدساته هدفها الأسمى. وكانت هذه الشعبة تنشر سمومها على صفحات مجلتها "المبشر المناهض للإسلام". وفي هذا الإطار نرى أنه من الواجب التوقف ولو قليلا عند شخصية غريبة ومتقلبة الأطوار في مجال الدراسات العربية الإسلامية، ويتعلق الأمر بـ"إيلمينسكي" (N. I. Ilminskiy) (1822-1891) الذي سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة والذي يُعدّ ألمع الاختصاصيين في اللغتين العربية والتركية الذين أنجبتهم "قازان". لكنه انحرف عن طريق العلم النزيه، وتزعم في آخر حياته الحملات المناهضة للديانة الإسلامية في أكاديمية الرهبان. غير أن حياته لم تكن في بدايتها تسير في هذا الاتجاه. لقد تخرج "إيلمينسكي" من الأكاديمية سنة 1845 على يد "كاظم ميرزا بك" والتحق بهيئة التدريس بها، وفي عام 1851، لما بدأ الحديث عن إنشاء شعبة للتبشير ومناهضة الإسلام، سافر إلى مصر قصد الإلمام بعلوم اللغة العربية، فدرس في الأزهر الشريف على يد الشيخ علي البراني والشيخ إبراهيم الدسوقي (1811-1883)، وختم القرآن الكريم مرتين وحفظه عن ظهر قلب[32]. وأثناء عودته إلى بلاده كان يتوقف في كل مرحلة من مراحل سفره طلبا في العلم وخاصة في تعميق معلوماته في مختلف علوم الدين الإسلامي. وقد حصل فعلاً من العلم ما لم يحصل عليه غيره في ذلك العصر في روسيا[33]. ولما رجع إلى "قازان" عهد إليه بتدريس اللغتين العربية والتترية «حتى يتمكن الطلبة لا من استيعاب هاتين اللغتين فحسب، بل وكذلك من امتلاك القدرة على شرح حقائق الدين المسيحي للتتريين المسلمين»[34]، كما عهد إليه بتدريس مادة في تاريخ الإسلام سميت "تاريخ محمد والعقيدة المحمدية من خلال مصادرها". والحقيقة أن هذه المصادر كانت مزيفة وموضوعة من قبل الساهرين على شعبة

---

(32) نفسه، ص. 180.
(33) نفسه.
(34) نفسه.

التبشير. فأعطى "إيلمينسكي" الأولوية لتدريس اللغات مبتعداً جهد المستطاع عن التعليم الديني المناهض للإسلام. فما كان من رئاسة أكاديمية الرهبان إلا توقيفه عام 1858 متهمة إياه بالتعاطف مع التعاليم الإسلامية، وربما القيام بالدعوة لصالح هذا الدين![35]... التحق "إيلمينسكي" بعد ذلك، بمقاطعة "أورينبورگ" في الجنوب بحاكم هذه المنطقة، وهو "گريگورييف"[36] الذي أشرنا إليه في سياق حديثنا عن جامعة "سان پيتربورگ"، فصار مستشاراً له في الشؤون الدينية وأحد كبار مساعديه في تدعيم السياسة الاستعمارية في تلك المنطقة. وفي سنة 1863 عاد إلى "قازان" بعدما تنكر لآرائه القديمة وعين عام 1872 مديراً لإحدى المؤسسات التابعة للأكاديمية، وبقي يشغل هذا المنصب مدة عشرين سنة قضاها كلها في محاربة الإسلام والمسلمين، ولم ينتفع الاستشراق الجامعي الروسي بعلمه[37]. غير أن الأستاذ سهيل فرح لم يذكر هذا الجانب المعادي للإسلام من نشاط "إيلمينسكي". وهذا، في نظرنا خطأ كبير، لأن الرجل يعتبر من أشرس المناهضين للدين الإسلامي وقد حاول غير ما مرة الإساءة للإسلام من خلال كتاباته وتصرفاته.

لا شك أن عدداً كبيراً من العلماء عرفوا اضطهاد الساهرين على أكاديمية الرهبان بقازان... ولا شك كذلك أنهم عاشوا مغمورين، ولم يصلنا عنهم أدنى خبر... لأن هذه المؤسسة لم تنشأ إلا لمحاربة الدين الإسلامي في وسط التتر المسلمين والتصدي لكل عمل استشراقي نزيه حول الدين الإسلامي وتعاليمه وتاريخه، ولم تكن ترى في الأبحاث في مجال اللغة العربية وأدبها سوى وسيلة لبلوغ أهدافها. لم يكن، بالطبع، "إيلمينسكي" المستشرق الوحيد في "قازان" الذي كان يعادي الإسلام في كتاباته ودروسه، فقد سار على نهجه آخرون أمثال "مالوف" (E. A. Malov)

---

(35) نفسه.

(36) نفسه، سوف نعود للحديث عن "گريگورييف" في الفصل الخاص بالدراسات الإسلامية من دراستنا هذه.

(37) كراتشكوفسكي، نفسه.

(1835-1918) و "ماشانوف" (M. A. Machanov)[38] وآخرون ممن اختاروا سبيل التعصب رغم تكوينهم المتين في مجال علوم اللغة العربية، فأساؤوا لأنفسهم ولسمعة الاستشراق الروسي. ولقد حاول الأستاذ سهيل فرح التقليل من الجانب المعادي للإسلام عند كل من "مالوف" و"ماشانوف"... بل قلب الحقائق حين قال عن "مالوف": «إن دراساته المتنوعة (...) تميزت بالتناول الموضوعي العلمي (ص. 259)». أما ما قاله العالم "روزين" في حقه من أنه «لؤلؤة صغيرة» (ص. 259)، فهذا غير صحيح كذلك، لأن "روزين"، في معرض حديثه عن بعض دراسات "مالوف" قال بالحرف: «... نجد فيها (الدراسات) من حين لآخر بعض اللؤلؤات الصغيرة...»، أي أن "مالوف" يلتزم الموضوعية في بعض الأحيان، غير أن "روزين" يرى بأن هذه اللؤلؤات الصغيرة كان يتصدى لها، في نفس الدراسات، وابل من النقاشات والجدالات الفارغة... أما كتاب "ماشانوف" "دراسة حول واقع الحياة عند العرب في عصر محمد، مدخل لدراسة الإسلام" الذي صدر عام 1885، فلقد تصدى لمحتواه العالم "روزين" بشدة في مقالة تحليلية صدرت على صفحات مجلة الاستشراق الروسي "زاپيسكي" سنة 1888، وبقيت هذه المقالة تعتبر مدة عشرات السنين وثيقة نفيسة لفهم دور الدراسات الاستشراقية العلمية[39].

ورغم الإمكانات المادية والبشرية الضخمة التي كانت تتوفر عليها أكاديمية الرهبان فإنها لم تكن تجد آذاناً صاغية في الأوساط العلمية المحترمة، كما أن الحملة المعادية للإسلام التي كانت تخوضها لم تكن تلقى التأييد في الجامعات الروسية في "موسكو" و"سان پيترسبورگ"، بل إن عدداً من أقلام ذوي العلم النزيه كانت تكتب من حين لآخر لمناهضة هذا التيار المغرض.

---

(38) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 184.
(39) انظر حول هذا الموضوع: كراتشكوفسكي، نفسه، ص. 186.

عرفت مدينة "قازان" سنة 1878 حدثاً بارزاً في تاريخ الاستشراق الروسي، فقد قام أحد العاملين بالأكاديمية الأورثودوكسية، وهو الأستاذ "سابلوكوف" (G. A. Sablukov) (1804-1880)[40]، بإنجاز أول ترجمة روسية لمعاني القرآن الكريم مباشرة من الأصل العربي. والجدير بالذكر أن هذه الترجمة أعيد طبعها مرتين سنتي 1894 و1907، وبقيت فريدة من نوعها إلى غاية صدور ترجمة العالم كراتشكوفسكي عام 1963[41].

أما أبرز شخصية عرفتها جامعة قازان فهي الأستاذ بندلي جوزي (1871-1942)، وهو عربي مسيحي «من أهل القدس، تخصص في قازان باللغات السامية والدراسات الشرقية، وتولى التدريس في معهد الرهبان، ثم في جامعة قازان، فجامعة "باكو" إلى أن توفي. وقد عده المستشرقون الروس مرجعاً من مراجعهم...»[42]، وقد ترك الأستاذ جوزي عدداً كبيراً من المؤلفات نذكر من بينها "كتاب تعليم اللغة الروسية للطلبة العرب" وقاموس روسي عربي عنوانه "تاج العروس في معرفة لغة الروس" و"الحركات الفكرية في الإسلام" و"علم الأصول في الإسلام" و"أصل الكتابة عند العرب" و"قضية المصطلحات العلمية عند العرب المعاصرين"[43].

أُغلقت شعبة الاستشراق في قازان عام 1855 ورحل جل أساتذتها إلى "سان بيترسبورگ" حيث أُنشئت "كلية اللغات الشرقية" في نفس السنة. وفي عام 1861 استأنفت الجامعة القازانية تدريس اللغات العربية والتركية والتترية وعرفت ازدهاراً جديداً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر بفضل نشاط مجموعة من العلماء أمثال "گوتولد" و"كاطانوف" و"خولماگوروف" وغيرهم.

---

(40) انظر حوله: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 70.
(41) سنعود لموضوع ترجمة معاني القرآن الكريم في الفصل الخاص بالدراسات الاستشراقية الروسية حول الدين الإسلامي.
(42) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 66.
(43) نفسه.

III- سن رشد المدرسة الاستعرابية الروسية

يمكن القول، بدون تردد، إن المدرسة الاستعرابية الروسية بلغت سن الرشد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فقد عرفت الدراسات والأبحاث بها تطورا كبيرا على الصعيدين التطبيقي والنظري، كما أن اختصاصاتها تنوعت بشكل مثير للانتباه. ولم تعد هذه المدرسة تكتفي باستيراد العلوم بل صارت تصدرها على نطاق واسع، فبدأت حينئذ تتعامل مع مختلف المراكز الاستشراقية العالمية على قدم المساواة. وقد تمكنت كلية اللغات الشرقية في العاصمة، خلال تلك الفترة، أن تحقق العديد من الأحلام التي كانت تراود نفوس جميع المستشرقين الروسيين، فأصدرت مجلة علمية في مستوى عالمي، وهي مجلة "زاپيسكي"[(1)] ونظمت المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين في "سان پيترسبورگ" سنة 1876... وإذا كان علماء العاصمة يقومون بدور المحرك الرئيسي لهذه الأنشطة العلمية، فإن علماء آخرين، خاصة من موسكو، أسهموا بقسط وافر في هذه الحركة وساعدوا على إعطاء المدرسة الاستشراقية الروسية صبغة عالمية.

1 - "گيرگس" و"روزين" : مؤسسا المدرسة الاستشراقية الجديدة

أ- گيرگس

عرف عام 1858 تخرج أول فوج من طلبة كلية اللغات الشرقية بجامعة "سان پيترسبورگ"، وكان من ضمنه الطالب "گيرگس"

(1) اسمها الكامل: "نشرة الملحقة الشرقية لجمعية علوم الآثار". صدر عددها الأول عام 1886.
Zapiski Vostotchnovo otdeleniya arkheologitcheskovo obchestva (Z. V. O.).

(V. F. Girgas) (1835-1887)[2] الذي يعتبر أحد مؤسسي المدرسة الاستعرابية الجديدة[3].

تلقى "گيرگس" تعليمه الثانوي والعالي في "سان پيترسبورگ"، وتخصص في اللغات الشرقية والعربية والتركية بالدرجة الأولى، ثم رحل إلى "باريز" حيث تعرف، خلال سنتين ونصف، على مدرسة "سيلڤيستر دو ساسي" (A. Silvestre de Sacy)، المتمثلة آنذاك في تلميذيه "كوسان دوپيرسوڤال" (A. P. Caussin de Perceval) (1795-1871) و"رينو" (Joseph T. Reinaud) (1795-1867). ولقد أعجب الطالب أيما إعجاب بمؤلفات أستاذه الأول في مجال الأبحاث التاريخية واللسانية، كما انبهر أمام غزارة علم أستاذه الثاني في المجال الفيلولوجي. وأخذ "گيرگس" عن "رينو" اهتمامه ببعض جوانب الحركة الأدبية الحديثة التي بدأت تشق طريقها آنذاك في الأقطار العربية المشرقية[4].

مباشرة بعد إنهاء دراساته في أكبر مدارس الاستشراق الأوروبي انذاك، وهي المدرسة الفرنسية، أتيحت الفرصة لـ"گيرگس" لتعميق معلوماته بداخل الشرق العربي لمدة ثلاث سنوات، من 1861 إلى 1864 قضاها في كل من سورية وفلسطين ومصر. وكان يهتم في عين المكان بعلوم اللغة العربية، كما كان يوجه عناية خاصة لدراسة اللهجات المحلية. وبعد عودته إلى وطنه ناقش "گيرگس" سنة 1865 رسالة الماجستر التي أعدها وقدمها تحت عنوان "حقوق المسيحيين في الشرق حسب الشريعة الإسلامية". غير أن اهتماماته الرئيسية التي أخذها عن أستاذه "رينو" بقيت تدور حول النظريات النحوية العربية. وهو الموضوع الذي عالجه في أطروحة الدكتوراه التي ناقشها سنة 1873[5]. انضم "گيرگس" لهيئة التدريس سنة 1865، وعمل مساعدا لأستاذه القديم "ناڤروتسكي".

---

(2) انظر حوله: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 74.
(3) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ...، ص. 136.
(4) نفسه، ص. 137.
(5) نفسه.

ترك "گيرگس" عدداً كبيراً من المؤلفات العلمية والتعليمية نذكر منها على الخصوص "منتخبات اللغة العربية للطلبة"[6]، و"قاموس عربي روسي" (1881) . وبقي هذان الكتابان، خلال عشرات السنين، سندا ثمينا لكل من الأساتذة والطلبة في أقسام اللغة العربية بمختلف مراكز الاستشراق في روسيا[7]. ومن بين مؤلفاته نذكر كذلك "تاريخ الأدب العربي" (1874) و"درس في الشريعة الإسلامية" (1882)، وهو عبارة عن ترجمة لعدد من النصوص. لكن "گيرگس" دخل المحفل العلمي العالمي بنشره "الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري"[8] وبمساهماته في أعمال اللجنة الدولية للمستشرقين التي سهرت على وضع فهارس "كتاب الأغاني" (1900)[9].

من بين المستشرقين الذين عاصروا "گيرگس" وعملوا معه في حقل التدريس والبحث يجب الإشارة إلى أستاذين مختصين في الدراسات العبرية كانت لهما إسهامات مهمة في مجال الدراسات الاستعرابية، ويتعلق الأمر بـ"گاركاڤي" (A. J. Garkavi) (1835-1919) و"يوحنا گورليانـد" (J. Gurliyand) (1843-1890) . فقد كان الأول من رواد الاتجاه العلمي الذي جعل من المصادر العربية ركيزة أساسية لدراسة تاريخ شعوب الإمبراطورية الروسية. وتجلت اهتماماته خاصة في رسالة الماجستر التي ناقشها سنة 1868 وعنوانها "كتابات المسلمين حول السلاڤيين والروس". لكن "گاركاڤي" بقي يعرف في تاريخ الاستعراب بأبحاثه ودراساته حول الكتابات العربية العبرية المشتركة، وهي الأبحاث التي أنجزها خلال الفترة

---

(6) ساعد "گيرگس" في هذا العمل الأستاذ "روزين".

Girgas, V., Rozen, V., Arabskaya Khrestomatiya, SPb, 1876.

(7) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 138 .

(8) كتاب الأخبار الطوال، تأليف أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تصحيح ڤلاديمير جرجاس، الطبعة الأولى، في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، سنة 1888 .

Abu Hanifa ad-Dinaweri, "Kitab al-Ahbar at-tiwal", Publié par Vladimir Guirgass, Leide, 1888.

(9) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 138 .

الطويلة التي قضاها في المكتبة العامة في "سان پيترسبورگ" حيث كان يعمل في مصلحة المخطوطات. أما "گورلياد" فهو صاحب دراسة موضوعها "تأثير الفلسفة الإسلامية على فلسفة موسى بن ميمون"[10] (1863).

ب- روزين:

التحق بـ"گيرگس" سنة 1872 ليساعده في مهامه العلمية والتعليمية قطب آخر من الأقطاب الأوائل لمدرسة الاستعراب الروسية الجديدة، ويتعلق الأمر بتلميذه البارون "روزين" (V. N. Rosen) (1849-1908) الذي ترأس هذه المدرسة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين. لقد أنهى "روزين" دراساته العليا في كلية اللغات الشرقية في "سان پيترسبورگ" حيث حصل على تكوين متين في اللغتين العربية والفارسية بالدرجة الأولى والعبرية بالدرجة الثانية. ورحل بعد ذلك إلى "لايپسيگ" في ألمانيا حيث قضى سنة واحدة كان يحضر خلالها محاضرات أحد تلامذة مدرسة "سيلڤيستر دوساسي"، وهو العالم "فلايشر" (F. Fleischer) (1801-1888). ومعلوم أن هذا الأخير استطاع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أن يجعل من مدينة "لايپسيگ" مركزاً أوروبياً جامعاً للدراسات العربية يلعب ذلك الدور الطلائعي الذي كانت تلعبه "باريز" في النصف الأول من القرن. وبعد رجوعه إلى وطنه عمل "روزين" مساعداً لأستاذه "گيرگس" في كلية اللغات الشرقية. وسرعان ما اعترفت له مختلف الأوساط الجامعية بذكائه الفائق وعلمه الواسع رغم صغر سنه. يقول عنه تلميذه "كراتشكوفسكي": «لا شك أن "روزين" تلقى تعليماً عالياً ممتازاً وتتلمذ على يد أساتذة أكفاء. غير أنه يجب الاعتراف بأنه ينتمي إلى تلك الفئة من العلماء الذين يعتمدون، قبل كل شيء، على ذكائهم وعملهم الشخصي لتكوين أنفسهم»[11]. رحل "روزين" مرة أخرى إلى ألمانيا في صيف 1873 لحضور محاضرات العالم

---

(10) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 139.
(11) نفسه، ص. 140.

"أهلڤارد" (W. Ahlwardt) (1828-1909)، وهو آنذاك أكبر الاختصاصيين الأوروبيين في مجال دراسة الشعر العربي. بعد ذلك تكررت رحلاته الدراسية إلى الخارج، فكانت كل مرة مناسبة لربط علاقات متينة مع العديد من العلماء الأجانب أمثال المجري "گولدزيهير" (I. Goldziher) (1850-1921) والإيطالي "گويدي" (I. Guidi) (1844-1935) والفرنسي "شيفير" (Ch. Schèfer) (1820-1906) والإنگليزي "براون" (E. G. Browne) (1862-1926) والهولانديين "دوگويي" (M. J. de Goeje) (1836-1909) و"هوتسما" (M. Th. Houtsma) (1851-1941)[12]... امتاز العالم "روزين" عن معاصريه من المستشرقين بتنوع اهتماماته العلمية وشمولية فكره وبعد نظره. لذا شبهه تلميذه "كراتشكوفسكي" بالعالم الألماني "فرين" لأنه أولى مثله أهمية خاصة لدراسة وتصنيف المخطوطات العربية التي كانت تزخر بها الإمبراطورية الروسية عموماً وعاصمتها "سان پيترسبورگ" خصوصاً. ونشير بهذا الصدد إلى أنه تابع بانتظام العمل الذي بدأه "فرين" من قبله في "المتحف الأسيوي"، واستطاع أن يصدر فهارس لبعض المخطوطات طبعت في أربعة أجزاء (ج 1 : 1877، ج 2 : 1881، ج 3 : 1885، ج 4 : 1886)[13]. وسار "روزين" على درب "فرين" كذلك بتوجيه اهتمامته إلى دراسة المصادر العربية المتعلقة ببلدان أوروبا الشرقية... ولقد ترك هذا العالم عدداً كبيراً من المؤلفات[14]، ولعل أهمها بدون شك تلك التي تناولت بالدرس الجغرافي الأندلسي أبا عبيد البكري والرحالة ابن فضلان ورسالته[15].

---

(12) نفسه، ص. 141.

(13) انظر الفصل الخاص بالمكتبات الاستشراقية والمخطوطات العربية ضمن هذه الدراسة.

(14) ذكر نجيب العقيقي أهمها في مؤلفه المذكور آنفاً في الصفحة 75، وكتب في بداية المقال عن آثاره: «إنها وافرة، متنوعة وأصيلة...».

(15) كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 142. يتعلق الأمر أولا بنشره بمساعدة "كونيك" متنا وترجمة أخبار التاجر إبراهيم بن يعقوب الرحالة الأندلسي عن بلدان أوروبا الوسطى ومدنها، وهو باب في كتاب أخبار البكري، وثانيا بوضعه مقدمة للطبعة الجديدة من رسالة ابن فضلان. (انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 75-76).

ومن ناحية أخرى، فإن "روزين" تمكن من إخراج الاستشراق من مجاله الروسي الضيق وإعطائه بعداً عالمياً بتنظيم وتسيير أعمال المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين الذي انعقد سنة 1876 في العاصمة الروسية. وهنا برهن العالم عن كفاءته التنظيمية والعلمية. فقد كان، في واقع الأمر، بمثابة المحرك الرئيسي لهذه التظاهرة العلمية الدولية. ومعلوم أنه سهر بعد ذلك على طبع أعمال المؤتمر[16]. ومنذ الثمانينيات كرس حياته لتنظيم الدراسات الاستعرابية، فشغل منصب عميد كلية اللغات الشرقية في "سان بيترسبورگ" ورئيس "الجمعية الشرقية" التي أصبحت تحت إشرافه تحتل مكانة مرموقة ضمن الجمعيات العالمية المماثلة لها، كما أنه استطاع أن يحقق إحدى أماني المستشرقين الروسيين بإصدار مجلة "زاپيسكي" المتخصصة في الدراسات الاستشراقية التي داعت شهرتها في جميع الأوساط الاستشراقية العالمية، وكان للأبحاث التي كانت تنشرها صدى عميق في تلك الأوساط. وهذا ما جعل العديد من العلماء الأجانب يقبلون على تعلم اللغة الروسية حتى يتمكنوا من مسايرة ما جد في عالم الاستشراق الروسي[17]. وقد استطاع "روزين" أن يجمع حوله مجموعة من الباحثين الأكفاء خاصة من بين تلاميذه أمثال "گينزبورگ" (D. G. Guinzburg) (1857-1910) و"كال" (E. F. Kal) (1861-1891) و"مارّ" (N. J. Marr)[18] (1864-1934) و"مييدنيكوف" (N. A. Mednikov) (1855-1918) و"شميدت" (A. E. Shmidt) (1871-1939) و"أولدينبورگ" (S. F. Oldenbourg) (1863-1934) و"پيتروف" (D. K. Petrov) (1872-1925) و"بارتولد" (V. V. Barthold) (1869-1930) و"كراتشكوفسكي" (I. Kratchkovskiy) (1883-1951) وغيرهم من العلماء الذين طبعوا الدراسات الاستشراقية الروسية بطابعهم الخاص. ولا بد من الإشارة هنا إلى منجزات بعض هؤلاء العلماء. فقد نال "گينزبورگ" شهرة

---

(16) نفسه.
(17) كراتشكوفسك. دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي، ص. 143.
(18) نجيب العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 77-78.

واسعة بنشره المخطوطة الفريدة للشاعر الأندلسي ابن قزمان ويتعلق الأمر بديوانه المسمى "كتاب الأغراض في إصابة الأعراض" وكذلك بالبحث الذي كتبه حول النابغة الدبياني. ومن إنجازاته كذلك مواصلته العمل الذي بدأه أستاذه "روزين" والمتمثل في وضع فهارس للمخطوطات العربية المحفوظة في مدينة "سان بيترسبورگ". وقام "كال" بوضع فهارس للمخطوطات المخزونة في مدينة "طاشقنت" الأوزبيكية. كما أن "بيتروف" «تولى نشر "طوق الحمامة" لابن حزم، مع مقدمة فرنسية وفهارس (ليدن، 1914)، وكتب عدة مقالات في الدراسات العربية الأندلسية»[19].

أما "ميدنكوف" و"شميدت" فسوف نذكرهما في الفصل الخاص بدراسة الدين الإسلامي من بحثنا هذا. كما سنخصص "لبارتولد" وكذلك "لكريمسكي" وهو ممثل معهد "لازارييف" بموسكو مبحثين خاصين ضمن هذا الفصل نظرا لأهمية أعمالهما في مجالي الأدب والتاريخ. أما "كراتشكوفسكي"، وهو أصغر تلاميذ "روزين" وأكبر المستشرقين الروسيين على الإطلاق، فسنتناول مؤلفاته بالدرس في فصل خاص به في هذه الدراسة.

2- "كريمسكي" و"بارتولد" أنموذجان من المدرسة الاستشراقية الروسية الجديد

أ- كريمسكي: أنموذج المستشرق الأديب

يعد العالم "كريمسكي" (1871-1941) أحد أبرز وجوه الاستعراب الروسي الجديد خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الذين أثروا الدراسات الاستشراقية عامة والعربية الإسلامية منها خاصة. وينتمي "كريمسكي"، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، إلى معهد "لازارييف" بموسكو. يقول عنه "توما ديبو المعلوف": «... وفي

(19) نفسه، ص. 82.

هذه المدرسة يتولى تدريس اللغة العربية أيضا الأستاذ الكبير "كريمسكي" المشهور بسعة اطلاعه وكثرة مؤلفاته باللغة الروسية التي تكاد تكون مكتبة صغيرة، وقد بحث في جلها عن موضوعات عربية لغوية ودينية وتاريخية ونحوية وبيانية وانتقادية علمية، ونحا في جميعها منحى التدقيق والتحقيق، فأبان عن غوصه على الحقائق واستيعابه للدقائق وذكائه الخارق، وأصبح للروس مرجعاً في لغة العرب... »[20]، ونظرا لأهمية هذا العالم الكبير والمكانة الخاصة التي يحتلها في الاستشراق الروسي، فإننا سوف نخصص له بعض الصفحات من دراستنا هذه قصد التعريف به وببعض أعماله.

ولد "أگاتاكريمسكي" سنة 1871 "بأوكرانيا"، وترعرع في وسط مفعم بجو ثقافي رفيع المستوى. وبعد دراسته الابتدائية والثانوية توجه إلى موسكو حيث التحق بمعهد "لازارييف" وتتلمذ على يد أكبر الأساتذة العاملين به آنذاك، وخاصة على العالم "كورش" (F. E. Korch) الذي كانت تربطه به علاقات وثيقة. وأنهى الطالب "كريمسكي" سنة 1892 المعهد وكلية الحقوق التي كان يتردد على دروسها في ذات الوقت، والتحق في نفس السنة بكلية التاريخ وفقه اللغة لتعميق معلوماته في مجال اللسانيات المقارنة وتاريخ "أوكرانيا" ونحو اللغة الأوكرانية... وهنا كذلك كان أساتذته أكبر علماء الإمبراطورية الروسية آنذاك أمثال "فورتوناتوف" (F. Fortunatov)[21] و"ڤينوگرادوف" (P. Vinogradov)[22] وغيرهما من العلماء الذين ذاعت شهرتهم ليس في روسيا فقط، بل في أوروبا كلها.

بعد تخرجه من كلية التاريخ وفقه اللغة سنة 1896، حصل "كريمسكي" على منحة دراسية مكنته من السفر إلى الشرق العربي حيث

---

(20) توما ديبو المعلوف، اللغة العربية في المملكة الروسية، مجلة المجمع العلمي العربي، 1924، ج 5، ص. 204-210، ج 6، ص. 264-270.

(21) فورتوناتوف (1848-1914) عالم روسي، اختصاصي كبير في علم اللغة. من أهم مؤلفاته "علم اللغة المقارن..." (1897) و"علم الصوتيات المقارن للغات الهندية الأوروبية".

(22) پاڤيل ڤينوگرادوف، (1854-1925)، عالم مؤرخ روسي، اختصاصي في تاريخ القرون الوسطى.

قضى سنتين في كل من سورية ولبنان وذلك قصد تعميق معلوماته في علوم اللغة العربية الفصحى. لكنه لما وصل بيروت جعل من تعلم اللهجات العربية الشرقية هدفه الأول، وذلك كمرحلة ضرورية، حسب رأيه، لولوج بحر علوم اللغة العربية. وهكذا أخذ يتعلم اللهجة الشامية، ولبلوغ هذا الهدف كان يكثر من مخالطة مختلف شرائح المجتمع في المدن والقرى. وكان يسجل في كراسة خاصة كل ما كان يسترعي انتباهه من ملاحظات، كما أنه كان يجمع الأمثال العربية في كراسة أخرى ويصحبها بعدد من الشروح. ولقد استطاع فعلا أن يجمع أزيد من ألفي مثال خلال السنة الأولى من مقامه في الشرق[23]. وكانت بيروت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تشهد عدداً كبيراً من التظاهرات الثقافية والمهرجانات الخطابية التي كانت تشارك فيها نخبة من المثقفين وكبار الموظفين، وكان المتدخلون فيها يتطرقون إلى موضوعات عامة تدور بالأساس حول العلم ودوره في المجتمع والمثل الأخلاقية والمستوى الذي وصلت إليه الحضارة... وكان الطالب "كريمسكي" يحضر بانتظام هذه التظاهرات ويحاول فهم مغزاها وإدراك مكونات الفكر العربي[24]... وقد كتب بهذا الصدد: «إن المرء يحس هنا بما كان يشعر به العرب عامة والمسلمون خاصة من تخوف على مستقبل شخصيتهم أمام تهديدات الثقافة الغربية. وهذا ما دفعهم إلى نوع من اليقظة، فأخذوا رغما عنهم، يعملون بالنظام الأوروبي، ويغيرون عاداتهم القديمة، ويتعلمون اللغات الأجنبية والعلوم الأوروبية... وبعبارة أخرى فإنهم بدؤوا يدخلون مجال الحضارة العصرية... الشيء الذي يمثل بداية حدوث تغييرات عميقة في حياتهم مستقبلا...»[25].

---

(23) كريمسكي، رسائل من لبنان (1896-1898)، موسكو، 1975، ص. 124. (بالروسية) (Pisma iz Livana).

(24) نفسه، ص. 202.

(25) كريمسكي، الديانة الإسلامية ومستقبلها، ماضيها والحالة الراهنة للشعوب الإسلامية، قدراتهم الفكرية وعلاقتهم بالحضارة الأوروبية، موسكو، 1899، ص. 41. (بالروسية).
(Musulmanstvo i evo buduchnost...).

كان "كريمسكي"، خلال مقامه في الشرق العربي، يتتبع كل ما كان يصدر في روسيا وبلدان أوروبا الغربية من مؤلفات استشراقية، وبدأ هناك تأليف عدد من الكتب حول تاريخ الشرق العربي وأدبه. وقد استطاع فعلا، في تلك الفترة، كتابة مؤلفين، عنوان الأول "الإسلام" والثاني "الديانة الإسلامية ومستقبلها". والظاهر أنه انكب حول هذه الموضوعات الدينية كرد فعل منه تجاه حملات الكنيسة الأورثودوكسية المعادية للإسلام وخاصة منها تلك التي كانت تقوم بها "أكاديمية الرهبان" في مدينة قازان والتي سبق وأشرنا إليها، كما أن اهتماماته بهذه المواضيع قد تكون وليدة الاستنتاجات التي توصل إليها حول الدور الأساسي الذي يلعبه الدين الإسلامي في جميع مرافق الحياة اليومية في الشرق العربي. وتجدر الإشارة إلى أن "كريمسكي" لم يساند أبداً تلك الأفكار التي كانت رائجة في جل الأوساط الاستشراقية والتي مفادها أن الدين هو السبب في تأخر المجتمع العربي. يقول العالم بهذا الصدد في خاتمة كتاب "الديانة الإسلامية ومستقبلها" : «... إن العالم الإسلامي يستطيع التحرك إلى الأمام... والدين الإسلامي يتوافق تمام التوافق مع العلم، شأنه في ذلك شأن الدين المسيحي، وإذا قيل بالعكس، فإن هذا سوف ينطبق على المسيحية كذلك. ولا يجب أن ننسى أن الإسلام لعب دوراً أساسياً في توحيد العرب...»[26]. ويرى "كريمسكي" بأن سبب التأخر يرجع، في واقع الأمر، إلى عدم وجود الشروط الطبيعية لتطوير اقتصاد مبني على أسس متينة، وكذلك إلى منافسة الصناعة الأوروبية المتفوقة التي قضت على الصناعة التقليدية المحلية، ويعتبر أن الحل للخروج من حالة التأخر هذه يُلزم العالم العربي نهج سبيل التصنيع على النمط الأوروبي دون التخلي عن قيمه وحضارته العريقة[27].

(26) نفسه، ص. 111-112.

(27) گورنيتسكي، كريمسكي، دار النشر "ناووكا"، موسكو، 1980، ص. 41-42. (بالروسية): (Gurnitskiy, K., Krymskiy).

كان "كريمسكي" يتخذ مواقف شجاعة من العديد من القضايا الشائكة التي كانت تمثل تهديداً على الثقافة العربية، وربما تستمر حتى الآن في تمثيل أكبر خطر عليها، فقد كان يتصدى مثلا للدور الذي تلعبه البعثات الدينية والثقافية المختلفة في الشرق العربي، إذ كان يعتبر أن هدفها الرئيسي يتمثل في القضاء على اللغة والثقافة العربيتين وبالتالي على الشخصية العربية بأكملها[28]، ولم يكتف بالتصدي للبعثات الأمريكية والفرنسية، بل كان يهاجم حتى التعليم الذي كانت تلقنه مدارس "الجمعية الفلسطينية" التي كانت تمولها وتسيرها حكومة الإمبراطورية الروسية، وهذه المؤسسة، في نظره، تسعى إلى جعل الدارسين بها يشعرون بأن انتماءهم للكنيسة الأورثودوكسية أقوى من انتمائهم للحضارة العربية[29]. وكان لا يخفي استياءه أمام أهداف هذه المؤسسات التي لا تسعى من خلال تعليم اللغات الأوروبية وحضارتها إلا إلى تحقيق أهداف دينية وسياسية. وإذا كان بعض هذه المؤسسات يدخل اللغة العربية كمادة ضمن برامجه، فالغرض من هذا، حسب "كريمسكي"، هو «الاحتفاظ بالشكل للقضاء على الجوهر!»[30]. وقد خصص العالم لهذه الموضوعات، التي كانت تشغل باله كثيراً، صفحات كاملة في عدد من مؤلفاته وخاصة منها "الديانة الإسلامية"، وتسببت له مواقفه هذه في كثير من المشاكل والتهجمات من قبل رجال الكنيسة في روسيا.

ولم تمنع "كريمسكي" انشغالاته هذه في الإسهام في الأبحاث الاستشراقية وفي الإبداع في مجال الأدب الأوكراني وتتبع الحياة الفكرية عامة في الشرق العربي وأوروبا بأسرها.

وتجلت هذه الإسهامات بنشره العديد من المقالات في مختلف الصحف والمجلات. إن رحلة "كريمسكي" الدراسية إلى الشرق العربي

---

(28) نفسه، ص. 42.

(29) نفسه.

(30) نفسه.

كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمسيرته العلمية، فبالإضافة إلى ما اكتسبه من معرفة ميدانية للواقع السياسي والاجتماعي والثقافي للبلدان العربية الشرقية، استطاع العالم، وهو ما زال شابا، أن يصبح أول مستشرق روسي متخصص في اللغة العربية الفصحى ولهجاتها الشرقية وفولكلور شعوبها[31]. ويمكن اعتبار هذه الرحلة فترة مهمة ليس في تكوين "كريمسكي" في مجال الاستشراق الأكاديمي فحسب، ولكن كذلك في فتح آفاق جديدة لإبداعاته الأدبية الأوكرانية، إذ أن فكرة كتابة "القصص الشرقية" و"عروش النخل" مثلا قد نشأت هنا بالذات. وما من شك أن هذه الموضوعات الشرقية قد أثرت الأدبين الأوكراني والروسي، وكان لها صدى عميق في الأوساط الأدبية في مجموع بلدان ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي[32].

ولا بد من الإشارة كذلك إلى جانب آخر من نشاط "كريمسكي" المتنوع خلال مقامه في الشرق العربي، ويتعلق الأمر بالأهمية التي كان يوليها لجمع المخطوطات العربية. فقد استطاع أن يكوّن مجموعة كبيرة بقيت تعرف فيما بعد باسم "مجموعة كريمسكي"، وهي التي ساعدت العالم في السنوات الأخيرة من حياته على كتابة مؤلفه الضخم "تاريخ الأدب العربي الحديث"، ويشهد جميع الاختصاصيين بأهمية هذه المجموعة ودورها الكبير في تطوير المدرسة الاستعرابية الروسية بموسكو[33] وخارجها.

بعد رجوعه إلى وطنه، عمل "كريمسكي" أستاذا بمعهد "لازارييف" طيلة عشرين سنة، وهي الفترة التي عرفت صدور العشرات من مؤلفاته وخاصة منها صنف الكتب التعليمية المعدة لطلبة المعهد التي تناول فيها بالدرس عدداً كبيراً من الموضوعات كالقرآن الكريم وتاريخ الشعوب الإسلامية والمصادر العربية لدراسة تاريخ البلدان السلاقية

(31) نفسه، ص. 45.
(32) نفسه، ص. 45-54.
(33) نفسه، ص. 55.

وأبحاث في اللغات السامية ودراسات في الأدب العربي قديمه وحديثه...
يقول نجيب العقيقي عن هذه المؤلفات: «... فخرج بمحاضراته وترجماته من نطاق الجامعة إلى جمهرة القراء، منهم "تولستوي" الذي درس الإسلام في مصنفاته...»[34]، وكانت هذه المؤلفات التي تشكل عدة مجلدات تدخل في السلسلة التي كان يصدرها المعهد تحت عنوان "مؤلفات في الاستشراق". وبقيت هذه المجموعة تعرف بـ"خزانة كريمسكي"، وهو الاسم الذي أطلقه عليها "كراتشكوفسكي".

رحل العالم عام 1918 إلى "كييف" حيث سهر على إنشاء أكاديمية العلوم الأوكرانية، وانتخب بعد ذلك أمين سرها الدائم. وبقي يعمل بهذه المدينة في كل من الأكاديمية و"الجمعية العلمية" والجامعة حيث كان يدرس تاريخ الشرق. توفي العالم "كريمسكي" سنة 1941 في سجون "ستالين"[35].

يعتبر كتاب "تاريخ الأدب العربي الجديد" من أهم مؤلفات "كريمسكي" في مجال الدراسات الأدبية. وقد خصص العالم جزءا كبيراً من حياته لإنجاز هذا المؤلف الذي يقع في حوالي 800 صفحة، ويشمل فترة تمتد من القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين. لكن "كريمسكي" لم يتمكن من إتمام عمله هذا، إذ أن المنية أدركته قبل بلوغ مبتغاه. غير أنه استطاع أن ينهي الجزء الأول منه وأن يضع الخطوط الرئيسية لمحتوى الجزء الثاني. وبقي هذا العمل مخطوطا طيلة ثلاثين سنة، ولم يطبع إلا سنة 1971[36] بمناسبة مرور مائة عام على ولادة مؤلفه. وجاء الكتاب في سفر واحد ضم الجزء الأول من المخطوط وما استطاع

---

(34) نجيب العقيقي، المستشرقون، ص. 81.

(35) انظر مقال: الاستشراق المضطهد، في مجلة "نارودي آزي إي آفريكي"، عدد 4، 1990، ص. 125 (بالروسية) (Repressirovannoye vostokovedeniye).

(36) كريمسكي، تاريخ الأدب العربي الجديد، القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، موسكو، 1971، (بالروسية) (Istoriya novoy arabskoy literatury).
كتب الأستاذ خاليدوف مقدمة لهذا الكتاب جاءت في 18 صفحة.

المؤلف أن يكمله من الجزء الثاني. وكان الجزء الأول مقسماً أصلاً إلى ثلاثة عشر فصلاً، ويمكن تلخيصها على الشكل التالي: في الفصل الأول يبحث الكاتب أسباب انحطاط ما أسماه بالأدب العربي التقليدي، ويتفق مع الرأي الذي يربط الانحطاط في مجالي العلوم والأدب بالاحتلال العثماني للعالم العربي، غير أنه يرى أن السبب الرئيسي يكمن في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية للدولة العثمانية التي كان لها وقع سيئ ليس على الشعوب العربية فحسب بل وعلى الشعب التركي نفسه. ويعرض العالم في الفصل الثاني مميزات قصص الأدب الشعبي العربي ويحلل وسائل المحافظة عليه وطرق نقله من جيل لآخر. أما الفصل الثالث فقد خصصه صاحب الدراسة إلى التعريف ببعض الجوانب المتعلقة بعلاقات بلاد الشام بالعالم الخارجي عامة وتركيا خاصة خلال الفترة الممتدة ما بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر. ويعتبر هذا الفصل دراسة تاريخية محضة، وهو، في نظر المؤلف، سوف يساعد على فهم تطور الأدب الذي لا يمكن استيعابه بشكل صحيح دون الرجوع إلى التطورات الاقتصادية والسياسية داخل المجتمعات... وتطرق العالم في الفصلين الرابع والخامس إلى الحديث عن نشأة الأدب العربي الحديث الذي ارتبط بصدور الجرائد والمجلات وبالترجمة المنتظمة للعديد من المؤلفات الأوروبية، كما ارتبط كذلك بالإصلاحات التي عرفتها البلدان العربية المشرقية في مجالات التعليم والاقتصاد وغيرهما. وقد حدثت هذه التغييرات في بدايتها في مصر نتيجة للتدخل العسكري الفرنسي بها، ثم نتيجة للإصلاحات التي قام بها محمد علي. لذا فإن المؤلف خصص جل ما جاء في هذين الفصلين للحديث عن الحالة الاجتماعية والأدبية لمصر إلى حدود الثمانينيات من القرن التاسع عشر. أما أدب المهجر فقد جاء الحديث عنه في الفصل السادس. وقد خصصت أجزاء من الفصول الرابع والخامس والسادس للتعريف بمؤلفات عدد من الكتاب والمفكرين أمثال رفعة الطهطاوي ومحمد عياد الطنطاوي وعلي مبارك وسليم نقاش وأديب إسحاق ومحمد عبده وغيرهم... وكرس المؤلف الفصل السابع بأكمله للتعريف

بنشاط البعثات المسيحية في بلدان الشرق العربي وبدورها في المجالات التعليمية والسياسية والاجتماعية. ويعد هذا الفصل نتيجة للأعمال الميدانية التي قام بها "كريمسكي" خلال مقامه في كل من سورية ولبنان لما كان طالبا. وخص العالم الفصول الخمسة المتبقية من الجزء الأول للحديث عن نشاط الأوساط الأدبية العربية في بيروت ودمشق وحمص وغيرها من المدن. وهكذا تناول بالدرس مميزات مؤلفات بطرس البستاني وناصيف اليازجي... كما تطرق لموضوع ميلاد المسرح العربي وتاريخ الصحافة العربية، وأعطى نظرة عن تطور الفكر الفلسفي في هذه المنطقة، أما الصفحات التي استطاع "كريمسكي" أن ينجزها من الجزء الثاني من مؤلفه فيمكن اعتبارها بمثابة فصلين مستقلين، وقد أعطى في أولهما نظرة عن مميزات النثر الفلسفي عند كل من فرح أنطون والمنفلوطي، وحلل في الثاني خصوصيات شعر كل من أحمد شوقي وحافظ إبراهيم والمويلحي.

ويمكن القول في الختام بأن "تاريخ الأدب العربي الجديد" يعتبر بحق من المراجع الأساسية التي لا يستغنى عنها اليوم في الدراسات الاستشراقية، وربما في الدراسات الأدبية عند العرب أنفسهم وهو الكتاب الذي قال عنه "كراتشكوفسكي": «... لا يوجد نظيره في الكتابات الاستشراقية لا عندنا في روسيا ولا في البلدان الغربية...»، وأضاف الأستاذ خاليدوف على هذا الكلام وقال: «... ولا يوجد نظيره حتى في البلدان العربية...»[37].

ويمثل "كريمسكي" نموذج العالم المستشرق الغيور على نزاهة العلم والعلماء. وقد تجلت هذه النزاهة في العديد من المواقف الشجاعة التي اتخذها سواء تجاه سياسة البعثات المسيحية الأوروبية والأمريكية في بلدان الشرق العربي أو تجاه الحملات المعادية للدين الإسلامي التي كانت تقوم بها الكنيسة الروسية عموماً وأكاديمية الرهبان في "قازان" خصوصا.

---

(37) انظر مقدمة الأستاذ "خاليدوف" في كتاب: كريمسكي، تاريخ الأدب العربي الجديد، ص. 15. (بالروسية).

كما تجلت نزاهته واستقامته في تحليلالته الموضوعية لمختلف القضايا التاريخية والأدبية والسياسية التي عالجها في مؤلفاته التي تعد بالعشرات[38]. ويعتبر "كريمسكي" بحق أحد ألمع وجوه المدرسة الاستشراقية الجديدة التي ذاعت شهرتها منذ الربع الأخير من القرن الماضي والتي عرفت ازدهاراً لا مثيل له خاصة في "سان پيترسبورگ"، عاصمة الإمبراطورية الروسية آنذاك. وتستحق هذه الشخصية الفذة وشخصيات روسية أخرى أن ترصد لها دراسات مستقلة ومفصلة، نأمل أن ينجزها المهتمون من العرب بالعلاقات الأدبية العربية الروسية. ولا شك أن عدداً من الباحثين الروسيين قد قاموا بمثل هذه الأعمال، غير أن مؤلفاتهم المكتوبة باللغة الروسية تنتظر من يعرف بها ويقدمها إلى كافة المثقفين العرب.

ب- "بارتولد": أنموذج المستشرق المؤرخ (1869-1930).

يعتبر "بارتولد" أحد أبرز وجوه الاستشراق الروسي في النصف الأول من القرن العشرين. وهو يمثل أنموذج المستشرق المؤرخ في مدرسة "سان پيترسبوگ" الاستشراقية الجديدة التي يمثل فيها "كراتشكوفسكي" أنموذج العالم المستشرق اللغوي والأديب. ونعتقد أن الحديث عن الاستشراق الروسي يستحيل دون التعريف بهذين القطبين وبزميلهما "كريمسكي"، ممثل موسكو، الذي تحدثنا عنه، ذلك أن هؤلاء العلماء هم أبرز وجوه الاستشراق الروسي خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين. ونعتقد أن أعمالهم التي تتكامل في واقع الأمر تغطي جل جوانب الموضوع الذي نحاول معالجته في هذه الدراسة[39].

---

(38) ذكر نجيب العقيقي عددا منها. انظر: العقيقي، المستشرقون، ص. 81-82.

(39) تكتسي دراستنا هذه بالأساس طابعا أدبيا، لذا خصصنا فصلا كاملا منها للحديث عن "كراتشكوفسكي" وعن أعماله، في حين اكتفينا بالنسبة "لبارتولد" الذي يمثل أنموذج المستشرق المؤرخ بمبحث واحد فقط.

ولد "ڤاسيلي بارتولد"[40] عام 1869 في العاصمة "سان پترسبورگ"، من أسرة ألمانية الأصل استوطنت روسيا قديما. أنهى الشاب "بارتولد" سنة 1891 دراساته العليا في كلية اللغات الشرقية، حيث تتلمذ على يد العالم "روزين" وتخصص في علوم العربية والفارسية والتركية والتترية. وسافر بعد ذلك إلى ألمانيا ومكث بها سنتين كان يتتبع خلالها محاضرات "أوگيست ميولير" (A. Müler)، ثم قام برحلة علمية إلى آسيا الوسطى استغرقت سنتين كذلك. وفي عام 1896 التحق بهيئة التدريس بجامعة "سان پيترسبورگ"، وانتخب سنة 1910 عضواً مراسلاً في أكاديمية العلوم الروسية، ثم عضواً فعلياً بها عام 1912. وقد مكنته معلوماته المتنوعة والواسعة ومعرفته الممتازة لعدد كبير من اللغات الشرقية والغربية من تأليف العديد من الكتب والمقالات الرفيعة المستوى، ونال "بارتولد" شهرة عالمية كاختصاصي كبير في ميدان تاريخ الحضارة الإسلامية عموماً وجغرافية وتاريخ بلدان آسيا الوسطى خصوصاً[41]. ونظراً لإلمامه الواسع بهذه المواضيع استدعته الحكومة التركية لإلقاء سلسلة من المحاضرات في جامعة استانبول، وقد جمعت محاضراته التي كان يلقيها باللغة التركية خلال السنة الجامعية 1926-1927 ونشرت في كتاب يحمل عنوان "تاريخ الترك في آسيا الوسطى"[42].... وقد بلغ مجموع كتابات "بارتولد" أزيد

---

(40) انظر حوله على الخصوص: سهيل رزق الله، بارتولد والحضارة العربية الإسلامية في مجلة "الفكر العربي"، العدد 31، 1983، ص. 323-337.

وكذلك: العقيقي، المستشرقون ج 3، ص. 79-80. انظر كذلك: ما جاء حوله في الفصل الرابع من هذه الدراسة.

(41) من أهم مؤلفاته في هذا الباب، نذكر على الخصوص:

- التركستان خلال الغزو المغولي، ج 1-2، سان پيترسبورگ، 1898-1900.

Turkestan v epokhu mongolskovo nachestviya.

- أولوگ بيك وعصره، سان پيترسبورگ، 1918. Ulugbek i evo vremya.

- القيرغيزيون، لينگراد، 1927.

Kirgizy.

- تاريخ الحياة الثقافية في التركستان، لينگراد، 1927.

Istoriya kulturnoy jizni Turkestana.

(42) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية، انظر: بارتولد. تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة د.

من 400 مؤلف ما بين كتاب ومقالة ترجم الكثير منها إلى عدد كبير من اللغات الأوروبية والشرقية، غير أن "بارتولد" عرف كذلك كاختصاصي كبير في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية التي كتب حولها الكثير من المؤلفات العلمية. ولعل أكثرها أهمية بالنسبة لموضوع دراستنا هو "تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا" (43) و"تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي" (44) و"الحضارة الإسلامية" (45) و"العالم الإسلامي" (46) و"الإسلام" (47) ... وتعتبر هذه المؤلفات خلاصة أبحاث العالم في مجال الدراسات الاستشراقية، ويشكل بعضها رداً صريحاً على عدد من الأفكار العنصرية والاستعمارية التي كانت سائدة ومنتشرة آنذاك في أوساط المستشرقين. ويرى الدكتور سهيل رزق الله «أن كتابات "بارتولد" هذه تمثل انتقاداً شديداً لأصحاب نظريات المركزية الأوروبية، وقد جاءت لتفند "الستريوتيبات" غير العلمية حول الإسلام، وحول العقل الشرقي، ونمط حياة الإنسان الشرقي بشكل عام. فقد نقد أفكار "كريمير" ... الملخصة في مؤلفه "تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام" (48)، ولم ينف عنه صفة الانحياز للعصبوية الإقليمية الأوروبية. ويرى أن الجانب الضعيف في منهج "كريمير" يتلخص في تركيزه على دور الأفكار في صنع الإسلام، دون أن يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى العوامل التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التي ساهمت في انتشار حضارة العرب ودينهم أو في ركودهم. ويؤكد "بارتولد" حول هذا الموضوع، مشيراً إلى أن تجسيد

أحمد السعيد، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958.

(43) بارتولد، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وآسيا. سان بيترسبورگ، 1911، الطبعة الأولى، لينگراد، 1925، الطبعة الثانية. ترجم الأستاذ "نيكيتين" هذا الكتاب إلى اللغة الفرنسية، انظر:
V. Barthold, La Découverte de l'Asie. Histoire de l'Orientalisme en Europe et en Russie, Traduit du russe et annoté par B. Nikitine, Payot, 1947.

(44) ترجمه إلى اللغة العربية الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم، وصدرت هذه الترجمة في الكويت عام 1981.

(45) بارتولد، الحضارة الإسلامية، پيتروگراد، 1918. Kultura Musulmanstva.

(46) بارتولد، العالم الإسلامي، لينگراد، 1922. Musulmanskiy mir.

(47) بارتولد، الإسلام، پيتروگراد، 1918. Islam.

(48) A. Kremer, Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, Leipzig,1868.

الأفكار في الحياة وتطور العملية التاريخية لا يرتبطان فقط بتطور الأفكار. فعدم ربط هذه الروابط الفكرية بالعوامل الحياتية لجمهور الشعب يجعل هذه الدراسات ناقصة وغير شاملة»[49].

- علاقة روسيا بالشرق وكتابة تاريخ الشرق من منظور "بارتولد"

تناول "بارتولد" هذا الموضوع بالدرس بإسهاب خاصة في كتابه "تاريخ الاستشراق في أوروبا وروسيا" الذي يعد أهم مؤلفاته. وقد قسم العالم كتابه هذا إلى قسمين، يحتوي قسمه الأول على أحد عشر فصلا، والثاني على تسعة فصول. وألحق كل فصل بببيليوغرافية وافية بلغات متعددة شرقية وغربية. وختم مؤلفه بإضافات بيبليوغرافية شاملة. وخصص المؤلف القسم الأول من كتابه للحديث عن علم التاريخ عند الأوروبيين وعرض فيه كذلك مفهومه الخاص لهذا العلم ومهامه، كما تناول بالدرس أهم الأحداث التي عرفتها البلدان الشرقية عبر العصور في كل من الصين والهند والعالم الإسلامي وعرّف بتاريخ الاستشراق الأوروبي حول هذه المناطق... أما القسم الثاني فقد خصصه لدراسة علاقة روسيا بالشرق عامة وبالدول المجاورة لها في الجنوب خاصة، وعرّف كذلك بعلم الاستشراق في روسيا وبأهم مراكزه، ويعتبر هذا الكتاب نتيجة دراسة في غاية الدقة قام بها "بارتولد" واعتمد فيها على عدد كبير من المصادر والمراجع الأصلية التي لم يسبق أن ترجمت إلى اللغات الأوروبية. ولا يقدم المؤلف في بحثه معلومات، ولو تلك التي تبدو في منتهى البساطة، إلا وأعطى مرجعا أو عدة مراجع لها ودعمها بوثائق مناسبة[50]. والجدير بالذكر أن "بارتولد" يجعل الاعتماد على المصادر الأصلية شرطاً من الشروط الأساسية لكتابة تاريخ الشرق. وقد تجلى ذلك في جميع مؤلفاته، وهذا ما دفع "كراتشكوفسكي" يقول: «إن الوقائع الجديدة التي جاء بها "بارتولد" في

(49) سهيل رزق الله، بارتولد والحضارة العربية الإسلامية، ص. 325.

(50) انظر مقدمة "نيكيتين"، صاحب الترجمة الفرنسية لكتاب "تاريخ الاستشراق في أوروبا وروسيا"، ص. 9.

كتاباته حول الدين الإسلامي تشكل ظاهرة جديدة في تحليل هذا الموضوع. وهي تدل على غزارة علمه وتعمقه في دراسة الإسلام، بعد اعتماده على المصادر الأصلية. وهذا بالذات ما يمثل إنجازا إيجابيا لم تصل إليه أوروبا حتى الآن...»[51].

وكتاب "بارتولد" هذا ليس، كما يبدو من خلال عنوانه بحثاً عادياً حول تاريخ الاستشراق، فهو لا يشبه مثلاً كتاب "كراتشكوفسكي" "دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي" الذي عرض فيه صاحبه أهم الأحداث التي ساعدت على نشأة هذا النوع من الدراسات وعلى تطورها عبر العصور في كل من الإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفييتي لاحقاً، كما أنه عرّف بأكبر العلماء المستشرقين الروسيين وبأهم مؤلفاتهم. وتظهر بجلاء ميول "كراتشكوفسكي" الأدبية واللغوية التي أخذت حصة الأسد في هذا الكتاب. أما "بارتولد" فكان له هدف آخر، وهو أوسع وأشمل مما سعى "كراتشكوفسكي" لتحقيقه. فالغاية عنده هي دراسة كافة أنحاء الشرق الذي لا يمثل فيه العالم العربي الإسلامي إلا جزءاً واحداً فقط. والمؤلف يركز هنا بالأساس على نظرة الأوروبيين من جهة والروسيين من جهة أخرى إلى الشرق والشرقيين وإلى ثقافتهم، كما أنه، بحكم تخصصه يحاول معالجة الكثير من الموضوعات التي لها صلة بعلم التاريخ عموماً وبتاريخ الشرق خصوصاً.

وعن مفهوم التاريخ عند الأوروبيين يقول "بارتولد": «... ظل مفهوم التاريخ العالمي، طيلة مدة طويلة مرتبطا بتاريخ الشعوب الأوروبية دون غيرها. وهكذا أُسس، انطلاقاً من هذا المفهوم، تقسيم التاريخ العالمي إلى قديم ووسيط ومعاصر، وهو التقسيم الذي اقترح في القرن السابع عشر والذي احتفظ بأهميته إلى الآن، رغم الاعتراضات المشروعة

---

(51) كراتشكوفسكي، المؤلفات المختارة، الجزء الخامس، موسكو - لينينگراد، 1958، ص. 354.

التي وجهت إليه. وإلى غاية القرن التاسع عشر، كان هناك رأي متداول مفاده أن الشعوب الشرقية لم يكن لها أبداً تاريخ بالمعنى الأوروبي، وبالتالي فإن مناهج دراسة التاريخ الموضوعة من قبل المؤرخين الأوروبيين غير صالحة لدراسة الشرق...» وحث "بارتولد" المؤرخين الأوروبيين على تغيير نظرتهم تجاه تاريخ الشرق وعلى اعتباره جزءاً لا يتجزأ من تاريخ البشرية جمعاء. لذا، وجب عليهم، حسب رأيه، أن يطبقوا في دراساتهم للشرق نفس المناهج التي يطبقونها لدراسة أوروبا. يقول المؤلف بهذا الصدد: «... وبصفة عامة فإنه كلما تقدمت الدراسات الاستشراقية ظهر جليا أنه لا يمكن تفسير تاريخ الشرق إلا باللجوء إلى نفس المناهج العلمية المتبعة في دراسة أوروبا... وكيف ما كانت الحال، فإن تقدم الثقافة أو تقهقرها لا يفسر سوى بالمستويات المختلفة للتقارب بين الشعوب المتحضرة. فلا مجال إذن لأي تمييز بين "الشرق" و"الغرب" في هذه السلسلة من التداخلات...»[52].

ويعود "بارتولد" إلى هذه الفكرة في جل دراساته ويحاول توضيحها أكثر فأكثر. ففي كتابه "الحضارة الإسلامية" يتحدث عن نشوء الحضارات وازدهارها في مختلف المجتمعات ويرى أنها لم تولد من عبقرية قوم واحد بعينه دون مساهمة الأقوام الأخرى، بل ولدت وترعرعت تحت تأثيرات شتى تحتل فيها العلاقات بين الشعوب مكانة رئيسية. وبهذا الصدد يقول العالم: «... يمكن أن يعدّ اليوم من الحقائق الثابتة أن العلاقات المتبادلة بين الأقوام من أكبر عوامل الرقي. ولا يمكن إيضاح تقدم الشعوب المختلفة أو تأخرها بما لها من مميزات جنسية ومعتقدات دينية أو ما يحيط بها من طبيعة، بل بموقعها الذي أحرزته في علاقاتها مع شعوب متباينة في مختلف عصور تاريخها...»[53].

(52) V. Bathold, La Découverte de l'Asie. Traduction de B. Nikitine, p. 51.

(53) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية...، ترجمة حمزة طاهر، دار المعارف، مصر، 1966، الطبعة الرابعة، ص. 41.

من خلال العنوان الذي اختاره لكتابه "تاريخ الاستشراق في أوروبا وروسيا" يتضح أن "بارتولد" أراد فصل دراسة الاستشراق في أوروبا عن الاستشراق في روسيا، ذلك أنه يرى أن نظرة الروس إلى الشرق كان لها تطور خاص، وهي تختلف في كثير من جوانبها عن نظرة الأوروبيين إليه. ويوضح العالم اختياره هذا بقوله: « . . . لقد ارتأيت فصل دراسة الشرق في روسيا عن دراسته في أوروبا بغض النظر عن التساؤل المطروح حول معرفة ما إذا كانت روسيا تمثل جزءاً من أوروبا أم لا. ولقد اهتديت إلى هذا الاختيار نظراً لأن وضعية الشرق عموماً والدراسات المتعلقة به في روسيا عرفت تطوراً خاصاً، وبقي هذا التطور يسير على هذا النهج حتى بعد أن خضع المنهج العلمي في روسيا لتأثيرات المناهج العلمية الأوروبية. . . وإنني أعتقد أن دراسة الشرق في روسيا تمثل، حتى في زمننا هذا، مجالا متميزاً وخاصاً. . . »[54]. هكذا إذاً يضع "بارتولد" روسيا في مكانة خاصة ويركز على عدد من مميزاتها التي تجعل القارئ يعتبرها جزءاً من آسيا، دون إبعادها تماماً عن المحيط الأوروبي، ويوضح العالم فكرته فيقول: « . . . كان من البديهي أن تخضع أوروبا الشرقية، بحكم موقعها الجغرافي، لتأثيرات الشرق بنسبة أكثر بكثير من بلدان أوروبا الغربية. . . وهناك فكرة سائدة مفادها أن روسيا، قبل الاجتياح المغولي، كانت تشكل أحد الأجزاء المكونة لأوروبا شأنها شأن ألمانيا أو فرنسا، وبأن هذا الاجتياح وحده هو الذي فصلها مدة بضعة قرون عن العالم المتحضر. إن هذه الفكرة خاطئة تماماً. فاستعمال اللقب التركي "گاگان" الذي كان يحمله الأمير "ڤلاديمير" يبين لنا بوضوح مدى اختلاف روسيا عن باقي بلدان أوروبا وذلك في القرن الحادي عشر. . . ومثل هذا الحدث لم يكن ممكناً على الإطلاق في ذلك العهد لا في "بيزنطة" ولا في أوروبا الغربية. . . »[55]. وهناك مثال آخر له دلالة كبيرة، ويرجع عهده إلى بداية إرساء أسس الدولة

---

(54) V. Barthold, La Découverte de l'Asie. Histoire de l'Orientalisme... Traduction de B. Nikitine..., p. 11.

(55) نفسه، ص. 193.

الروسية "الموسكوفية"، فحتى في هذا العصر الذي تخلصت فيه البلاد من الاحتلال المغولي، كان الروسيون يميزون أنفسهم عن باقي شعوب أوروبا الغربية، إذ كانوا يطلقون على المنحدرين من هذه البلدان اسم "فراجي"، وهي نفس كلمة "إفرنجي" التي كان يستعملها الشرقيون كلهم، ومن ضمنهم العرب، لنعت الأوروبيين... ويمضي "بارتولد" في عرضه لحالة روسيا في هذا العصر وتأخرها الثقافي والاقتصادي والسياسي بالنسبة لباقي الدول الأوروبية، ويقدم كدليل لهذا التأخر أنه رغم أن عدداً كبيراً من الروسيين، من أمراء ورجال الكنيسة وغيرهم كانوا يسافرون إلي منغوليا ويقضون بها مدة طويلة، فإنهم لم يكتبوا أدنى شيء عن هذه البلاد ولا عن الطرق المؤدية منها إلى الصين، كما أنهم لم يتركوا معلومات تستحق الذكر حول دولة المغول وملوكهم، كما فعل الرحالة المسلمون والرحالة الأوروبيون الغربيون[56]. ومن بين الأشياء الجديدة التي أتى بها "بارتولد"، أنه لا يعتبر فترة الاحتلال المغولي فترة مظلمة في تاريخ روسيا، كما كان يعتقد جميع المؤرخين الذين سبقوه أو عاصروه. فهو يرى فيها مصدراً للنهضة السياسة الروسية ولكل ما تحقق لاحقاً من تألق في المجال الثقافي. ويقول العالم بهذا الصدد: «... رغم الخراب الذي خلفته الجيوش المغولية، ورغم الظلم وكل الابتزازات التي كان يقوم بها ممثلو الحكم المغولي، فإن أسس الانبعاث السياسي لروسيا وكذلك أسس التقدم اللاحق للثقافة الروسية قد وضعت في هذه الفترة بالذات...»[57]، وقد تسببت هذه الآراء لصاحبها في كثير من الانتقادات الشديدة اللهجة من قبل عدد كبير من المستشرقين الروسيين. واعتبرت "الموسوعة السوفييتية الكبرى" موقفه من مسألة الغزو المغولي لروسيا خطأ فادحاً»[58]. ويمضي "بارتولد" في حديثه عن الوضعية الخاصة لروسيا وعن التأثيرات الشرقية التي عاشتها، فيبرز الدور الكبير الذي لعبه العديد من رجال الدولة

(56) نفسه، ص. 199.

(57) نفسه، ص. 200.

(58) انظر مادة "بارتولد" في الموسوعة السوفييتيه الكبرى، موسكو، 1950، ج 4، ص. 273-274.

Bolchaya Sovetskaya Entsiklopediya, T. 4.

التتريين في الساحة السياسية الخارجية الروسية، أما في الداخل فقد تجسدت الفكرة السياسية التترية في شخص القيصر الروسي الذي ظل مدة طويلة يحمل لقب "البيك الأبيض" أو "الخان الأبيض"... إن "بارتولد"، بتناوله هذه الموضوعات، أراد في واقع الأمر أن يبرز أن الشرق ليس ظاهرة عابرة في تاريخ روسيا، كما يعتقد جل المؤرخين، بل إنه جزء لا يتجزأ من هذا التاريخ. يقول الأستاذ "نيكيتين" بهذا الصدد: «إن "بارتولد" بتناوله الأمور من هذه الزاوية، أراد في الحقيقة أن يعطينا نظرة موجزة لتاريخ روسيا بعيون شرقية لا بعيون غربية كما فعل المؤرخون من قبله... وهكذا يتضح أن الشرق في روسيا لا يتعارض مع الغرب، بل هو جزء عضوي من التاريخ الروسي، وغالباً ما ينصهر معه ويحدد سيره...»(59). و"بارتولد" الذي يعتبر نفسه بحق أوروبيا ونتاجا للمدرسة الغربية، لا يخفي كل ما أخذه الاستشراق الروسي من أساتذته الغربيين، لكنه يحذر مع ذلك من كل مفهوم تاريخي مبني على ما يسمى "بالمركزية الأوروبية" التي تعطي الأسبقية المطلقة سلفا لأوروبا على حساب آسيا.

- بارتولد والحضارة العربية الإسلامية

خصص "بارتولد" كتابا قيما لهذا الموضوع عنوانه "الحضارة الإسلامية"(60). لكنه، في واقع الأمر، تناوله بالدرس في جل مؤلفاته، وأولى أهمية بالغة لدور الدين الإسلامي في توحيد العديد من القبائل والشعوب المتباينة التي لم يكن يجمع بينها من قبل سوى التطاحن والحروب. ويلاحظ "بارتولد" أن هذا الشعور بالوحدة بقي حيا حتى بعد تفكك الدولة الإسلامية الموحدة، ويقول بهذا الصدد: «... إن بزوغ الحضارة العربية مرتبط بظهور دين عالمي جديد، وهو الإسلام، وقوة عالمية جديدة، وهي الخلافة العربية، ولقد ضمت دولة الخلافة مملكة

---

(59) V. Barthold, La Découverte de l'Asie, p. 12.

(60) ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية انطلاقا من التركية الأستاذ حمزة طاهر تحت عنوان "تاريخ الحضارة الإسلامية"، انظر طبعته الرابعة، دار المعارف، مصر، 1966

ولقد اعتمدنا هذه الترجمة في دراستنا هذه.

الساسانيين بأكملها ومناطق آسيا الوسطى... كما ضمت الجزيرة العربية وجل عمالات الإمبراطورية البيزنطية ومصر وشمال إفريقيا وإسبانيا... وتكوّن بين مختلف شعوب هذه المناطق الشاسعة رابط داخلي وثيق مبني على أساس الدين المشترك، وبقي هذا الرابط حيا حتى بعد تفكيك الدولة...»[61].

احتل موضوع حرية الأقليات المسيحية وغيرها بداخل دولة الخلافة مكانة هامة في كتابات "بارتولد". فقد تطرق إليها وأبرز جودة العلاقات التي كانت تربط هذه الأقليات بالمسلمين الفاتحين. فكان النصاري، حسب بارتولد، في أحسن حالٍ تحت حكم المسلمين في الأزمان الأولى، ومن مظاهر الحرية الدينية «أنه كانت في بلاد الخلافة... مؤسسات مسيحية غنية قد حافظت على أملاكها. وكان نصارى بلاد الخلافة يتعاملون مع عالم النصرانية بدون مشقة...»[62] وفي معرض مقارنته لبلاد المسلمين مع بيزنطة في القرن التاسع الميلادي يقول العالم: «... كان القرن التاسع عهد رقي لحضارة بيزنطة أيضا، إلا أن بلاد الخلافة كانت متفوقة عليها، لأن العناصر المختلفة كانت تعمل فيها جنبا لجنب. وكانت ساحة الحضارة أوسع لضروب من الحرية الدينية التي يمنحها القرآن...»[63]. ويرى "بارتولد" أنه بازدهار الثقافة العربية بدأ المسيحيون، خاصة في سورية، يفقدون علاقتهم باللغة الإغريقية... وحلت محلها اللغة العربية في التعليم والأدب... ورغم هذا فإن شكل حضارة المسيحيين الشرقيين لم يفقد من أهميته وبقي يؤثر على سيرورة الحضارة العامة. غير أن الأمور بدأت تتغير تدريجياً وأخذت أحوال النصارى بداخل البلاد الإسلامية تتدهور وخاصة منذ منتصف القرن الثالث عشر. وعن أسباب هذا التدهور يقول "بارتولد": «... كان أحد أسباب هذه الحالة تناقص حاجة المسلمين إلى النصارى بتقدمهم في الحضارة.

---

(61) V. Barthold, La Découverte de l'Asie, p. 72.

(62) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص. 52-53-54.

(63) نفسه، ص. 55.

وربما كان للاضطهادات التي وقعت على المسلمين واليهود في بلاد النصارى في القرون الوسطى أثر في هذا. ومهما يكن من شيء فإن النصارى الذين عاشوا في حكم المسلمين لم يصبهم قط ما أصاب المسلمين في إسبانيا من الظلم والعدوان. . . »(64). ويفسر العالم انتشار اللغة العربية مع انتشار الإسلام «بكون العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط، كالجرمان والمغول والإيرانيين القدامى، ولكنهم أنشؤوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدمة في ساحة الفكر تقدماً واضحاً، وأخذت البلاغة والشعر مكانة عظيمة عندهم واخترعت الأشكال الأدبية المعلومة اليوم، والنثر المسجع وأنواع عديدة من الأوزان، فراج قرض الشعر كثيراً. . . »(65). وقد استطاعت هذه اللغة المتطورة أن تفرض وجودها بدون صعوبة. أما العمران فإن العرب من سكان المدن، حسب "بارتولد"، قد لعبوا دوراً أساسياً في ترسيخ أسسه. فامتزجت التقاليد العربية بالتقاليد المحلية لوضع أصول المدينة الإسلامية. ويعارض العالم الفكرة التي كانت شائعة في أوساط المستشرقين والتي مفادها أن بناء البيوت بداخل الدار وجعل الواجهات المقابلة للشوارع جدرانا وحوانيت ناتج عن خوف "الاستبداد الشرقي"(66)، ويدعم اعتراضه هذا بكون الحفريات الحديثة أثبتت أن المدن اليونانية القديمة أنشئت على هذه الصورة نفسها التي لا يجوز تعميمها على شكل المدن الإسلامية كلها، ويورد هنا مثال بيوت مكة المكرمة ويقول: « . . . وقد اندهش الأوروبيون الذين وفقوا لزيارة مكة لما شاهدوا بيوتاً تطل نوافذها على الشارع على نسق المدن الأوروبية. . . »(67).

وتحتل الحركة العلمية والفكرية حيزاً وافراً في مؤلفات "بارتولد"، فقد تناول هذا الموضوع بالدرس من مختلف جوانبه. فعرف بمدينتي البصرة والكوفة ودورهما الحضاري والعلمي وبالخليل بن أحمد وقاموسه

---

(64) نفسه، ص. 57.
(65) نفسه، ص. 63.
(66) نفسه، ص. 64.
(67) نفسه.

وأهميته بالنسبة لمستقبل العلوم اللغوية العربية... كما عرف بفترة ازدهار العلوم والآداب في بغداد وارتباطها بحركة ترجمة المؤلفات اليونانية إلى اللغة العربية. وهو يعتقد أن هذه العملية بدأت قبل عصر المنصور والمامون، ويقول بهذا الصدد: «... سوف يكون من الخطأ الظن بأن هذا لم يحدث إلا بتأثير من الأوامر التي صدرت في أيام المنصور والمامون بالبحث والحصول على المخطوطات وترجمتها إلى العربية، فلا شك في وجود علاقة بين العلم في العهد الإسلامي والعلم اليوناني الذي كان منتشراً في إيران قبل العهد الإسلامي، ولو أن هذه المسألة لم تدرس بعد دراسة وافية»[68]. ويحدد العالم عهد ازدهار الأدب الجغرافي العربي في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ويرى أن العرب استطاعوا أن يتفوقوا كثيرا على الإغريق في مجال معرفة العالم والتاريخ، وذلك بفضل اتساع معلوماتهم الجغرافية، كما أنهم استغلوا معلوماتهم هذه لتوسيع مجال تجارتهم إلى بلدان الشرق الأقصى[69]، ويستحق الأدب الجغرافي العربي، في نظره، أن يسمى أثمن مخلفات الحضارة الإسلامية... وخلاصة القول فإن "بارتولد" يعتقد أن المسلمين بلغوا في هذه الفترة أسمى درجات الرقي في جميع المجالات العلمية منها والإدارية والحربية...

تطرق "بارتولد" في مختلف كتاباته إلى الحالة العلمية والفكرية في العالم الإسلامي بعد استيلاء المغول على الحكم وتفكك الدولة الإسلامية. وهو يرى أن القوة الخلاقة للفكر الإسلامي بقيت حية حتى بعد هذه الأحداث، ويعزز قوله بتقديم مثالين لاستمرار حيوية العلم الإسلامي، ويتعلق الأمر بمؤلفين علميين فريدين من نوعهما، وهما "مقدمة ابن خلدون" وكتاب "جامع التواريخ" الذي ألفه بالفارسية العالم فضل الله رشيد الدين[70] في القرن الرابع عشر الميلادي. ويلاحظ "بارتولد" بهذا الصدد أنه كان من المنتظر أن تتطور مختلف العلوم وتزدهر في مجموع

(68) نفسه، ص. 78.

(69) V. Barthold, La Découverte de l'Asie, p. 75.

(70) انظر: E. Blochet, Introduction à l'histoire des Mongols de Fadl Allah Rachid - ed - din, Leyden - London, 1910.

العالم الإسلامي بعد صدور مثل هذه المؤلفات[71]، غير أن العكس هو الذي حصل. ومع ذلك فإن العالم الإسلامي حاول استرجاع مكانته السابقة. ويعتقد العالم أن القرنين التاسع والعاشر الهجريين مثلا كذلك عهداً وفق فيه السلاح الإسلامي أعظم التوفيقات، فقد وضعت أسس دولتين عظيمتين في هذا العصر بالذات غير الدولة العثمانية، ويتعلق الأمر بالدولة الصفوية ودولة أسرة "بابر" المغولية التي تأسست في الهند. ورغم كل هذه المحاولات فإن "بارتولد" يرى أن مصائب العالم الإسلامي بدأت في هذا العهد. فالتفوق الحضاري الذي ظل قائماً في الشرق الأدنى زهاء ألف عام قد بلغ نهايته وبدأ ينتقل إلى أوروبا الغربية[72]... غير أن العالم لا يفسر هذه النهاية بشيخوخة الحضارة الإسلامية كما فعل غيره من المستشرقين، وهو يرى أن العرب والإيرانيين قاموا بعمل ما استطاعوا عمله أحسن قيام، ولا يجوز مطلقا أن يقال أن الأتراك لم يبدعوا شيئا (...) إن العالم الإسلامي لم يفقد بعد قدرته على الحضارة (...) ومع ذلك فإنه لم يعد قادراً على مزاحمة عالم المسيحية...[73]. ويعزو العالم تفوق الأوروبيين إلى عدة عوامل منها على الخصوص:

1- اختراع الأسلحة النارية من قبل الأوروبيين، بالرغم من أن البارود كان معروفاً عند الشعوب الشرقية من قبل. وهذا ما ساعد الروسيين مثلا على الانتصار على دولة التتر وعلى القبائل التترية المسلمة الأخرى في سيبيريا التي لم تكن تعرف الأسلحة النارية حتى في النصف الثاني من القرن السادس عشر[74].

2- انتصار الصناعات المختلفة في أوروبا، فكان لهذا الحدث أثر بالغ

---

(71) V. Barthold, La Découverte de l'Asie, p. 80-81.

(72) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص. 146.

(73) نفسه، ص. 146.

(74) نفسه، ص. 147.

انظر حول موضوع احتلال "سيبيريا" من قبل الروس:

V. Barthold, La Découverte de l'Asie, p. 214-232.

في تقدم حياة المدن وازدهار التجارة. وهو الأمر الذي ساعد كثيراً على تغيير العديد من المفاهيم.

3- اكتشاف الطباعة في أوروبا في القرن السادس عشر، وقد مكن هذا الحدث التاريخي من ترويج الأفكار الجديدة بسرعة فائقة وعلى نطاق واسع. وأصبحت الطباعة أداة حضارية في غاية الأهمية. ومعلوم أن نوعاً من الطباعة كان معروفاً في الشرق خاصة عند الصينيين، غير أنهم، يقول "بارتولد" لم يستفيدوا منها.

4- تفوق الأسطول الأوروبي، وما نتج عنه من اكتشافات، وتحولات استراتيجية، خاصة في استبدال الطرق البرية بالطرق البحرية...

ولا بد هنا من الإشارة إلى أحد استنتاجات "بارتولد" الذي يكتسي، في نظرنا، أهمية بالغة. ففي معرض حديثه عن الاختراعات التي أنجزها الشرق مثل البارود والبوصلة والطباعة والتي لم يستفد منها مثلما استفادت أوروبا، يقول العالم: «تدل المقارنة بين الصين وأوروبا الغربية على أن الصناعة وحدها ليست سبباً كافياً لازدهار الحياة الاجتماعية. وقد اتضح أنه يمكن معرفة صناعة البارود دون أن يؤدي ذلك إلى إنشاء جيش قوي، ويمكن معرفة البوصلة دون تقدم الملاحة البحرية، ويمكن معرفة فن الطباعة دون الاستفادة منها في تكوين الرأي العام... فلو لم يكن في أوروبا ذلك الرقي الاقتصادي والمدني الذي له علاقة بعصر النهضة... لما أنجبت الطباعة هذه النتائج العظيمة...»(75).

وبإزاء الأسباب السالفة الذكر التي جعلت العالم الإسلامي يتأخر عن ركب الحضارة، فإن "بارتولد" يرى أن هناك أسباباً أخرى داخلية ساهمت بدورها في هذا التأخر، ومنها على الخصوص:

1- عدم الاستقرار السياسي والأمني وتزايد غزوات الرحل على الحواضر.

2- الانشقاق الديني بين أهل السنة وأهل الشيعة، خاصة بعدما

---

(75) نفسه، ص. 81.

أعلنت الشيعة مذهباً رسمياً للدولة في إيران[76].

ورغم الانحطاط، فإن "بارتولد" يعتقد أن القول بأن العالم الإسلامي كان "في سبات عميق" شيء مبالغ فيه. ويعطي كمثال لدعم كلامه هذا، «ازدهار الفن المعماري في كل من تركيا وإيران والدولة المغولية في الهند». «إن تركيا، يقول العالم، لم تكتف بشهرتها العسكرية في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين، بل صارت إستانبول أحد مراكز الحضارة الكبرى التي عرفها العالم الإسلامي، وعرفت إيران في النصف الأول من القرن الحادي عشر (هـ) ازدهاراً لا مثيل له في المعمار، كما أن دولة أسرة "بابر" في الهند أحرزت تقدماً كبيراً سواء في الرفاه المادي أو التسامح الديني. أما الفلاحة فقد عرفت في هذا البلد أعلى درجات الرقي، كما شهد بذلك الإنگليز أنفسهم فيما بعد»[77].

تلك بعض الموضوعات التي شغلت بال العالم "بارتولد" في مجالي كتابة تاريخ الشرق من جهة ودراسة الحضارة العربية الإسلامية من جهة أخرى. ونحن، بعرض آرائه هذه لا نطمح إلى الإحاطة بكل مؤلفاته ونظرياته، لأن كتاباته تزخر بالعديد من المعلومات المتنوعة حول تاريخ وحضارة عشرات الشعوب المسلمة التي تنتمي إلى جنسيات مختلفة والتي تقطن بلدانا متباعدة في منطقة شاسعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى الهند والصين. والواقع أن كتابات "بارتولد" تستوجب من الباحثين المؤرخين أن يرصدوا لها دراسات مستفيضة، أو يتناولوا بالدرس جانبا من جوانب اهتمامات العالم التي يمكن حصرها في ثلاثة محاور رئيسية، هي:

1- الاستشراق وكتابة تاريخ الشرق وحضارته.

2- تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

(76) نفسه.

(77) بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص. 150-151.

3- تاريخ بلدان آسيا الوسطى.

وبدون إنجاز مثل هذا النوع من الدراسات فإننا نعتقد أنه لا يمكن إدراك مميزات الاستشراق الروسي في مجال الدراسات التاريخية التي شكلت نقطة تحول كبير في الاستشراق العالمي، غير أن مثل هذا العمل يتطلب من الباحثين جهداً كبيراً، ذلك أن كتابات "بارتولد" وافرة وجد متنوعة، وإن الدكتور سهيل رزق الله لعلى صواب حين تحدث عن صعوبة الإحاطة بأعمال "بارتولد" وعن أهميتها القصوى وقال: «إن مقالة واحدة عن مكانة "بارتولد" في تاريخ الدراسات الإسلامية وموقفه من الحضارة العربية الإسلامية لا تكفي للتوقف عند كل دراسة والدخول في تفاصيلها وأفكارها، سيما وأنه كتب المئات من الأبحاث والتعليقات والترجمات حول هذه المواضيع...» [78].

من خلال الصفحات القليلة التي خصصناها لبارتولد يظهر مدى تنوع اهتمامات "بارتولد" ومدى غزارة كتاباته، وكل ما سعينا إليه في هذا المبحث من دراستنا هو التعريف، أو المزيد من التعريف، بهذا المستشرق المؤرخ الكبير الذي يحتل مكانة خاصة في الأوساط العلمية في أوروبا والعالم العربي الإسلامي.

إن مؤلفات "بارتولد" شكلت نقطة تحول كبير في تاريخ الاستشراق العالمي وخاصة في مجال دراسة تاريخ الحضارة الإسلامية وتاريخ الإسلام. ويتجلى هذا التحول على الخصوص في نقطتين أساسيتين، هما:

1- الاعتماد بالدرجة الأولى على الوثائق والمراجع الأصلية، وهي بالأساس عربية وتركية وإيرانية.

2- مقارنة كل مرحلة تاريخية موضوعة للدرس مع الحضارات التي سبقتها أو التي واكبتها في أوروبا أو في جهات أخرى من الشرق.

---

(78) سهيل رزق الله، بارتولد والحضارة العربية الإسلامية، مجلة "الفكر العربي"، عدد 31، 1983، ص. 335.

وإن معالجة الأمور بهذه الطريقة مكنت "بارتولد" من تجنب عدد كبير من الأخطاء الموروثة عن الكتابات الأوروبية القديمة، كما مكنت الباحثين الذين ساروا على نهجه من الاقتراب من حقيقة الأمور...

هذه بعض مميزات مؤلفات "بارتولد" التي تجمع بين الموضوعية وشمولية النظرة إلى الموضوعات المطروحة للدرس. وبالرغم من كل هذا، فإن لنا بعض المآخذ عليها وخاصة منها تلك التي كرسها لدراسة الحضارة الإسلامية، ومن أبرز هذه المآخذ:

1- لم يخصص العالم في مؤلفاته للجناح الغربي من العالم الإسلامي إلا صفحات قليلة رغم الدور الكبير الذي لعبته بلدان هذه المنطقة في ازدهار الحضارة عموما والإسلامية منها خصوصاً. ولا بد هنا من مقارنة مؤلفات "بارتولد" مع مؤلفات "كراتشكوفسكي"، وخاصة منها تلك التي كرسها لدراسة الأدب الجغرافي عند العرب والحضارة الإسلامية في الأندلس. فقد أعطى هذا الأخير أهمية قصوى لهذه الحضارة واعتبرها إحدى ركائز الحضارة الإسلامية الأساسية، كما وضع الرحالة والجغرافيين المغاربة في المكانة الرفيعة التي يستحقونها ويعترف لهم بها الجميع.

2- لم يتناول "بارتولد" بالدرس موضوع تاريخ الإسلام والمسلمين داخل حدود الجمهورية الروسية الحالية، وآكتفى بإشارات سريعة لهذا الموضوع.

3- ينتقل المؤلف في كتاباته حول الحضارة الإسلامية بسرعة كبيرة من موضوع إلى آخر دون التمهيد لذلك... فيشعر القارئ أحياناً أنه يقرأ سيلاً من حقائق قيمة وآراء سديدة جمعت دون ترتيب أو اتصال...[79].

ونعتقد في ختام هذا المبحث أن مؤلفات "بارتولد" لم تفقد حتى الآن من أهميتها العلمية، بالرغم من كونها كتبت قبل ما يزيد على سبعين

---

(79) انظر المقدمة التي كتبها الدكتور عبد الوهاب عزام في كتاب: بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية...، ص. 8.

سنة، بل إن الاهتمام بها يزداد ويتقوى لا بسبب ما عرضنا في هذه الصفحات حول بعض انشغالات هذا العالم الكبير فحسب، ولكن بسبب تخصصه الآخر الذي اكتفينا بالإشارة إليه والذي أنجب فيه الكثير، ويتعلق الأمر بدراسة تاريخ منطقة آسيا الوسطى. وكما أسلفنا الذكر، فإن شهرته في هذا الميدان دفعت الدولة التركية إلى استدعائه ليحاضر في جامعة استانبول خلال السنة الجامعية 1926-1927. فكانت تركيا صائبة في اختيارها هذا، فقد استفاد من علم "بارتولد" كثير من الباحثين الأتراك.

واليوم وأكثر من أي وقت مضى، فإن مؤلفات "بارتولد" حول بلدان هذه المنطقة تكتسي أهمية قصوى، ذلك أنه بعد تفكيك الاتحاد السوفييتي، استرجعت الدول الإسلامية في كل من آسيا الوسطى والقوقاز استقلالها. وهي تسعى جادة إلى استرجاع مكانتها داخل العالم الإسلامي... ونعتقد أنه من واجب مؤرخينا أن يولوا أهمية خاصة لتاريخ هذه الدول وحضارتها. وبقيامهم بهذه المهمة سوف يساهمون في كتابة تاريخ العالم الإسلامي المعاصر برمته، كما أنهم سوف يزيلون الغطاء عن جانب من حضارتنا المشتركة... وسوف تكون مؤلفات "بارتولد" ضمن قائمة مراجعهم، وربما كانت على رأس هذه القائمة...

يتضح من خلال هذا الفصل من دراستنا مدى التقدم الذي أحرزته المدرسة الاستعرابية الروسية منذ إنشاء شعب اللغات الشرقية في مختلف جامعات الإمبراطورية في مستهل القرن التاسع عشر. فمن مستورد للكتابات الاستشراقية الأوروبية الغربية تحولت هذه المدرسة في أواخر القرن التاسع عشر إلى مصدّر لها. وصارت العاصمة "سان پيترسبورگ" قبلة يقصدها العديد من المستشرقين الأجانب لتتبع آخر منجزات الاستعراب الروسي الذي وصل أوجه مع العالم "روزين" ومجموعة تلاميذه الذين استطاعوا بدورهم أن يحتلوا موقعاً بارزاً في الساحة الاستشراقية العالمية خلال النصف الأول من القرن العشرين. وإن الاستشراق الروسي المعاصر الذي تتلمذ جل ممثليه على يد هذه المجموعة من العلماء قد

تنوعت اهتماماته وتفرعت اختصاصاته[80]. ويرجع الفضل، بالدرجة الأولى، في تحقيق هذا التطور الكبير إلى ما قام به، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، زمرة من العلماء الألمان أمثال "فرين" و"دورن" وغيرهما من نشاط علمي وتربوي كان له أثر بالغ في ترسيخ التقاليد العلمية في روسيا. ولم يكن للمدرسة الاستشراقية الروسية أن تعرف مثل هذا الازدهار لولا ما عرفته مدينة "سان بيترسبورگ" من تضافر جهود العاملين في حقل الجامعة من جهة والعاملين في "المتحف الأسيوي" من جهة أخرى. وإن جل المستشرقين الروسيين الذين تألقوا في الميدان العلمي كانوا يترددون على هاتين المؤسستين. وهذا دليل قاطع على أن تكامل الأنشطة بالجامعة و"المتحف الأسيوي" كان من الأسباب الرئيسية التي فتحت الباب على مصراعيه أمام تطور المدرسة الاستشراقية الروسية وازدهارها.

---

(80) انظر حول المدرسة الروسية السوفييتية:

Abderrahim Lataoui, Etudes arabes en U. R. S. S. (1917-1972), in: Traces, N°4, 1980, p. 81-100: (1ere partie).

وهي دراسة "بيوبيبليوغرافية".

الفصل الثالث

كراتشكوفسكي - شيخ الاستعراب الروسي خلال النصف الأول من القرن العشرين

I- ترجمة "كراتشكوفسكي" وأهميته العلمية

اقترن الاستشراق الروسي طوال النصف الأول من القرن العشرين باسم "كراتشكوفسكي" الذي يعتبر بحق شيخ المدرسة الاستعرابية الروسية خلال هذه الفترة. ولا زالت الأجيال الجديدة من المستعربين في روسيا تعترف له حتى الآن بفضله عليها وتعتز بما قام به من نشاط في ميداني التعليم والبحث العلمي.

ولد "كراتشكوفسكي" يوم 16 مارس من عام 1883 في مدينة "ڤيلنيوس" البلطيقية. لكنه قضى جزءاً مهماً من طفولته في مدينة "طاشقنت" بأوزبيكستان حيث عين أبوه الذي كان ينتمي إلى أسرة التعليم ناظراً عاماً لمدارس آسيا الوسطى. وهكذا فتح الطفل عينيه في وسط شرقي إسلامي كان له أثر كبير على حياته. وقد كتب "كراتشكوفسكي" فيما بعد عن هذه المرحلة من حياته يقول: « ... ابتدأت أذكر نفسي طفلاً صغيراً في "تاشكنت" وأول لغة تكلمتها لغة أوزبكية لأن حاضنتي كانت أوزبكية الأصل. وكانت تأثراتي الأولى في صغري بما وقعت عيني عليه من المساجد والأسواق الشرقية وتنوع الأمم والطوائف واختلاف الألبسة، وكان لهذه التأثيرات وقع شديد في نفسي أيام طفولتي. وأكبر ظني أني غدوت ميالا إلى الشرق وإن كنت غير مدرك هذا الميل الغريزي... »[1]. ورجعت عائلة كراتشكوفسكي إلى

(1) انظر: إغناطيوس كراتشكوفسكي، ترجمته بقلمه العربي، في مجلة: "المجمع العلمي العربي"، عدد 7، 1927، ص. 122-126.

أورد هذه الترجمة مترجم كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم في المقدمة التي كتبها لترجمته، انظر كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، ص. 1-5.

هنا وفي الدراسة كلها حرصت على إثبات النصوص كما وردت في الكتابات باللغة العربية عند أصحابها دون إدخال أدنى تغيير عليها.

"ڤيلنيوس" سنة 1888 بعد ما عين أبوه مديرا للمكتبة العمومية بها ورئيسا لمصلحة الآثار التاريخية. وكان لهذا الوسط العائلي المثقف تأثير كبير في الاتجاه العلمي الذي اختاره "كراتشكوفسكي".

ꙮ بدأ الشاب "كراتشكوفسكي" يهتم بالشرق عامة وبالحضارة العربية خاصة ويقرأ الكتب المكرسة لها وهو ما زال تلميذا. وبعد الدراسات الثانوية، كان الشاب كراتشكوفسكي قد اختار لنفسه الطريق الذي سيسلكه في حياته وأيقن تمام اليقين أن الشرق سيكون مجالا لأبحاثه ودراساته المقبلة، يقول كراتشكوفسكي بهذا الصدد: «... لم أتجاوز السادسة عشرة من عمري حتى قويت ميولي وتعينت غرائزي وصرت أفكر فيما أجعله غرض حياتي، وقد رأيت بعد بحث طويل أن العلم يجذبني إليه بقوة سحرية، وأن الشرق يكون ميدان أفكاري. ولا غرابة فقد زرت الشرق في طفولتي وكان أبدا يتماثل نصب عيني. وكان لي مثال آخر في شخص أبي فإني كنت أراه منكباً على الكتب والأوراق في الليل والنهار يبحث عن ماضي الزمان ورجاله...»[2].

ꙮ التحق "كراتشكوفسكي" سنة 1901 بكلية اللغات الشرقية بجامعة "سان پيترسبورگ"، ونظراً لأهمية هذه المرحلة الثانية من حياته ولما حصل خلالها من علوم متينة على يد مجموعة من أكبر المستشرقين الروسيين في روسيا القيصرية آنذاك، نترك "كراتشكوفسكي" يحدثنا عنها بقلمه العربي: «... انضممت إلى سلك تلاميذ فرع لغات الشرق الإسلامي فصرفت أربع سنوات في دراسة العربية والفارسية والتركية والتترية وبعض اللغات السامية كالعبرانية ولا سيما الحبشية القديمة، ولقد درست هذه الأخيرة على مواطني العلامة "توررايف"، ولطالما فكرت أن أمضي فيها وأتعمق لكن اللغة العربية غلبت ضرتها وجذبتني جملة إليها. (وكنت أدرس تاريخ الشرق الإسلامي برياسة العلامة "برتولد" (Bartold) الذي

---

(2) كراتشكوفسكي، ترجمته بقلمه العربي، في كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الترجمة العربية، ص. 2.

ترجمت بعض تآليفه إلى اللغة التركية مؤخراً[3]. وله التأثير المهم في حياتي العلمية فإنه بأسلوبه السديد المتين وانتقاده المدقق أطلعني على أسرار فلسفة التاريخ. وكذلك درست علم اللغات العام على المعلم "ميليورانسكي" (Melioranski) (...) وعلم تاريخ الآداب العامة على العلامة "الكسندر ڤيسيلوفسكي" (Veselovski)، وهو من أكابر علماء العالم بأسره في هذا الفن. وكان له في نفسي تأثير قوي كتأثير "برتولد" في التاريخ، وغدوت من ذلك الوقت أفكر في تطبيق أسلوبه التشبيهي على تاريخ آداب اللغة العربية. وأرجو أن أكون بلغت شيئا من ذلك في مؤلفاتي عن العربيات. أما العلوم العربية فدرستها على الأستاذ "ميدنيكوف" (Mednikov) مؤرخ فلسطين المشهور (...) أما عمدتي في العربية فهو العلامة "ڤيكتور فون روزين" (Victor von Rosen) عضو أكاديمية العلوم الذي ذاعت شهرته في بلاد الغرب والشرق. ولقد أنجزت دروسي في الكلية سنة 1905 نائلاً مدالية الذهب مكافأة لتأليفي عن خلافة المهدي العباسي آخذاً عن المصادر العربية كالطبري وابن الأثير والعيني والمسعودي وغيرهم. وبعد انتهاء دروسي في الجامعة كنت أواصل دروسي تحت أنظار "البارون روزين" المومأ إليه خلال سنتين...»[4].

وكان لهذه المجموعة المرموقة من العلماء المستشرقين دور حاسم في تكوينه تكوينا علميا شاملا وتهييئه لدخول عالم البحث العلمي في مجال الدراسات الاستشراقية من بابه الواسع.

وبإزاء الدروس التي كان يتلقاها والتي تدخل في مجال الاختصاص الذي كان يتهيأ إليه، كان يحضر العديد من المحاضرات في تخصصات أخرى وخاصة منها تلك التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بتاريخ الشعب الروسي ولغته وأدبه، كما أنه كان يولي أهمية قصوى لإتقان عدد

---

(3) يقصد كراتشكوفسكي: كتاب بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، الذي ترجمه إلى التركية الأستاذ محمد فؤاد كوبريلي. وقام بترجمته من التركية إلى العربية الأستاذ حمزة طاهر. ونشرته دار المعارف بمصر، عام 1966. انظر حوله المبحث الخاص بالعالم "بارتولد" في الفصل الثاني من دراستنا.

(4) كراتشكوفسكي، ترجمته بقلمه العربي، في كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الترجمة العربية، ص. 3.

من اللغات الأوروبية الغربية. حصل "كراتشكوفسكي" سنة 1908 على منحة دراسية من جامعة "سان پيترسبورگ" مكنته من السفر إلى الشرق العربي قصد استكمال وتعميق دراساته العربية. وكما جاء في الرسالة الموجهة إليه من قبل رئاسة الجامعة بهذا الصدد فإن مهمته كانت تهدف إلى:

1- التعرف على اللهجات العربية الحية.

2- التعرف على الحضارة العربية والأدب العربي الحديث.

3- التعرف على النشاط العلمي للكلية الشرقية بجامعة بيروت، والتعرف على وضعية تعليم اللغة والأدب العربيين بها[5].

وكان لهذه الرحلة الدراسية دور حاسم في اختياراته العلمية المقبلة خاصة في ما يتعلق بالأدب العربي الحديث ودراسة المخطوطات العربية القديمة، كما أنها مكنته من التعرف عن كثب على حقيقة الشؤون العربية الشرقية ثقافيا وسياسياً واجتماعياً ومعاشرة عدد من العلماء والكتاب والشعراء العرب، وقد استفاد "كراتشكوفسكي" كثيراً من محاضرات الأب لويس شيخو في جامعة بيروت حول الأدب العربي، و"لامينس" حول تاريخ الرسول ﷺ و"روزينڤال" حول اللهجات العربية و"جيون" حول اللغة العربية القديمة. ورغم ضيق الوقت واتساع مجال دراسته فإنه كان يخصص جزءا من برنامجه اليومي لمساعدة العالم الصالحاني على تحقيق وطبع عدد من النصوص العربية المخطوطة القديمة.

أما في القاهرة فإنه كان يتردد على محاضرات العالم الإيطالي "نالينو" (Carlo Alphonso Nallino) حول تاريخ علم الفلك عند العرب[6]. ولم يغفل "كراتشكوفسكي" وهو يذكر هذه الفترة من حياته الإشارة إلى بعض الشخصيات العلمية التي تعرف عليها في الشرق العربي وأحبها وكانت له

(5) أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي. إيگناتي كراتشكوفسكي، موسكو - لينگراد، 1949، ص. 7. (بالروسية) (AN SSSR, Ignati Kratchkovskiy).

(6) نفسه، ص. 7.

معها مراسلات فيما بعد، فقد أثارها في كتاباته المتعددة[7]. ويقول العالم عنها: «... وتعرفت خلال إقامتي في الشرق العربي إلى كثير من علماء العرب، وأدبائهم وصحافييهم ولا أنسى لطفكم وعنايتكم مدى الدهر، وكان هذا اللطف العربي المشهور من الأسباب التي جذبتني إلى الشرق جذبة لا أتخلص منها ما دمت حيا. تعرفت إلى الكثيرين من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمي المكرمين فيما بعد. ففي القاهرة عرفت جرجي زيدان (...) وأحمد زكي باشا عضو المجمع العربي الحالي (...) وفي فلسطين السيد خليل السكاكيني والشاعر الفاضل إسعاف النشاشيبي، وفي بيروت حضرت دروسا للأب العلامة لويس شيخو، وفي دمشق زرت إدارة مجلة "المقتبس" الغراء. واستفدت في هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتي. ولا أزال أرجو أن يرزقني الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ومسامرة أعيان علمائها مرة ثانية. تمم الله أمنيتي بالخير فهو السميع المجيب...»[8]. لم تتحقق أمنية "كراتشكوفسكي" هذه، رغم شوقه وحنينه إلى الوطن العربي الذي عبر عنه غير ما مرة في كتاباته، وخاصة منها "مع المخطوطات العربية". ويمكن الرجوع على سبيل المثال لا الحصر إلى صفحتي 94 و95 حيث يقول: «... كانت مهمتي في الرحلة الأولى تقتصر على التعرف الأول، فكان ينبغي أن تتبعها رحلات أخرى حقيقية مرسومة منظومة. لكن هذا لم يحدث وكثيراً ما حزنت على ذلك (...) كنت أشعر أحياناً بالأسف لعدم تمكني من السفر مثلهم (زملائه)...».

والظاهر أن مصالح المخابرات السوڤييتية لم تكن تثق في العالم رغم ما ناله من شهرة ومجد في المجال العلمي. وهذا ما يفسر عدم الترخيص له بمغادرة روسيا بالرغم من الدعوات العديدة التي كان يتوصل بها من

(7) انظر على سبيل المثال كتابه: مع المخطوطات العربية، صفحات الذكريات عن الكتب والناس، دار التقدم، موسكو، 1963 (؟) (الترجمة العربية). في أماكن مختلفة من الكتاب.

(8) كراتشكوفسكي، ترجمته بقلمه العربي، في كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1987، ص. 4.

الجامعات والمجامع اللغوية العربية المشرقية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن كراتشكوفسكي تعرض كالعديد من العلماء للاضطهاد وأنه قضى عدة شهور في السجن في الفترة الممتدة بين عامي 1922 و1923 (9).

لقد قضى "كراتشكوفسكي" سنتين كاملتين في الشرق العربي زار خلالهما كلا من لبنان وسورية وفلسطين ومصر وتمكن فيها من التعرف على مختلف شرائح المجتمع العربي، فربط علاقات مع ربابنة الزوارق والفلاحين وماسحي الأحذية والطلبة ومشايخ الأزهر والصحفيين والسياسيين والكتاب والشعراء. وبقيت تربطه منذ ذلك العهد علاقة صداقة مع أمين الريحاني وجرجي زيدان وأحمد تيمور ومحمود تيمور وغيرهم (وقد خصص "كراتشكوفسكي" لرحلته هذه فصلا كاملا في كتابه "مع المخطوطات العربية" (10) عنونه "من جولاتي عبر الشرق") وتكتسي هذه الصفحات أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ الأدب العربي في تلك الحقبة من الزمن، إذ أن المؤلف لا يكتفي بذكر العلماء والأدباء الذين تعرف عليهم أو عاشرهم بل يذهب أبعد من ذلك ليدلي برأيه وانطباعاته حول كل شخصية. يقول كراتشكوفسكي بهذا الصدد: «من بين الشخصيات التي تعرفت عليها هناك الكاتب والمؤرخ والصحفي زيدان الذي رغم أنه كان آنذاك في أوج شهرته فإنه لم يستطع أن ينسى وطنه الذي كان مغلوقا في وجهه، ولقد تأثر حتى البكاء لما سمعني أتحدث بلهجته الوطنية السورية. واكتشفت صدفة نجم الريحاني الصاعد، فهو آنذاك لم يكن قد حصل بعد على المجد الذي ناله فيما بعد كزعيم للمدرسة الأدبية "السورية - الأمريكية" الجديدة. ولكن ملامح

(9) تعرض كثير من العلماء إلى الاضطهاد، انظر حول هذا الموضوع: ڤاسيلكوف وآخرون، الاستشراق المضطهد، في مجلة: "نارودي آزي إي أفريكي" (شعوب آسيا وإفريقي) العدد الرابع، 1990، ص. 113-125، الجزء الأول.

Repressirovannoye vostokovedeniye, Norody Azii i Afriki, N°4, 1990, str. 113-125.

(10) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، ص. 39-92.

شخصيته العجيبة كانت توحي بموهبته الكبيرة...»[11]. وإن هذه الصفحات التي كتبها عن رحلته إلى الشرق العربي لا تخلو كذلك من طرافة، فبحكم رغبته الشديدة في تعلم اللهجات العربية فإن الشاب كراتشكوفسكي كان يستمع كثيرا إلى حديث الناس ونادراً ما كان يتكلم، وهذا ما دفع بعض أصدقائه العرب إلى معاتبته قائلين: «إنك تشتري ولا تبيع شيئاً، إنك تنصت ولا تتكلم..!»[12]. وكان الطالب كراتشكوفسكي يحب أن يتجاذب أطراف الحديث مع أناس من مختلف الشرائح الشعبية، وتشهد بذلك قصته مع أحد الأطفال من ماسحي الأحذية المصريين في يوم رحيله من القاهرة، فبعد أن حاول زيارة مكتبة تيمور باشا وكان هذا الأخير غائبا آنذاك، وقف "كراتشكوفسكي" في إحدى المحطات من ضواحي القاهرة، ينتظر وصول القطار، فأخذ يتحدث إلى أحد ماسحي الأحذية وأظهر له تأسفه على ترك مصر دون التمكن من زيارة مكتبة الباشا: «علي أن أرجع إلى بيتي في روسيا، لأنني روسي»، فضحك الطفل... وأجاب: «أنت لست فرنجي ولا مصري، أنت سوري، عرفت هذا من لهجتك من أول وهلة، إنك لن تخدعني بقبعتك... مع السلامة... وسوف نلتقي في الشام»[13]، ولم يخف "كراتشكوفسكي" سروره وفرحته إثر حكم هذا الطفل المصري على معرفته باللهجة السورية.

اغْتَنَم العالم فرصة وجوده في الشرق العربي لدراسة المخطوطات العربية في مختلف المكتبات التي كان يزورها بانتظام في كل من بيروت ودمشق والقاهرة، وزاد في تعميق معلوماته في هذا الميدان في المكتبات الغربية التي زارها خلال صيف سنة 1914 وهي مكتبات "لايبزگ" و"هالة" وخاصة "ليدن". وقد خصص "كراتشكوفسكي" لهذا الموضوع قسما مهما من كتابه "مع المخطوطات العربية - ذكريات حول الكتب والناس في ورقات" الذي صدرت طبعته الأولى سنة 1945 . وبعد رجوعه إلى وطنه

(11) نفسه، ص. 32 (الطبعة الروسية الرابعة).

(12) نفسه، ص. 42.

(13) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، (الترجمة العربية)، ص. 105.

- عمل في سلك التدريس بالكلية الشرقية لجامعة "سان پيترسبورگ". وناقش أطروحته حول الشاعر الوأواء الدمشقي وعنوانها الكامل "ديوان أبي الفرج محمد بن أحمد الغساني الملقب بالوأواء الدمشقي 390هـ/ 999م" [14].

- انتخب "كراتشكوفسكي" سنة 1921 عضوا في أكاديمية العلوم الروسية وشغل منصب أستاذه "البارون روزين"، كما انتخب سنة 1923 عضوا مراسلا في المجمع العلمي العربي في دمشق، وكتب عن هذا الحدث يقول: «... وكان ذلك أكبر شرف نلته مدة عمري وصار هذا التشريف مساعدا لي ومشجعا في أحوالنا الصعبة. ورأيت فيه تقديرا أتفاخر به لأتعابي في التعليم والبحث والتأليف منذ عشرين سنة...» [15].

- تابع العالم مسيرته التربوية والعلمية بدون كلل إلى أن وافاه الأجل المحتوم في 24 يناير من سنة 1951. وفقد فيه الاستشراق العالمي عامة والاستعراب الروسي خاصة عالما فذا لم يسبق للمدرسة الاستشراقية الروسية أن أنجبت مثله.

- دفن كراتشكوفسكي في مقبرة "ڤولكوڤو" في "سان پيترسبورگ". وقد كتب على النصب التذكاري الذي شيد فوق القبر، شطر من بيت شعر لأبي العتاهية، هو: «الموت باب وكلُّ الناس داخله» [16].

- يعرف العالم العربي اسم "كراتشكوفسكي" من خلال مؤلفاته التي ترجمت إلى اللغة العربية مثل "مع المخطوطات العربية [17]، و"تاريخ

---

(14) الأب بوحنا مصريان اليسوعي، إغناطيوس كراتشكوفسكي، مجلة المشرق، تشرين الأول، كانون الأول، 1951.

(15) كراتشكوفسكي، ترجمته بقلمه العربي، في كتاب: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص. 4.

(16) توجد صورة لقبر العالم في كتابه "مع المخطوطات العربية"، الترجمة العربية، ما بين الصفحتين 8 و9.

(17) مع المخطوطات العربية، صفحات الذكريات عن الكتب والناس، دار التقدم، موسكو، 1963، (لا ذكر لمترجم الكتاب).

الأدب الجغرافي عند العرب"[18] و"الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"[19] و"الشعر العربي في الأندلس"[20] و"دراسات في تاريخ الأدب العربي"[21] وغيرها من المؤلفات... غير أن ما لا يعرفه إلا القليل من المختصين هو أن العالم كرس حياته كلها لدراسة جل جوانب الحضارة العربية وأسهم إسهاما كبيرا في كل فرع من فروعها بأبحاثه ودراساته المتعددة. وقد أعطى عمله العلمي الدؤوب ثماره الغزيرة في حقول شتى من المعرفة مثل دراسة اللغة العربية وتاريخ العرب والمسلمين والبحث في الأدب القديم والحديث على السواء. وكان يتتبع ما كان يجد في هذا المجال بإصدار مقالات نقدية مركزة حول أهم الكتابات الأدبية، وهكذا فقد صدرت له عشرات وعشرات المقالات باللغات الروسية والعربية والألمانية والفرنسية والإنكليزية ولغات أخرى.

أما مفهوم "الحضارة العربية" عنده فهو واسع للغاية. وقد استعمله للتعبير عن جميع أوجه النشاط الثقافي لشعوب الشرق الأدنى فلم يقتصر على العرب وحدهم بل أدخل شعوب آسيا الوسطى والقوقاز كما أدخل الإيرانيين والأتراك والسريان وغيرهم[22].

ولم يكتف العالم بمزاولة العمل في حقل البحث العلمي الصرف، بل تعداه ليكرس جزءا لا يستهان به من حياته للتدريس والتلقين، كما أنه أشرف على العديد من الرسائل الجامعية والأطروحات فضلا عن ما كان يعرف به من استعداد دائم لمساعدة وإرشاد كل من يتهيأ لنشر كتاب أو

---

(18) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تعريب صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، هناك طبعة ثانية صدرت عن دار الغرب الإسلامي سنة 1987.

(19) الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ودراسات أخرى، تعريب عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، الرباط، 1989.

(20) الشعر العربي في الأندلس، تعريب محمد منير مرسي، عالم الكتب، القاهرة، 1971.

(21) دراسات في تاريخ الأدب العربي، تعريب العصراني وڤاسيليڤا والنجفي، دار النشر "علم" (ناؤوكا) موسكو، 1965.

(22) انظر: مقدمة "تسيريتيلي" (Tseretelli) في كتاب: كراتشكوفسكي، إ. تاريخ الأدب الجغرافي العربي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1987، ص. 12.

مقالة يكون لموضوع دراسته صلة مباشرة أو غير مباشرة بمجالات تخصص عالمنا[23] . ويكفي إلقاء نظرة خاطفة على الدروس التي كان يلقيها داخل الجامعة لنكوّن فكرة عن مدى اتساع اهتماماته العلمية. ويمكن تقسيم هذه الدروس التي بلغ عددها الثلاثين درسا إلى المحاور السبعة التالية:

1- الأدب العربي القديم والحديث من نثره وشعره، عُروض عن مختلف الكتاب، العَروض العربية، منهجية دراسة الأدب العربي.

2- محاضرات حول القرآن الكريم، قراءة القرآن الكريم وشرحه والتعليق عليه.

3- الكتابات العربية في مجالات التاريخ والجغرافية والفلسفة والنحو.

4- اللهجات العربية وخاصة منها اللهجات الشامية والمصرية.

5- تعليم اللغة العربية. الدروس الأولية.

6- مدخل إلى فقه اللغة العربي.

7- تاريخ الحضارة العربية[24] .

ويعرّف "كراتشكوفسكي" مجال اختصاصه بقوله: «... ودوائر أبحاثي ثلاث: الأولى منها تاريخ الشعر العربي ونقده منذ قديم الزمان إلى أيامنا هذه، والثانية آداب اللغة العربية بين نصارى العرب، والثالثة تاريخ آداب اللغة العربية منذ نهضتها الأخيرة في القرن التاسع عشر. وهذا الموضوع الأخير مما أفتخر به، فإني أول من كتب بالروسية فيه، وقل من كتب عنها من المستشرقين في أوروبا...»[25] .

---

(23) انظر على سبيل المثال ما كتبه الأستاذ "شوموفسكي" في هذا الموضوع في كتابه "ذكريات مستعرب" (Vospominaniya arabista)، دار النشر "ناؤوكا"، لينينگراد، 1977، ص. 24-54 (بالروسية).

(24) حامد عبد الهوال، الاكاديمي كراتشكوفسكي والأدب العربي الحديث، أطروحة لنيل الدكتوراه، الكلية الشرقية لجامعة لينينگراد، 1970، (بالروسية) (غير مطبوعة).

(25) كراتشكوفسكي، ترجمته بقلمه العربي، المذكور آنفاً، ص. 5.

II- كتابات "كراتشكوفسكي" في مجال الأدب العربي القديم

لا يكاد يوجد فرع من فروع علوم اللغة العربية وأدبها لم ينل قسطا وافراً من اهتمامات العالم "كراتشكوفسكي". ويكفي أن نذكر أن مجموع ما ألفه قد بلغ نحو ستمائة بحث ما بين مقالة وكتاب لنعلم مدى غزارة إنتاجه العلمي.

والجدير بالذكر أنه، منذ بحثه الأدبي الأول حول شعر أبي العتاهية[1] (1907)، لاحظ غياب دراسات علمية عصرية حول تاريخ الأدب العربي، فحاول في بحثه دراسة شعر أبي العتاهية في إطار "تاريخي أدبي". كما أنه أدرك أن دراسة الأدب العربي خاصة والآداب الشرقية عامة يجب أن تخضع لنفس المعايير والمناهج التي تطبق على دراسة الآداب الأوروبية. وإذا كانت هذه النظرة إلى الأشياء تبدو بديهية اليوم، فإنها في بداية القرن العشرين كانت في منتهى الغرابة وتحتاج إلى كثير من الإيضاح حتى يتسنى الدفاع عنها في الأوساط الاستشراقية. وهذا ما تجند لإثباته "كراتشكوفسكي" في جل مؤلفاته. وكانت البداية مع أطروحته التي عنوانها "أبو الفرج الوأواء الدمشقي، مواد لوصف مؤلفاته"[2]. وشملت هذه الأطروحة بالإضافة إلى دراسة فيلولوجية دراسة مستفيضة لا لشخصية أبي الفرج وحده، بل لحياة عدد كبير من الشعراء في كل من حلب

(1) كراتشكوفسكي، مؤلفات أبي العتاهية الشعرية، ضمن "مختارات كراتشكوفسكي"، المجلد الثاني، ص. 14-51، (بالروسية)

Poetitcheskoye tvortchestvo Abu-l-Atâhii.

(2) انظر المبحث الخاص بها ضمن هذا الفصل من دراستنا.

ودمشق. كما شكلت دراسة دقيقة لتقنيات الإبداع الشعري عند الوأواء ومسألة صحة شعره وأصالته. وقد خرج "كراتشكوفسكي" بعدد من الاستنتاجات الجديدة حول مضمون الشعر العباسي وأسلوبه الجديد الذي يختلف نوعيا عن الشعر الجاهلي والأموي. وقارن العالم ما جد في هذا الشعر بما اصطلح على تسميته "بالأسلوب العذب الجديد" (Dolce stil nuevo) في الأدب الإيطالي...[3].

كانت هذه هي الدراسات الأدبية العلمية الأولى "لكراتشكوفسكي". ولقد سارت جميع الأبحاث التي أنجزها فيما بعد في موضوع الأدب العربي على هذا النهج... ويمكن تقسيم كتاباته في مجال الأدب القديم إلى خمسة أقسام عامة، هي:

1- دراسات ذات طابع عام، ونذكر من بينها على الخصوص:

- الأدب العربي[4] (1919). تناول العالم بالدرس فيه تاريخ الأدب العربي منذ الجاهلية إلى غاية بداية القرن العشرين.

- الشعر العربي[5] (1924)، وهي دراسة حول الشعر العربي منذ القرن السابع الميلادي إلى بداية القرن العشرين.

- الحضارة العربية في إسبانيا[6] (1937)، استعرض "كراتشكوفسكي" في هذه الدراسة ما جد من أبحاث في مجال دراسة الأدب الأندلسي، وسلط الأضواء على أبرز مراحل هذه الحضارة.

---

(3) انظر المقدمة التي كتبها الأستاذ بيليايف للجزء الثالث من "مختارات كراتشكوفسكي"...، ص. 3-11.

(4) نشرت هذه المقالة في مجلة "أدب الشرق" (Literatura Vostoka) عدد 1، بيتروگراد، 1919، ص. 24-33.

(5) صدرت في مجلة "الشرق" (Vostok)، عدد 4، 1924، ص. 97-112.

(6) صدرت ضمن "منشورات معهد الاستشراق" التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، 1937، عدد صفحاتها 31.

- الشعرية العربية في القرن التاسع الميلادي[7]، (1930). تناول العالم بالدرس في هذا البحث موضوع الشعرية عند العرب وقارنها مع الشعرية عند شعوب أخرى...

- الشعر العربي في إسبانيا[8]، (1940)، وهو بحث حول أهم تيارات الشعر الأندلسي وعلاقته بالشعر في المشرق العربي...

ولكراتشكوفسكي عدد كبير من هذا النوع من الدراسات العامة حول الأدب العربي القديم.

2- دراسات خاصة تناول فيها "كراتشكوفسكي" بالدرس إبداعات العديد من الشعراء من مختلف العصور، ونذكر من بينها على الخصوص:

- شعر أبي العتاهية، (1908)[9].

- المتنبي وأبو العلاء، (1910)[10].

- حماسة البحتري...، (1913)[11].

- ديوان ذي الرمة ومخطوطة "بيتروگراد"، (1923)[12].

- الشنفرى، (1914).

- بلاغة قدامة بن جعفر، ((1930)[13].

---

(7) صدرت هذه المقالة أول مرة سنة 1930 باللغة الألمانية في مجلة Le Monde Oriental في العدد 23، ص. 23-29. وكان عنوانها: Die arabische Poetik im IX. Jahrhundert، ونشرت باللغة الروسية ضمن "مختارات كراتشكوفسكي". وجاءت في المجلد الثاني، ص. 360-372.

(8) صدرت في مجلة "حضارة إسبانيا"، دار النشر التابعة لأكاديمية العلوم السوفييتية، 1940، ص. 77-118.

(9) نشرت على صفحات :مجلة الملحقة الشرقية للجمعية الروسية لعلم الآثار"، (ZVO)، 1908، عدد 18، ص. 73-112.

(10) نشرت على صفحات "ZVO"، 1910، في العدد 19، ص. 1-52.

(11) نشرت على صفحات "ZVO"، عام 1913، عدد 21، ص. 22-23.

(12) نشرت على صفحات "أخبار أكاديمية العلوم الروسية"، IRAN، السلسلة السادسة، 1923، عدد 17، ص. 149-156.

(13) مجلة "الشرق" (VOSTOK) عدد 4، 1924، ص. 58-64.

- أبو نواس والكوب الساسانية ذات الرسوم، (1930)[14].

- الخمر في شعر الأخطل، (1932)[15].

- عمر بن أبي ربيعة (1936)[16].

- أبو الفرج الوأواء الدشقي، مواد لوصف مؤلفاته. (1914)[17].

- متنبيات (بمناسبة مبرور 1000 عام على وفاة الشاعر) (1941)[18].

وغيرها من الأبحاث...

3- دراسات فريدة من نوعها حول عدد من المخطوطات، منها على الخصوص:

- رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري (1932)[19].

- مقالة مجهولة للأمير السوري أسامة، (1925)[20].

- كتاب البديع لابن المعتز، (1935)[21].

وغيرها...

---

(14) مجلة "محاضرات أكاديمية العلوم السوفييتية"، السلسلة V (DAN, V)، 1930، ص. 177-180.

(15) نشرت أول مرة عام 1932 باللغة الألمانية في "ليبزيگ"، ثم باللغة الروسية ضمن "مختارات كراتشكوفسكي"، في المجلد الثاني، ص. 417-432.

(16) نشرت أول مرة في "الموسوعة الإسلامية" (E. I) عام 1936 باللغة الالمانية، ص. 1057-1058، ثم جاءت ضمن "مختارات كراتشكوفسكي" في المجلد الثاني، ص. 459-461.

(17) نشرت ضمن منشورات كلية اللغات الشرقية لجامعة پيتربورگ، عام 1914.

(18) نشرت على صفحات مجلة "الاستشراق السوفييتية" (Sovetskoye Vostokovedeniye)، 1941، عدد 2، ص. 137-148.

(19) صدرت ضمن أعمال معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، 1932.

(20) نشرت عام 1925، في العدد الأول من "مجلة زمالة المستشرقين" (ZKV)، ص. 1-18.

(21) طبع المدخل والفصول 1، 2، 3، 4 عام 1935 باللغة الإنگليزية في لندن:
Kitab al Badî of'Abd Allah Ibn al Mu'tazz. Introduction.

4- دراسات تناول فيها العالم بالدرس الأدب العربي خارج العالم العربي، وأبرزها "الأدب العربي في شمال القوقاز"[22].

5- دراسات حول التاريخ والجغرافية عند العرب، وأهمها "الأدب الجغرافي عند العرب"[23].

تلك أهم الموضوعات التي شغلت بال "كراتشكوفسكي" في مجال دراسة الأدب العربي القديم، ويستطيع القارئ من خلالها، تكوين فكرة حول شمولية أبحاثه وغزارتها.

---

(22) ضمن "مختارات كراتشكوفسكي" في المجلد السادس، ص. 609-624.
(23) ضمن "مختارات كراتشكوفسكي"، وقد خصص لهذا الموضوع المجلد الرابع بأكلمه.

III- نماذج من دراسات "كراتشكوفسكي" حول الأدب العربي القديم

يبدو من خلال المبحث الثاني، أننا لا نستطيع التعريف بكل أعمال "كراتشكوفسكي" في مجال دراسة الأدب القديم. لكننا سنحاول مع ذلك تقديم عدد من مؤلفاته حتى نأخذ فكرة عن كيفية تعامله مع مختلف الموضوعات التي شغلت باله. وهكذا سنعرف بأبحاثه التالية:

- عبد الله بن المعتز من خلال مختلف الدراسات التي كرسها له "كراتشكوفسكي".
- المتنبي وأبو العلاء المعري.
- رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري.
- أبو الفرج الوأواء الدمشقي.
- الأندلس من خلال دراسات "كراتشكوفسكي".
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي.

وغايتنا من وراء هذا التعريف هو إبراز مميزات تعامل العالم مع موضوع الأدب العربي القديم.

1 - أبو العباس عبد الله بن المعتز:

يرجع تاريخ اهتمام "كراتشكوفسكي" بالشاعر ابن المعتز إلى سنة 1910 وهو لم يحصل بعد على نسخة من مخطوطة "كتاب البديع" التي لم

يتوصل بها إلا عام 1914 . وكانت عبارة عن صورة فوتوغرافية للمخطوطة الفريدة المحفوظة في "الإسكوريال" . ويمكن اعتبار هذا التاريخ سنة بداية عمل متواصل استغرق أزيد من عشرين عاماً خصصها العالم لدراسة ابن المعتز ومؤلفاته. ومنذ هذا التاريخ، أي منذ سنة 1914، بدأ "كراتشكوفسكي" يترجم نص المخطوطة إلى اللغة الروسية، كما شرع في البحث في سيرة حياة ابن المعتز التي أنجزها سنة 1917، غير أنه لم ينشرها وبقيت مخطوطة حتى ضمت إلى "مختاراته..." التي صدرت بعد وفاته. وكان الهدف من وراء هذه الدراسة هو إنجاز بحث متكامل حول ابن المعتز كشاعر وعالم والقيام بتحقيق مؤلفاته مع التركيز على شاعريتها وكذلك طبع النصوص الأصلية العربية وترجمتها إلى اللغة الروسية. وأمام ضخامة هذا العمل الطويل كان "كراتشكوفسكي" يلجأ من حين لآخر إلى إصدار أجزاء مستقلة منه وكان ينشرها على صفحات مختلف المجلات الاستشراقية العالمية. وهكذا نشرت مجلة "روشنيك أو ريينتاليتشني" البولونية (Rocznik Orjentalistyczny) مقالة باللغة الفرنسية تحت عنوان "لائحة لمؤلفات ابن المعتز"[1]. كما نشرت له مجلة "لوموند أوريونتال" السويدية (Le Monde Oriental) مقالة أخرى باللغة الفرنسية كذلك تحت عنوان "كتاب الأداب لابن المعتز"[2]. ونشرت مجلة "إيزڤيستيا أكاديمي ناؤوك"... (أخبار أكاديمية العلوم للاتحاد السوڤييتي) "كتاب الخمر لابن المعتز"[3]، ويتعلق الأمر بمؤلفه "فصول التماثيل في تباشير السرور"، واكتمل هذا العمل التحليلي بنشر دراسة شاملة "لكتاب البديع" في سلسلة "جيب" (Gibb) "بلندن"[4].

(1) Ignace Kratchkovsky, Une liste des œuvres d'Ibn al Mu'tazz, in "Rocznik Orjentalistyczny", III, 1925 (1927), p.p. 255-268.

(2) Le Kitab al -âdâb d'Ibn al-Mu'tazz. Edité par Ign. Kratchkovsky, in "Le Monde Oriental", 1924, (1926), XVIII, p.p. 56-121.

(3) إگناتي كراتشكوفسكي، كتاب الخمر لابن المعتز، في مجلة Izvestiya AN SSSR (أخبار أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي)، السلسلة السادسة، عدد XXI، 1928، ص. 1163-1170، (بالروسية).

(4) I. Kratchkovsky, Kitâb al-Badi of Abd Allâh Ibn al Mu'tazz. G. M. S., X, London, 1935. (J. W. Gibb Memorial Series).

ومعلوم أن أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي قامت بطبع أعمال "كراتشكوفسكي" بعد وفاته. وجاءت كل دراساته حول ابن المعتز ضمن الجزء السادس والأخير من "مختاراته" . ولم تكتف بنشر ما هو معروف من دراساته، بل أضافت إليها جميع الأبحاث الأخرى المتعلقة بهذا الموضوع التي كانت جاهزة عند صاحبها ولم يسبق لها أن رأت النور من قبل. ويتعلق الأمر على الخصوص بسيرة حياة ابن المعتز وتحليل المصطلحات ودراسة فن الشاعرية عند العرب وكذلك ترجمة مؤلفاته إلى اللغة الروسية. وقام الساهرون على هذه الطبعة بترتيب مختلف الدراسات والتعليق على بعضها، وتجدر الإشارة إلى أنهم قاموا كذلك بحذف عدد من الفقرات بسبب تكرارها في مختلف البحوث.

2- "المتنبي وأبو العلاء"[5] :

تعتبر مقالة "المتنبي وأبو العلاء" إحدى الدراسات الطويلة الأولى التي أنجزها "كراتشكوفسكي"، فقد أصدرها سنة 1910 بعد رجوعه من الشرق العربي إلى وطنه على صفحات مجلة "زاپيسكي"[5] (Zapiski). وتنقسم هذه الدراسة إلى أربعة أقسام يدور محورها الأساسي حول علاقة شعر أبي العلاء المعري بشعر أبي الطيب المتنبي، ويمكن تلخيصها في ما يلي: يبدأ "كراتشكوفسكي" بالإشارة إلى الاهتمام الذي تعرفه دراسة الشعر العربي عند المستشرقين، لكن هذا الاهتمام المتزايد يكاد ينحصر على الشعر القديم وخاصة الشعر الجاهلي. وقد يكون سبب إهمال شعر المحدثين، حسب كراتشكوفسكي، نابع عن ذلك الاحتقار الذي كان يكنه عدد من اللغويين العرب نحوه والذي حاربه كل من ابن قتيبة والثعالبي في زمنهما. وكيف ما كانت الحال، يقول العالم، فإن البحث في مجال الشعر القديم وحتى في العصر الأموي قد قطع أشواطا كبيرة. وهذا ما لا يمكن قوله بالنسبة للشعر العباسي الذي لم يخضع لدراسات جادة

(5) كراتشكوفسكي، المتنبي وأبو العلاء، مجلة "زاپيسكي" (ZVO) سان پيترسبورگ، 1909 (1910)، العدد 1، ص. 1-52.
انظر كذلك: مختارات كراتشكوفسكي، ج 3، ص. 63-115، (بالروسية).

ومتعمقة اللهم إذا ما استثنينا الشاعر أبا العلاء المعري الذي اهتم به عدد كبير من الباحثين. ويستعرض "كراتشكوفسكي" فيما بعد الدراسات التي أنجزت حول أبي العلاء وفلسفته، التي لا يستطيع المرء من خلالها الخروج بحكم نهائي عن شخصيته وعقيدته رغم كثرتها.

وينتقل المؤلف إلى الحديث عن المتنبي وعبقريته وعن تأثيره على أبي العلاء، ويُذَكّر بإعجاب هذا الأخير بأبي الطيب من خلال تسميته "بمعجز أحمد" وعدد من شهاداته التي تبرز المكانة العالية التي كان يضع فيها المتنبي كتلك التي أوردها ياقوت، ومفادها أن أبا العلاء، كان كلما تحدث عن الشعراء، يقول مثلا: «قال أبو نواس... أو قال البحتري... أو قال أبو تمام...». لكنه في حديث عن المتنبي لم يكن يقول سوى: «قال الشاعر...» دون ذكر اسمه. وعن موضوع التأثيرات التي قد يكون خضع لها أبو العلاء فإن "كراتشكوفسكي" يحاول إبراز البعض منها خاصة ما يتعلق بطبعه المتشائم ونظرته إلى المسائل الدينية.

وخصص "كراتشكوفسكي" القسم الثالث من بحثه لدراسة رسالة أبي العلاء "معجز أحمد"، ويعرض هنا جزءا من النص العربي، ويقارن بين ثلاث نسخ منه مخطوطة، أولاها محفوظة في "سان پيترسبورگ" والثانية في "ميونيخ" والثالثة في "المتحف البريطاني"، كما يقوم بالتعليق على ما ورد في هذه النسخ من شروح لشعر المتنبي، ويحاول تحديد تاريخ كتابة "معجز أحمد"، ويرجع تأليفه إلى فترة شباب الشاعر الفيلسوف، وهو بالتالي من بين مؤلفاته الأولى. لذا فإنه يمثل وثيقة نفيسة لدراسة تطور فكر أبي العلاء المعري انطلاقاً منه ووصولاً إلى "لزوم ما لا يلزم" و"رسالة الغفران". وهكذا يتضح أن أبا العلاء مر من مراحل شتى وتأثر بالكثير من المفكرين الذين سبقوه أو عاصروه. ويختم "كراتشكوفسكي" بحثه بتأكيد وجوب التخلي عن تلك الفكرة التي رسمها المستشرقون عن أبي العلاء المعري والتي تصوره كظاهرة فريدة في عصره... فهو يمثل، في واقع الأمر، يقول العالم، حلقة سلسلة من الشعراء والمفكرين الذين تأثر بهم. وهذا، بالطبع، لا ينقص من عظمته وعبقريته.

وتجدر الإشارة إلى أن "كراتشكوفسكي" أولى الشاعر المتنبي اهتماما كبيرا في مختلف دراساته العامة حول الأدب العربي القديم، كما أنه تناوله بالدرس في عدد من الأبحاث التي كرسها له. ولعل أبرزها المقالة التي كتبها بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشاعر، وعنوانها "متنبيات" (Mutanabbiana) [6]. وقد قسمها إلى أربعة أقسام، فخصص القسم الأول منها للحديث عن الاحتفالات التي أقيمت في البلدان العربية وما خلفته هذه المناسبة من كتابات نقدية وإبداعات نثرية وشعرية، وكرس القسم الثاني للتعريف بكتاب "بلاشير" (Blachère) الذي صدر عام 1935 حول المتنبي[7]. وعرف العالم في القسم الثالث من بحثه بأهم الكتابات الروسية حول المتنبي، أما القسم الرابع والأخير فقد قدم فيه قصيدتين للمتنبي سبق للأستاذ "روزين" أن ترجمهما إلى اللغة الروسية قبل أزيد من أربعين سنة.

يعرض "كراتشكوفسكي" في دراسته المزايا الكثيرة التي يتحلى بها كتاب "بلاشير" «شاعر عربي من القرن الرابع الهجري»[7] الذي يعتبره أحسن دراسة أنجزت حول المتنبي من قبل المستشرقين، غير أنه لا يكتفي بإبراز محاسنه فقط، بل ينتقد عدداً من الآراء التي وردت فيه. فمن خلال القسم الثاني من العنوان (Essai d'histoire littéraire) يتضح، يقول "كراتشكوفسكي"، أن المؤلف يميل إلى تحليل حياة الشاعر والوسط الذي عاش فيه على حساب مؤلفاته، رغم محاولاته للحفاظ على نوع من التوازن بين المسألتين، خاصة في القسم الأول من بحثه[8]. وسبب عدم هذا التوازن ناتج بالأساس عن الهدف الذي رسمه "بلاشير" لعمله المتمثل

---

(6) كتب "كراتشكوفسكي" هذه المقالة عام 1937، لكنها لم تنشر إلا سنة 1941، انظر: كراتشكوفسكي، إ. متنبيات (Mutanabbiana)، مجلة "الاستشراق السوفييتي" (Sovietskoye Vostokovedeniye)، العدد الثاني، 1941، ص. 137-148، (بالروسية)، وجاءت هذه المقالة كذلك في "منتخبات كراتشكوفسكي".. ج 2، ص. 548-562.

(7) R. Blachère, Un poète arabe du IVe siècle de l'Hégire (Xe siècle de J. C.): Abou t-Tayyib al-Mutanabbi. Essai d'histoire littéraire, Paris, 1935.

(8) كراتشكوفسكي، متنبيات...، في "منتخبات..."، ج 2، ص. 552.

في تقييم شعر المتنبي من وجهة نظر أوروبية صرفة حتى يتسنى تحديد موقعه في تطور الشعر العربي من جهة ومعرفة كيف وإلى أي حد يمكن للأوروبيين الاستفادة منه[9]. ويعتقد "كراتشكوفسكي" أنه كان بإمكان "بلاشير" بلوغ هدفه هذا بالاعتماد بالأساس على النظريات العربية ووجهة نظر النقاد العرب أكثر من الاعتماد على وجهات نظر الأوروبيين، وإذا كان "بلاشير" كثيرا ما يرجع إلى الكتابات العربية القديمة منها والحديثة، فإنه، حسب "كراتشكوفسكي"، يعتبر خصوصيات شعر المتنبي غير مجدية لبحثه لأن كثيرا من خصوصيات الأدب العربي لا تجد منفذا للذوق الغربي، وتبقى بالتالي بمثابة "لغز عند الأوروبيين"[10]، وهذا ما جعله يتخلى عن دراسة الخصوصيات الأدبية لشعر المتنبي كالتعبيرات المجازية والصور الفنية وغيرها... وهكذا، فإن "بلاشير"، يضيف "كراتشكوفسكي" قد حرم كتابه من جانب مهم من البحث الأدبي المتمثل في خصوصيات شعر المتنبي رغم ما قدمه من خدمات لمؤرخي الأدب التي جاءت على حساب البحث في مجال اللغة العربية وأدبها...
ويمضي العالم في نقده ويعتبر أن المستشرق الفرنسي حصر التقييم النهائي لشعر المتنبي داخل دائرة ضيقة نوعا ما، ذلك «أن مجمل موقفنا من هذا الشعر لا يجوز حصره في تحديد محتواه فقط، بل ينبغي إبراز خصوصياته من حيث شكله وصوره الفنية... ولبلوغ هذا الهدف فإنه لا مفر من الرجوع إلى تحليل النص العربي... وإذا ما سقط هذا الاعتبار فإن عملية وصف إبداع الشاعر تبقى ناقصة... وقد لا تحدد هذه العملية

---

(9) انظر ما جاء عند "بلاشير"، ص. 341:

"On va s'employer... à juger l'œuvre d'Abou t-Tayyib à notre point de vue d'Européen, afin de la situer dans l'ensemble de la poésie arabe et de marquer en quoi elle se distingue et offre à nos yeux un intérêt spécial...".

(10) انظر ما جاء في نفس المرجع أعلاه، ص. 338:

"On devra reconnaître loyalement que certains faits littéraires comme la valeur, le timbre des mots choisis par le poète demeurent des énigmes pour notre oreille occidentale...".

انظر كذلك ما جاء في الصفحة 553 من بحث "كراتشكوفسكي" «متنبيات».

مكانة الشاعر ومؤلفاته في تاريخ الشعر العربي بشكل صحيح، بل لن تعطي جردا حقيقيا حتى لتلك الجوانب من شعر المتنبي التي يمكنها أن تؤثر على القارئ الأوروبي، وهي الغاية التي يسعى إليها "بلاشير"...»[11].

من خلال مقالة "متنبيات" يتضح منهج "كراتشكوفسكي" الذي يختلف عن منهج العديد من المستشرقين والذي يجعل كل أبحاثه لا تنطلق إلا من النص العربي المدروس، كما أنها تعتمد كثيرا على الكتابات النقدية العربية. وبدون هذا النوع من التعامل مع المادة العربية المدروسة، فإن أي بحث، في نظره، يبقى ناقصا... ولقد انتبه عدد من المستشرقين الروسيين من الجيل الجديد إلى خصوصية البحث الأدبي عند "كراتشكوفسكي" وأولوها أهمية كبيرة في مختلف دراساتهم. وهذا ما توفق الأستاذ "كوديلين" (A. Koudielin) في إبرازه في مقالته "نحو تأويل إحدى قصائد المتنبي" التي بدأها بالحديث عن آراء "كراتشكوفسكي" التي جاءت في مقالته "متنبيات" وبين مغزاها العميق «الذي لا يخضع للذوق الأوروبي لتحليل الشعر العربي ودراسته...»[12].

3- رسالة الملائكة"[13]:

كتب كراتشكوفسكي عام 1932 بحثا عنوانه "رسالة الملائكة"، وهي دراسة لمؤلف لأبي العلاء كان شبه مجهول، وكان يعرف بـ"رسالة في الإعراب"، ويتألف هذا البحث من 123 صفحة موزعة على الشكل التالي:

---

(11) كراتشكوفسكي، متنبيات، ص. 553.

(12) كوديلين، نحو تأويل إحدى قصائد المتنبي، في كتاب «مسائل الثقافة العربية في ذكرى الأكاديمي "كراتشكوفسكي"»، دار النشر ناووكا، موسكو، 1987، ص. 66-77، (بالروسية).

(13) رسالة الملائكة لأبي العلاء المعري، سهر على نشر النص العربي وترجمته إلى الروسية والتعليق عليه كراتشكوفسكي، في مجلة "أعمال معهد الاستشراق لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي"، عدد 3، 1932، (بالروسية).

انظر كذلك: مختارات كراتشكوفسكي، ج 2، ص. 392-416، لم ينشر في هذه الطبعة سوى المدخل والتعليقات.

- مدخل وقائمة بأهم الاختصارات،
- الملاحظات والتعليقات وهو فصل يشتمل على أربعة مباحث، هي:
  - اكتشاف "الرسالة" ودراستها.
  - "الرسالة" في الشرق وفي أوروبا.
  - المصادر ومنهجية البحث.
  - مكانة "الرسالة" وسط مؤلفات أبي العلاء الأدبية.
- الترجمة الروسية لنص "الرسالة".
- إضافات إلى النص، وفيه:
  - ملاحظات وتعليقات أخرى.
  - معجم.
- النص العربي والفهارس.

تحدث "كراتشكوفسكي" بإسهاب عن تاريخ كتابة بحثه هذا في الفصل الثاني من كتابه "مع المخطوطات العربية"[14]، فقد خصص له مبحثا عنوانه "مقالة نحوية أم رسالة إلحادية". ونعلم من خلاله أنه في الأيام الأخيرة من مقامه في القاهرة وبينما كان يتردد على مكتبة الأزهر الشريف وقعت بين يديه مخطوطة تحمل عنوان "رسالة في الإعراب" لأبي العلاء المعري. «وقد شدني الاهتمام إلى هذه الرسالة، يقول العالم، لا لما قد تحتوي عليه من جديد، ولكن لكون صاحبها معروف لدي جيدا، إذ سبق لي أن جمعت كل ما يتعلق به دونما غرض خاص...»[15] وكان "كراتشكوفسكي" قد ورث هذا الاهتمام بأبي العلاء عن أستاذه "روزين".

---

(14) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية...، الترجمة العربية (في عدد من الصفحات).
(15) نفسه، ص. 59.

و"الحقيقة، يضيف العالم، أن هذا الفيلسوف المتشائم صاحب السخرية اللاذعة ينفذ إلى أعماق النفس البشرية بتحليله الدقيق... وتراه بابتسامة ساخرة لطيفة يحاول كتمان مرارة اليأس وسواد أفكاره...»[16]. ولم يكن "كراتشكوفسكي" في بداية الأمر يتوقع أن يجد في تلك الرسالة النحوية أشياء جديدة، فلا عنوانها ولا مظهرها الخارجي كانا يوحيان بأن لها قيمة ما... غير أن العالم أدرك، منذ أن قرأ السطور الأولى، لماذا لم تكن لهذه الرسالة نفس الشهرة التي تتمتع بها باقي مؤلفات الشاعر الفيلسوف، وكتب يقول بهذا الصدد: «... لو كان عند العرب فهرس للكتب الممنوعة لاحتلت فيه هذه الرسالة (...) مكان الصدارة. فمن خلال الموضوع الذي أتى في العنوان والمتعلق بدراسة نحوية حول الصور الإعرابية لأسماء الملائكة يظهر جليا أن هذا العنوان ما هو، في واقع الأمر، إلا غطاء يتستر به موضوع آخر كله سخرية يصعب فهمه على من ليست له دراية بأسلوب أبي العلاء الذي كان يستطيع بمهارة فائقة أن يلبس الجمل ثوبا يخفي به جوهر فكره الجريء وجوهر ما يصبو إلى تقديمه...»[17]. فالرسالة في الإعراب التي كانت بين يدي "كراتشكوفسكي" هي في الحقيقة هجاء لاذع وجريء لتصورات الناس لطبيعة الملائكة، وهي تسير في نفس النهج الذي سارت عليه رسالته الأخرى "رسالة الغفران" التي لا تقل عنها سخرية.

بعد رجوعه إلى وطنه بقي "كراتشكوفسكي" يهتم بأبي العلاء عامة وبموضوع "الرسالة" خاصة. فأصدر سنة 1913 مقالتين صغيرتين حول بعض مؤلفات أبي العلاء[18]. وفي صيف عام 1914 سافر "كراتشكوفسكي" إلى "ليدن" حيث أتيحت له فرصة التعرف على نسخة

(16) نفسه، ص. 59.

(17) نفسه، ص. 60-61.

(18) يتعلق الأمر ب: أولاً كراتشكوفسكي، رسالة الملائكة للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري، في مجلة: الملحقة الشرقية للجمعية الأثرية الروسية. (Z. V. O)، 1914، عدد 21. وثانياً: كراتشكوفسكي، حول تاريخ "الرسالة الفلاحية" لأبي العلاء والدراسات النقدية حولها، مجلة (Z. V. O)، 1913، عدد 21، ص. 1-7.

مخطوطة ثانية من "رسالة في الإعراب". وكان العالم على وشك طبع دراسة وافية حولها لولا اندلاع الحرب العالمية الأولى وحدوث الثورة السوفييتية. وبدأ "كراتشكوفسكي" منذ تلك الفترة يكاتب أحمد تيمور باشا «صاحب الخزانة التيمورية، وفيها من الكتب المطبوعة والمخطوطة ما يعزُّ وجوده في غيرها من المكاتب»[19]، وكان يملك ضمن كنزه الخطي هذا نسخة ثالثة من "الرسالة" التي كانت تشغل بال العالم. فكانت بين الرجلين مراسلة منتظمة حول هذا الموضوع وموضوعات أدبية أخرى. وأعجب "كراتشكوفسكي" أيما إعجاب بأحمد تيمور، وكتب عنه قائلا: «... كان هذا العالم كريما (...) متواضعا، نادر الوجود (...) وكان يجعل من نفسه زميلا في العمل لمن يراسله من العلماء إذا أحس بأن لدى هذا المراسل تذوقا للأدب العربي (...) كان من خلال رسائله الأسبوعية يزودني بأفكاره حول الموضوع الذي يشغلنا ويرد على أسئلتي (...) وكنت، في كل مرة، أفتح بنشوة مضطربة خطابه الذي غالبا ما كنت أكتشف فيه الجديد والجديد (...) والحقيقة أنني أحس عبر سطور رسائلة، بمدى السعادة التي كان يشعر بها نفسه وهو يعيش عملية إعادة الروح لتلك "الرسالة" التي ألفها جده العربي العظيم...»[20]. ولم يتمكن "كراتشكوفسكي" إلا عام 1926 من إتمام بحثه الذي طبع سنة 1932 تحت عنوان "رسالة الملائكة". ومعلوم أن عددا من العلماء العرب سبق لهم أن أشاروا إلى هذا المؤلف وإلى عنوانه[21].

وقد خلفت دراسة "كراتشكوفسكي" هذه ردود فعل مختلفة في كل من أوروبا والعالم العربي. وتوصل العالم بالعديد من الرسائل حولها.

---

(19) فردينان توتل، معجم لأعلام الشرق والغرب، وهو القسم الثاني من قاموس لويس معلوف، "المنجد في اللغة والأدب والعلوم"، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، الطبعة التاسعة عشرة، ص. 118 (في الترقيم الخاص بالقسم الثاني، أي بعد ص. 972 من القسم الأول).

(20) مع المخطوطات العربية، ص. 65-66.

(21) أنهى "كراتشكوفسكي" عمله هذا عام 1926، لكنه لم يطبع إلا عام 1932. وخلال هذه الفترة صدرت في القاهرة دراسة أخرى حول "رسالة الملائكة" لكنها لم تنل نفس النجاح الذي ناله بحث "كراتشكوفسكي". وهذه الدراسة من تاليف الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجكوتي الذي "أبرز نصها وصححه وشرحه".

واحتلت إحداها في نفسه مكانة خاصة واعتبرها «أكبر وسام وأسمى شرف»[22]. وكان باعثها هو أمين الريحاني، "فيلسوف الفريكة"، وصديق "كراتشكوفسكي" بالمراسلة.

من خلال المقالات السالفة الذكر حول المتنبي وأبي العلاء المعري، يظهر الاهتمام الكبير الذي كان يوليه "كراتشكوفسكي" لهما. وتجدر الإشارة إلى أن للعالم دراسات أخرى حولهما، ولعل أهمها:

- حول طبعة كتاب "ملقى السبيل" لأبي العلاء المعري[23].

- حول مسألة ظهور وتأليف "رسالة الغفران" لأبي العلاء[24].

- حول تاريخ "الرسالة الفلاحية" لأبي العلاء والدراسات النقدية حولها[25].

4- "أبو الفرج الوأواء الدمشقي، مواد لوصف الإبداع الشعري"[26]:

هذا هو عنوان إحدى المؤلفات الضخمة الأولى "لكراتشكوفسكي" التي صدرت عام 1914. وهو الموضوع الذي تناوله بالدرس في أطروحته التي ناقشها بجامعة "سان بيترسبورگ". ويتألف الكتاب من 540 صفحة، حوت 153 منها النص العربي لديوان الوأواء و378 صفحة خصصت لدراسة الديوان وترجمته إلى اللغة الروسية. وتجدر الإشارة إلى أن العالم اعتمد في دراسته على عدد كبير من النسخ المخطوطة لديوان الوأواء الدمشقي،

(22) مع المخطوطات العربية، ص. 67. انظر الرسالة في الصفحتين 99 و100 من نفسه المرجع.

(23) صدرت هذه المقالة في مجلة .Z. V. O، عام 1915، ص. 231-239، كما جاءت في المجلد الثاني من "مختارات كراتشكوفسكي" ص. 183-190.

وجاءت المقالة للتعريف بكتاب "أبو العلاء المعربي، ملقى السبيل، رسالة في الوعظ والحكم". عني بنشرها... حسن حسني عبد الوهاب التونسي، دمشق، 1330هـ.

(24) نشرت هذه المقالة أول مرة بالألمانية في مجلة Islamica، عام 1925، عدد 1، ص. 344-356. كما جاءت في المجلد الثاني من "مختارات كراتشكوفسكي"...، ص. 297-308.

(25) صدرت في مجلة Z. V. O، عام 1913، عدد 21، ص. 131-137. وجاءت فيما بعد في المجلد الثاني من "مختارات كراتشكوفسكي..."، ص. 146-151.

(26) كراتشكوفسكي، أبو الفرج الوأواء الدمشقي، مواد لوصف الإبداع الشعري. نشر كلية اللغات الشرقية لجامعة "بيتروگراد"، 1914، لم تنشر هذه الدراسة ضمن مختارات كراتشكوفسكي.

اطلع على معظمها في مكتبات ليدن. ووُزع هذا المؤلف على الشكل التالي:

- مدخل.
- مقدمة.

1- النسخ المخطوطة للديوان.

2- مصادر الدراسة.

3- الدراسات الأوروبية حول الديوان.

الفصل الأول: الشعراء في بلاط سيف الدولة.

الفصل الثاني: شهادات بيبليوغرافية حول الوأواء.

الفصل الثالث: أصالة الشعر المنسوب للوأواء.

الفصل الرابع: تقنية الإبداع الشعري عند الوأواء.

الفصل الخامس: اللغة والأساليب البلاغية.

الفصل السادس: الأسلوب الشعري وتقنية الإبداع.

الفصل السابع: تحليل مضمون الديوان.

1- تأثير الشعراء المتقدمين والمعاصرين في شعر الوأواء.

2- المدح ونموذج البطل المثالي.

3- الغزل.

4- الخمر والطبيعة.

5- الدين والتأمل عند الوأواء.

خاتمة

الفهارس

الديوان في ترجمته الروسية[27] مع ملاحظات.

الديوان في النص الأصلي.

فهارس الديوان (فهرس القوافي، فهرس الأعلام...).

وقد خلف هذا الكتاب ردود فعل متعددة وعلق عليه الكثير من الأدباء والنقاد في العالم العربي وأوروبا أمثال "ماسينيون" (L. Massignon)[28] والأب يوحنا مصريان اليسوعي[29] والأستاذ عارف النكدي[30].

5- الأندلس من خلال دراسات "كراتشكوفسكي":

إذا كان "كراتشكوفسكي" قد نال شهرة واسعة بفضل أعماله العلمية المتنوعة في مجال دراسة الأدب العربي المشرقي قديمه وحديثه، فإنه أسهم كذلك إسهاماً كبيراً في تعريف مواطنيه بجانب آخر من الثقافة العربية الإسلامية المتمثل في الحضارة التي عرفها الجناح الغربي من العالم الإسلامي، وخاصة منه بلاد الأندلس. وإذا كانت اهتمامات العالم بالشرق العربي وأدبه القديم تندرج في طبيعة العمل الاستشراقي العالمي، فإن تعاطيه دراسة الثقافة العربية في الأندلس جاء، كما يشير إلى ذلك في مختلف كتاباته، ليسد فراغا كانت تشكو منه الدراسات العربية في روسيا. ذلك أن الأندلس عامة وأدبها خاصة لم يكن معروفا إلا من خلال الأبحاث الأوروبية الغربية ولم ينل من المستشرقين الروسيين إلا قليلا من الاهتمام. وهذا ما حدا "بكراتشكوفسكي" إلى طبع سلسلة من المحاضرات في

---

(27) نقل "كراتشكوفسكي" الديوان إلى الروسية نثرا.

(28) ماسينيون (L. Massignon). أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني، الملقب بالوأواء الدمشقي... ديوان. سهر على نشره "كراتشكوفسكي"، بيتروگراد، 1914-1925. في مجلة "Revue du Monde musulman, LVII, 1924, p. 259".

(29) الأب يوحنا مصريان اليسوعي، إغناطيوس "كراتشكوفسكي"، في مجلة "المشرق"، تشرين الأول، كانون الأول، 1951.

(30) عارف النكدي، الوأواء الدمشقي وديوانه، في مجلة "المجمع العلمي العربي"، 1924، ج 8 و9، ص. 339-348.

موضوع الحضارة الأندلسية التي ألقاها خلال سنة 1936 في مختلف شعب معهد الاستشراق بمدينة "ليننگراد"[31]. يقول العالم بهذا الصدد في مدخل هذا الكتاب: « ... ونظرا لعدم وجود أية مؤلفات باللغة الروسية تتناول هذا الموضوع بالدرس عزمت على طبع محاضراتي هذه... »[32]. والواقع أن الدراسات الروسية حول هذا الموضوع كانت شبه منعدمة. ويمكن حصرها في عدد ضئيل من الأعمال التي كانت لها علاقة مباشرة مع العالم "روزين" ودائرة تلاميذه. وهكذا كان كتاب "روزين" و"گيرگس" "المنتخبات الأدبية العربية"[33] الذي صدر عام 1876 أول مؤلف احتوى، من بين ما احتوى عليه، عددا من نماذج الشعر الأندلسي. وبعد مرور عشرين سنة نشر البارون "داڤيد گينزبورگ" (1857-1910) صورة فوتوغرافية للمخطوطة الفريدة لديوان ابن قزمان « كتاب الأغراض في إصابة الأعراض" المحفوظة في "المتحف الأسيوي" وأرفقها بمقدمة وفهارس[34]. ثم قام العالم "پيتروف" (1872-1925)، المختص في "الأدب

---

(31) نشرت أكاديمية العلوم السوڤييتية عام 1937 هذه المحاضرات تحت عنوان "الحضارة العربية في إسبانيا". وجاءت في كتيب يتألف من 31 صفحة.

توجد ترجمة عربية لهذه الدراسة للأستاذة "ڤاسيلييڤا"، وجاءت ضمن كتاب: "إغناطيوس كراتشكوفسكي"، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات، دار النشر "ناووكا"، موسكو، 1965، ص. 50-82.

(32) نفسه، ص. 50.

(33) ف. "گيرگس"، وف. "روزين"، المنتخبات الأدبية العربية، پيتربورگ، 1876. ولقد أعد هذا الكتاب خاصة لطلاب الأدب العربي في معاهد الاستشراق الروسية.

(Arabskaya Khrestomatiya).

(34) D. Günzburg, Le divan d'Ibn Guzman, texte, traduction, commentaire, enrichi de considérations historiques, philologiques et littéraires sur les poèmes d'Ibn Guzman, Sa vie, son temps, sa langue et sa métrique ainsi que d'une étude sur l'arabe parlé en Espagne au VIe siècle de l'Hégire dans ses rapports avec les dialectes arabes en usage aujourd'hui et avec les idiomes de la péninsule ibérique, Fasc. 1. Le texte d'après le manuscrit unique du Musée Asiatique Impérial de St Petersbourg, Berlin, 1896.

لم يقم "گينزبورگ" سوى بنشر صورة الديوان، كما كتب له مقدمة. أما المشروع الطموح الذي رسم خطوطه العريضة في عنوان الكتاب فقد بقي دون تنفيذ.

الإسباني" بنشر النص العربي "لطوق الحمامة" لابن حزم[35] مع مقدمة باللغة الفرنسية، وكان ذلك عام 1914 . أما الترجمة الروسية لهذا المؤلف فقد أنجزها المستعرب "ساليي" عام 1933 [36]. وصدرت سنة 1920 ترجمة روسية لكتاب ابن طفيل "حي بن يقظان"[37] أنجزها "كوزمين" (1893-1922).

هذه هي أهم الأعمال التي أنجزها المستشرقون الروسيون باستثناء "كراتشكوفسكي" منذ بداية الاستشراق في روسيا وإلى حدود الثلاثينيات من القرن العشرين. وهي لا ترقى إلى مستوى طموحات المدرسة الروسية الجديدة التي بدأت تتنوع اهتماماتها وتتشعب أهدافها مع النشاط العلمي لمؤسسها العالم "روزين". وإن هذه الثغرة في الدراسات الاستعرابية هي التي دفعت "كراتشكوفسكي" إلى الاهتمام بهذا الموضوع وإعطائه المكانة اللائقة به وسط التخصصات الأخرى. وقد استطاع العالم فعلا سد هذا الفراغ بفضل كتاباته المتنوعة التي يمكن تقسيمها إلى قسمين:

أ- دراسات عامة وخاصة حول الأدب والحضارة الأندلسيين.

ب- تقارير ودراسات نقدية حول مؤلفات بعض المستشرقين الأوروبيين الغربيين.

ويدخل في القسم الأول الدراسات التالية:

- ابن زيدون، شاعر الأندلس[38]، 1923.

- نصف قرن من الاستعراب الإسباني[39]، 1930.

---

(35) ابن حزم، طوق الحمامة، النص العربي مع مقدمة فرنسية لپيتروف (D. K. Petrov)، سان پيترسبورگ - ليدن، 1914.

(36) ابن حزم، طوق الحمامة، ترجمها إلى الروسية "ساليي"، موسكو - لينينگراد، 1933.

(37) ابن طفيل، حي بن يقظان، ترجمه إلى الروسية "كوزمين"، پيتروگراد، 1920.

(38) ابن زيدون، شاعر الأندلس، مجلة "الشرق" (Vostok)، 1923، عدد 2، ص. 160-161.

(39) نصف قرن من الاستعراب الإسباني، النشرة الدورية لزمالة المستشرقين، (Z. V. O)، عدد 4، 1930، ص. 1-32.

- أنطولوجية مغربية مجهولة في لينكراد[40]، 1934.

- الحضارة العربية في إسبانيا[41]، 1937.

- الشعر العربي في إسبانيا[42]، 1940.

- ملامح الطبيعة الأندلسية في قصائد الشاعر العربي "الجنان"[43]، 1940.

أما القسم الثاني فيضم المقالات التالية:

- مقالة نقدية حول مؤلف "كارسيا كوميز"[44]:

"Un Cuento árabe fuente común de Abentofail y de Gracián", 1927.

- مقالة نقدية حول مؤلف "كارسيا كوميز"[45]: "Un texto árabe occidental de la leyenda de Alejandro según el manuscrito arabe...", 1929.

- تقرير حول مؤلف "هنري بيريس"[46]:

"La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle...".

---

(40) Une anthologie magribine inconnue à Léningrad. in: Al-Andalus, 1934, II, p. 197-205.

انظر حول هذه المخطوطة الصفحات الأخيرة من الفصل الخامس.

(41) الحضارة العربية في إسبانيا، منشورات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية (Z. K. V.)، 1937.

(42) الشعر العربي في إسبانيا، مختارات كراتشكوفسكي، ج 2، ص. 470-523. (هذا هو العنوان الصحيح لهذه المقالة، وليس كما ورد في ترجمة محمد المعصراني: "الشعر العربي في الأندلس").

(43) ملامح الطبيعة الأندلسية في قصائد الشاعر العربي "الجنان". مختارات كراتشكوفسكي، ج 2، ص. 524-542. ويتعلق الأمر هنا بالشاعر ابن خفاجة.

(44) Emilio García Gómez. Un Cuento árabe, Fuente común de Abentofail y de Gracián. (Revista de archivos, bibliotecas y museos. Ano XXX-1926), Madrid, 1926.

صدرت هذه المقالة في مجلة Litteris عام 1927، العدد الرابع، ص. 28-33.

(45) Emilio Garcia Gomez. Un texto arabe occidental de la leyenda de Alejandro segun el manuscrito ar. XXVII de la Biblioteca de la Junta para ampliacion de estudios, traduccion espanola, y estudio preliminar. Instituto de Valencia de Don juan, Madrid, 1929.

صدرت هذه المقالة في مجلة Litteris عام 1929، العدد السادس، ص. 199-204.

(46) La Poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle. Ses aspects =

- تقرير حول مؤلف "هنري پيريس" (47):

"L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930". (1945).

ويظهر جلياً أن العالم لم يكن يكتفي بتناول بعض جوانب الثقافة العربية الأندلسية بالدرس، بل كان يتتبع ما كان يكتب حول هذا الموضوع في بلدان أوروبا الغربية، وينشر مقالات وتقارير حول هذه الكتابات على صفحات مختلف المجلات، الروسية منها والأجنبية.

ويمكن القول بأن "كراتشكوفسكي" قد توفق إلى حد بعيد في إعطاء موضوع الدراسات الأندلسية مكانة مرموقة في الساحة الاستشراقية الروسية. ولقد استطاع الارتقاء بهذا الموضوع إلى هذا المستوى من خلال أعماله التي يمكن تقسيمها إلى أربعة محاور أساسية، هي:

أ- التعريف ببعض الشعراء وبمميزات شعرهم واهتماماتهم. وتدخل في هذا المحور مقالتان، الأولى حول ابن زيدون، والثانية حول ابن خفاجة. وإذا كان العالم لم يقم، بالنسبة للشاعر الأول، سوى بالتعريف بحياته وبديوانه من وجهة نظر أدبية صرفة وبإبراز أهميته ومكانته في الشعر الأندلسي، فإن الأمر يختلف تماما بالنسبة لبحثه حول الشاعر "الجنان". ذلك أن "كراتشكوفسكي" سعى هنا إلى إعطاء صورة متكاملة لا لشعر ابن خفاجة فحسب، بل أراد التعريف بدور العرب في تطوير علوم الطبيعة والحيوانات... وهكذا بدأ العالم مقالته بالحديث عن أهمية هذه العلوم عند العرب وذكّر ببعض ما ألفه عدد من المستشرقين حول هذا

=

généraux et sa valeur documentaire. Par Henri Pérès (Publications de l'Institut d'Etudes Orientales. Faculté des Lettres d'Alger, V), Paris, Adrien-Maisonneuve, 1937, 8, XL.

صدرت هذه المقالة على صفحات مجلة "الاستشراق السوفييتي" (معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية)، 1945، العدد 3، ص. 288-291.

(47) L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930, par Henri Pérès..., Paris, Adrien - Maisonneuve, 1937, 8, XXIII.

صدرت المقالة على صفحات نفس المجلة أعلاه، نفس العدد، ص. 291-292.

الموضوع[48] . ثم انتقل إلى الشعر العربي منذ الجاهلية إلى حدود العصر العباسي فأبرز تقاليده في وصف الطبيعة... بعد هذا "المدخل" عرف العالم بحياة ابن خفاجة وبمميزات شعره التي وردت في مؤلفات عدد كبير من النقاد. وركز على اثنتين منها، أولاهما أن النقاد العرب من معاصريه وممن عاشوا بعده لقبوه "بالجنان" بحكم وفرة شعره حول الطبيعة وروائعه الشعرية التي نظمها حولها، وثانيهما أنه لم يتعرض لاستماحة ملوك طوائف الأندلس مع تهافتهم على أهل الأدب. ويمضي "كراتشكوفسكي" في حديثه ويقول عن الميزة الأولى بأنه لا يجوز، بحكم لقبه، الاعتقاد بأن ميول ابن خفاجة إلى الطبيعة كانت عفوية ولم تكن لها جذور، لأن التقاليد العربية في هذا المجال قديمة ومترسخة. فقد تأثر كثيرا بعدد من الشعراء في المشرق العربي، منهم من يذكره في مقدمة ديوانه كالشريف الراضي وعبد المحسن الصوري ومهيار الديلمي[49]، كما أن هناك شعراء آخرين كان لهم نفس التأثير عليه أمثال الشاعر الشامي "الصنوبري" والمتنبي والمعري وابن الرومي. ويرى كراتشكوفسكي أنه يجب البحث عن هذا التأثير كذلك عند شعراء الأندلس وخاصة عند صديقه ابن وهبون[50] . أما بالنسبة للميزة الثانية، فيجب تناولها بحذر، لأن الشاعر، رغم ما عرف عنه من عدم السعي وراء نيل الحظوة في البلاطات، نظم

---

(48) كراتشكوفسكي، ملامح الطبيعة الأندلسية...، ص. 524.

من بين هذه المؤلفات يذكر كراتشكوفسكي على الخصوص:

-Aldo Mieli, La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale. Leide, 1939.

-G. Sarton, Introduction to the history of science, I-II, Washington, 1927-1931.

(وهي دراسة حول تاريخ العلوم حتى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي).

- عرض حول دراسة عربية في علم النباتات، قدمه الأستاذ "جورج كولان" في المؤتمر العشرين للمستشرقين، وجاء في كتاب:

-Programme du XX congrès des Orientalistes. Recueil des communications, Bruxelles, 1938.

(49) كراتشكوفسكي، ملامح الطبيعة الأندلسية...، ص. 526.

(50) نفسه.

عدداً من الأشعار التي مدح فيها بعض الأمراء وقواد الجيش... لكن المدح كان في ذلك العصر نوعاً أساسياً في الكتابة الأدبية، فكان لا بد للشاعر من تناوله ولو من حين لآخر. ينتقل "كراتشكوفسكي" بعد هذا إلى التعريف بعدد من نماذج شعر ابن خفاجة التي يصف فيها الطبيعة في مختلف فصول السنة، ويختم العالم بحثه بتأكيد أن لقب "الجنان" جاء في محله، لأن عبقرية الشاعر تجعل القارئ يتصور بلاد الأندلس، من خلال شعره، وكأنها بستان مزهر دوما وفي غاية الجمال والبهاء. ولقد وصف ابن خفاجة طبيعة وطنه من كل جوانبها، فصور بفنية متناهية النباتات والأشجار والأنهار والجبال والطيور والحيوانات ومختلف الظواهر الطبيعية كالبرق والرعد والفيضانات... ويعتقد العالم أن ديوان ابن خفاجة يمثل مادة مهمة لا بالنسبة للأدباء فحسب بل يشكل مادة غنية قد يستخرج منها علماء الطبيعة عدداً من المعلومات التي قد تفيدهم في أبحاثهم...[51] أما شعره، فإنه، حسب المؤلف، ظل داخل إطار كلاسيكي، وبالرغم من هذا فإن الشاعر تفوق في توظيف لغته وجعلها في منتهى البساطة والوضوح مبتعداً عن التصنع.

ب- التعريف بعدد من المخطوطات الأندلسية والمغربية المحفوظة في خزانات سان بيترسبورگ، يدخل في هذا المحور عدد من الدراسات حول بعض المخطوطات الأندلسية والمغربية، ويتعلق الأمر خاصة بما كتبه "كراتشكوفسكي" حول ديوان ابن قزمان المسمى بـ"كتاب إصابة الأغراض في ذكر الأعراض" وهي مخطوطة فريدة محفوظة في "المتحف الأسيوي" "بسان پبيترسبورگ"[52]، وكذلك مقالته حول مخطوطة مغربية مجهولة المؤلف محفوظة في خزانة "جامعة سان پيترسبورگ" وعنوانها "أنس العاشق ونزهة الشائق ورياض المحب الوامق"[53].

---

(51) نفسه، ص. 542.

(52) انظر: "كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية"، ص. 156-162.

(53) Ign. Kratchkovsky, Une anthologie magribine inconnue à Leningrad, in: "Al Andalus", Madrid-Granada, 1934, Vol. II, fasc. I. pp. 197-205.

ج- إبراز أهمية الدراسات الأندلسية في إسبانيا والعلاقات بين المدرستين الروسية والإسبانية. وقد تجلى اهتمام "كراتشكوفسكي" بهذا الموضوع على الخصوص في مقالة عنوانها "نصف قرن من الاستعراب الإسباني"، وكذلك في بعض فصول كتاب "مع المخطوطات العربية". والواقع أن العالم أراد من خلال كتاباته أن يبرز الصلات التي جمعت، في وقت معين، المدرسة الإسبانية والمدرسة الروسية المتمثلة في شخصه، ولو أنه، كعادته في كثير من الأحيان، لا يذكر اسمه ويكتفي ببعض الإشارات العابرة. وهكذا نعلم أن المستعربين الروسيين كانوا يتمنون منذ زمن بعيد التعاطي لدراسة الأدب الأندلسي، وذلك بسبب ولعهم به وحبهم له، غير أن الظروف العلمية منها والمادية لم تكن مواتية. ويقول العالم بهذا الصدد: «... يكاد لا يوجد مستعرب، كيف ما كانت موضوعات اهتماماته، لم يحس بداخله بالقوة الجذابة لرنات كلمة "الأندلس" نفسها... أو لم يكن على اطلاع بما كتبه "دوزي" حولها من مؤلفات كلاسيكية مفعمة بالرومانتيقية (...) وإنه لا بد وأن يكون كل مستعرب، في فترة أو أخرى من حياته، قد أحس بشيء من قبيل "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" (...) كما أن كل مستعرب لا بد وأن يكون قد تنقل، دون أن يشعر، إلى ما وراء جبال "البيريني"، لا بأفكاره فحسب، لكن بإحساساته كذلك...»[54]. هكذا يتضح أن الأندلس كانت تجتذب المستشرقين الروسيين بسحر شعرائها وعلمائها. غير أن أيا منهم لم يستطع التأليف حولها ودراسة تاريخها وأدبها خلال القرن التاسع عشر، اللهم إذا استثنينا كتاب "روزين" و"گيرگس" الذي يحمل عنوان "المنتخبات الأدبية العربية" الذي سبقت الإشارة إليه. ولقد رأينا كيف أن الأمر بدأ يتغير بالتدريج خلال الربع الأول من القرن العشرين. ولم يقتصر هذا الاهتمام على دراسة الأدب الأندلسي بل تعداها ليشمل تاريخ المدرسة الاستشراقية الإسبانية. وهذا ما تجند له "كراتشكوفسكي"

---

(54) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، الترجمة العربية، ص. 246.

وذلك قصد التعريف بالأجيال الجديدة من علماء هذه المدرسة وبعلاقته شخصياً ببعضهم وخاصة منهم "گارسيا گوميز" (Garcia Gomez)(55).

د- التعريف بالحضارة العربية الأندلسية وأدبها. ويدخل في هذا الباب كتاب "كراتشكوفسكي" "الحضارة العربية في إسبانيا" ومقالته "الشعر العربي في إسبانيا". وقد جاءت هذه الكتابات، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، لسد الفراغ الذي كانت تعرفه المدرسة الاستشراقية الروسية في مجال الدراسات الأندلسية، وهي موجهة بالدرجة الأولى إلى طلبة التخصصات الاستعرابية. وإذا كان العالم يهدف من خلال عمله الأول إلى تقديم عرض عام لتاريخ الأندلس وحضارتها(56)، فإنه انتقل في بحثه الثاني من العموميات ليتطرق إلى جانب خاص من هذه الحضارة، والمتمثل في الشعر الذي أنجبته، فسلط الأضواء على عدد من الشعراء وعلى إبداعهم، كما عرف بخصوصياتهم ومميزات شعرهم(57). وقد ركز العالم في هاتين الدراستين على انتقال العلم والأدب من الأندلس إلى أوروبا. وهو يرى أن هذه العملية كانت تتم عبر جسرين مختلفين هما:

أولاً: عن طريق ترجمة المؤلفات العلمية في طليطلة أولاً ثم في إشبيلية من بعد.

ثانياً: عن طريق الرواية الشفوية بواسطة الشعر والغناء. وقد أولى "كراتشكوفسكي"، في معرض حديثه عن هذا النوع من التأثير أهمية

(55) انظر حول هذه العلاقات في المرجع أعلاه، ص. 246-250.

(56) كراتشكوفسكي، الحضارة العربية في إسبانيا

Arabskaya kultura v Ispanii, Institut Vostokovedeniya AN SSSR, 1937.

ترجمت الأستاذة "ڤاسيلييڤا" هذه الدراسة إلى اللغة العربية ونشرتها ضمن كتاب: "إغناطيوس كراتشكوفسكي"، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات، دار النشر "علم" (ناووكا)، موسكو، 1965، ص. 51-82.

(57) كراتشكوفسكي، الشعر العربي في إسبانيا.

Arabskaya poeziya v Ispanii. v - Kultura Ispanii, izd. AN SSSR, 1940, str. 77-118.

ترجم الأستاذ محمد المعصراني هذه المقالة، ونشرها ضمن كتاب: إغناطيوس "كراتشكوفسكي"، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات...

كبيرة للزجل الذي ارتبط ازدهاره باسم الشاعر ابن قزمان. فقد بدأت قوة الشعر الروماني وكماله، يقول المؤلف، تتجلى بنمو "الأسلوب العذب الجديد" (dolce stil nuovo) الذي انتشر بسرعة كبيرة خلال القرن الثاني عشر على سواحل البحر الأبيض المتوسط المرتبطة بالعرب كـ "گاليسيا" و"كاطالونيا" و"البروفانس" وإيطاليا... وما الأسلوب البروفانسالي عند "التروبادور" (Troubadours) الأوائل، الذي يشبه الأسلوب العربي إلا مثال واحد من بين الكثير من الأمثلة في هذا المجال... وإذا كان هناك من يعترض على هذا التأثير العربي مستدلا بقلة انتشار الكتب العربية بين الشعوب الرومانية، فإن "كراتشكوفسكي" يعتبر هذا الاعتراض فاشلا مستدلا، من جهته، بأن التأثير كان شفويا، إذ أن الزجل كان ينظم بالعامية وأن الغناء كان ينتقل بسهولة من اللغة العربية إلى اللغة الرومانية لأن جل سكان مدن الأندلس كانوا مزدوجي اللغة.

تلك أهم مؤلفات "كراتشكوفسكي" في مجال دراسة حضارة الأندلس وأدبها، وهي تمثل الأغلبية الساحقة من إنتاج المستشرقين الروسيين حول هذا الموضوع خلال النصف الأول من القرن العشرين. وإذا كانت هذه الأعمال لا تكتسي أهمية كبرى مقارنة مع ما أنجزه "دوزي" و"ليڤي پروڤنسال" والمستشرقون الإسبانيون وغيرهم، فإنها تشكل مع ذلك مادة علمية ثمينة وضعها العالم بين يدي المهتمين بهذا الموضوع داخل روسيا التي كانت تفتقر إلى مثل هذه الدراسات. ويمكن القول، بكل تأكيد، أن "كراتشكوفسكي" توفق إلى حد بعيد في جعل موضوع الدراسات الأدبية الأندلسية يحتل مكانة مرموقة في الساحة الاستشراقية الروسية، ذلك أن أبحاثه المشار إليها كانت بمثابة الأساس المتين الذي بنيت عليه دراسات أخرى أكثر شمولية وأكثر عمقا قام بها، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، جيل جديد من المستشرقين الروسيين أمثال

الأساتذة "شيدفار" [58] (B. Chidfar) و"فيلشتينسكي" [59] (I. Filchtinskiy) و"زاڤادوفسكي" [60] (Y. Zavadovskiy) و"كوديبلين" [61] وغيرهم... وتجدر الإشارة إلى أن كراتشكوفسكي" ركز في جميع دراساته حول الأندلس على أهمية التبادل الثقافي بين مختلف مكونات المجتمع الأندلسي، هذا التبادل الذي لم يكن له أن يحصل لولا حرية الفكر والتسامح اللذين ميزا المجتمع الأندلسي انذاك. يقول العالم بهذا الصدد: «... عندما كان العرب ظاهرة عادية في إسبانيا، كالمسيحيين المستعربين، كانت الحضارة قوية بفضل التبادل الثقافي بين مختلف مكونات المجتمع. فلما سقطت غرناطة انقطعت الصلة وجاءت الرجعية الكاثوليكية بمحاكمها التفتيشية، فأخذت تضطهد بقايا العرب وتجبر الناس على اعتناق المسيحية، مما أدى إلى تدمرهم، وبدأت عملية الطرد، وبإتمامها نزفت إسبانيا دماءها...

---

(58) لها على الخصوص كتاب: "الأدب الأندلسي، دار النشر للأدب الشرقي، موسكو، 1970.

(Andaluskaya literatura, izd. Vostotchnoy literatury).

وكتاب آخر ألفته بمعينة "فيلشتينسكي"، عنوانه: "دراسات في الثقافة العربية الإسلامية (القرن السابع - القرن الثاني عشر)، دار النشر للأدب الشرقي، موسكو، 1971.

(Otcherk arabo-musulmanskoy kultury (VII-XII vv.), izd. Vostotchnoy literatury).

(59) انظر الهامش الأول. وله كذلك: الأدب العربي الكلاسيكي، موسكو، 1965.

(Arabskaya Klasitcheskaya Literatura, Moskva, 1965).

(60) له على الخصوص مقالة عنوانها: ثقافة إفريقيا العربية، في كتاب "البلدان العربية"، موسكو، 1970، ص. 32-47.

(Kultura arabskoy Afriki. "Arabskiye strany", M. 1970).

وله دراسات أخرى.

(61) يعتبر الأستاذ "أليكساندر كوديبلين" أحد أبرز وجوه الاستعراب الروسي المعاصر، وهو من أكبر الاختصاصيين في الأدب العربي في القرون الوسطى، وله العديد من المؤلفات، نذكر منها على الخصوص:

- الشعر العربي الإسباني الكلاسيكي، دار النشر "ناووكا"، موسكو، 1973.

(Klasitcheskaya arabo - ispanskaya poeziya, M. 1973).

- الشاعرية العربية في القرون الوسطى (النصف الثاني من القرن الثامن - القرن الحادي عشر)، موسكو، 1983.

(Srednevekovaya arabskaya poetika..., M. 1983).

وله كذلك عدد كبير من الأبحاث الأخرى.

إلا أن ظل الحضارة العربية بقي نصب عيون العاقلين من رجال إسبانيا حتى في ذلك العهد القاتم من تاريخ هذا البلد . . . »[62].

ولا بد من الإشارة في الختام إلى التقييم الممتاز الذي أعطاه "كراتشكوفسكي" للحضارة العربية الأندلسية ولما أسدته من خدمات علمية وثقافية للإنسانية جمعاء.

6- الأدب الجغرافي العربي:

يعتبر الأدب الجغرافي العربي أحد الموضوعات التي أولاها المستشرقون أهمية خاصة. ويعود سبب هذا الاهتمام بالدرجة الأولى إلى غزارة الكتابات التي خلفها العرب في هذا الميدان والمكانة المرموقة التي تحتلها على صعيد الدراسات الأدبية والجغرافية على السواء. يقول الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم عن هذه الأهمية: « يحتل أدب الجغرافيا والتاريخ مكانة مرموقة بين خيرة ما أسهم به العرب في ميدان المعارف البشرية. هذا وقد أحدث تراث العرب في هذين الفرعين من العلوم رد فعل شديد على المستشرقين الأوروبيين بمجرد تعرفهم عليه. وأقروا منذ البداية أنه المصدر الوثيق لدراسة العالم الإسلامي في حدود الزمان والمكان، وأن أوروبا الوسيطة لم تنتج شيئا يمكن أن يضارع ما أنتجه العرب في هذين المجالين»[63]. فكان من الطبيعي أن يسترعي هذا الموضوع انتباه العالم "كراتشكوفسكي" وأن يتناوله بالدرس من جميع جوانبه. والواقع أنه أخذ يهتم بالمسائل الجغرافية لما بدأ يخطو خطواته الأولى في الميدان العلمي، ففي الفترة الممتدة ما بين 1910 و1917 ألقى العالم في المعهد الشرقي لجامعة "سان پيترسبورگ" سلسلة من المحاضرات تطرق في البعض منها إلى هذا الموضوع. وفي عام 1919

---

(62) كراتشكوفسكي، الحضارة العربية في إسبانيا، ص. 75.

(63) صلاح الدين عثمان هاشم، المستشرقون والجغرافيا العربية، في كتاب: إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، 1987، الطبعة الثانية، ص. 861.

أنتخب عضوا في الجمعية الجغرافية الروسية. وكان العالم ينشر من حين لآخر بعض المقالات حول الجغرافية العربية على صفحات عدد من المجلات العلمية. لكن "كراتشكوفسكي" كان، بأبحاثه المتفرقة هذه، يعمل على تهييء مؤلف شامل يتناول فيه بالدرس موضوع الأدب الجغرافي العربي من جميع جوانبه. وقد كرس فعلا لهذه الغاية جزءا كبيرا من حياته وخاصة منها العشرين السنة الأخيرة. و"كان الاستشراق العالمي يحس بمسيس الحاجة إلى مؤلف تركيبي ضخم يسد ذلك النقص الذي يعاني منه هذا الفرع من المعرفة، خاصة وأن كتاب "رينو" (Reinaud) قد طال عليه العهد ولم يعد يفي بمطالب البحث المعاصر. أضف إلى ذلك أن المقالات والبحوث المتفرقة لكبار المستشرقين الذين اهتموا بالجغرافيا الإسلامية أمثال "بارتولد" و"نالينو" (Nallino) و"مينورسكي" (Minorsky) و"مزيك" (Mzik) و"هونيگمان" (Honigmann)[64] وغيرهم، لم يكن من شأنها أن تغني عن دراسات جامعة تتناول جميع أطراف الموضوع...»[65] وظل "كراتشكوفسكي" يشتغل بهذا الموضوع إلى أن وافته المنية عام 1951، ولم ير كتابه النور أول مرة إلا بعد وفاته مع صدور أعماله المختارة[66]. هكذا، وانطلاقا من محاضرات ومقالات العالم تكوّن، على مدى السنين، كتابه "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، وكان العالم، خلال هذه المدة، يرجع إلى مؤلفه من حين لآخر، ليضيف أجزاء أخرى أو ليعدل ما وجب تعديله بناء على ما كان يجد من مواد علمية، كما أنه كان يترجم بعض المقتطفات التي كان يختارها من النصوص العربية لإدراجها داخل بحثه. يقول "تسيريتيلي" (Tsereteli) في المقدمة التي كتبها للطبعة الروسية

(64) - انظر حول مؤلفات "رينو": المرجع أعلاه، ص، 976.
- انظر حول مؤلفات "نالينو": المرجع أعلاه، ص، 970.
- انظر حول مؤلفات "مينورسكي": المرجع أعلاه، ص، 965-966.
- انظر حول مؤلفات "مزيك": المرجع أعلاه، ص، 968-969.
- انظر حول مؤلفات "هونيگان": المرجع أعلاه، ص، 949-950.

(65) انظر: المرجع المذكور أعلاه، صلاح الدين عثمان هاشم، ص. 6.

(66) أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، إگناتي كراتشكوفسكي، المؤلفات المختاره، موسكو - ليننگراد، 1956-1960، ج 4.

الأولى حول التصميم الذي خططه العالم لكتابه: « ... يبدو جليا من مقدمة المؤلف لكتابه، وهي التي فرغ من تحريرها عقب تدوينه للفصل الثالث والعشرين، أنه كان يود متابعة تأريخه للأدب الجغرافي العربي إلى أيامنا هذه. إلا أنه لم يظهر في الواقع بعد المقدمة سوى فصل واحد وهو الفصل الرابع والعشرون الذي يعالج القرن الثامن عشر، في حين كانت فكرة المؤلف الأساسية هي أن يضيف إليه فصلين أو ثلاثة يسوق فيها الكلام على العصر الحديث، ولكن لم يقدر له تحقيق هذه الأمنية، إذ عاجلته المنية... وهذا يوضح لنا السبب في أن الكتاب ينقصه القسم الخاص بالقرن التاسع عشر، كما ينقصه القسم الختامي الذي كان سيعرض فيه المؤلف الاستقراءات العامة التي يمكن استخلاصها من الكتاب في مجموعه... »[67]. والجدير بالذكر أن كتاب « كراتشكوفسكي » "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" يحتل مكانة خاصة بين مؤلفات المستشرقين المكرسة لهذا الموضوع. فهو يمثل، في واقع الأمر، موسوعة شاملة وفريدة من نوعها. « أما عن الغاية الرئيسية من وضعه، فإن المؤلف يقول إنه لم يكن يقصد تقديم عرض عام لتاريخ الجغرافيا بقدر ما قصد عرض تاريخ الأنماط الأدبية المرتبطة بعلم الجغرافيا في صورة أو أخرى. وهو يهدف إلى جانب هذا تبيان الخطوط العريضة لتطور هذه الأنماط ابتداء من الإيماءات الأولى في الشعر الجاهلي حتى أيامنا هذه (...) والكتاب، يضيف العالم، يقدم في آن واحد نصيبا متكافئا لكل من الأدب العلمي والأدب الشعبي ويجهد في أن يلم بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية، كما أجهد في الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية، وهو لا يهمل قصص الرحلات حتى تلك التي تحمل طابعا أدبيا صرفا أو أسطوريا... »[68]. أما المنهج الذي اتبع في الكتاب، فهو المنهج الفيلولوجي الذي يجعل البحث الأدبي لا يقتصر على أدب الأدباء، بل يتعداه ليربطه بالتراث

---

(67) انظر المقدمة التي كتبها "تسيريتلي" لكتاب "كراتشكوفسكي" تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، ص، 11.

(68) نفسه، ص، 12.

الشعبي المدوّن أو الشفوي وبالبحث اللغوي التاريخي انطلاقا من دراسة المخطوطات وتحقيقها ومقارنة الموضوعات المطروحة بما يقاربها من حيث المضمون في لغات أخرى.

يقع كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي" في جزء كامل من مختارات كراتشكوفسكي وهو الجزء الرابع. وقد قام الأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم بترجمة هذا العمل الضخم إلى اللغة العربية. ويمكن القول، دون تردد، بأنه قدم للباحثين العرب ترجمة جيدة، فهي من حيث مضمونها وفية للأصل الروسي، وجاءت من حيث شكلها في لغة عربية سليمة وفي طبعة أنيقة. وإننا في بحثنا هذا اعتمدنا في غالب الأحيان على هذه الترجمة التي أضاف إليها صاحبها ملحقا في غاية الأهمية عنوانه "المستشرقون والجغرافيا العربية" (69) وعددا من الفهارس. ويقع الكتاب في طبعته الروسية في 758 صفحة دون الفهارس ويتألف من أربعة وعشرين فصلا. فبعد مقدمتي الناشر والمؤلف (70) يأتي المدخل الذي ينقسم إلى قسمين: 1- عرض للموضوع، 2- تاريخ دراسة الموضوع وهدف الكتاب. أما الفصول الأربعة والعشرون التي تكوّن الكتاب فهي مرتبة حسب التسلسل الزمني بدءا بفترة ما قبل الإسلام وانتهاء بالقرن الثامن عشر، ويخصص المؤلف لكل قرن فصلا أو أكثر وينقلنا في مسحه الشامل للمادة المدروسة داخل العالم الإسلامي بين مشرقه ومغربه.

ويرى "كراتشكوفسكي" أنه رغم معلوماتهم الجغرافية المحدودة فإن بدو الجاهلية استطاعوا التوصل إلى ملاحظات فلكية هامة، فقد تمكنوا من التنبؤ بأحوال الطقس وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة وذلك نتيجة خبرتهم الطويلة في مراقبة طلوع نجوم معينة ومغيبها. وكان العرب يطلقون على تلك الظواهر التي ثبت لهم تكرارها اسم "النوء". ولقد تجمع لديهم معلومات مختلفة صاغوها في صور مسجوعة تم

(69) سبق للأستاذ صلاح الدين عثمان هاشم أن نشر هذا الملحق ضمن مؤلف جماعي عنوانه "مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية"، الرياض، 1985.

(70) وبعد مقدمة المترجم في الطبعة العربية.

تدوينها في وقت واحد على ما يبدو مع الشعر الجاهلي[71].

أما التصورات الجغرافية لدى عرب الجاهلية فإنها لم تكن تتعدى حدود بلادهم، ولو أن شعرهم يذكر الأنهار مثل دجلة والفرات والأقطار مثل العراق والشام والمدن مثل بعلبك ودمشق... غير أنهم خلفوا مادة وافرة في مجال وصف أمكنة الجزيرة العربية. «وقد وصلتنا هذه المادة - يقول "كراتشكوفسكي" - في آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها في الأدب العالمي، وكما هو معروف فإن القالب الأساسي الذي صيغ فيه الشعر العربي هو القصيدة التي كان القسم الأول منها يفرد عادة لذكر المحبوب و"الأطلال" حيث كانت تنزل قبيلة الشاعر من وقت لآخر، هذا القسم من القصيدة المعروف بالنسيب كثيرا ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين يمكن في أغلب الأحوال تحديد موقعهما»[72]. ويمكن اعتبار هذه المادة الشعرية نوعا من الكتابات الجغرافية عند العرب، وهي الأولى من نوعها عندهم ولما بدأ العلماء العرب في القرن التاسع الميلادي يتتبعون مآثر أسلافهم من عرب الجاهلية كانت هذه المادة هي القاعدة التي قامت عليها الرسائل العديدة من طراز "كتاب مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب" و"كتاب أسماء جبال تهامة ومكانها"[73]. ينتقل المؤلف بعد هذا للحديث عن السماء والنجوم والبحر والجبال والبلدان (...) وعن ذكرها في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف... وهنا لا بد من الإشارة إلى أن لكراتشكوفسكي في هذا المجال آراء لا تتفق مع وجهة النظر الإسلامية[74].

---

(71) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الترجمة العربية، ص. 46.

(72) نفسه، ص، 47-48.

(73) نفسه، ص، 49.

(74) لقد أتى صاحب الترجمة العربية بهامش في الصفحة 50 جاء فيه: "للمؤلف في هذا الفصل آراء لا تتفق مع وجهة النظر الإسلامية، ولكني آثرت إيرادها بنصها تمسكا بالأمانة العلمية تاركا لعلماء المسلمين فرصة الرد عليها".

ويقول المؤلف في خلاصة هذا الفصل إنه خلال هذه الحقبة نلاحظ ميلاد بعض الأنماط والصور التي شكلت قاعدة لبروز مصنفات جغرافية قائمة بذاتها وضعها في أغلب الأحيان علماء لغويون، وإلى هذه الحقبة كذلك ترجع أولى الإشارات عن ظهور الجغرافية الوصفية في المجالين الإداري والاقتصادي، كما أن بريد الدولة الذي خضع إلى تنظيم جيد في العهد الأموي قد استدعى إعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق التي نصبت على جانبها حجارة لتوضيح المسافات (. . .) وكانت تبدأ من مركز الخلافة، وقد عثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين وترجع إلى عهد عبد الملك بن مروان، كما عثر على بعض منها قرب مدينة "تيفليس" . أما الجغرافية الفلكية فتكاد تنعدم في هذا العصر، وإذا حدث ووجدت فقد كان صداها ضئيلا وبين السريان وحدهم بحيث لم تصل العرب. لكن الجغرافية الفلكية وبعد أقل من قرن على هذه الحقبة أي في نهاية القرن الثامن الميلادي اندفعت "كسيل جارف" أحدث تحولات ملحوظة في جميع فروع هذا العلم. وهذه اللحظة بالذات - يقول المؤلف - هي التي يجب أن تعتبر بحق بداية الأدب الجغرافي العربي[75].

أما القرن التاسع فإنه شهد في أواخر النصف الأول منه ظهور الجغرافية الوصفية التي بدأت تتشكل ببطء ملحوظ، لكن هذا الميدان - يقول كراتشكوفسكي - لم يشتغل به أصحاب العلوم الدقيقة بقدر ما اشتغل به اللغويون الذين أخضعوا المادة لمطالبهم[76].

ويرى المؤلف أنه في بداية النصف الثاني من القرن التاسع، بدأت تظهر مصنفات قائمة بذاتها لكنها لم تعرف إلا في روايات أو موجزات بأقلام بعض المتأخرين. . . ولقد شكلت "كتب الأنواء" التي عنى اللغويون بتجميعها وتدوينها الأنماط الأولى لصياغة المادة الجغرافية. و"كتب الأنواء"، هذه جمعت عددا كبيرا من الملاحظات عن الطقس وظواهر

---

(75) نفسه، ص. 74.

(76) نفسه، ص. 134.

الطبيعة الأخرى مصحوبة بتعليقات لغوية وغير لغوية، ولقد بدأت سلسلة الرسائل في الأنواء في الحد الفاصل بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين. وبرز فيها اسم مؤرج السدوسي (توفي عام 195هـ/ 810م)، وهو أحد المقربين للمأمون. واستمرت هذه السلسلة طوال قرنين من الزمان، وأشهر مصنف في هذا المجال هو لأبي حنيفة الدينوري (توفي عام 282هـ/ 895م)، وهو "كتاب الأنواء" الذي ضاع، لكنه كان معروفا في الأندلس واعتمده ابن سيده في "المخصص" [77]. ومن الكتب التي نالت حظا وافراً كذلك، هناك مصنف النضر بن شميل (توفي عام 203هـ/ 818م) وعنوانه "كتاب الصفات"...

ويمضي "كراتشكوفسكي" في سرده للائحة طويلة من اللغويين الذين كتبوا في هذا الفرع من المعرفة في تلك الفترة. وهكذا يذكر المؤرخ هشام الكلبي والعلامة اللغوي والراوية الأصمعي والراوية الأعرابي عرام بن الأصبغ السلمي والأديب والجغرافي لغذة الأصفهاني والجاحظ وأبا العباس جعفر بن أحمد المروزي وإبراهيم بن المهدي والبطال ومحمد بن موسى ومسلم الجرمي وهارون بن يحيى بن الحكم البكري الملقب بالغزال وغيرهم... ويعتقد "كراتشكوفسكي" أن مختلف الكتابات الأدبية العربية ساهمت بقدر وافر في تطور الجغرافية. وتمثل مؤلفات الجاحظ خير مثال على ذلك، "فكتاب الحيوان" مثلا «يحفل بالكثير من أشياء الجغرافيا الحيوانية والأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا...» [78] أما المصنف الذي ألفه

---

(77) انظر حوله:

-Le Calendrier de Cordoue, publié par R. Dozy, nouvelle édition, accompagnée d'une traduction française annotée par Ch. Pellat, Leide, 1961, p. XI.

ويتعلق الأمر بترجمة فرنسية لكتاب Liber Anoe (وهي نفسها ترجمة لأحد كتب الأنواء العربية، والملاحظ من خلال العنوان أنه احتفظ بكلمة "أنواء" العربية (Anoe) دون تغيير. و (Liber anoe) هذا هو المصدر الأساسي لليومية المعتمد عليها كثيرا والمستعملة حتى الآن في إسبانيا وخاصة في الأديرة والكنائس. وتعرف تحت اسم "اليومية الإسبانية" (Calendrier espagnol) التي يثق بها المهتمون بشؤون الفلاحة في المغرب كذلك ثقة كبيرة.

(78) كراتشكوفسكي، الأدب الجغرافي العربي، الترجمة العربية، ص. 140.

الجاحظ في الجغرافيا - يقول "كراتشكوفسكي" - والذي لم يعثر عليه حتى الآن فلا يمكن الحكم عليه إلا من خلال ما نقله عنه الآخرون. وربما كان عنوانه ذلك الذي أورده المسعودي في "المروج" وهو "كتاب الأمصار وعجائب البلدان" [79]. و« يتضح مما نقله عنه ياقوت في "المعجم" - يضيف المؤلف - أن الجاحظ قد تابع إلى حد ما نمط ما يسمى بالفضائل أو الخصائص الذي ازدهر في العصر الأموي، أي صفات ومحاسن الحواضر الكبرى، حيث يدور الكلام أحيانا عن مواطنيها أكثر مما يدور عن البلاد نفسها، وفي هذه المقتطفات يتحدث الجاحظ عن أهل دمشق وعجائب البصرة ومساوئها وعن مساوئ مصر... » [80]. انطلاقاً مما جاء به "كراتشكوفسكي" حول مؤلفات الجاحظ فإنه يمكن اعتبار هذا الأخير أحد رواد علم الجغرافية البشرية [81].

ويرى المؤلف أن الجغرافية الوصفية بدأت تأخذ أنماطا ثابتة منذ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي وفيها تفسح المجال للفلكيين والرياضيين وخاصة اللغويين الذين وضعوا كتب الأنواء والرسائل الجغرافية اللغوية عن جزيرة العرب، ولقد أخذ هذا المجال يتسع تدريجيا فوصفت المدن والأقطار وظهرت كتب العجائب والغرائب، وأخيرا ومع اتضاح الأهداف العلمية ظهرت كتب المسالك والممالك. وفي القرن التاسع كذلك ثبتت الصورة النهائية للقصص عن الرحلات [82] ويركز العالم على أهمية هذا القرن وكذا القرن العاشر عند العرب لأنهما كانا فاتحة عهد جديد في تاريخ الأدب الجغرافي العربي. وهكذا فإنه يستعرض مجموعة

---

(79) نفسه.

(80) نفسه، ص. 140-141.

(81) لعل هذا ما قصده "شارل بيلاً" (Ch. Pellat) في مقاله "الجاحظ رائد الجغرافية الإنسانية" الذي صدر في مجلة "المشرق" لعام 1966 في العدد الثاني (ص. 169-205)، يقول "بيلاً" بعد ذكر النسخ المعروفة من "كتاب الأمصار وعجائب البلدان" والتعريف بها: « ... فلا يرتفع (هذا الكتاب) دفعة واحدة إلى ما نسميه الآن "الجغرافيا البشرية"، ولكنه يقترب منها، لأنه يتأمل شأن البشر ويطرح على بساط البحث مسألة الإنسان في العالم ويتدرج إلى حلها وإلى استنباط قواعد عامة تساعد على إدراك ماهية الإنسان من اختلاف وجوهه... ».

(82) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، الترجمة العربية، ص. 145-146.

كبيرة من العلماء الذين كانت لهم إسهامات مهمة في هذا الميدان أمثال ابن خرداذبة واليعقوبي والبلاذري وابن الفقيه وابن رسته وقدامة بن جعفر والفاكهي وأحمد بن طيفور والخطيب البغدادي وابن عبد الحكم والكندي والهمداني وغيرهم من العلماء، كما يقف عند كل واحد منهم ليعطي وصفا دقيقا لمؤلفاته.

ويمضي "كراتشكوفسكي" على هذا النهج في دراسته الطويلة الممتعة متبعا التسلسل الزمني حتى يصل إلى القرن الثامن عشر. ولم يقتصر في بحثه على دراسة مؤلفات العلماء المشارقة وحدهم، بل كان يتنقل من حين لآخر إلى الغرب الإسلامي ليهتم بالجغرافيين المغاربة. وهكذا فإنه خصص لممثليهم من أصحاب القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين الفصل العاشر الذي تناول فيه بالدرس كلا من ابن عبد البر والعذري والبكري والزهري والإدريسي وأبي حامد الغرناطي وابن العربي وابن جبير... أما ابن بطوطة فعرض له في الفصل الخامس عشر، كما قدم ابن خلدون في الفصل السادس عشر الذي تحدث فيه كذلك عن جغرافيي المغرب في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وعرف بمحمد بن أبي قاسم الرعيني القيرواني المعرف "بأبي دينار" وبأحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني في الفصل الثالث والعشرين المخصص للقرن السابع عشر. وأما الفصل الأخير فلقد احتل فيه المغاربة مكانة مرموقة، إذ عرّف فيه "كراتشكوفسكي" بمجموعة من الجغرافيين أمثال: أحمد بن محمد ناصر بن الدرعي صاحب كتاب "الرحلة الناصرية" وتلميذه الشاعر اللغوي محمد بن الطيب نور الله المدني الشراغي الفاسي وعبد الرحمن بن محمد بن خروب المجاجي والحسين بن أحمد الورثيلاني صاحب كتاب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار"[83] وأحمد بن حسن المتيوي ومحمود بن سعيد مقديش الصفاقسي صاحب كتاب في التاريخ عنوانه "الدائرة أو نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار"، ومحمد بن

---

(83) اشتهر هذا المصنف بعنوان مختصر هو "الرحلة الورثيلانية".

أحمد الناصري «الذي يعد من أنشط كتاب المغرب في ذلك الوقت وأحفلهم إنتاجا»[84]، وبأحمد بن محمد الزياني «أكبر مؤرخي المغرب قاطبة لذلك العهد (. . .) وهو على وجه العموم يكشف عن شخصية ذات أصالة (. . .) ويتمتع بقدر من الاستقلال والوضوح . . . »[85]، كما يعرض المؤلف في هذا الفصل كذلك لأحمد بن مهدي الغزال مبعوث السلطان سيدي محمد بن عبد الله إلى "كارلوس الثالث" ملك إسبانيا، ولقد دوّن رحلته هذه في كتاب عنوانه "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد" . . .

بهذه الأسماء ينتهي كتاب "تاريخ الأدب الجغرافي العربي"، ويبقى القارئ يبحث عن التتمة وعن الخلاصة فلا يجدهما . . . ولقد ذكرنا في بداية الحديث عن هذا المؤلف الضخم سبب هذه النهاية المفاجئة، وهو أن المنية اختطفت العالم قبل تمكنه من إتمام عمله الذي كان يود متابعته لتأريخ الأدب الجغرافي إلى غاية منتصف القرن العشرين. وكيف ما كانت الحال فإن هذا الكتاب يعتبر أجود وأشمل ما كتب في هذا الموضوع. ولقد توفق مؤلفه كذلك في إبراز الدور المهم الذي لعبه العرب في مجال الجغرافيا العلمية والاكتشافات الجغرافية وفي تطوير هذا الفرع من المعرفة، كما أنه استطاع أن يقوم بمسح يكاد يكون شاملا لجميع الشخصيات التي لها صلة من قريب أو بعيد بالأدب الجغرافي العربي الذي يقول عنه العالم «إنه يدهش بقيمته العلمية والتنوع الكبير في فنونه وأنماطه. ففيه تقابلنا الرسالة العلمية في الفلك والرياضيات، كما تقابلنا الكتب العلمية التي وضعت من أجل أعمال الدواوين وجمهرة المسافرين، وهو يقدم متعة ذهنية كبرى، إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة، صيغت بالسجع أحيانا. والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة والإمتاع والحيوية من جهة أخرى. وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص. ولقد أثار هذا الأدب اهتماما بالغا بسبب تنوعه وغنى مادته. فهو تارة علمي وتارة

(84) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي . . .، الترجمة العربية، ص. 847.
(85) نفسه، ص. 848-852.

شعبي، وهو طوراً واقعي وأسطوري على السواء، تكمن فيه المتعة كما تكمن فيه الفائدة لذا فهو يقدم لنا مادة دسمة متعددة الجوانب لا يوجد مثيل لها في أدب أي شعب معاصر للعرب. وقد أثبت البحث العلمي المعاصر أن مادة الأدب الجغرافي العربي أبعد من أن تكون قد استوفت حقها من الدراسة والاستقصاء حتى في أيامنا هذه، بل الواقع أنها أخذت الآن فقط تدخل بعض الشيء في نطاق البحث العلمي المعاصر بصورة أوسع...»[86].

ونعتبر من جهتنا أن هذا الكتاب يمثل في واقع الأمر موسوعة شاملة لعدد من العلوم عند العرب. "فكراتشكوفسكي"، انطلاقا من مادة ضخمة وجد متنوعة، لا يحصر مؤلفه في موضوع جغرافي صرف، بل يخرج عن هذا النطاق ليغوص في عالم غريب وممتع في نفس الوقت تتشابك فيه الجغرافيا مع عدة علوم كالأدب الكلاسيكي والأدب الشعبي وكاللسانيات والتاريخ وعلم الآثار والإثنوغرافيا وعلم الاجتماع... ونستطيع القول إن القارئ المتمعن لهذا الكتاب سوف يخرج بكثير من الاستنتاجات المهمة. غير أن أبرزها وأغربها، في نظرنا، أن المؤلف أراد أن يثبت أن جميع الكتابات تستحق الرجوع إليها، ولا يجوز مطلقا احتقار البعض منها بدعوى أنها لا تستند إلى أسس علمية ككتب "العجائب والغرائب" التي برهن العالم أنه بالإمكان استغلال بعض الجوانب منها لتوظيفها في دراسات جدية. وإن "كراتشكوفسكي" بوضعه هذا العمل الضخم قد نجح، في واقع الأمر في جعل مؤلفه يقف كنموذج لنوع جديد من الدراسات والكتابات الفريدة من نوعها بتعدد اهتماماتها وتناسق شكلها في آن واحد...

نعتقد أننا لسنا في حاجة إلى تكرار ما كتبناه في أماكن مختلفة من هذه الدراسة حول أهمية "كراتشكوفسكي" العلمية، فمن خلال مؤلفاته

---

(86) صلاح الدين عثمان هاشم، "المستشرقون والجغرافيا العربية"، في كتاب: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص. 864.

التي عرضناها في هذا الفصل يتضح جليا مرة أخرى مدى تنوع اهتماماته وبعد نظره وشمولية فكره.

غير أننا نرى أنه من الواجب أن نرد في ختام هذا الفصل على بعض ما جاء به الأستاذ أحمد "سمايلوڤتش" الذي كان قاسياً في الحكم على أبحاث "كراتشكوفسكي" في مجال دراسة الأدب العربي القديم في كتابه "فلسفة الاستشراق" [87]. ولقد وقع هذا الباحث، في نظرنا، في عدد من الأخطاء التي كان بإمكانه تجنبها لو اطلع على "مختارات"... العالم التي تقع في ستة مجلدات. وأهم هذه الأخطاء هي:

1- إنه اعتمد بالأساس على كتاب "دراسات في تاريخ الأدب العربي" [88] الذي يقول عنه إنه «كتاب صغير الحجم في موضوعات متباينة مختلفة لا يربطها رابط متين» [89]. والباحث يعتقد بأن "كراتشكوفسكي" هو الذي جمع هذه المقالات وسهر على نشرها. وهذا خطأ كبير. ذلك أن هذه البحوث، التي كتبها العالم في فترات متباعدة من حياته، جُمعت بعد وفاته بنحو خمس عشرة سنة من لدن الساهرين على دار النشر الروسية "ناووكا" بتعاون مع الأستاذة كلثوم عودة "ڤاسيلييڤا"، ونشرت في كتاب واحد، فجاءت موضوعاتها متباينة. ولا دخل للعالم في اختيار المقالات ونشرها، وإننا إذ نتفق مع الأستاذ "سمايلوڤتش" على أن "موضوعات الكتاب متباينة"... نعتقد أنه كان عليه أن يوجه اللوم للذين سهروا على طبع هذا الكتاب.

---

(87) أحمد سمايلوڤتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1980.

(88) إغناطيوس كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات، دار النشر "العلم (ناووكا)"، موسكو، 1965، ويحتوي الكتاب على خمس مقالات متباينة من حيث موضوعاتها، وهي:
- الشعر العربي، وهي المقالة التي كتبها "كراتشكوفسكي" عام 1924.
- البديع (والصحيح هو: الشاعرية) عند العرب في القرن التاسع، 1930.
- الحضارة العربية في إسبانيا، 1936.
- الشعر العربي في إسبانيا، 1940.
- أقدم تاريخ لقصة المجنون وليلى في الأدب العربي، 1946.

(89) سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق، ص. 340.

2- غاب عن الأستاذ "سمايلوفتش" أن "كراتشكوفسكي"، وهو الباحث والمدرس، كان ينشر من حين لآخر عددا من الدراسات الموجهة، بالدرجة الأولى، إلى طلبة التخصصات الاستعرابية في محاولة منه لسد الفراغ الموجود آنذاك في المكتبات الاستشراقية الروسية. فكانت المقالة الواحدة تتطرق إلى عدة موضوعات، لكنها تكون، في غالبيتها متجانسة. وهذا ما يفسر وجود «هذه الأشتات في المقالة (الواحدة) التي تحدث عنها الأستاذ "سمايلوفتش"»[90].

3- وقع "لسمايلوفتش" خلط حين تحدث عن دراسات "كراتشكوفسكي" حول ابن المعتز. فهو، على ما يبدو، لا يفرق بين "كتاب البديع" الذي نشر باللغة الإنكليزية عام 1935[91] ومقالة "الشاعرية عند العرب في القرن التاسع" التي كتبها العالم عام 1930 باللغة الألمانية[92] والتي ترجمت إلى اللغة العربية تحت عنوان "البديع عند العرب في القرن التاسع"[93]، وجاءت ضمن الكتاب الذي اعتمده "سمايلوفتش" للحكم على العالم والذي سبق وأشرنا إليه[94]. وأما عن "اعتراف" "كراتشكوفسكي" بأنه كتب عام 1909 موضوعات عن "الشعر حسب تعريف النقاد العرب" وأنه لم ينشرها بسبب عدم كفاية المادة المقدمة، وأن محتويات هذا الموضوع قد أدمجت تدريجيا في دراسة أخرى... فإنه لا يجوز مطلقا الاعتقاد بأن العالم أدمج كتاباته الأولى في بحوث لاحقة دون تغيير. ولقد أشرنا، في بداية المبحث الخاص بابن المعتز من هذا الفصل، إلى أن العالم كان يرجع خلال أزيد من خمس

---

(90) نفسه، ص. 342.

(91) Kitab al-Badi of Abd Allah ibn al-Mu'tazz. Edited from the unique Ms. in the Escorial, with introduction, notes, and indices, by Ignatius Kratchkovsky. London, 1935. "E. J. W. Gibb Memorial", Series, New Series, X.

(92) Ig. Kratchkovsky, Die arabischen Poetik im IX Jahrhundrt. in: Le Monde Oriental, 1930, p. 23-29.

(93) انظر: إغناطيوس كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات، ص. 32-49.

(94) نفسه.

وعشرين سنة إلى أعماله الأولى ليصححها ويضيف إليها ما كان يجدّ في الساحة العلمية. وعلينا أن لا ننسى أن الدراسة حول "كتاب البديع" قد أنجزت بهده الطريقة. غير أن الأستاذ "سمايلوڤتش" أشاد، مع ذلك، بالعالم "كراتشكوفسكي" وخاصة بعمله حول الأدب الجغرافي العربي وأبحاثه حول الأدب العربي الحديث. ومهما يكون من أمر فإن "كراتشكوفسكي" سيبقى يمثل في تاريخ الاستعراب الروسي نموذجا للعالم المستعرب الموسوعي والنزيه.

IV- بداية دراسة الأدب العربي الحديث عند المستشرقين

من المعلوم أن غايات الاستشراق الكلاسيكي العالمي غالبا ما كانت تنحصر في دائرة وصف المخطوطات القديمة وفهرستها والعمل على نشرها. والواقع أن المستشرقين تفوقوا كثيرا في هذا الميدان ونالوا فيه نجاحا كبيرا. ولا يستطيع أحد أن ينكر تنوع أعمالهم وأهميتها. يقول عنهم نجيب العقيقي: «... تناولوا تراثنا بالكشف والجمع والصون والتقويم والفهرسة، ولم يقفوا عندها فيموت بين جدران المكتبات والمتاحف والجمعيات، وإنما عمدوا إلى درسه وتحقيقه ونشره وترجمته والتصنيف فيه...»[1]، وبقي الاستشراق طوال قرون موجها أنظاره إلى الماضي البعيد، ولا يعير أي اهتمام إلى الحاضر، وكأنما هدفه الوحيد يتمثل في القيام بنوع من الحفريات في مختلف فروع المعرفة القديمة عند الشعوب الشرقية. وقد انتبه "كراتشكوفسكي" إلى هذه الظاهرة وكتب يقول عنها في إحدى دراساته الأولى التي نقلناها إلى اللغة العربية: «توجد ضمن الأسرة الإنسانية الكبيرة أمم توصف، حسب رأي سائد، بأنها توقفت عن القيام بأي دور فعال في التطور الثقافي العالمي. ويبادر كل باحث في هذا الموضوع بالإشارة إلى أن موضوع بحثه لا يمكن أن يكون إلا أكاديميا، دون أن يمثل أي أهمية بالنسبة للحاضر. فبينما يكون هذا الباحث يتعامل مع الماضي المجيد بتعاطف خاص، نجده لا يلاحظ الحاضر ولا يرى كيف تولد فوق أنقاض الماضي حياة جديدة تهب الإنسانية مفاجآت قد لا يكون لها أحيانا أي طابع أكاديمي، وإن بعض

---

(1) نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف المصرية، الطبعة الثالثة، 1964، ج 1، ص. 7.

أحداث القرن العشرين يمكن أن تصبح مثالا بارزا لهذه المفاجآت. وإن العرب ينتمون إلى هذه الأمم...»[2]، وقد أشرنا، في بداية هذا المبحث من دراستنا، إلى أن ما ميز العالم "كراتشكوفسكي" عن جل المستشرقين الذين عاصروه أو الذين عاشوا قبله هي اهتمامته بدراسة الأدب العربي الحديث بعدما أدرك التحولات العميقة التي كانت تحدث داخل العالم العربي في المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية وغيرها. وسبق لنا أن تحدثنا في دراسة أخرى عن العناية الخاصة التي كان العالم يوليها لهذا الأدب الناشئ وقلنا: «قام "كراتشكوفسكي" طوال حياته (...) بدراسة جل جوانب الحضارة العربية الإسلامية، وساهم إسهاما كبيرا في كل فرع من فروعها بأبحاثه المتعددة، غير أنه امتاز دون غيره من المستشرقين انذاك بتعاطيه لدراسة الأدب العربي الناشئ الذي بدأ يشق طريقه في أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر، وأدرك التحولات العميقة التي كانت تطرأ داخل المجتمعات العربية وربط بينها وبين هذا الأدب الفني الذي كان يقتبس الكثير من الكتابات الأوروبية، لكنه يعتمد بالأساس على تقاليد ماضيه العريق، ويتخذ منها موضوعاته الرئيسية...»[3] حقاً أن "كراتشكوفسكي" لم يكن أول من انتبه إلى هذا الموضوع[4]. فقد سبقه آخرون أمثال "گيرگس" في روسيا والمستشرق الألماني "فليشر" (H. L. Fleischer)[5] وخاصة المستشرق الفرنسي "رينو" (Jacques T. Reinaud)[6] الذي كانت بعض اهتماماته تنصب نحو عدد من جوانب الحركة الثقافية الجديدة في الأقطار العربية المشرقية، وكان ينشر من حين لاخر على

(2) "كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ودراسات أخرى، ترجمة عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، الرباط، 1989، ص. 15.

(3) نفسه، انظر مقدمة المترجم، ص. 5.

(4) استقينا جل معلوماتنا حول بداية الدراسات الاستشراقية في موضوع الأدب العربي الحديث من مختلف كتابات كراتشكوفسكي وخاصة منها "الأدب العربي الحديث".

(5) أحد أقطاب الاستعراب الألماني (1801-1888).

هنا وفيما بعد: إن جميع المعلومات حول مختلف المستشرقين الروسيين والأجانب مأخوذة من: منتخبات كراتشكوفسكي، ج 1-6.

(6) مستعرب فرنسي كبير، 1795-1867.

صفحات مجلة "الجريدة الأسيوية" (Le Journal Asiatique) ملاحظات حول آخر المنشورات في مصر المتعلقة بموضوع تطور الصحافة في المشرق العربي[7] . ولعل أول كتاب أُلف حول لغة الصحافة العربية هو مؤلف "واشنطون - سيريوس" (Washington-Serruys) الذي صدر في بيروت عام 1897[8] . وتلاه بعد ذلك بسنتين كتاب "هارتمان" (M. Hartmann) حول الصحافة المصرية[9] . والملاحظ أن اهتمامات هؤلاء المستشرقين كانت تنصب بالخصوص على دراسة الموضوعات المرتبطة بمضمون الصحافة وشكلها ولغتها.

أما بالنسبة لدراسة الأدب الحديث، فإن الأمر كان يختلف تماما، ذلك أن المهتمين بهذا النوع من الدراسات كانوا يعدون على رؤوس أصابع اليد. ففي بداية القرن العشرين كانت جل المعلومات حول الأدب العربي الحديث متجمعة في كتاب "بروكلمان" (C. Brockelmann)[10] "تاريخ الأدب العربي"[11]، وكذا في المقالات الخاصة بهذا الموضوع في "الموسوعة الإسلامية" (Encyclopédie de l'Islam)، خاصة منذ عام 1908. ويعد الأستاذ "هارتمان" (M. Hartmann)[12] أول المستشرقين الذين كرسوا لموضوع الأدب العربي الحديث قسطا وافرا من نشاطهم العلمي، فقد اهتم بدراسة بعض جوانبه وذلك منذ العقد الثامن من القرن التاسع عشر وإلى حين وفاته سنة 1919، وقد خلفه في هذا التخصص الأستاذ "كامبفميير" (G. Kampfmeyer)[13] (1864-1936) الذي ترك عددا من

(7) Cent cinquantenaire de l'Ecole des Langues Orientales. Histoire, Organisation et Enseignements..., Paris, Imprimerie Nationale de France, 1948, p. 49.

(8) Washington - Serruys, L'arabe moderne, étudié dans les journaux et les pièces officielles. Beyrouth, 1897.

(9) Hartmann, M. The arabic press of Egypt, London, 1899.

(10) مستشرق ألماني، اختصاصي في الدراسات السامية (1868-1956).

(11) C. Brockelmann, Geschichte der arabischen Literatur, I, Weimar, 1898, II, Berlin, 1902.

(12) مستشرق ألماني، 1851-1919.

(13) مستعرب ألماني، 1864-1936.

الدراسات حول الشعر في سورية (1925) وحول مميزات الأدب العربي الحديث وغيرها من الموضوعات. لكن أهم عمل أنجزه هو مؤلفه "فهرست الأدب العربي الحديث" (14) الذي صدر عام 1928 . ولا بد من الإشارة كذلك إلى أن "كامپفمبير" استطاع إنجاز هذه الدراسات بالاعتماد أساساً على ما قامت به المدرسة الاستعرابية الروسية من إنجازات في هذا الباب. فقد كان أول المستشرقين غير الروسيين الذين انتبهوا إلى هذا النوع من الكتابات عند العلماء الروسيين وخاصة منهم "كراتشكوفسكي" الذي كان أول من جعل من دراسة الأدب العربي الحديث تخصصا قائما بذاته، وذلك منذ تأليفه "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" التي صدرت سنة 1911 . ويرجع الفضل إلى "كامپفمبير" في التعريف بهذه الدراسة (15) وبعدد من الأبحاث الروسية الأخرى.

ومعلوم أنه أشرف على ترجمة "الرواية التاريخية..." إلى اللغة الألمانية وسهر على نشرها سنة 1930 (16) . ومن المؤلفات التي كان لها أثر كبير على مجرى التعريف بالأدب العربي الحديث وتدريسه في أوروبا لا بد من الإشارة كذلك إلى كتاب "المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية" (17) للأستاذة كلثوم نصر عودة "ڤاسيلييڤا" (18) . وقد أشرف "كراتشكوفسكي" على إنجاز هذا المؤلف وكتب له مقدمة. وأثار صدور هذا الكتاب انتباه الأوساط الأدبية العربية منها والأوروبية. وهكذا خصته

(14) G. Kampfmeyer, Index zur neueren arabischen literatur, MSOS, XXXI, 2 abt., 1928.

(15) كان ينشر مقالاته هذه على صفحات مجلة: Die Welt des Islams.

(16) صدرت هذه الترجمة في المجلة المذكورة أعلاه في العدد الثاني عشر، 1-2، عام 1930، ص. 51-87.

(17) كلثوم نصر عودة ڤاسيلييڤا، المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية، لينينگراد، ج 1، 1928، ج 2، 1929.

(18) كلثوم نصر عودة ڤاسيلييڤا، أستاذة الأدب العربي بالكلية الشرقية بلننگراد. أصلها من فلسطين، رحلت إلى روسيا واستقرت بها نهائيا. وكانت من المساعدين الأقربين لكراتشكوفسكي.

مجلة "المشرق" بمقالة جاء فيها على الخصوص: «في عاصمة[19] روسيا نهضة لتعزيز الآداب العربية تستحق كل ثناء، وقد تكلمنا مرات في "المشرق" عن جهود الأستاذ "إغناطيوس كراتشكوفسكي"، وهو من طلاب كليتنا الشرقية سابقا، في هذا السبيل. وها نحن نرى اليوم شاهدا جديدا على عنايته وغيرته ألا وهو مراقبته لنشر هذه المنتخبات العصرية، وكتابته مقدمتها باللغة الروسية، ذاكرا المصادر التي استقت منها السيدة عودة تلك القطع المختلفة. والكتاب مخصص كله للنثر العربي منذ تطوره في أواخر القرن الماضي إلى عصرنا. أما زمن كتابة نصوص هذه المنتخبات فيتراوح بين السنة 1880 والسنة 1925. والكتاب المذكورين من اللبنانيين والسوريين من متمصرين ومتأمركين...»[20] كما عرَّف "ماسنيون" (L. Massignon)[21] بهذا الكتاب في "مجلة الدراسات الإسلامية" (Revue des Etudes Islamiques)[22]، وقال عنه إنه الأول من نوعه في برامج تدريس الأدب العربي، وتمنى لو حذا الاختصاصيون في أوروبا حذو المدرسة الاستعرابية الروسية وألفوا مثل هذه الأعمال، كما تمنى أن تشمل الطبعة الثانية لهذا الكتاب كتّابا من أقطار عربية أخرى مثل العراق والمغرب العربي.

أما الباحثون العرب فلقد بدأ اهتمامهم بأدبهم الجديد تقريبا في نفس الفترة التي كان المستشرقون يكتشفونه فيها. وكان أول من كتب عنه كل من الأب شيخو وفيليب طرازي وجرجي زيدان. وظهرت في مرحلة

(19) لم تكن هذه النهضة في العاصمة موسكو، بل كانت في العاصمة القديمة "سان بيترسبورگ" التي سميت "لينينگراد"، بعد وفاة لينين، قائد الثورة البولشيفية. ولقد استرجعت اسمها القديم سنة 1991.

(20) فؤاد البستاني، المنتخبات العصرية لدرس الآداب العربية، مجلة المشرق، 1928، العددان 8-9، ص. 714.

(21) أحد أقطاب الاستشراق الفرنسي ولد عام 1883.

(22) L. Massignon, Ign. Kratchkovskiy, Muntakhabat asriyah, Leningrad, 1928, in Revue des Etudes Islamiques, Année, 1929, N° 2, p. A. 58.

وقع صاحب العرض في خطإ حين نسب تاليف الكتاب لـ"كراتشكوفسكي" في حين أن هذا الأخير أشرف على طبعه وكتب له مقدمة.

لاحقة دراسات أخرى من أقلام يوسف سركيس ورفائيل نخلة ومحمود تيمور ومي وفؤاد أفرام البستاني ورفائيل بطي وآخرين[23].

ويتفق جميع الاختصاصيين في دراسة الأدب العربي الحديث على أن "كراتشكوفسكي" كان أول من قام بدراسات مركزة لكل ما له صلة بهذا الموضوع. وقد اعتبره عدد من كبار المستشرقين الأوروبيين أستاذهم في هذا التخصص الجديد. فالمستشرق الألماني "كامپفميير" كتب سنة 1929 مقالة يعترف له فيها بسبقه في معالجة هذه الموضوعات الجديدة، كما يعتبره أستاذا بدون منازع في هذا التخصص[24]. ويقول المستشرق الإنگليزي "جيب" (Gibb) عن "كراتشكوفسكي" إنه أستاذه في هذا الميدان ويعترف بأنه اعتمد كثيرا على مؤلفاته في أبحاثه ودراساته[25]. أما "هارتمان"، الباحث الألماني المعروف في مجال الشرق العربي، فقد كتب في إحدى رسائله إلى "كراتشكوفسكي" أنه يعتبر بحثه حول "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" أول مونوغرافية أوروبية حول الأدب العربي المعاصر[26]. ومعلوم أن هذه الدراسة نشرت سنة 1911 على صفحات "مجلة وزارة التربية الوطنية" الروسية التي كانت تصدر في "سان پيترسبورگ"[27] وبهذا البحث يكون "كراتشكوفسكي" قد فتح باب

(23) لم نذكر هنا سوى أبرز الأدباء الذين كتبوا عن الأدب العربي الحديث وعن ممثليه من كتاب وشعراء. واكتفينا بالفترة التي تهم دراستنا والتي تبتدئ من أواخر القرن التاسع عشر إلى غاية العقد الثالث من هذا القرن العشرين. أما الفترة الموالية لهذه الحقبة من الزمن، فلم نتطرق لها، وذلك لغزارة الكتابات حولها... ولقد خضعت للعديد من الدراسات وسوف تخضع للمزيد منها...

(24) انظر على سبيل المثال:

- G. Kampfmeyer, Ignaz Krachovskij ein Führer zum Studium der neueren arabischen Literatur..., Die Welt des Islams, 1929, XI, H. 3-4, SS.
- Leaders in contemporary Arabic literature. A book of reference. By Tahirr Khemeri and G. Kampfmeyer. Die Welt des Islams, 1930, IX, H. 2-4.

(25) H. A. R. Gibb, Studies in Comptemporary Arabic literature. I. the Nineteenth Century. Bulletin of the School of Oriental Studies, London Institution, 1928, IV, SS. 745-760.

(26) كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية...، ترجمة عبد الرحيم العطاوي، ص. 13.

(27) كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، مجلة وزارة التربية الوطنية، سان پيترسبورگ، 1911، ص. 260-288. (بالروسية).

(Istoritcheskiy roman v sovremennoy arabskoy Literature).

ميدان الأبحاث في الأدب العربي الحديث أمام الاستشراق العالمي. وتجدر الإشارة إلى أن العالم كتب بحثه هذا سنة 1909 في بيروت بعد ما قضى سنتين في الشرق العربي. ثم عاد إليه مرة أخرى ليضيف إليه مدخلا وعددا من الإضافات خاصة في الهوامش، وذلك قبيل ترجمته إلى اللغة الألمانية سنة 1930 [28]. وخصصت مجلة "المشرق" بعد صدور هذه الترجمة مقالا جاء في مدخله على الخصوص: «وهو (البحث) أول ما ظهر عند الإفرنج في هذا الصدد (الأدب العربي المعاصر). وقد يكون تكملة لكتاب تاريخ الآداب العربية للأب شيخو، وفيه من النظرات والفوائد ما هو جدير بالاعتبار...» [29].

(28) انظر: Die Welt des Islams, XII, 1-2, 1930, p. 51-87.
(29) مجلة "المشرق"، عدد 11، 1930، ص. 862-866.

٧- كتابات كراتشكوفسكي في مجال الأدب العربي الحديث

لا يجادل أحد في كون "كراتشكوفسكي" من الرواد القلائل الذين انتبهوا إلى ظاهرة الأدب العربي الحديث وحاولوا تنظيم جمعه والبحث فيه على أسس علمية، وقد أسلفنا أن عددا من كبار المستشرقين الألمانيين والإنكليزيين اعترفوا له بالسبق في هذا الميدان كما أنهم اعتبروه أستاذا لهم ولغيرهم في هذا التخصص الجديد. ولم يكتف "كراتشكوفسكي" بالتعريف بهذا الأدب أو باقتراح مناهج لدراسته، بل ذهب أبعد من ذلك لأن الموضوعات التي تناولها بالدرس خلال حياته كانت جد متنوعة، وهي جديرة بأن تصنف وينظر في كل صنف منها على حدة. وقد قام بجزء من هذا العمل عدد من الباحثين الروسيين[1] وكذلك بعض العرب المتخصصين في الدراسات الاستعرابية الروسية، كالباحث المصري الأستاذ حامد عبد الهوال[2] الذي قسم في أطروحته مؤلفات "كراتشكوفسكي" في الأدب الحديث من حيث موضوعاتها إلى ستة أقسام هي:

1- دراسات عامة تبحث في تاريخ الأدب العربي الحديث وفي نشأته ومختلف ظواهره. وأهم هذه الأعمال:

(1) انظر على سبيل المثال الجزء الثالث من منتخبات الأكاديمي كراتشكوفسكي، موسكو - لينينگراد، 1956.

(2) حامد عبد الهوال، الأكاديمي كراتشكوفسكي والأدب العربي الحديث. أطروحة لنيل الدكتوراه، الكلية الشرقية لجامعة "جدانوف"، لينينگراد، 1970، غير منشورة، بالروسية. (توجد الأطروحة بمكتبة الكلية المذكورة).

- "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث"، 1911.

- "نشأة الأدب العربي الحديث وتطوره"، 1922.

- "الأدب العربي الحديث"، 1935.

- الأدب العربي في القرن العشرين"، 1946.

2- دراسات حول الأدب العربي الحديث في بعض الأقطار العربية وغير العربية، ومن أهمها:

- "الأدب العربي في أمريكا 1895-1915"، 1928.

- "الحالة الراهنة للأدب العربي في مصر"، 1947.

وعدد من المقالات حول الأدب العربي في كل من العراق وسورية والجزيرة العربية ومصر...

3- دراسات حول عدد من الكتاب وحول بعض مؤلفاتهم، نذكر منها على الخصوص:

- "طه حسين ومدونته" «الأيام»، 1934.

- "محمود تيمور ومؤلفاته الجديدة"، 1941.

4- مقالات نقدية وبيبليوغرافية، نذكر من بينها:

- حول "كتاب محمد لتوفيق الحكيم".

- الترجمة العربية للإلياذة"، 1909.

- "كتاب ميخائيل نعيمة حول جبران"، 1941.

- ديوان محمد مهدي الجواهري"، 1950...

5- دراسات وصفية لعدد من العلماء والكتّاب، ونذكر من أبرزها:

- "الشيخ الطنطاوي، الأستاذ بجامعة سان پيترسبورگ (1810-1860)"، 1929.

- "سليمان البستاني"، 1927.
- "اليازجي"، 1934.
- "الزهاوي"، 1938.
- "زيدان"، 1934.
- "مي"، 1935...

6- دراسات مكرسة للعلاقات الأدبية الروسية العربية، ونذكر منها على الخصوص:

- "الكتّاب الروسيون في الأدب العربي"، 1910.
- "گوركي والأدب العربي"، 1940.
- "تشيخوف في الأدب العربي"، 1944.

إن هذا التقسيم يعطي، في نظرنا، صورة شاملة للموضوعات العلمية التي شغلت بال "كراتشكوفسكي" في مجال الأدب العربي الحديث.

VI- مسألة تأريخ الأدب العربي الحديث وتوثيقه عند كراتشكوفسكي

لا يرى "كراتشكوفسكي" في دراسة الأدب العربي الحديث عند المستشرقين والعرب على السواء ما يدعو إلى الابتهاج وذلك إلى حدود العقد الثالث من القرن العشرين رغم ما كانت تشهده الساحة الأدبية العربية من تقدم ملموس في شتى مظاهرها. وهو يعتبر أن الإبداعات الحديثة جيدة غير أنها لم تواكبها، في مجال النقد والتوثيق، دراسات تكون مبنية على أسس علمية عصرية. يقول "كراتشكوفسكي" في هذا المضمار: «فلو رجعنا... إلى أحوال درس الآداب الحديثة في بلاد العرب لرأينا صورة ناقصة من عدة وجوه، وإن كانت أحسن مما سبق بقليل. ولا ينكر أحد أن اللغة العربية حائزة الآن بعض النظرات الإجمالية، أولها حسب وقت ظهورها كتاب الأب لويس شيخو في الآداب العربية في القرن التاسع عشر، وثانيها الجزء الرابع من تاريخ الآداب العربية لجرجي زيدان، وثالثها "تاريخ الصحافة" العربية لفليب طرازي. ولكل من هذه الكتب فضائل ونواقص... وربما كان أحسنها ترتيبا وأعززها مادة "تاريخ الصحافة" لأن صاحبها حدد الموضوع وأسند كل شيء إلى مأخذه، ولا ينقصه إلا عدم إتمامه حتى الآن. ولو كمل هذا الكتاب لسد ثغرا في معارفنا بينا. ومن هذا القبيل تكون اللغة العربية أغنى من اللغات الأوروبية إجمالا. أما من جهة الأبحاث الخصوصية فهي قليلة وليست على غاية ما يطلبه الآن المنهج العلمي الدارج في أوروبا. ولا نستثني من ذلك إلا شيئا يسيراً كأبحاث السيدة "ميّ" عن باحثة البادية وعائشة التيمورية أو تاريخ

حياة طاهر الجزائري بقلم محمد كرد علي وغيرها. أما ما بقي من الكتابات فليست إلا نظرات انتقادية أو تقاريظ دعت إليها الحياة اليومية، وهي تزول مع مرور الأيام، وإن كانت في بعضها مواد للدرس العلمي الخطير التي تفيد بعد البحث العلمي..»[1].

من خلال هذه المقالة يمكننا القول إن "كراتشكوفسكي" لا يوجه اللوم إلى العلماء الأوروبيين بقدر ما يوجهه إلى العلماء العرب الذين لهم صلات بأوروبا ودراية بالعلوم العصرية. وهو، بتقديم الأشياء هكذا، لا يكتفي بالنقد المجرد، بل يقترح الحلول التي يراها كفيلة بالدفع بالعلم العربي في هذا المجال والسير به قدماً حتى يحتل مكانته اللائقة به على الصعيد العالمي. وبهذا الصدد فإن "كراتشكوفسكي" كان من بين العلماء الأوائل الذين أعطوا الخطوط العريضة لمنهج الدراسات الأدبية العربية الحديثة واقترحوا خطة لتطويرها حتى تبلغ غايتها. ونعتقد أنه من المفيد الوقوف عند بعض النقط التي لها أهمية بالنسبة للموضوع كمسألة تحديد معنى الأدب الحديث وأنواعه وتاريخ بدايته ودراسته منفصلا عن الأدب القديم. وقد تناول "كراتشكوفسكي" بالدرس هذه المسائل في عدد من مقالاته التي كتبها في فترات متباعدة من حياته[2].

وهكذا حدد في مقالة كتبها سنة 1935 مفهوم "الأدب العربي الحديث" وكتب يقول: «إذا كان مصطلح "أدب" قديما يعني كل ما أُلف

---

(1) كراتشكوفسكي، درس الآداب العربية الحديثة، مناهجه ومقاصده في الحاضر، مجلة المجمع العلمي العربي، 1930، ص. 20-21.

(2) انظر على الخصوص:

- كراتشكوفسكي، درس الآداب العربية الحديثة...

- كراتشكوفسكي، في الأدب العربي الحديث، ترجمة محمد أمين حسونة، مجلة الرسالة، 1936، عدد 170، ص. 1625-1627؛ عدد 171، ص. 1667-1669؛ عدد 174، ص. 1808-1810؛ عدد 181، ص. 2086-2087.

وتجدر الإشارة إلى أن السيد محمد أمين حسونة لم يترجم مدخل هذه الدراسة، رغم أهميته خاصة بالنسبة لتحديد مفهوم الأدب الحديث عند كراتشكوفسكي. كما أنه لم يقم بترجمة كاملة للفصل الذي عنونه: أنواع أخرى. ولم يترجم الفصل الأخير الخاص بتاريخ دراسة الأدب العربي الحديث. وفي هذه الحالة وفي حالات مماثلة أخرى، فإننا نعتمد أولا وقبل كل شيء على النص الروسي.

- كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية...، الترجمة العربية.

من أدب بمفهومه العصري وكذلك من كتابات في الفلسفة ومختلف العلوم، فإن مفهومه اليوم قد تقلص لينحصر في المؤلفات التي تتميز بخصيصة التأثير ليس على العقل فحسب بل على حاسية الانفعال والتأثر. ويدخل في هذا الصنف من الكتابات على الخصوص: الشعر والرواية والأقصوصة والمسرحية. وهناك أنواع أخرى يجب الانتباه إليها وخاصة منها المقالة الأدبية التي تبلغ في بعض الأحيان أعلى درجات الفنية. كما أن الكتابات حول تاريخ الأدب والنقد تكتسي بدورها أهمية بالغة لفهم غاية الإبداع الأدبي ولإدراك مدى تأثيره على القراء العرب»[3].

أما مصطلح "عربي"، في عبارة "الأدب العربي الحديث"، فيعني، حسب كراتشكوفسكي، ذلك الأدب المكتوب باللغة العربية ولو من لدن كتاب غير عرب. ويستبعد العالم من هذا المعنى الإبداع الأدبي المكتوب بلغة أجنبية من لدن كتاب عرب كمؤلفات شكري غانم[4] بالفرنسية وأمين الريحاني وجبران خليل جبران بالإنكليزية وغيرهم. وليس المقصود من مصطلح "حديث" كل ما يؤلف حاليا، ذلك أن كثيرا من المنظومات الشعرية لا تختلف البتة عن الشعر القديم لا من حيث محتواها ولا شكلها. كما أن عدداً كبيراً من المؤلفات النثرية لم تتخلص بعد من الأسلوب القديم. فمثل هذه المؤلفات، حسب "كراتشكوفسكي"، لا يجوز اعتبارها نتاجا للأدب العربي الحديث ولو أنها كتبت في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. انطلاقا من هذا التعريف فإن العالم يرى في الأدب العربي المكتوب خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين في كل من المغرب والجزائر والجزيرة العربية واليمن أنموذجا من أدب القرون الوسطى[5]. لذا فإنه لا

---

(3) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث، مختارات كراتشكوفسكي، موسكو - ليننگراد، 1956، الجزء الثالث، ص. 66، بالروسية.

(4) شكري غانم، كاتب صحفي سوري، عاش في فرنسا، توفي سنة 1929.

(5) انظر دراستيْ "كراتشكوفسكي:

- الأدب العربي الحديث، ص. 67.

- الأدب العربي في القرن العشرين، مختارات كراتشكوفسكي، موسكو - ليننگراد، 1956، ج 3، ص. 87-88.

يدخله في دراساته التي شملت على الخصوص كلاً من مصر وسورية ولبنان والعراق.

وقد عبر الأستاذ عبد الله گنون عن نفس الفكرة حين كتب: «بقي المغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، يتمثل الثقافة العربية القديمة بعيدا عن كل تيار فكري جديد، في حين أن غيره من البلاد العربية، ولا سيما الشرقية كمصر والشام والعراق كانت تشهد قيام حركة علمية وأدبية نشيطة...»(6). كما أن الأستاذ أحمد الطريسي أعْرَبَ عن نفس الفكرة بالنسبة للشعر في المغرب حين كتب: «إن الشعر في المغرب لم يكتسب مفهومه الفني الحقيقي إلا في فترة متأخرة من القرن العشرين، إذ بدأت بذوره في أواخر سنوات الخمسين، واستقام عوده مع سنوات الستين من هذا القرن...»(7).

وإذا كانت بعض بوادر التجديد تحصل في أدبنا خلال النصف الأول من هذا القرن، فإن الخبر عنها لم يكن يصل إلى "كراتشكوفسكي" في شمال روسيا، وذلك بسبب انعدام دوريات أدبية وصحافة وطنية ذات بعد دولي.

أما بالنسبة لتاريخ بداية ظاهرة الأدب العربي الحديث، فإن "كراتشكوفسكي" يرجعه إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، بعد حملة "نابليون" على مصر 1798-1801، في فترة حكم محمد علي، وهي الفترة التي ربطت فيها مصر علاقات وطيدة مع أوروبا وأسست بها مدارس عصرية كانت لها آثار إيجابية على سير العلوم عامة والأدب خاصة. ونهجت سورية نفس الطريق في الوقت ذاته تقريبا، رغم أن بلاد الشام كانت لها صلات متنوعة مع أوروبا قبل ذلك. وقد تصدر هذان البلدان الحركة الأدبية داخل العالم العربي. يقول "كراتشكوفسكي" في هذا الموضوع: «... لا

(6) عبد الله گنون، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، القاهرة، 1965، ص. 9.

(7) أحمد الطريسي أعراب، الإبداع الشعري والتحولات الاجتماعية والفكرية بالمغرب، مطبعة النجاح الجديدة، 1992، ص. 7.

يشك أحد أن الطور الجديد لا يبتدئ من نقطة محسوسة معينة، بل يتدرج عما قبله تدريجياً. وهذا لا يمنعنا من أن نأخذ وقعة تاريخية حداً لطور ما، ولا سيما إذا كان لهذه الوقعة تأثير ظاهر في الطور القديم. وفي تاريخ الآداب العربية الحديثة نرى وقعة من هذا الجنس، وهي حملة الفرنسيين على مصر بقيادة "نابليون" التي جرت على الشرق العربي نتائج جمة، سياسية واقتصادية وأدبية، ووصلته بأوروبا بصلة لم تنقطع في وقت من الأوقات إلى أيامنا هذه. نعم إن اتصالات الشام، وإن كانت بدأت مع أوروبا قبل القرن التاسع عشر بكثير، إلا أنها توطدت بعد فتح المدارس المتنوعة وخصوصا في لبنان. وهذا ما يدعونا لأن نبتدئ بدور الآداب العربية الحديثة من النصف الأول للقرن الماضي...»[8].

ويرى العالم أنه لا يجوز أن يقتصر البحث على بداية الأدب العربي الحديث بداخل الأقطار العربية وحدها، ذلك أن عددا من البلدان الأجنبية احتضنت العديد من الأدباء العرب الذين أثروا بشكل أو بآخر على مجرى الأدب الحديث. فمدينة إستنبول، عاصمة الإمبراطورية العثمانية، كانت قبلة لكثير من الكتاب المنحدرين من البلدان العربية أو من غيرها. ولعل أبرزهم في تلك الفترة أحمد فارس الشدياق (1804-1887) محرر جريدة "الجوائب" التي ذاع صيتها في العالم العربي. ونشطت في أوروبا وأمريكا الجاليات العربية وأبدع كتّابها عددا من الروائع الأدبية، ويذكر "كراتشكوفسكي" بأنه في "باريز" بالذات صدرت سنة 1884 مجلة الإمام محمد عبده "العروة الوثقى" التي تعتبر أول دورية للحركة التجديدية الإسلامية.

سبق أن قلنا إن العالم "كراتشكوفسكي" قدم خطة للنهوض بدراسة الأدب العربي الحديث، ونظرا لأهميتها، خاصة في الوقت الذي كتبت فيه، أي في سنة 1930، فإننا ارتأينا أن نقف عند أهم ما أتى به العالم من

(8) كراتشكوفسكي، درس الآداب العربية الحديثة، ص. 19. حرصت على إثبات النص كما ورد عند صاحبه.

آراء واقتراحات، ولربما كان البعض منها لا زال مفيدا حتى في زمننا هذا. و"كراتشكوفسكي" يريد في واقع الأمر أن يفتح نقاشا حول موضوع مناهج دراسة الأدب العربي الحديث، ويخاطب العلماء العرب بقوله: «... لقد تراكمت لدي بعض الملاحظات والأفكار التي لها علاقة بمنهج درس الآداب الحديثة، ولا سيما في الشرق العربي، وأردت الآن أن أطرحها على بساط البحث كما يقولون، لينظر فيها بعيني الانتقاد من هم أقدر مني من أصحاب الأمر، فصاحب البيت بالطبع أدرى بما فيه من متطفل مثلي على مائدته...»[9]. ويقول في موضع آخر من نفس المقالة: «... وليس هذا إلا جزءاً من الأفكار والآراء التي تراكمت لدى هذا الحقير وقت درسه للمسائل المتعلقة بتاريخ الآداب العربية الحديثة منذ ربع قرن. ولأعضاء المجمع العلمي العربي الموقرين أن يصرحوا برأيهم في الاقتراح إذا رأوا ما يستحق الذكر. ونلتمس من قراء المجلة الفضلاء الذين لهم اليد الطولى في هذه المسائل أن يبدوا ملاحظاتهم وتعليقاتهم، فباصطدام الآراء تتجلى الحقيقة وربما نتوقف في سعينا إلى ترويج درس الآداب العربية الحاضرة ويكون في ذلك امتزاج همة الشرق وتجارب الغرب المؤدي إلى نهضة العرب العلمية الأدبية التي هي ضالتنا..»[10].

والعالم لا يحصر هذه الاقتراحات على العمل الفردي فهو يتعداه لتشمل المؤسسات الوطنية والقومية كالمعاهد والجامعات والمجامع العربية. وأول ما يوصي به العلماء العرب كتمهيد للمهمة الملقاة على عاتقهم هو عدم الاكتفاء بالمراجع العربية، فعليهم أن يهتموا بكل ما يكتب بلغات أخرى حول المواضيع التي يدرسونها، بل عليهم أن يتعدوا هذه المرحلة ويتعمقوا في دراسة حالة البحث العلمي عند آداب الشعوب الأجنبية القريبة منهم أو البعيدة. يقول "كراتشكوفسكي" بهذا الصدد: «على كل عالم باحث أن لا يضيق حيز بحثه بما تحتويه اللغة العربية، بل يدرس بإمعان ودقة حال دروس الآداب الحديثة في اللغات الأخرى، وإن

(9) نفسه، ص. 17.
(10) نفسه، ص. 18.

كانت بعيدة عن العربية، كي يتعمق في أسباب تقدمها أو تأخرها ويقتبس من مناهجها وأساليبها ما كان نافعا ومناسبا للغته وآدابها . . . »[11].

أما المراحل التي يجب على الباحث اتباعها لإنجاز بحثه في أحسن صورة فإن "كراتشكوفسكي" يرى أنها ثلاث تتابع في الزمان، وهي: 1- جمع المواد، 2- ترتيبها واختيارها، 3- دراستها ونقدها واستخلاص أفكار الكاتب منها. ويتناول العالم بالدرس كل مرحلة على حدة بتفصيل.

من خلال مقترحاته وآرائه يظهر مدى تحمس "كراتشكوفسگي" لدراسة الأدب العربي الحديث. إنه، في واقع الأمر، يعبر هنا، كما يفعل في جل مؤلفاته، عن حبه لهذا الأدب ويطمح إلى المساهمة في الدفع به إلى الأمام ليأخذ مكانته كاملة وسط الآداب العالمية وليكون في مستوى مجد وعظمة سلفه القديم. وهو، إذ يتكلم عن هشاشة وضعية البحث في هذا المجال، لا يخفي خوفه على هذا الأدب الفتي من الضلال والاضمحلال بعدما قطع أشواطا بعيدة في الاتجاه الصحيح نحو التقدم والازدهار. ويرى أن الفرصة ما زالت سانحة لترتيب الأمور على أسس عصرية متينة، ويتمنى أن لا يُضيع العرب هذه الفرصة ويقول: « ... ولا يهم هذا (وضعية البحث) كل محب للشعب العربي، بل يخزيه وينذره بخطورة الحال لأن الفرصة التي تفوت لا ترجع مدى الدهر مرة أخرى . . . »[12].

كانت لهذه المقالة التي كتبت عام 1930 ردود فعل كثيرة، وتوصل مؤلفها بالعديد من الرسائل حولها، ولعل أهمها، في نظرنا، تلك التي بعثها سنة 1946 يوسف أسعد داغر[13] مرفوقة بعدد من الوثائق والمعلومات المتعلقة بالأدب العربي الحديث عامة والترجمات العربية للمؤلفات

---

(11) نفسه، ص. 21.

(12) نفسه، ص. 18.

(13) انظر حول هذه الرسالة وهذه المعلومات مقالة "كراتشكوفسكي" "مؤلف عربي جديد حول الأدب الروسي" في "مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي"، ج 3، ص. 328. بالروسية.

الروسية خاصة. ومعلوم أن داغر أصدر في نفس السنة كتيباً حول هذا الموضوع عنوانه "القصة الروسية في الأدب العربي"[14]. ومما جاء في رسالته على الخصوص أنه بصدد نشر عمل بيبليوغرافي[15] ضخم يشمل أعلام الأدب والفكر العربي منذ عام 1800 إلى حدود سنة 1950 وأن مقالة "كراتشكوفسكي" درس الآداب العربية الحديثة..." كانت إحدى الأسباب التي دفعته إلى التفكير في إنجاز هذا العمل. وهكذا يتضح أن "كراتشكوفسكي" لم يكتف بالبحث في الأدب العربي والتعريف به داخل روسيا، بل ساهم بمقالاته، بجانب العلماء العرب، في تنظيم وعصرنة البحث العلمي داخل العالم العربي نفسه. ولعل هذا المثال وحده كاف لإدراك مدى شمولية وفعالية نشاط هذا العالم الباحث والمعلم.

---

(14) أسعد داغر، القصة الروسية في الأدب العربي، مطبعة دير المخلص، صيدا، 1946.

(15) أصدر يوسف أسعد داغر ثلاثة مؤلفات بيبليوغرافية هي:

Répertoire bibliographique de la Bibliothèque arabe, par Joseph A. Dagher, Beyrouth, 1947.

- مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الأول، مطبعة دير المخلص، صيدا، 1950.
- مصادر الدراسة الأدبية، الجزء الثاني، القسم الأول، مطابع لبنان، بيروت، 1956.

وله أعمال بيبليوغرافية أخرى.

انظر يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة العربية، الجزء الثاني، القسم الأول، ص. 861.

VII- تاريخ الأدب العربي الحديث من خلال دراسات "كراتشكوفسكي"

تناول "كراتشكوفسكي" بالدرس موضوع تاريخ الأدب العربي الحديث وتطرق إلى ظروف نشأته وتطوره في العديد من دراساته. ولعل أهمها هي الأبحاث التالية:

- "نشأة الأدب العربي الحديث وتطوره"، 1922.
- "الأدب العربي الحديث"، 1935.
- "الأدب العربي في القرن العشرين"، 1946.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا العالم ينظر إلى تاريخ الأدب العربي الحديث نظرة شمولية ويضعه داخل الإطار العام للتقلبات والتغييرات التي عرفها العالم العربي برمته، لأن هذا الأدب ما هو، في واقع الأمر، سوى نتاج للتقلبات السياسية والاجتماعية والفكرية التي عاشها العالم العربي. وتشكل هذه العوامل، في مختلف كتابات "كراتشكوفسكي"، أسسا لتفسير بعض الظواهر ولدراسة تاريخ الأدب الحديث كذلك.

1 - نشأة الأدب الحديث: الأدباء المجددون، القصة، الأقصوصة، المسرح...

يُرجع "كراتشكوفسكي" تاريخ بداية الأدب العربي الحديث إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر. لكنه يرى، مع ذلك، أنه يمكن العثور على عدد من المحاولات التجديدية قبل هذه الفترة، «وخاصة في

مستهل القرن الثامن عشر عند الأقليات المسيحية بسورية التي كانت لها صلات متينة مع كل من الكنيسة الشرقية والكنيسة الكاثوليكية في روما. وقد نتج عن هذه العلاقات تكوّن نوع من مدرسة أدبية مسيحية يتصدرها مطران حلب السيد "جرمانوس فرحات" » (1670-1732)[1]. غير أن الاتجاه العام الذي اتخذته هذه المدرسة كان يصبو، في واقع الأمر، إلى إحياء الفنون اللغوية القديمة أكثر منها إلى تجديد فنون الأدب[2]. ولم يبدأ التغيير الحقيقي إلا مع الحملة الفرنسية على مصر. وقد سبق عملية الكتابة الأدبية الجديدة عدد من العوامل التي تركت أثرا واضحا في نفوس العرب وساعدتهم على تكوين فكرة حول المهام الأدبية المرتقبة. يقول "كراتشكوفسكي" عن هذه العوامل: « ... وإذا أردنا أن نبين مظاهر الثقافة الأوروبية التي أثرت بشكل عميق على مخيلة العرب، وجدناها في وصف أول مطبعة عند الجبرتي (1756-1825)، ورأيناها كذلك في أول مكتبة نظمت على النمط الأوروبي عند الشيخ حسن العطار (1766-1834)... وإن في هذين المثالين فكرة عن بعض العوامل التي كانت لها أهمية قصوى في تكوين الأدب العربي الحديث »[3].

ويرى كراتشكوفسكي أنه بعد هذه المرحلة أخذت بوادر النهضة الثقافية تظهر وتتعزز، وتجلت مظاهرها على الخصوص في المدارس الجديدة التي أنشئت وفي إدخال الطباعة إلى العالم العربي وتشجيع الترجمة وإرسال بعثات طلابية إلى الخارج وإحداث مكتبات عصرية وظهور الفن المسرحي... كما أن هجرة العديد من العرب إلى الخارج وخاصة إلى أمريكا أعطت الحركة الأدبية الفتية قوة جديدة ودفعت بها إلى الأمام[4]. وتظهر أهمية هذه البعثات، حسب "كراتشكوفسكي"، من خلال عدد

(1) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث، مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي، موسكو - لينينگراد، 1956، ج 3، ص. 67-63، (بالروسية).
(2) نفسه، ص. 67.
(3) نفسه، ص. 68.
انظر كذلك: ترجمة محمد أمين حسونة لهذه الدراسة، في مجلة "الرسالة"، 1936، عدد 170، ص. 1625-1626.
(4) نفسه.

الرسائل والأطروحات التي كان الطلبة العرب يناقشونها سنويا في الجامعات الأوروبية وخاصة الفرنسية منها، ويرى العالم أن الطباعة، بالرغم من أنها كانت معروفة في سورية منذ مستهل القرن الثامن عشر، فإنها لم تتطور إلا بعد إعادة تنظيم مصالحها في مصر على يد محمد علي سنة 1828 . ولقد عرّفت حملة "نابوليون" مصر لا بالطباعة فقط بل أدخلت إليها عنصرا جديدا، لم يكن معروفا من قبل عند الشرقيين، وهو الصحافة الدورية. وفتح هذا النوع الجديد من الصحافة الباب في وجه تأسيس العديد من المنتديات والجمعيات العلمية والأدبية والسياسية التي عرفت انتشارا كبيرا خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر وكانت لها أهمية قصوى بالنسبة لازدهار الأدب الجديد، بل إن النثر الخطابي تكوّن بداخل هذه المنتديات بالذات[5]. وعرفت حركة الترجمة ازدهارا كبيرا وارتبط مصيرها بتطور الطباعة، يقول عنها "كراتشكوفسكي": «وكان الإقبال المتواصل على الترجمة مرتبطا تمام الارتباط بالطباعة. واستهلت هذه الحركة بترجمة الكتب العلمية خاصة في مصر، ثم شرع في نقل الكتب الأدبية. وكما أن بعض الكتب القديمة كمؤلفات ابن المقفع والجاحظ لم يكن بالإمكان وضعها لولا العمل الذي أنجزه مترجمو العصر العباسي، فإن الأدب العربي الحديث كان مستحيل النشوء لولا مترجمو القرن التاسع عشر. وللمرة الأولى منذ تأليفه أصبح الأدب العربي القديم في متناول فئات واسعة من القراء بفضل الطباعة...»[6].

ويعتقد "كراتشكوفسكي" أنه من العوامل التي كان لها أثر بالغ في الدفع بالأدب العربي الحديث إلى الأمام ظاهرة هجرة الكثير من الأسر العربية إلى أوروبا وخاصة إلى أمريكا فيما بعد. واقتصر دور المثقفين المهاجرين في بداية الأمر بالتعريف بالثقافة العربية في أوروبا، وقد ساهم في هذا النشاط عدد من العلماء العرب الذين درّسوا بالجامعات الأوروبية كالشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي تعرفنا عليه في الفصل الثاني من هذه

(5) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث، ص. 68-69.
(6) نفسه، ص. 69.

الدراسة. وشكلت هذه العوامل أهم ما ميز الساحة الثقافية العربية خلال القرن التاسع عشر التي يقول عنها "كراتشكوفسكي": «... يمكن القول إن تاريخ الأدب العربي الحديث مرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخ النفوذ الأوروبي داخل العالم العربي. وميزت هذا التاريخ ظاهرتان اثنتان: الصراع بين الأفكار القديمة والأفكار الحديثة من جهة والمشكلات التقنية التي وضعتها الكتابة الأدبية الجديدة. واتخذ هذا الصراع على الساحة الأدبية أشكالا متباينة وسلك مراحل مختلفة، متأثرا بالتغييرات المتعددة التي كانت تطرأ في مختلف المراحل. ولقد تجلى هذا الصراع في ظهور ثلاثة اتجاهات، هي:

أولاً: الطعن في كل ما هو جديد والسعي إلى البقاء بداخل الدائرة الأدبية القديمة، في محاولة لإعادة إحيائها.

ثانياً: التقليد الأعمى للأفكار والأشكال الأوروبية مع احتقار الماضي العربي برمته.

ثالثاً: محاولة إعادة صبغ الأصول السليمة للأدب العربي في قالب جديد والجمع بين المناهج العلمية العصرية والمنجزات الثقافية في الكتابات الدينية.

ولا زالت هذه الاتجاهات الثلاثة قائمة حتى الآن. غير أن آخرها هو الذي يحظى بمزيد من التأييد...»[7]. ويرى العالم أن الأدب الحديث بدأ يخضع لدراسة علمية عصرية خلال العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. وقامت هذه الحركة على أساس أنه لا يجوز نبذ الأدب القديم كله لتشييد أدب عربي جديد، بل بالعكس من ذلك يتعين الاحتفاظ بجزء كبير منه وإعادة تنظيمه[8].

---

(7) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث، ص. 69. وكذلك ترجمة محمد أمين حسونة، ص. 1627.

(8) نفسه، في الترجمة العربية، ص. 1626.

تطرق "كراتشكوفسكي" بإسهاب في دراساته التي أشرنا إليها إلى مختلف المراحل التي قطعها الأدب العربي الحديث خلال القرن التاسع عشر. وهو يرى أنه من الصعب تقسيمه إلى عصور متميزة واضحة، لأن قيمة الإنتاج الأدبي كانت جد هزيلة إلى حدود 1880. وهذه الفترة، في نظره، هي فترة بحث و"تنوير" أكثر منها فترة إبداع أدبي[9]. أما الانطلاقة الحقيقية فيرجعها إلى العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر. وهي الفترة التي عرفت بروز العديد من الأسماء اللامعة كما عرفت ظهور الصحافة الدورية وتكوين الأسلوب الصحفي وتزايد عدد المهاجرين السوريين في اتجاه مصر. وأخذ هؤلاء يهتمون بالصحافة الدورية على الخصوص، واتسعت هذه الظاهرة تدريجيا حتى انتقلت إلى أيديهم جل المجلات والجرائد مع نهاية القرن التاسع عشر.

واستمر هذا الوضع إلى السنوات الأولى من القرن العشرين. ويعد الشيخ محمد عبده (1843-1905) وجرجي زيدان (1861-1914) من أبرز الشخصيات التي ميزت هذه الفترة، ويرى "كراتشكوفسكي" أنه بالرغم من أن الشيخ محمد عبده لم تكن له مساهمات أدبية تذكر، إلا أن أهميته لا تقل عن أهمية الأدباء الآخرين، ذلك أنه كان وراء استقرار رأي المسلمين على السير في طريق التجديد. وعرفت هذه الفترة كذلك ظهور أنواع أدبية جديدة كالرواية التاريخية[10].

أما مدرسة المهجر الأمريكية بمركزيها الشمالي والجنوبي فقد أولاها كراتشكوفسكي عناية خاصة، ونجده في عدد من أبحاثه يرجع إليها وإلى أهميتها ويقول: «كان أفراد المركز الشمالي في نيويورك الذي كان يتزعمه أمين الريحاني وجبران خليل جبران يعملون في دائرة جمعيتهم الأدبية "الرابطة القلمية" ويكتبون في مجلة "السائح" التي كان يرأس هيئة تحريرها عبد المسيح الحداد. وقد ذاعت في سائر الأقطار العربية شهرة الكثير من ممثلي هذه المدرسة أمثال ميخائيل نعيمة ورشيد أيوب وإيليا

---

(9) نفسه، في الترجمة العربية، ص. 1627.

(10) نفسه، ص. 70، بالروسية.

أبو ماضي ونسيب عريضة... أما المركز الثاني وكان بالبرازيل بأمريكا الجنوبية، فإن إشعاعه بقي محليا ولم يكن له تأثير كبير على سير الأدب في البلاد العربية»[11]، ومن أبرز ممثلي هذا المركز الأدبي يذكر كراتشكوفسكي إلياس فرحات ورشيد سليم خوري وفوزي المعلوف وشكري الخوري... وظلت هذه المدرسة تلعب دورا رياديا إلى غاية نهاية الحرب العالمية الأولى ففقدت أهميتها حين انقطعت الصلة بين جل أفرادها وواقع الحياة في الأقطار العربية التي خضعت لتغييرات كبيرة. ولم يفهم هذا الواقع الجديد إلا قلة منهم، فأدركوا، يقول العالم، أن حياتهم الأدبية لا يمكن أن تستمر إلا بالرجوع إلى الوطن، وهذا ما أقدم عليه بعضهم كأمين الريحاني وميخائيل نعيمة[12]... بعد هذه الفترة عادت الزعامة مرة أخرى إلى مصر وتركز النشاط الأدبي في ما عرف بمدرسة المجددين المصريين التي امتازت، على عكس مدرسة المهجر الأمريكية، باهتمامها الكبير بالأدب العربي القديم وبالدراسات النقدية والبحث في تاريخ الأدب، كما وجهت عناية خاصة إلى ما عرف "بالأقصوصة المصرية". وكان لهذه المدرسة صدى عميق في جل الأقطار العربية[13].

تلك هي أهم المواضيع التي شغلت بال "كراتشكوفسكي" في دراساته لما يمكن تسميته بالفترة الأولى من تاريخ الأدب العربي الحديث والتي امتدت حتى السنوات الأولى من القرن العشرين.

أما الفترة الثانية التي تمتد حتى الحرب العالمية الثانية، فلقد تناولها العالم في العديد من الدراسات العامة، وخصص لها بحثا مستقلا عنوانه: "الأدب العربي في القرن العشرين"[14]، وهذه الدراسة التي نشرت سنة 1946 تعطي صورة مختصرة لأهم تطورات الأدب الحديث خلال النصف

---

(11) نفسه، ص. 70–71، بالروسية.

(12) نفسه.

(13) نفسه.

(14) إ. كراتشكوفسكي، الأدب العربي في القرن العشرين، مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي – موسكو – لينينگراد، 1956، ج 3، ص. 86–106، بالروسية.

الأول من القرن العشرين. بدأ المؤلف بحثه بالتعريف بالموضوع الذي يتناوله خاصة بعد التحولات الكبيرة التي عرفتها الساحة العربية في الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين والاهتمام المتزايد بالأقطار العربية من لدن أوروبا وأمريكا. ويرى "كراتشكوفسكي" أن هذا الاهتمام بدأ مع نهاية القرن التاسع عشر، لما شعر الأوروبيون بأن العرب أخذوا يلعبون من جديد دورا مهما في مجال اقتصاد وثقافة حوض البحر الأبيض المتوسط وفي جهات أخرى من العالم[15]. ويعود العالم في بحثه فيذكر بأهم العوامل التي فسحت المجال إلى ظهور الأدب الحديث خلال القرن والتي أشرنا إلى معظمها فيما قبل، ويركز مرة أخرى على أهمية الصحافة الدورية التي أرغمت الأدباء على البحث عن أساليب أدبية جديدة تفتح الباب لازدهار أنواع أدبية جديدة. وهذا ما حدث بالفعل، فاللغة العربية حسب "كراتشكوفسكي" استطاعت أن تعكس جميع مفاهيم الفكر العصري والثقافات الجديد، وساهمت في نشأة هذا الأسلوب المرن الجديد شخصيات بارزة من عالم الأدب والسياسة أمثال مصطفى كامل (توفي سنة 1908) وقاسم أمين (توفي سنة 1908) وسعد زغلول (توفي عام 1927) وولي الدين يكن (توفي عام 1921)[16]... ورغم وجود العديد من الكتاب الصحفيين والخطباء على الساحة الأدبية فإن الأنواع الأدبية الجديدة كانت لا تزال تبحث عن نفسها، ولم يبلغ منها، يقول العالم، مستوىً رفيعاً سوى نوع الرواية التاريخية بفضل مؤلفات جورجي زيدان الذي نالت كتاباته ومجلته "الهلال" إقبالاً منقطع النظير داخل العالم العربي وخارجه وخاصة عند المسلمين في الاتحاد السوفييتي في شبه جزيرة القرم والقوقاز والمناطق المجاورة للفولگا وآسيا الوسطى[17]. ويمكن اعتبار مؤلفاته فاتحة عهد جديد في تاريخ الأدب العربي الحديث. ويضيف كراتشكوڤسكي أنه مع قرب عشرينات القرن العشرين نال مصطفى

(15) نفسه، ص. 86.
(16) نفسه، ص. 89-90.
(17) نفسه، ص. 90.

المنفلوطي نجاحا كبيرا بفضل كتاباته الموضوعة أو المنقولة بتصرف التي عالج فيها موضوعات متنوعة حول الأدب والنقد والسياسة والمشاكل الاجتماعية... وقد امتازت لغته بجمال أسلوبه وسلامته، وهذا ما جعل بعض النقاد يرون في المنفلوطي مجددا في هذا المجال...[18].

وكان لمدرسة المجددين المصريين الأولى نصيب وافر من اهتمامات العالم "كراتشكوفسكي". وهذا شيء طبيعي إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الدور الريادي البارز الذي لعبته هذه المدرسة في نهضة الأدب العربي الحديث. ويرى العالم أن روادها الأوائل أيقنوا أنه يجب الاعتراف بالتفوق الهائل لما أنجزته الثقافة العصرية، ويجب السعي إلى استغلال هذه المنجزات لخدمة تطور البلاد ونهضة الأدب، كما أنهم أدركوا أن بلوغ هذه الأهداف لن يتأتى إلا بالاعتماد على كل الإرث الأدبي العربي قديمه وحديثه[19]. ولقد كانت لهذه المدرسة، في بعض الأحيان، مواقف شاذة، تجلت في المبدإ الغامض حول "تمصير الأدب" خاصة في مجالي الأقصوصة والمسرح، ويرى العالم أنه ترتب عن هذا المبدإ اقتناء الموضوعات من صميم الحياة المصرية ومحاولة إدخال الكلام الدارج في الأنواع الأدبية الرفيعة... لكن هذه الاتجاهات، حسب "كراتشكوفسكي"، لم تكن تجد صدى في البلدان العربية الأخرى السائرة كذلك في طريق التجديد مثل العراق... وهذه الاتجاهات الشاذة لم تعمر طويلا خاصة بعد اصطدامها مع فكرة توحيد الشرق الإسلامي تحت زعامة مصر، وهي الفكرة التي كانت تدعو لها "الرابطة الشرقية" خلال العشرينيات[20].

وقسم "كراتشكوفسكي" في دراسته حول الأدب العربي في القرن العشرين الكتاب المصريين المجددين إلى مجموعتين: الجامعيون والمحترفون[21]. تتكون المجموعة الأولى من مؤسسي الاتجاه التجديدي

---

(18) نفسه، ص. 90-91.

(19) نفسه، ص. 95.

(20) نفسه، ص. 97.

(21) نفسه.

الذين لم يكن العمل في الحقل الأدبي يمثل سوى جزء من نشاطهم اليومي. فطه حسين مثلا كان عالما وأستاذا بالجامعة، وكذلك الشأن بالنسبة لآخرين... وتتكون المجموعة الثانية من كتاب لم تكن لهم في بداية الأمر صلة بالجامعة، ولقد أسدت مجموعة المحترفين خدمات جليلة للأدب خاصة في مجالي الأقصوصة والمسرحية. وكان يتزعم هذا الاتجاه في العشرينيات الأخوان محمد ومحمود تيمور. وخلفهما في الثلاثينيات توفيق الحكيم. ويرى "كراتشكوفسكي" أن محمد تيمور استطاع رغم قصر عمره (1892-1921) أن يحتل مكانة خاصة في الساحة الأدبية العربية. وقد عرف كمؤرخ للمسرح وكأول ناقد أدبي جاد. وشكلت مسرحياته البداية الصحيحة للمسرح المصري الاجتماعي، كما أنه رسم طريق القصة القصيرة بوضعه عددا من الأقصوصات المأخوذة مواضيعها من صميم الحياة المصرية. ولقد ظهرت تعاليمه بجلاء في مؤلفات أخيه الأصغر محمود الذي بدأ عمله الأدبي حسب "كراتشكوفسكي" متأثرا بمؤلفات الكاتب الفرنسي "موپاسان" والكاتب الروسي "تشيخوف"، ثم استطاع بعد كدٍّ وعمل مستمر أن يرتقي بعمله الإبداعي إلى وضع ما اصطلح على تسميتها "الأقصوصة المصرية" الواقعية التي تصور مختلف شرائح المجتمع المصري من سكان البادية والمدن[22].

ويرى العالم أن سورية التي عرفت نوعا مشابها للأقصوصة مع جبران خليل جبران قد انضمت كلية إلى هذا الاتجاه بعد ترسيخ جذوره في مصر. وفي العراق تألق كاتبان وذاعت شهرتهما خارج وطنهما، ويتعلق الأمر أولا بمحمود أحمد مؤلف قصة "خالد" والمجموعة التي عنوانها "الطلائع"، وثانيا بأنور شاؤول صاحب مجموعة "الحصاد الأول". أما عند العرب في أمريكا فإن ظهور الأقصوصة، حسب "كراتشكوفسكي"، تزامن مع ظهورها في مصر. وقد تكون سبقت عندهم بقليل.

وقد صدرت مؤلفات ممثلي المدرسة الأمريكية بتشجيع وبإيعاز من

---

(22) نفسه، ص. 97-98.

جبران خليل جبران. ولا بد من الإشارة كذلك إلى ما أولاه "كراتشكوفسكي" من أهمية لميخائيل نعيمة الذي ركز في أقصوصاته على التحليل النفسي العميق، متأثرا بذلك بالأدب الروسي في القرن التاسع عشر. ومعلوم أن ميخائيل نعيمة كان على اتصال وثيق بالأدب الروسي. فقد تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بمدارس "الجمعية الفلسطينية" التي كانت تمولها الحكومة الروسية التي كان تعلم اللغة الروسية بها تعليما إجباريا في جميع المؤسسات التابعة لها، ورحل بعد ذلك إلى روسيا حيث التحق بأحد المعاهد العليا بمدينة "پولتاڤا" (Poltava) حيث قضى خمس سنوات في الفترة الممتدة من 1906 إلى 1911. وبعد خمس عشرة سنة على تخرجه من المعهد المذكور كتب باللغة الإنكليزية سيرته الذاتية، وهو يذكر في كتابه هذه المرحلة من حياته ويقول: «لقد كان الأدب أحب المواد إلي، وأنا لا زلت في الناصرة... وسرعان ما انهمكت في الأدب الروسي وكأنما انفتح أمامي عالم جديد مليء بالعجائب. وكنت أطالع بشغف كبير، فلا يكاد يوجد كاتب روسي أو شاعر أو فيلسوف لم أقرأ مؤلفاته مرات متعددة... وعندما غادرت روسيا استرعى نظري ذلك الخمول الأدبي الذي يخيم على كل مكان من عالمنا العربي. فشعرت بالانقباض والاستياء العميق خاصة وأنني تربيت في ظل ورقة فن "پوسكين" ولطافة فن "لييرمونتوف" وأدب "گوگول" المتمثل في "الضحك عبر الدموع" والواقعية الجذابة "لتولستوي" والمثل الأدبية العليا لـ"بيلينسكي"، وأخيرا ترعرعت في أحضان إنسية "دوستوييفسكي"، وهو أقوى وأعمق الكتاب الروسيين وأكثرهم شمولية وتأثيرا. لذا يستطيع المرء أن يفهم ببساطة لماذا كانت محاولاتي الأدبية الأولى باللغة العربية تتميز على الخصوص بطابع نقدي»[23]. ولم يكن ميخائيل نعيمة الكاتب العربي الوحيد الذي تأثر بروسيا وأدبها، فهناك آخرون لن نذكر منهم سوى واحد لأنه يدخل في موضوع حديثنا عن الأقصوصة ويتعلق الأمر بمحمود تيمور

(23) كراتشكوفسكي، تشيخوف في الأدب العربي، في كتاب: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ودراسات أخرى، ترجمة عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، 1989، ص. 58.

الذي تأثر كثيرا بالقصة القصيرة الروسية عموما ومؤلفات "تشيخوف" خصوصا التي يقول عنها: «تمتاز القصة القصيرة الروسية بصدقها وبساطتها، وكأنما هي جزء من روح المؤلف ومن ملاحظاته التي يرويها دون جهد ولا تصنع. فحينما يقرأ المرء إحداها لا يجد فيها مضمونا مصطنعا، وإنما يقرأ صفحات بسيطة من الحياة العادية، لكنه يكتشف وراء هذه البساطة الظاهرية صفحات أخرى كلها مآس حقيقية. إننا نؤمن بأن قوة القصة لا تبنى على تلك الأحداث المثيرة ظاهريا أو على الشهوات الفظة التي يحاول الكاتب الضعيف إثارتها لإخفاء ضعفه، بل تبنى على صدقها واستقامتها وعلى تعبيرها في شكل أدبي رفيع...»[24].

وإذا كانت الأقصوصة، حسب كراتشكوفسكي، قد أخذت طريقها الصحيح وحققت نجاحا كبيرا، فإن القصة لم تصل بعد إلى المكانة المرجوة لها حين كتب العالم أهم بحوثه حول الأدب العربي الحديث التي أشرنا إلى جلها في هذه الدراسة. ويرى كراتشكوفسكي أنه بعد بداية جيدة تمثلت في رواية "زينب" لم يكن للقراء العرب موعد مع رواية أخرى من نفس المستوى إلا عام 1927 حين صدر الجزء الأول من ثلاثية طه حسين "الأيام". ويعتبر العالم أن العقد الثالث من القرن العشرين عرف ظهور شخصية من ألمع وجوه الأدب العربي الحديث ويتعلق الأمر بتوفيق الحكيم. ويعتقد "كراتشكوفسكي" أن الطريق الأدبي الذي سار عليه توفيق الحكيم كان معقداً في تطوره، فقد اتجه في بدايته إلى كتابة مؤلفات ذات نكهة رمزية وانطباعية أخذت مواضيعها من صميم الماضي العربي، إنها مثلا روايات "أصحاب الكهف" (1933) و"شهرزاد" (1934). وكان توفيق الحكيم يبحث في نفس الوقت، عن أسلوب واقعي في روايته الطويلة "عودة الروح" التي صور فيها الأحداث الأولى المرتبطة بالحركة الوطنية أيام سعد زغلول داخل لوحة شاملة للحياة المصرية خلال العقدين الأول والثاني من القرن العشرين. ويمثل هذا المؤلف، حسب

---

(24) نفسه، ص. 61.

"كراتشكوفسكي"، أروع ما أنتجه الأدب العربي في الثلاثينيات. غير أنه يرى أن مؤلفات توفيق الحكيم الأخرى لا تقل أهمية لا من حيث اختيار موضوعاتها ولا من حيث أسلوب كتابتها، ويذكر منها على الخصوص "يوميات نائب من الأرياف" (1937) و"عصفور من الشرق" (1938) وغيرها من المؤلفات الروائية والمسرحية...[25] ويضيف "كراتشكوفسكي" وهو يتحدث عن شخصية توفيق الحكيم المتميزة: «... لم يكتف توفيق الحكيم بتعميق وتوسيع مجال القصة والمسرحية فحسب، بل انهمك في البحث عن أنواع أدبية جديدة ووسائل أخرى للتعبير عن أشكال جديدة في الأسلوب. إنه ينتمي إلى تلك الطبقة من المثقفين العرب مزدوجي اللغة الذين تكاثرت أعدادهم، فبعدما قضى سنوات كثيرة في فرنسا قصد التعليم صار من أحسن العارفين بكل دقائق الأدب الفرنسي المعاصر، وهو يؤلف أحيانا باللغة الفرنسية، وميدان أبحاثه واسع للغاية... والظاهر أنه حتى الآن (1946) لم يصل بعد إلى مبتغاه. ورغم كل هذا فإن ما حققه يعتبر إنجازا مهما للغاية. ولقد دخلت مؤلفاته الساحة الأدبية العربية من بابها الواسع. وسوف يحتفظ الأدب العربي إلى الأبد باسمه وبجل مؤلفاته التي ستكون لبعضها مكانة مشرفة في ذخيرة الآداب العالمية العصرية...»[26]. ويرى "كراتشكوفسكي" في جميع الدراسات التي كرسها لتاريخ الأدب العربي الحديث – رغم قلة الأمثلة التي يوردها – أن الرواية العربية سوف تعرف، عما قريب، ازدهارا وسوف تحتل المكانة الرفيعة التي تستحقها وسط الأنواع الأدبية الأخرى.

وأخذت المسرحية حيزاً مهماً من اهتمامات "كراتشكوفسكي" في مختلف أبحاثه. وإذا كان العالم يتناول هذا الموضوع بالدرس في سياق حديثه عن تاريخ الأدب الحديث عامة، فإنه خصه بفصل كامل في مقالته "الأدب العربي الحديث" التي أشرنا إليها. وقسم "كراتشكوفسكي" تاريخ

(25) كراتشكوفسكي، الأدب العربي في القرن العشرين...، ص. 98–99.
(26) نفسه.

المسرح العربي إلى مرحلتين، تمتد الأولى إلى حدود 1920، وتبتدئ الثانية بعد هذا التاريخ.

وقد أولى هذا العالم اهتماماً خاصاً لمسألة شائكة طالما عرفت نقاشاً حاداً منذ نشوء الأدب الحديث، ويتعلق الأمر بمسألة لغة الحوار في التأليف عموما والمسرحي خصوصا، ويرى أن توفيق الحكيم ربما وجد حلا لهذه المشكلة، ويقول بهذا الصدد: «ويستدل من الاتجاه السائد أن مكانة اللغة العربية الفصحى في الكتابات الأدبية لا زالت راسخة، غير أن بعض المحاولات كتلك التي قام بها محمد عثمان جلال أو محمد تيمور تظهر بأن المسألة تعرف مقاربات متقلبة، وهناك الكثير من الكتابات النظرية التي تقول بضرورة إدخال اللهجة العامية إلى الأدب المكتوب. وقد قوبلت مواقف مارون غصن في سورية بجدال حاد، ويبرز كل هذا مدى آنية وحيوية المسألة ومدى صعوبة إيجاد حلول ملائمة لها. ومن الملاحظ أن محمود تيمور الذي كان يدخل الكلام الدارج في الطبعات الأولى من قصصه عاد ليستعمل اللغة الفصيحة في الطبعات الأخيرة، وذلك على الرغم من أنه يعترف نظريا بأن "للغة المصرية العربية مكانة في المستقبل". ونجد توفيق الحكيم في مؤلفاته قد وجد حلا وسطا: فالعامية خاصة بالحوار، أما الفصحى فهي للوصف أو لتدوين ملاحظات الكاتب. ولقد أظهرت التجربة على أن هذا الحل الوسط قد يكون أحسن الحلول لهذه المسألة...»[27].

2- الشعر الحديث:

إن الشعر يحتل عند العرب مكانة خاصة، فبه انطلق الأدب المدون، ولم يكن عندهم يمثل في الماضي نوعاً من الأنواع الأدبية، بل كان هو الأدب نفسه لا ينازعه في هذه المكانة شكل من الأشكال الأدبية الأخرى حين ظهرت. وكان العرب يشعرون، منذ العصور الغابرة بأن العمل الأدبي

---

(27) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث، ص. 77.

الرفيع لا يكتمل إلا إذا جمع بين سمو الفكر والعاطفة وجمال الوصف ورونق اللغة كلمة وتعبيراً وخيالاً، فالتجؤوا إلى الشعر الذي شكل مجالا رحبا لذوي الموهبة ليبدعوا فيه. وظل الشعر يحتل هذه المكانة الرفيعة طيلة قرون. فكان من الطبيعي أن يوليه "كراتشكوفسكي" عناية خاصة، فتناوله بالدرس في مختلف العصور التي يخضع لها ترتيب الأدب العربي. وقد سبق في هذه الدراسة أن توقفنا عند بعض مؤلفاته حول الشعر القديم، وخاصة منها أبو الفرج الوأواء الدمشقي، "مواد لوصف مؤلفاته الشعرية" و"كتاب الأدب" و"كتاب البديع" لعبد الله بن المعتز وغيرها من المؤلفات. ولم يفته بالطبع الاهتمام بموضوع الشعر الحديث في مختلف دراساته التي أشرنا إلى بعضها. كما أنه خص بعض شعراء القرن العشرين بمقالات مستقلة نذكر من بينها على الخصوص: "الزهاوي" (1938) و"ديوان محمد مهدي الجواهري" (1950).... يقول "كراتشكوفسكي" عن انتشار الشعر في الأوساط العربية: «ما زال الشعر، كما كان في الأدب القديم، أكثر الأنواع الأدبية انتشاراً وأكثرها محافظة. ففي جميع الأقطار العربية نجد أعداداً لا تحصى من الشعراء. لكن تاريخ الشعر في القرنين التاسع عشر والعشرين ما هو، في واقع الأمر، سوى تاريخ تجديد الشعر القديم في ظروف تميزها التغييرات السريعة...»[28] وسبق أن أشرنا إلى ما يقصد العالم بمصطلح "الأدب الحديث"، وقلنا إنه ليس المقصود به كل ما ألف خلال عصر النهضة، لأن عددا كبيراً من المنظومات الشعرية لا تختلف البتة عن الشعر القديم لا من حيث محتواها ولا من حيث شكلها... ويرى "كراتشكوفسكي" أن أهم حدث طرأ على الساحة الشعرية يتجلى في الانتقال من تقليد شعر الانحطاط بتشطيراته وتخميساته إلى تقليد إبداعات المتنبي وأبي العلاء المعري أولا، ثم شعر العصر العباسي والعصر الجاهلي فيما بعد...[29] ويعتبر العالم أن هذا الحدث يمثل تقدماً ملموساً في صناعة الشعر الحديث الذي ظهرت بوادره

(28) نفسه، ص. 72.

(29) نفسه.

في سورية قبل أي مكان آخر مع ناصيف اليازجي[30] (1800-1871) وخاصة مع فرانسيس مراش[31] (1836-1873) وهو شاعر حلبي حاول التعبير عن أفكاره الفلسفية والاجتماعية في قصائده المفعمة بروح التشاؤم.

أما في مصر فإن حركة التجديد في مجال الشعر جاءت متأخرة شيئا ما، وبدأت مع كل من محمود سامي البارودي[32] (1839-1904) وإسماعيل صبري[33] (1854-1923). «ولقد أثبتت قصائد هؤلاء الشعراء، يقول "كراتشكوفسكي"، بأن اللغة العربية المعاصرة لها من القوة والرونق ما يجعلها تستطيع تقليد نماذج الشعر القديم بمهارة عالية. ويرجع الفضل للسوريين واللبنانيين في صقل الشعر العربي وجعله يعبر عن المشاعر الإنسانية برقة متناهية وكذلك في إغناء القافية والوزن وإعطائهما أشكالا متنوعة جديدة...»[34] ورغم كل هذا التقدم فإن العالم يعتقد بأن الشعر العربي لم يعرف مع حلول القرن العشرين كثيرا من الأشكال الجديدة، ذلك أن الشعر الغنائي ظل مسيطرا، كما أن موضوعاته بقيت جد محدودة. غير أن عددا من المواهب المتفرقة برزت في كل مكان من العالم العربي. وقد يكون العراق أظهر في هذا المجال أصالة أكثر من مصر[35].

ويرى العالم في معرض حديثه عن الشعر في مصر أن الساحة الأدبية بهذا البلد تميزت بسيطرة شبه تامة لشاعرين اثنين هما أحمد شوقي (1868-1932) وحافظ إبراهيم (1871-1932).

---

(30) انظر حوله: يوسف أسعد داغر...، ص. 752.
(31) انظر حوله: نفس المرجع أعلاه، ص. 693.
(32) نفسه، ص. 159.
(33) نفسه، ص. 534.
(34) كراتشكوفسكي، الأدب العربي في القرن العشرين...، ص. 99.
(35) نفسه.

غير أننا نشعر بأن "كراتشكوفسكي" يكن لحافظ إبراهيم، في مختلف أبحاثه، عطفا خاصا، فهو من أبناء الشعب، عاش يتيما وعرف الفقر والبؤس، وتعلم في أحضان مدرسة الحياة القاسية، لذا فإنه كان قريبا من هموم الشعب. وقد كانت الفترة الطويلة التي قضاها في السودان في ممارسة الخدمة العسكرية بمثابة مرحلة استكمل فيها تجاربه المتعددة. ويعتبر "كراتشكوفسكي" أن بعضا من مؤلفات حافظ إبراهيم تمثل في الواقع مادة غنية لكتابة التاريخ المصري الحديث إلى حدود بداية العقد الثالث من القرن العشرين.

لقد ركز "كراتشكوفسكي" في جل دراساته حول الأدب العربي الحديث على أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، لكنه لم يهمل الشعراء المصريين الآخرين، بل كان يشير من حين لآخر إلى عدد منهم وخاصة إلى ممثلي الجيل الجديد أمثال عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني وأحمد محرم وأحمد رامي ومصطفى صادق الرافعي وأحمد نسيم وغيرهم...

ولا يخفي "كراتشكوفسكي" في مختلف دراساته إعجابه الكبير بالشعراء العراقيين وبأصالتهم. وهو يرى أن العراق قد يستطيع التفوق على مصر في مجال الشعر خلال القرن العشرين. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن العالم قد تنبأ إلى ما آل إليه الشعر في العراق، ذلك أن آراءه هذه يرجع عهدها إلى الثلاثينيات والأربعينيات.

ورغم أن النهضة الأدبية نشأت في مصر وسورية قبل ظهورها في العراق فإن هذا البلد وهب الوطن العربي شخصيتين يمكن اعتبارهما، حسب كراتشكوفسكي، من أكبر شعراء العرب في النصف الأول من هذا القرن. ويتعلق الأمر بجميل صدقي الزهاوي[36] (1863-1936) ومعروف الرصافي[37] (1873-1945) اللذين ذاعت شهرتهما خارج حدود العراق،

(36) انظر حوله: يوسف أسعد ذراغر...، ص. 429.

(37) انظر حوله: نفس المرجع أعلاه، ص. 388.

إن الزهاوي يمثل، حسب "كراتشكوفسكي"، أنموذج الشاعر المتحرر من جميع القيود والمشبع إلى أبعد حد بالأفكار الفلسفية المتشائمة. وكان يطلق لنفسه الحرية التامة في التعامل مع القافية، ولا يخشى اتباع أوزان وقوافي جديدة، بل يذهب أبعد من ذلك فينظم الشعر المرسل. وجدير بالذكر أن "كراتشكوفسكي" لم يكتف بالإشارة إلى الزهاوي في مختلف دراساته العامة حول الشعر العربي الحديث، بل خصه كذلك بمقالة مستقلة صدرت سنة 1938[38].

ويرى "كراتشكوفسكي" أن معروف الرصافي الذي كان ميالاً إلى الاحتفاظ بالأشكال القديمة كان يمتاز بموهبة الشاعر الحقيقي وبأنه يصل إلى أعلى درجات الكمال الغنائي والوصفي أو السياسي والاجتماعي[39]. وهو من حيث التجديد في المحتوى يقف في نفس مرتبة الزهاوي. ولم يفت "كراتشكوفسكي" في مختلف أبحاثه حول الشعر العربي الحديث التوقف عند ما عاناه بعض الكتاب والشعراء أمثال الزهاوي والرصافي في حياتهم من اضطهاد بسبب جرأتهم الفلسفية وحرية فكرهم، وهو الشيء الذي أدى إلى اتهامهم بالزندقة في بعض الأحيان، وهذا ما جعله يرى أن جل البلدان العربية تنعدم فيها السماحة وحرية الرأي والفكر ويقول بهذا الصدد: «إن ما عاناه الزهاوي والرصافي في حياتهما من اضطهاد ليصلح لوصف الحالة الاجتماعية الحالية في الأقطار العربية...»[40].

سبق أن أشرنا إلى ما يبديه "كراتشكوفسكي" من إعجاب كبير بالشعراء العراقيين، وهو يعتبر أن ما حققه الشعر في العراق يفوق كل ما تحقق في باقي الوطن العربي كله، يقول في هذا الباب: «يشكل شعر الزهاوي والرصافي الدليل القاطع على أن الشعر العربي لم يستنفد بعد

(38) كراتشكوفسكي، الزهاوي، في كتاب: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ودراسات أخرى، ترجمة عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، الرباط، 1989، ص. 74-78.

(39) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث، ص. 73.

(40) كراتشكوفسكي، الأدب العربي في القرن العشرين، ص. 102.

جميع قواه، بل إنه يستطيع أن يحقق في المستقبل القريب نفس المنجزات التي وصل إليها النثر. وإن هذين الشاعرين العراقيين، اللذين اعترضهما في حياتهما كثير من الصعوبات يقفان شامخين في الساحة الشعرية الأدبية في القرن العشرين، وهما لا يقلان أهمية عن أميري الشعر المصريين، وقد يكونان أعلى منهما مرتبة...»[41].

عاد "كراتشكوفسكي" مرة أخرى للحديث عن الشعر في العراق في مقالته: "ديوان محمد مهدي الجواهري"[42] التي صدرت سنة 1950. فكانت بذلك إحدى كتاباته الأخيرة قبل وفاته عام 1951. ولم تكن هذه المقالة هي الأولى التي تناول فيها موضوع شعر محمد مهدي الجواهري، فلقد صدرت له قبل ذلك بسبع سنوات، أي سنة 1943، خلال اشتداد معارك الحرب العالمية الثانية، مقالة صغيرة عنوانها "ردود الفعل حول الدفاع عن مدينة سيباستوبل في الشعر العربي"[43] أورد فيها خبر نشر قصيدة "سوستوبل" للشاعر العراقي الكبير الجواهري على صفحات بعض الجرائد والمجلات العربية.

أما مقالة "ديوان محمد مهدي الجواهري" فإن كاتبها أراد بالطبع من خلالها تعريف القارئ الروسي بهذا الشاعر وبمؤلفاته، فقام بوصف وجيز لجل القصائد التي جاءت في الديوان. ويمكن حصر آراء "كراتشكوفسكي" التي وردت في هذه المقالة في أربع نقط، هي:

- الجواهري وكفاح الشعب السوفييتي ضد النازية:

اهتم الشاعر كثيراً بسير العمليات العسكرية داخل الاتحاد السوفييتي وكتب قصيدتين حول هذا الموضوع. فكان من الطبيعي أن

(41) نفسه.

(42) كراتشكوفسكي، ديوان محمد مهدي الجواهري، في كتاب: كراتشكوفسكي، الرواية التاريخية...، الترجمة العربية، ص. 66-71.

(43) كراتشكوفسكي، ردود الفعل حول الدفاع عن مدينة "سيباستوبل" في الشعر العربي، مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي، دار النشر لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفييتي، موسكو - لينينگراد، 1956، ج 3، ص. 365-366 (بالروسية).

ينتبه "كراتشكوفسكي" إلى هذه الأشعار وإلى صاحبها، يقول العالم بهذا الصدد: «أما بالنسبة لنا (السوفييتيين) فإن الجواهري بدأ يستلفت انتباهنا بمناسبة ردود فعله على كفاح الشعب السوفييتي ضد الغزو الفاشي، ويعتبر شعره، من خلال مواقفه هذه، ظاهرة نادرة ولو أنها ليست بالفريدة في الشعر العربي المعاصر... أما قصيدته "سوستوبل" المكرسة للجنود الأبطال الذين دافعوا عن هذه المدينة، فإنها تكتسي أهمية بالغة بالنسبة لنا، غير أننا لا نجد في الديوان القصيدة الطويلة "ستالينگراد" التي تتألف من 95 بيتا والتي نشرت سنة 1943 على صفحات الجرائد العراقية...»[44].

- **الجواهري ومعروف الرصافي:**

يرى "كراتشكوفسكي" أن شعر الجواهري امتداد لبعض أعمال الرصافي، ويقول: «نجد في الصفحة 23 صورة للرسالة التي بعثها الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي إلى الجواهري. وهذا ليس من باب الصدفة، إذ يمكن اعتبار مؤلفات الجواهري استمراراً لبعض الخطوط العريضة لأعمال الرصافي الذي غالبا ما انتبه إلى هذه الظاهرة...»[45].

- **الجواهري وأبرز الأحداث السياسية والاجتماعية والثقافية:**

لاحظ "كراتشكوفسكي" أن شعر الجواهري يمكن اعتباره مرجعا لتاريخ العراق الحديث ومرآة تعكس بوضوح مشاعر الشاعر والعرب أجمعين تجاه العديد من القضايا، يقول بهذا الصدد: «... يمكن اعتبار القصائد المكرسة للعراق مدونة شعرية للتاريخ الحديث لهذا البلد... وفي سلسلة كاملة من الأشعار ذات الطابع العام نجد الجواهري يتحدث عن عقلية الشعب العراقي والشعوب العربية الأخرى، فبمناسبة قرب انتهاء الحرب يثير الشاعر، سنة 1944، الانتباه إلى ضرورة التأهب والاستعداد

---

(44) كراتشكوفسكي، ديوان محمد مهدي الجواهري، ص. 66-67.
(45) نفسه، ص. 67.

لمرحلة جديدة، فيطغى السخط والغضب في قصيدته "أمم تجد ونلعب" (...). وتوجد في الديوان مجموعة مهمة من الأشعار الخاصة بردود فعل الشاعر على مختلف الأحداث الثقافية في البلدان العربية وبالحفلات التذكارية التي كان يتجاوب معها بحضوره الفعلي فيها، فنجده يعبر عن المشاعر التي تخالج نفوس جميع العرب بمناسبة وفاة الشاعر المصري الكبير حافظ إبراهيم، وينظم سنة 1948 "تحية الجيوش العربية في فلسطين" التي تعكس مشاعر العرب في مختلف البلدان»[46].

- من مميزات شعر الجواهري خاصة والشعر العربي عامة:

من الملاحظات التي أبداها "كراتشكوفسكي" حول الديوان ما أسماه بالتناقض الحاصل بين شكل الشعر ومضمونه، وعن هذه الظاهرة يقول: «تكمن الأهمية الكبرى للديوان (...) في كونه يفسح لنا المجال لفهم أحد اتجاهات الشعر العربي المعاصر المتمثل في التناقض الحاصل بين الشكل والمضمون. إن القصائد كلها منظومة باللغة العربية الفصحى الصارمة مع احترام جميع قواعد الشعر القديم التي يتقنها الشاعر على وجه الكمال، كما يتقن عن آخرها جميع الاستعارات والصور الفنية للقرون الوسطى. ويتوجه أسلوب الجواهري الصعب إلى ذوي الثقافة العالية من القراء. فهو محشو بالصور والتلميحات والإبهامات التي نجد للبعض منها إيضاحات في الحواشي. واللغة المستعملة فصيحة في معناها الغريب إلى درجة أنه لولا حداثة الموضوعات والأسماء والأحداث لكان بالإمكان اعتبارها نتاجا لعصور القرون الوسطى... ويشكل التناقض الحاصل بين حداثة المضمون وغرابة الشكل إحدى مميزات الشعر العربي المعاصر»[47].

---

(46) نفسه، مختلف الصفحات.
(47) نفسه، ص. 70.

ويختم "كراتشكوفسكي" مقالته بالثناء على الديوان ويوصي بترجمته إلى اللغة الروسية مع شروح وتعليقات ملائمة، «خاصة وأنه يعد في الوقت الراهن مرجعا ذا أهمية بالغة في مجالي الشعر والتاريخ المعاصرين»[48].

ولم يتناول "كراتشكوفسكي" بالدرس موضوع الشعر العربي الحديث في باقي الأقطار العربية، خارج مصر والعراق. واكتفى بالإشارة إلى بعض الحالات المتفرقة في مختلف دراساته التي كرسها لهذا الموضوع. حقا إنه كتب عددا من المقالات التي خصصها للحديث عن بعض أركان النهضة الأدبية الحديثة في سورية ولبنان أمثال سليمان البستاني[49] وناصيف اليازجي[50] وغيرهما. غير أن هذه الأسماء تمثل المرحلة الأولى للنهضة الأدبية. أما ممثلو المرحلة الثانية الممتدة بين الحربين العالميتين فلا نجد لهم سوى بعض الإشارات العامة في الأبحاث التي أشرنا إلي جلها. ويبرر العالم هذا الإهمال بكون الشعر، في سائر الأقطار العربية ما عدا مصر والعراق، لا تتعدى أهميته الحدود المحلية، رغم وفرته[51]. وهكذا فإنه يكتفي في إحدى مقالاته[52] بسرد لائحة من شعراء سورية أمثال سليم عنحوري وعيسى اسكندر المعلوف وشفيق جبري وخليل مردم وحليم دموس وأحمد عبيد ومحمد البزم ومحمد الشريقي وسليمان الأحمد المعروف ببدوي الجبل... وتأتي هذه اللائحة مجردة دون الإشارة إلى مؤلفاتهم ولا إلى مميزات شعرهم. أما الأقطار العربية الأخرى، فلا يذكر "كراتشكوفسكي" منها إلا الشاعر التونسي محمد الشاذلي خازندار. وقد

---

(48) نفسه.

(49) كراتشكوفسكي، سليمان البستاني، في كتاب: على شرف الاكاديمي "باگاليا"، كييف، 1927، ص. 140-151.

Yubileniy sbornik Akademik Bagali, Kiyev, 1927.

(50) I. Kratchkovskiy, Al-Yazidji. Encyclopédie de l'Islam, XV, 1934, p. 1267-1268.

(51) كراتشكوفسكي، في الأدب العربي الحديث، ص. 73.

(52) نفسه.

يستغرب المرء هنا إهماله أحد أقطاب المجددين في الشعر الحديث وهو أبو القاسم الشابي. غير أنه يجب الاعتراف بأن "كراتشكوفسكي" لا يدعي الإحاطة بالموضوع ولا ينكر وجود عدد كبير من الشعراء المرموقين في سائر الأقطار العربية، والمشكل المطروح هو مشكل إعلامي صرف. فمؤلفات جل هؤلاء الشعراء، لم تكن تطبع حين كتابتها، وإذا حدث وطبعت فإنها غالبا ما كانت تنشر على صفحات دوريات جهوية لا يتعدى انتشارها حدود البلد العربي الواحد. وإذا كانت أطراف من الوطن العربي تجهل أدب الأطراف الأخرى، فما عسانا أن نقول عن الأجانب إن هم، في دراساتهم، أهملوا بعض كتابنا وشعرائنا؟ وإن هذا المشكل الذي تضرر منه كثير من الكتابات في الماضي، ما زال، في نظرنا، قائما حتى الآن. وخير دليل على هذه الحالة أن الإبداعات المغاربية المطبوعة محلياً نادراً ما تجد منفذاً إلى خارج حدود القطر الواحد في داخل المجموعة المغاربية، وتكاد تكون مجهولة في الشرق العربي... وتختلف الصورة تماماً عندما يتعلق الأمر بكتاب وشعراء المهجر في أمريكا. فلقد ذاعت شهرتهم، لا بفضل مستواهم الأدبي الرفيع فحسب، بل كذلك بفضل مجلاتهم التي كانوا ينشرون فيها أعمالهم والتي كانت تصل إلى جل أقطار المعمور. وفي معرض حديثه عن شعر المهجر، فإن كراتشكوفسكي يكتفي، بصفة عامة، بالإشارة إلى بعض الشعراء أمثال رشيد أيوب[53] (1871–1941) وإليا أبو ماضي في الولايات المتحدة الأمريكية، ورشيد سليم خوري (ولد عام 1887) وإلياس فرحات (ولد عام 1891) وفوزي المعلوف[54] (1899–1930).

تعرفنا من خلال هذه الصفحات على نظرة "كراتشكوفسكي" إلى الشعر العربي الحديث وعلى تقييمه له. ويمكن تلخيص آرائه حول هذا الموضوع بخاتمة إحدى دراساته التي كتبها سنة 1935 والتي يقول فيها:

---

(53) انظر حوله: يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة...، ص. 153.

(54) انظر حوله: يوسف أسعد داغر، ص. 720.

«إن الشعر الغنائي العربي الحديث غالبا ما يكشف عن تنوع كبير في مقاصده ونضج فائق في فنيته وأناقة عالية في تقنياته، لكن الساحة الشعرية العربية لا زالت في حاجة ماسة إلى المزيد من الأشكال المتينة التي يجب ابتكارها...»[55]. ولعل هذه الأشكال الجديدة هي التي ظهرت للوجود بعد الحرب العالمية الثانية وغيرت وجه الساحة الشعرية العربية، غير أن "كراتشكوفسكي" لم يكتب له أن يتعرف إلا على بعض بوادرها.

3- كراتشكوفسكي ودور الصحافة في ازدهار الفنون الأدبية:

أشرنا غير ما مرة إلى العناية الفائقة التي كان "كراتشكوفسكي" يوليها للصحافة العربية عامة والدوريات الأدبية خاصة. والواقع أن العالم تطرق بإسهاب لهذا الموضوع في مختلف كتاباته، كما خصه بعدد من المقالات التي كتبها في فترات متفرقة من حياته، وأهمها: "مجلة المشرق خلال سنة 1911"[56] و"الصحافة العربية بمصر"[57] و"مجلة المشرق خلال سنة 1912"[58] و"الشيخ أبو نظارة، مؤسس الصحافة الساخرة في مصر"[59] و"المجلة البيروتية "الطريق" خلال عام 1942"[60]. ويعتبر "كراتشكوفسكي" أنه إذا كانت بداية النهضة الأدبية الحديثة قد ارتبطت بإدخال الطباعة إلى العالم العربي، فإن انتشار الآداب والفنون اقترن بازدهار الصحافة الدورية. فلهذا النوع من الصحافة أهمية قصوى، ويمكن اعتباره بمثابة مدرسة في غاية الأهمية كثيرا ما أسهمت في تكوين القراء والكتّاب

---

(55) كراتشكوفسكي، الادب العربي الحديث، ص. 73.

(56) نشرت على صفحات مجلة "عالم الإسلام" (Mir Islama) في العدد الاول لسنة 1912. ص، 243-247 (بالروسية).

(57) نشرت على صفحات مجلة "عالم الإسلام" (Mir Islama) في العدد الاول لسنة 1912. ص. 492-509 (بالروسية).

(58) نشرت على صفحات مجلة "الشرق المسيحي"، العدد الثاني، 1913، 1914، ص. 156-160، (بالروسية).

(59) نشرت على صفحات مجلة "الشرق"، العدد 4، 1924، ص. 165-168، (بالروسية).

(60) انظر: أكاديمية العلوم، مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي...، ج 3، ص. 352-364، (بالروسية).

على السواء. وقد ساعدت مختلف المقالات الصحافية على بروز أساليب كثيرة وابتكار العديد من الأنواع الأدبية كما شكلت الصحافة مجالاً خصباً لازدهار البحث النقدي ودراسة تاريخ الأدب.

وبخصوص تأريخ الحركة الصحافية الأدبية ومختلف المراحل التي قطعتها، فإن "كراتشكوفسكي" يرى أنه يمكن ربط انطلاق الصحافة الدورية مع نشاط بطرس البستاني الذي ساهم كثيراً في تكوين نوع جديد من الكتاب والصحافيين من خلال العديد من المجلات التي كان يصدرها. وكان للهجرة إلى أوروبا نصيبها في تطوير الصحافة الدورية التي تكوّن في أحضانها عدد من الأدباء الكبار أمثال أحمد فارس الشدياق ورزق الله حسون (1825-1880)[61] ورشيد الدحداح[62] (1813-1889)...

وتجدر الإشارة إلى أن "كراتشكوفسكي" كان، من خلال مقالاته يحث الباحثين في شؤون الأدب العربي إلى إعطاء أهمية خاصة لدراسة تطور الصحافة الدورية وإلى الاعتماد عليها في أبحاثهم، ويقول في إحدى دراساته، وكأنما يريد إيجاد مبرر للأهمية الكبيرة التي يوليها لهذا الموضوع: «هناك ملاحظة مفيدة للغاية جديرة بأن تذكر هنا، وهي أن جل مؤلفات عدد كبير من أبرز الكتاب ماهي، في واقع الأمر، إلا مقالات سبق أن نشرت في المجلات والجرائد وجمعت فيما بعد. وهذا دليل قاطع على الحيوية التي يتمتع بها هذا النوع الأدبي وبرهان على مدى تأثير الصحافة الدورية في الأدب الحديث»[63].

4- الأدب النسائي العربي:

إن التغييرات الجوهرية التي شملت جميع مرافق الحياة العربية جاءت نتيجة لعدد من الظروف الخاصة التي مرت بها المجتمعات العربية خلال

---

(61) انظر حوله: يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة، ص. 315. وهو كذلك معروف كمترجم للأدب الروسي. وسنعود إليه في هذا المبحث من دراستنا.

(62) انظر حوله: يوسف أسعد داغر، مصادر الدراسة...، ص، 361.

(63) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث...، ص. 97، (بالروسية).

القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وما النهضة الأدبية العربية إلا مظهر واحد من مظاهر هذه التغيرات التي مست حياة المدن والقرى والقبائل والأسر والرجال والنساء. لذا وجب على الباحث في تاريخ المجتمعات أو في تطور جانب أو عدة جوانب من نشاط هذه المجتمعات الاعتناء بكل مكوناتها وإبراز دورها كاملا في سير الحياة وعملية التطور.

لقد تبين مما سلف، أن "كراتشكوفسكي" تناول بالبحث الأدب الحديث من عدة جوانب، وحاول أن تتخذ أبحاثه طابعاً شمولياً. ولم يفته، بالطبع، وهو يسعى إلى بلوغ هذا الهدف، أن يأخذ بعين الاعتبار عنصرا أساسيا في النهضة الحديثة، ويتعلق الأمر بالعنصر النسائي الذي أولاه العالم أهمية كبيرة في جميع الدراسات التي أنجزها، كما كرس له بعض المقالات المستقلة[64]. ولم يكتف بالتطرق إلى موضوع الإبداع الأدبي عند النساء، بل ذهب أبعد من ذلك فاهتم بالحركة النسائية وحرية المرأة وكذلك بالأدباء من الرجال الذين دافعوا عن هذه القضايا، فلقد ترجم عام 1912 كتاب قاسم أمين "المرأة الجديدة"[65] إلى اللغة الروسية وكتب لهذه الترجمة مقدمة تناول فيها بالدرس موضوع الحركة النسائية العربية ونشاط قاسم أمين في هذا المجال. وفي سنة 1917 جمع "كراتشكوفسكي" بعض مؤلفات قاسم أمين وترجمها إلى اللغة الروسية وعنونها "مختارات قاسم أمين"، وأضاف إليها عددا من التعليقات. وكتب لها مقدمة كذلك[66].

ونال موضوع الصحافة النسائية هو الآخر حظاً وافراً من اهتمامات "كراتشكوفسكي" خاصة في المقدمة التي كتبها لترجمته الروسية لكتاب

---

(64) انظر على سبيل المثال مقالته "مي"، في منتخبات الأكاديمي كراتشكوفسكي، ج 2، ص. 244-246.

(65) نشرت هذه الترجمة عام 1912، انشر الجزء الثالث من منتخباته، ص. 123-136.

(66) نشرت هذه المقدمة باللغة العربية على صفحات مجلة "مينرفا" البيروتية في عدد سنة 1928، ص. 55-88. كما أدرجت كمقالة افتتاحية لكتاب أمين الريحاني "التطرف والإصلاح"، دار النشر صادر، بيروت، 1930.

قاسم أمين "المرأة الجديدة"[67]. ويرى العالم أن نشاط الحركة النسائية في الدفاع عن حقوق المرأة ارتبط بظهور الصحافة النسائية التي كانت تطبع في بداياتها في مصر، وغالبا ما كانت تشرف عليها عربيات من أصل سوري. وكانت مجلة "الفتاة" التي أسستها هند نوفل في القاهرة سنة 1892 أولى هذه الدوريات التي بلغ عددها إلى حدود 1908 ثلاث عشرة مجلة، وتقلص عددها في الثلاثينيات من القرن العشرين إلى اثنتين فقط هما "أنيس الجليس" و"فتاة الشرق". وقد بدأت تصدر الأولى التي كانت تشرف عليها ألكساندرا أفيرينو عام 1898، بينما كانت لبيبة هاشم رئيسة تحرير المجلة الثانية التي صدر عددها الأول سنة 1906. ومنذ 1908 بدأت بلاد الشام تعرف مجلاتها النسائية كذلك، وطبعت أولاها وهي "الحسناء" في بيروت سنة 1909 وكان يرأس تحريرها جرجي نقولا باز الذي استطاع أن يجمع حوله ألمع الكاتبات السوريات آنذاك. فبإزاء عميدة الأدب الحديث وردة اليازجي كانت تشارك في نشاط هذه المجلة نخبة من الصحفيات والكاتبات أمثال سلوى سلامة وأسماء سيور وإسفير مويل والدكتورة أنستاسيا بركات ومريم زكّا وماريا عجمي وجوليا طعم وأخريات. وأسست إحداهن، وهي ماريا عجمي، في دمشق مجلة "العروس".

أما في المهجر الأمريكي فلم تكن للحركة النسائية، حسب كراتشكوفسكي، دورية خاصة بها، غير أن مجلة "الهدى" كانت تخصص لها صفحة كاملة، وكانت تشرف عليها الكاتبة عفيفة كرم[68].

5- الدراسات النقدية وكتابة تاريخ الأدب العربي الحديث

تعتبر الدراسات النقدية وتأريخ الأدب الحديث من الموضوعات التي أولاها "كراتشكوفسكي" قسطاً وافراً من اهتماماته. وقد سبق أن عرضنا في هذه الدراسة لبعض هذه الأبحاث وأشرنا إلى بعضها الآخر. ونرى

(67) انظر المقدمة التي كتبها كراتشكوفسكي لترجمته لكتاب قاسم أمين "المرأة الجديدة"، في مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي...، ج 3، ص، 123-136.

(68) نفسه، ص. 125.

أنه من المفيد أن نقدم لائحة لأهمها، حتى تكتمل الصورة عند القارئ ويدرك مدى اهتمام "كراتشكوفسكي" بهذا الموضوع. وقد قسمنا هذه الأعمال إلى قسمين، يضم القسم الأول عناوين الدراسات العامة حول تأريخ الأدب الحديث، بينما يحتوي الثاني عناوين الدراسات البيبليوغرافية والنقدية الخاصة بعدد من الكتاب والشعراء.

أ- الدراسات العامة:

- الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث. (1911).
- الأدب العربي. (1919).
- نشأة الأدب العربي الحديث وتطوره. (1922).
- الأدب العربي في أمريكا 1895-1915. (1928).
- درس الآداب العربية الحديثة، مناهجه ومقاصده في الحاضر. (1930).
- الأدب العربي الحديث. (1925).
- الأدب العربي في القرن العشرين. (1946).
- الاتجاهات الحالية في الأدب العربي في مصر. (1947).

وغيرها من الدراسات.

ب- الدراسات الخاصة:

- رزق الله حسون، مترجم حكايات "كريلوف" إلى اللغة العربية. (1922).
- سليمان البستاني، 1927.
- مصطفى كامل وجولييتا أدن (Juliette Adan). (1928).
- طه حسين ونقد الشعر الجاهلي. (1931).

- اليازجي. (1934).

- زيدان. (1937).

- طه حسين وثلاثيته "الأيام". (1934).

- مي، (1935).

- فرحات، (1936).

- الزهاوي، (1938).

- محمود تيمور ومؤلفاته الجديدة. (1941).

- المعري والريحاني وليننگراد. (1945)

وغيرها من الأبحاث.

ولم يكتف "كراتشكوفسكي" بمثل هذا النوع من الدراسات فحاول في بعض مقالاته تأريخ مراحل البحث في نقد الأدب الحديث عند العلماء العرب، وهو يرى أن هذا النوع من البحث أخذ مكانته بصفة نهائية في ساحة الدراسات الأدبية مع نشوء مدرسة المجددين المصريين، وتزعم طه حسين لها وظل على رأسها مدة طويلة، ثم انضاف إليه عدد من أساتذة الجامعة المصرية أمثال أحمد ضيف وأحمد أمين وآخرين ممن أتوا من بعدهم كزكي مبارك وكامل كيلاني... وفي مجال البحث البيبليوغرافي، قام كل من يوسف سركيس[70] وخير الدين الزركلي[71] وآخرين بإنجاز أعمال في غاية الأهمية... أما سورية فقد كانت سباقة إلى هذا النوع من

---

(69) انظر على سبيل المثال: الأدب العربي الحديث، في "مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي"...، ج 3، ص. 80-81، بالروسية.

(70) إليان سركيس، معجم المطبوعات العربية حتى سنة 1919، بيروت، دون ذكر الناشر والتاريخ، ج 2.

- إليان سركيس، جامع التصانيف الحديثة التي طبعت في البلاد الشرقية والغربية والأمريكية، القاهرة، مكتبة سركيس وأبناؤه، 1937.

(71) عدة طبعات، منها: خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والمستعربين والمستشرقين، بيروت، دار العلم للملايين، 1980، ج 8.

الدراسات بفضل مؤلفات "إسكندر أبكريوس" (توفي عام 1885) وأنطون طحاني (1847-1941) ولويس شيخو (1859-1928) ومحمد كرد علي (1858-1941) وفليب طرازي (ولد عام 1865) وقسطاكي الحمصي (1858-1941) وغيرهم من علماء الجيل الأول. ومن بين أبرز وجوه الجيل الثاني يذكر "كراتشكوفسكي" على سبيل المثال، شريف حبري وفؤاد البستاني... أما العراق فإنه أنجب كثيرا من العلماء المرموقين أمثال أنستاس الكرملي، محرر مجلة "اللغة العربية"، ومحمد بهجت الأثري ورفئيل بطي... ونجد في تونس كذلك مجموعة من الباحثين أبرزهم حسن حسني عبد الوهاب. هكذا قدم "كراتشكوفسكي" باختصار العلماء العرب الذين ألفوا في مجالات النقد وتأريخ الأدب والبيبليوغرافية إلى حدود الثلاثينيات. ولا يخفي في كتاباته أهمية مؤلفاتهم التي يعتبرها أعمالا جيدة تحتل، من حيث مستواها العلمي، نفس المرتبة التي تحتلها أجود الأعمال الأوروبية المماثلة لها. يقول "كراتشكوفسكي" بهذا الصدد: «... نستطيع القول بأنه لم يعد بالإمكان الفصل بين الشرق والغرب في هذا المجال»[72].

6 - العلاقات الأدبية العربية الروسية:

سبق، في الفصل الأول من هذه الدراسة، أن تطرقنا إلى مختلف العلاقات الحضارية التي كانت تجمع الروس بالعرب قديما. ولاحظنا أن الدين الإسلامي والأدب العربي كانا يحظيان بكثير من الاهتمام في الإمبراطورية الروسية. وقد استطاع المثقفون الروسيون التعرف على بعض المؤلفات العربية القديمة من خلال الترجمات التي كانت تنجز، في غالب الأحيان، عن طريق اللغات الأوروبية الغربية. وكان لهذه الكتب وللقرآن الكريم كذلك وقع كبير في نفوس العديد من الكتاب والشعراء الروسيين أمثال "پوشكين" و"تولستوي". وتجلى هذا التأثير في بعض مؤلفاتهم. ولاحظنا كذلك أن المدرسة الاستعرابية الروسية حققت الكثير من

---

(72) كراتشكوفسكي، الأدب العربي الحديث...، ص. 81.

المنجزات خاصة في مجال البحث في اللغة والأدب العربيين وتحقيق المخطوطات العربية وترتيبها وفهرستها... ولما كانت الغاية من هذه الدراسة هو محاولة إبراز اهتمامات المثقفين الروسيين عموماً ومدرستهم الاستعرابية خصوصاً بالحضارة العربية الإسلامية، وكذلك إبراز الصلات الأدبية العربية الروسية في مختلف العصور، ارتأينا تخصيص بعض الصفحات للتعريف كذلك بالعلاقات الأدبية التي جمعت الروس والعرب منذ بداية النهضة العربية والتي أولاها "كراتشكوفسكي" أهمية خاصة طيلة مسيرته العلمية.

لقد كان من الطبيعي، في خضم النهضة التي عرفتها الساحة الأدبية العربية منذ القرن التاسع عشر وخاصة في الوقت الذي اتسعت فيه حركة الترجمة من اللغات الأوروبية إلى اللغة العربية[73]، أن ينتبه المثقفون العرب إلى الحضارة الروسية بشكل عام، فخلال القرن التاسع عشر ساعد التبادل التجاري العرب على تحسين معرفتهم ببلاد الروس. فلقد كانت بعض الشركات التجارية السورية تفتح أبوابها من حين لاخر، في الميناء الروسي أوديسا"[74]. وفي مصر ترجم كتاب "ڤلتير" (Voltaire) "تاريخ بطرس الأعظم"[75]. أما في تونس فقد خصص صاحب كتاب حول الجغرافيا العالمية[76] (1867-1868) صفحات في غاية الأهمية للقياصرة

(73) يشير "كراتشكوفسكي" في دراسة "كوركي والأدب العربي" إلى أن بداية ترجمة المؤلفات الأدبية الفرنسية إلى اللغة العربية مرطبة باسم الدبلوماسي والمستشرق "أسلين" (J. L. Asselin) (1772-1822) ويحيل القارئ على دراستين حول هذا الموضوع، ويتعلق الأمر بـ:

- H. Depérain, Silvestre de Sacy, ses comtemporains et ses dissiples, Paris, 1938, p. 98.

- Henri Pérès, Le roman, le conte et la nouvelle dans la littérature arabe moderne. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, III, Alger, 1937, p. 289-311.

(74) انظر حول هذا الموضوع: نوفل عبد الله حبيب، كتاب تراجم علماء طرابلس الفيحاء وأدبائها، طرابلس، 1929.

(75) الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر، إمبراطور موسقو، ترجمة عبيد الطهطاوي، بولاق، 1265هـ، (انظر حوله: سركيس، معجم المطبوعات...، القاهرة، 1925-1930، ص. 1247).

(76) خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تونس، 1284-1285هـ، (انظر حوله: سركيس، معجم المطبوعات...، ص. 854).

الروسيين بعد "بطرس" الأول. وفي سورية صدر كتاب جيد عنوانه "تاريخ روسيا" [77] في أربعة أجزاء للأديب السوري قلفاط نخلة.

ولم تبدأ ترجمة المؤلفات الأدبية الروسية إلى اللغة العربية إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فكانت تظهر، من حين لآخر، في الساحة الأدبية العربية ترجمات لمؤلفات روسية صغيرة الحجم، وكانت أولاها مجموعة حكايات تتألف من إحدى وأربعين حكاية[78] للكاتب الروسي "كريلوف" (1766-1844) ترجمها إلى العربية رزق الله حسون وطبعت في لندن عام 1867[79]. وتستحق شخصية رزق الله حسون الذي كان شاعرا وسياسيا مغامرا تربطه صلات غريبة بعدد من الدول كروسيا وإنكلتيرا أن نقف عندها ولو في بضعة سطور. وقد أولاه "كراتشكوفسكي" اهتماماً كبيراً في بعض دراساته وخصه سنة 1926 بمقالة عنوانها "رزق الله حسون[80] (1825-1880) مترجم حكايات "كريلوف" إلى اللغة العربية" [81]. يقول عنه العالم: «كان هذا الرجل قومياً عربياً، فخاف على حياته وهرب من تركيا إلى روسيا عبر بلاد القفقاس، وما كان لذلك أن يكون لولا مساعدة من ديبلوماسي روسي في القسطنطينية... وقضى حسون عدة أعوام في بطرسبورغ حاول أثناءها في

---

(77) قلفاط نخلة، تاريخ روسيا، بيروت، 1887-1888، (انظر حوله: سركيس، معجم المطبوعات...، ص. 1520).

(78) شكلت هذه المجموعة القسم الأول من مؤلف رزق الله حسون "كتاب النفثات"، لندن، 1861، الذي يقول عنه يوسف أسعد داغر في كتابه "مصادر الدراسة الأدبية"...: «ضمن القسم الأول منه تعريب قصص القصاص الروسي "كريلوف" الموضوعة على طريقة بيدبا في كتابه "كليلة ودمنة"».

هناك ترجمة أخرى لعشر حكايات "كريلوف" أنجزها سنة 1863 أستاذ من أصل عربي كان يدرس بالجامعات الروسية، وهو عبد الله كلزي الذي "تروّس" وصار يعرف فيما بعد باسم "فيودور إيفا نوفيتش كلزي" (Feodor Ivanovitch Kelzi). لكن هذه الترجمة بقيت تستعمل لأغراض تعليمية محضة بداخل المؤسسات الاستشراقية الروسية، ولم تعرف خارجها.

(79) هذا التاريخ أعطاه "كراتشكوفسكي" في مقالته "الكتاب الروسيون في الأدب العربي". ولعل الصواب هو عام 1861، كما ورد عند يوسف أسعد داغر في مؤلفه المذكور أعلاه.

(80) انظر حوله: يوسف أسعد داغر...، ص. 315.

(81) منتخبات الاكاديمي "كراتشكوفسكي"، ج 3، ص. 150-164.

بساطة أو سذاجة أن يحصل على مساعدة القيصر الكسندر الثاني لتأسيس دولة عربية مستقلة. وأهداه هذا المخطوط[82] الذي هو عبارة عن طرفة فنية خطية، وذلك للوصول، على ما يبدو، إلى غايته. وعندما دب إليه اليأس والقنوط في محاولته تلك، رحل حسون إلى إنجلترا. وهناك استخدم الهجاء اللاذع وكلماته الملتهبة في محاربة السلطان التركي والحزب الموالي لتركيا من العرب. وقد كان لحسون صديق كبير كان موهوبا ومغامراً مثله، إنه المستشرق "پالمر" (Palmer) الذي قتله بعض البدو في ظروف غامضة في سيناء عام 1882. وقبل ذلك بعامين توفي حسون في إنجلتيرا في ظروف غامضة كذلك. ويقال إنه تناول طعاما مسموما أعده له أحد جواسيس السلطان التركي. كان حسون محبا للأدب وعالما به. وقد زينت المؤلفات التي كتبها بخطه الجميل خزائن المخطوطات المختلفة في بيروت وحلب ولندن. ولقي حسون في بلاد الروس كثيرا من كرم الضيافة مما هز مشاعره، فنظم في مدحهم بضع قصائد كانت في الواقع شعراً ساذجاً، إلا أنها صادرة من صميم قلبه، وقام حسون كذلك بترجمة أصيلة جداً لبعض أشعار الحكمة التي نظمها "كريلوف" الشاعر الروسي ونقلها من الروسية إلى العربية...»[83]. وبقيت المؤلفات العربية حول روسيا وأدبها نادرة مدة طويلة.

غير أن الوضع أخذ يتغير بشكل ملموس خاصة في فلسطين وسورية، وذلك بعد تأسيس معهدين دينيين مسيحيين من طرف الحكومة الروسية، أولهما في "الناصرة" والثاني في "بيت جال". وكان هذان المعهدان تابعين "للجمعية الفلسطينية" التي كانت تمولها الإمبراطورية الروسية والتي كان تعليم اللغة الروسية في كل المؤسسات التابعة لها تعليما إجباريا. وقد سبق، في موضوع حديثنا عن الأقصوصة العربية، أن

(82) يتعلق الأمر بإنجيل مكتوب بالعربية بطريقة فنية عالية. وقد كتب حسون في أسفل المخطوط ما يلي: «اللهم تمم لملكنا ألكساندر هذا الأوان ما قاله لداريوس إسكندر ماضي الزمان:

«لا يكون في السماء شمسان ولا في آسيا ملكان إلا هو وحده».

(83) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية...، (الترجمة العربية)، ص. 27-28.

أشرنا إلى هذه المدارس التي أنجبت عدداً من الأدباء المرموقين، وركزنا بالخصوص على أبرزهم وهو ميخائيل نعيمة. وهكذا بدأ خريجو هذين المعهدين، في أواخر القرن التاسع عشر، يترجمون عدداً من مؤلفات الأدب الروسي إلى العربية مباشرة من اللغة الروسية، وهي الظاهرة التي يتأسف "كراتشكوفسكي" على عدم تكرارها[84]. غير أن هذه الترجمات لم يكن لها وقع يذكر في الساحة الأدبية العربية، وذلك راجع لعدة أسباب. ويعرض العالم لإحداها، ونعتقد أنها أهم تلك الأسباب، ويقول: «... إن هؤلاء المترجمين تضرروا كثيراً على مستوى النشر نتيجة لجوئهم إلى طبع أعمالهم على صفحات دوريات جهوية لا يتعدى انتشارها حدود البلد العربي الواحد. فلم يستطيعوا بالتالي التأثير على الأدب العربي الفتي الذي كانت تتزعمه مصر على الخصوص...»[85]. ويعتبر سليم قبعين وخليل بيدس[86] (1875-1949) من أبرز وجوه هذه المجموعة من المترجمين. لقد استهل الأول نشاطه بإصدار كتاب في القاهرة سنة 1901 عنوانه "تعاليم تولستوي" واعتمد في تأليفه على عدد كبير من مؤلفات "تولستوي" وكذلك على بعض الكتب الأدبية الروسية. بعد ذلك تجند قبعين لترجمة بعض مؤلفات الكتاب الروسيين المعاصرين له وخاصة منهم "تولستوي" و"مكسيم گوركي"[87]. أما خليل بيدس فقد بدأ نشاطه بترجمة قصة "پوشكين" "بنت القائد" التي نشرت سنة 1898 في الجريدة البيروتية "المنار"، ثم قصة "گوگول" "تراس بولبا" وأصبحت مجلته "النفائس" التي أسسها سنة 1909 في مدينة حيفا مجالا للتعريف بالأدب

---

(84) تكررت هذه الظاهرة بشكل أوسع وأعمق بكثير من الظاهرة الأولى، وذلك خلال النصف الثاني من القرن العشرين. لكن العالم "كراتشكوفسكي" لم يكتب له مشاهدتها.

(85) كراتشكوفسكي، تشيخوف في الأدب العربي، في كتاب: الرواية التاريخية... ترجمة عبد الرحيم العطاوي، ص. 60.

(86) انظر حوله: يوسف أسعد داغر...، ص. 213-214.

لقبعين كذلك ترجمة لكتاب "تولستوي" حكم النبي محمد، انظر الطبعة الثالثة، القاهرة، 1987.

(87) توجد لائحة كاملة لهذه الترجمات ضمن مقال "كراتشكوفسكي" "الكتاب الروسيون في الأدب العربي"، انظر: منتخبات الأكاديمي "كراتشكوفسكي"، ج 3، ص. 268.

الروسي من خلال ترجمة مؤلفات عدد من الكلاسيكيين الروسيين وخاصة منهم "تشيخوف". وقد لعبت جريدة "المراقب" البيروتية لصاحبها جرجي عطية نفس الدور في إعطاء الأدب الروسي المكانة اللائقة به وسط الآداب العالمية داخل الوطن العربي. ويمكن القول بأن اهتمامات مجموعة المترجمين من خريجي مؤسسات "الجمعيات الفلسطينية" انصبت، في بدايتها، على التعريف بالكتاب الكلاسيكيين الروسيين أمثال "پوشكين" و"ليرمنتوف" و"گوگول" بالنسبة للجيل الأول و"تولستوي" و"دوستوييفسكي"، بالنسبة للجيل الثاني، غير أنه في نهاية القرن الماضي وخاصة مع بداية القرن العشرين أخذ بعض المثقفين العرب يهتمون بمؤلفات ممثلي الجيل الجديد للكتاب الروسيين[88]. يقول "كراتشكوفسكي" عن انشغالات هؤلاء المثقفين: «كان العرب في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي يعتبرون جيل الكتاب الكلاسيكيين جيلا قد انتهى نفوذه. وكانت تهيمن على أفكارهم أعمال اثنين من أقطاب الأدب في روسيا المعاصرة لهم. كان الأول، وهو الأكبر سناً، "تشيخوف" - الوديع، والثاني "گوركي - الشاب الثائر. وقد تعرف العرب على هذين الكاتبين في آن واحد تقريبا. فتجند لترجمة مؤلفاتهما كل من درس بروسيا من معلمين وأطباء، وصحفيين جهويين من خريجي "الجمعية الفلسطينية"[89]...

وقد أشاد عدد من الكتاب والنقاد العرب بالأدب الروسي عموماً ومؤلفات "تشيخوف" خصوصاً، فمحمود تيمور مثلا أثنى كثيراً على هذا الأخير، واعتبر طليمات «... أن مزاياه تجعل كتاباته تتميز بالطابع الأدبي الرفيع والصادق الأبدي الذي يخاطب الإنسانية جمعاء ولا يبالي بالاختلافات في الديانات واللغات...»[99].

---

(88) كراتشكوفسكي، تشيخوف في الأدب العربي، في كتاب: كراتشكوفسكي، إ. الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث، الترجمة العربية، ص. 58-59.
(89) نفسه.

من خلال هذه الشهادات يتضح مدى أهمية الأدب الروسي بالنسبة للأدب العربي الحديث، هذه الأهمية التي حاول العالم "كراتشكوفسكي" إبرازها في جل كتاباته. وهو لم يكن يكتفي بتقديم بحوث علمية صرفة حول الموضوع، بل كان يذهب أبعد من هذا، كما عودنا على ذلك في خاتمات دراساته، فيعبر عن حبه الكبير لهذا النوع من الأبحاث وعن تحمسه لدراسة العلاقات الأدبية الروسية العربية وعن إيمانه بأن الدراسات الاستشراقية يجب أن تمهد الطريق لتقارب الشعوب وأن تخدم مصلحة السلم بينها، ويقول بهذا الصدد في خاتمة مقالته حول "تشيخوف": « ... إن القلب يغمره الفخر والاعتزاز حينما نسمع بأن أكبر الكتاب العرب المعاصرين يقولون إن "تشيخوف" يمثل ذلك الأدب الذي يخاطب الإنسانية جمعاء. ولا يسعنا إلا أن نضيف أن الحدود بين الشرق والغرب قد زالت في هذا الميدان، وأننا نشعر بأن دراستنا الاستشراقية تمثل مساهمة أساسية في ذخيرة الثقافة الإنسانية كلها »[91].

يبدو من خلال هذا الفصل من دراستنا أن العالم "كراتشكوفسكي" ساهم طوال حياته إسهاماً متميزاً في دراسة جل جوانب الحضارة العربية الإسلامية وأنه انتبه منذ شبابه إلى التحولات العميقة التي كانت تطرأ داخل المجتمعات العربية في شتى الميادين، فكان من بين العلماء الأوائل الذين أدركوا أن الأدب العربي الفتي جدير بأن يهتم به الباحثون وأن يرصدوا له دراسات أدبية مبنية على أسس علمية حديثة. وكانت البداية في هذا الاتجاه مع صدور بحثه "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" عام 1911، وتلته دراسات متعددة أخرى. فكان العالم بكتاباته سباقا لتناول مثل هذه الموضوعات بالدرس. ونستطيع، بعد هذه الصفحات من بحثنا، أن ندرك لماذا اعتبر كبار المستشرقين العالميين أمثال

---

(90) كراتشكوفسكي، تشيخوف في الأدب العربي، ص. 62.
(91) نفسه، ص. 63.

"كامپفميير" و"جيب" و"هارتمان" العالم الروسي "كراتشكوفسكي" رائداً في مجال دراسة الأدب العربي الحديث...

ولا بد من التذكير، في آخر هذا الفصل، بمؤلَّف من نوع خاص طالما ذكرناه في هذه الدراسة، ويتعلق الأمر بكتاب "مع المخطوطات العربية" الذي لم يكن كراتشكوفسكي، في نظرنا، يسعى من خلاله إلى دراسة موضوع معين من الموضوعات التي شغلت باله طوال حياته بقدر ما كان يهدف إلى إبراز احترامه وتقديره للشعوب العربية ومقدساتها وحبه الكبير للحضارة العربية الإسلامية عامة والأدب العربي خاصة. وهو الكتاب الذي نلمس من خلال الكثير من صفحاته مدى شوق العالم إلى القيام بزيارة ثانية للمشرق العربي الذي كان يحن إليه مثلما يحن الغريب إلى وطنه. ونعتقد أن هذه المشاعر هي التي ساعدته على فهم حقيقة العالم العربي الإسلامي وجعلته بالتالي يتحلى بنزاهة قل نظيرها عند كثير من المستشرقين.

توفي "كراتشكوفسكي"، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، عام 1951، وقامت أكاديمية العلوم السوفييتية، في الفترة الممتدة ما بين 1956 و1960 بطبع جل مؤلفاته ونشرتها في ستة أجزاء[92] وُزعت على عدة محاور وجاءت على الشكل التالي:

المجلد الأول: مع المخطوطات العربية. الدراسات العربية والمسألة الثقافية عند شعوب الاتحاد السوفييتي.

المجلد الثاني: الأدب العربي في القرون الوسطى (النثر والشعر).

المجلد الثالث: (الأدب العربي الحديث)، دراسات عامة، مميزات

(92) أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، الأكاديمي إيگناتي كراتشكوفسكي، المؤلفات المختارة، موسكو -لينينگراد، 1956-1960، ج 1-6.

AN. SSSR. Akademik Kratchkovskiy, Izbrannye sotchineniya Moskva-Leningrad, 1956-1960, (T. 1-6).

الأدب العربي الحديث، العلاقات الأدبية الروسية العربية، مقالات بيبليوغرافية.

المجلد الرابع: الأدب الجغرافي العربي.

المجلد الخامس: (تاريخ الاستشراق)، دراسات حول الاستعراب الروسي، المستشرقون الروسيون والأجانب (مقالات).

المجلد السادس: ابن المعتز، وصف المخطوطات، الكتابة العربية في شمال القوقاز.



الفصل الرابع

الدراسات الاستشراقية الروسية حول الدين الإسلامي


مكتبة المهتدين الإسلامية

تمهيد

حاولنا في الفصول الثلاثة الأولى تقديم نظرة عن تاريخ الدراسات العربية في روسيا، وأعطينا صورة لمختلف وجوه اهتمامات الروسيين بالعالم الإسلامي عموماً والعالم العربي خصوصاً. وكان للعلاقات المباشرة أو غير المباشرة بين الشعوب الإسلامية والشعب الروسي عبر التاريخ نصيب وافر من دراستنا. وقد ركزنا اهتمامنا أساساً على موضوع الدراسات الأدبية. وسوف نتطرق في هذا الفصل إلى موضوع الدراسات حول الدين الإسلامي التي أنجزها المستشرقون الروسيون. وإذا كانت الأبحاث الأدبية واللغوية عادة ما تبقى بداخل إطار أكاديمي صرف، فإن الدراسات حول الدين الإسلامي كانت تأخذ، في كثير من الأحيان، بعداً آخر لا علاقة له البتة بالتقاليد الجامعية النزيهة. وليس بخاف على أحد ما كان لهذا الموضوع من أهمية سواء في الإمبراطورية الروسية أو في الاتحاد السوفييتي فيما بعد. فإذا كانت الأولى تهدف من وراء هذه الدراسات إلى إيجاد أنجع الوسائل لفرض سيطرتها على مستعمراتها الجديدة بآسيا الوسطى ومناطق أخرى تسكنها شعوب إسلامية ولإحكام قبضتها على الشعوب المسلمة داخل روسيا نفسها[1]، فإن الثاني، أي الاتحاد السوفييتي، كان يسعى إلى محو الديانات كلها وعلى رأسها الدين الإسلامي الذي كان دائما في طليعة المناهضين للنظام الشيوعي، فالدين بالنسبة لقادة هذا النظام ما هو إلا داء يجب تشخيصه قصد إيجاد دواء

(1) انظر حول الشعوب المسلمة بداخل جمهورية روسيا والاتحاد السوفييتي:
R. Cartini, Dictionnaire des nationalités et des minorités en URSS. Larousse, 1990.

يمكن من القضاء عليه نهائيا. وفي كلا النظامين صدرت مآت المؤلفات التي جاء جلها لخدمة أهداف الحكم. غير أنه لا يجوز إطلاقا الاعتقاد بأن المفكرين كلهم كانوا يسيرون على هذا النهج، فلقد كانت ترتفع من حين لآخر أصوات نزيهة لشجب مواقف أولئك المستشرقين الذين كانوا ينحازون إما للنظام القائم أو للكنيسة أو للتيارات السياسية المختلفة، ويسخرون أقلامهم للدفاع عن أفكار لا صلة لها بالعلم. وانطلاقاً من هذه الصورة يمكن تقسيم المستشرقين الروسيين إلى ثلاث فئات: هي:

1- المستشرقون "العلماء"، وهم الجامعيون الذين كرسوا حياتهم لخدمة العلم والمعرفة، فلم تتأثر أعمالهم بالساحة السياسية أو الدينية، وإن تأثرت في بعض الأحيان فإن ذلك يكون دون سابق نية...

2- المستشرقون "الموظفون"، وهم أولئك الذين كانوا يعملون بصفة مباشرة أو غير مباشرة لصالح الإدارة الاستعمارية في روسيا القيصرية أو لإعطاء صبغة "علمية" لقرارات الحزب الشيوعي المناهضة للإسلام في الاتحاد السوفييتي.

3- المستشرقون "المبشرون" الذين جعلوا من مؤلفاتهم في ميدان الدراسات الإسلامية سلاحاً بين أيدي الكنيسة لتسهيل مأمورية المنصرين داخل المناطق المسلمة.

أما الموضوعات التي شغلت بال المستشرقين الروسيين فهي جد متنوعة، ويمكن تلخيصها في عدد من المحاور العريضة على الشكل التالي:

1- نشأة الدين الإسلامي، التاريخ الإسلامي، التشريع الإسلامي، حياة الرسول ﷺ والصحابة.

2- السنة والشيعة، الطوائف الدينية، حركات المقاومة الإسلامية ضد الاستعمار الروسي، تقديس الأولياء، الإسلام والتربية.

3- الإسلام والسياسة، تركيا وإيران، تاريخ البلدان العربية الإسلامية، الخلافة.

4- ترجمة معاني القرآن الكريم، ترجمة الكتب الدينية الأخرى، دراسات مختلفة حول القرآن الكريم والسنة النبوية.

5- تاريخ الدراسات العربية الإسلامية في روسيا ودور الجمعيات الاستشراقية والمجلات المتخصصة.

6- الإسلام والثورة، الإسلام والشيوعية، مناهضة الدين الإسلامي، ومحاولة إبراز ما سمي "بالدور الرجعي المتخلف" للعبادات والشريعة الإسلامية.

7- البابية والبهائية وعلاقتهما بالإسلام...

وسوف نجد هذه المحاور العريضة عند جل المستشرقين الذين سنتعرف عليهم وعلى أهم مؤلفاتهم في هذا الفصل من دراستنا. ولقد سبق وأشرنا إلى البعض منهم في سياق حديثنا عن الدراسات الأدبية في جامعات "سان بيترسبورگ" و"موسكو" و"قازان".

وقبل كل شيء نعتقد أنه من الضروري، في بداية هذا الفصل، أن نذكر ببعض مميزات روسيا في مجال الاستشراق التي لا نجد لها مثيلاً عند باقي الدول الأوروبية التي دخلت هذا الميدان من المعرفة. فلقد سبق وأشرنا[2] إلى أن جزءاً من الشرق الإسلامي كان دائماً موجوداً بداخل الإمبراطورية الروسية التي توسعت، كما هو معلوم، على حساب دول إسلامية في الشرق والشرق الأقصى (سيبيريا) والجنوب الشرقي. كما أن الشرق الإسلامي وجد فيما بعد في مستعمراتها الجديدة في آسيا الوسطى والقوقاز، وهي بلدان بجوارها ولها معها حدود مشتركة، خلافاً لما كانت عليه الأمور بالنسبة للبلدان الاستعمارية الأخرى التي كان عليها قطع المسافات الطويلة للوصول إلي «ممتلكاتها». كما سبق وأشرنا[3] إلى أن

(2) انظر المبحث الخاص ببداية الاستشراق في الفصل الأول من هذه الدراسة.

الإسلام وتعاليمه وتقاليد شعوبه - عناصر حاضرة في هذه المناطق، واللغة العربية موجودة كذلك تتكلمها أقلية من أهل هذه البلدان خاصة في داغستان، ويستعملها الفقهاء والعلماء والطلبة ورجال السلطة الذين كانوا يسهرون على تدريسها في المدارس والمعاهد ويؤلفون بها[4]. كما أن هذه المنطقة كانت تزخر بكنوز لا مثيل لها من المخطوطات الإسلامية، العربية وغير العربية. أضف إلى كل هذا أن المسلمين كانوا يستعملون الحروف العربية لكتابة لغاتهم ولم ينتقلوا إلى الأبجدية السلافية - كيريليتسا - إلا مرغمين بعد الثورة البولشيفية في عهد "ستالين".

انطلاقاً من هذه المعطيات تبرز إحدى أهم مميزات الاستشراق الروسي، والمتمثلة في أن هذه المدرسة تتناول بالدرس جل الموضوعات المطروحة من منظور داخلي، أي من داخل روسيا نفسها ومن مستعمراتها التي تجاورها ولا تفصلها عنها أية مسافة تذكر والتي كان عدد سكانها من الروس يفوق في بعض الأحيان عدد الأهالي من أصحاب الوطن الأصليين. ولهذا فإن ما طبع الدراسات الاستشراقية الروسية عموماً والإسلامية خصوصاً هو التركيز على الإسلام والمسلمين داخل الإمبراطورية الروسية في مرحلة أولى ثم الاتحاد السوفييتي فيما بعد.

ولا بد من التذكير بأنه كان للمسلمين في الاتحاد السوفييتي ست جمهوريات هي: قيرغيزيا، أوزبكستان، تادجكستان، كازاخستان، تركمانيا وآذربيجان، كما أنه كان لهم عدد من الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي وعدد من الجهات. غير أن هذه الجمهوريات والجهات

---

(3) نفسه.

(4) أولى عدد من الباحثين الروسيين اهتماماً كبيراً لموضوع تداول اللغة العربية والتأليف بها عند الشعوب المسلمة داخل فيديرالية روسيا، وخاصة عند الداغستانيين. انظر على سبيل المثال:

- كراتشكوفسكي، الأدب العربي في شمال القوقاز، مختارات كراتشكوفسكي...، ج 4، صص. 609-622. (بالروسية).

-م. سعيدوف، الأدب الداغستاني المكتوب باللغة العربية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، في كتاب: «أعمال المؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين (موسكو 9-16 غشت 1960)، دار النشر الشرقية، موسكو، 1963، ج 2، صص. 118-123. (بالروسية).

لم تكن، في واقع الأمر، تقوم إلا بتنفيذ السياسة المركزية للدولة والحزب الشيوعي في جميع المجالات وخاصة ما تعلق بمحاربة الدين الإسلامي وتزوير تاريخ الشعوب الإسلامية وحضارتهم حتى يترسخ في ذهنهم أن ماضيهم ما هو إلا مجرد زمن طويل من الهمجية والجهل والظلام وليتيقن المسلمون بأن الروسيين حين بسطوا سيطرتهم على أراضيهم فإنهم جاؤوا لإنقاذهم من الجهل والهمجية ولإدخالهم إلى حظيرة الأمم المتحضرة، كما أن النظام الشيوعي جاء بأحدث ما وصل إليه الفكر الإنساني من تقدم وحرية وعدالة ورفاهية ليُشيِّد لهم جنات يعيشون فيها على سطح الأرض.

والآن، وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي واستقلال الجمهوريات المكونة له، يمكن القول بأن المسلمين يعيشون في معظم جهات دولة فيديرالية روسيا الحالية(5) كأقليات تتفاوت أهميتها من منطقة إلى أخرى. لكنهم، في أجزاء من أوطانهم الأصلية حيث يكونون الأغلبية، يشكلون جمهوريات وولايات ذات استقلال ذاتي.

وتجدر الإشارة إلى أنه شُرع في إحداث هذه الجمهوريات والولايات مباشرة بعد تأسيس الاتحاد السوفياتي. وكان "جوزيف ستالين" بوصفه آنذاك المندوب السامي (أي الوزير) المكلف بتدبير شؤون الشعوب والأقليات هو الساهر على تنفيذ هذه السياسة التي كانت تبدو ظاهرياً أنها تسير في اتجاه ترقية الشعوب والدفاع عن مصالح الأقليات، غير أنها كانت في باطنها تهدف إلى تشتيت شمل أهم تلك الأقليات وهم المسلمون. وهكذا تم تقسيم هذه القوميات إلى عدة جمهوريات وولايات، نذكر منها على الخصوص: جمهورية تترستان وجمهورية باشكيريا وجمهورية ماري وجمهورية أودمورتيا وجمهورية موردوفيا وجمهورية تشوفاشيا... وقد تفنن "العلماء" في البحث عن كل ما من شأنه أن يعمق الفوارق بين هذه

---

(5) حسب بعض الإحصائيات فإن عدد المسلمين في روسيا الفيديرالية الحالية بلغ أزيد من 11 مليون نسمة إلى حدود عام 1994 (انظر: لاندا، الإسلام في تاريخ روسيا، ص. 8). غير أن المصادر الصحفية الإسلامية في روسيا تتحدث عن 20 مليون نسمة تقريبا. (انظر الملاحظة الرابعة لمقدمة كتاب "لاندا" المذكور، ص. 294).

"الجمهوريات" الجديدة في مجالات التاريخ واللغة والأدب الشعبي والاجتماع والإنثوغرافيا... وتم تدوين نتائج هذه "الأبحاث" وترويجها على نطاق واسع في المؤسسات التعليمية والثقافية والإعلامية. ولم يقتصر "ستالين" على تفكيك القومية التترية وحدها بل سلك نفس النهج في جبال القوقاز وسيبيريا وجهات أخرى من البلاد... وشكلت نهاية الحرب العالمية الثانية أوج عداء "ستالين" للمسلمين واضطهادهم حين أقدم على ترحيل عدد من الشعوب المسلمة برمتهم من أوطانهم وتشتيتهم في مناطق نائية وخاصة في سيبيريا وآسيا الوسطى بتهمة التعاون مع الجيش الألماني. وهذا ما حصل للشيشانيين والأنكوشيين والكاب‍اردي‍ين وتتر القرم الذين فقدوا الآلاف من إخوانهم خلال عملية الترحيل، ومنهم من لم يستطع حتى الآن الرجوع إلى وطنهم رغم القرارات الرسمية التي برأتهم، بعد موت "ستالين"، من جميع التهم الموجهة إليهم، ولا يزال شعب تتر القرم يعيش هذه المأساة(6)...

تضم جمهورية روسيا الفيديرالية حالياً عدداً من الجمهوريات والولايات ذات الاستقلال الذاتي التي أخذت تمارس حقوقها الدستورية بشكل طبيعي بعد سقوط النظام السوفييتي. وإذا كانت الولاية لا تملك إلا حق استعمال لغة أهل البلد في مجالي التعليم والإدارة (بإزاء اللغة الروسية) فإن الجمهورية تتمتع بصلاحيات واسعة نسبيا في تسيير شؤونها الداخلية وخاصة منها ما تعلق بالسياسة الاقتصادية والثقافية والاجتماعية... غير أنها لا تستطيع الانفصال عن الجمهورية "الأم" أي روسيا الفيديرالية التي تحتفظ بحق تسيير شؤون السياسة الخارجية والدفاع. وأهم مناطق الحكم الذاتي الإسلامية حاليا هي: جمهوريات تترستان وباشكيريا وداغستان والشيشان وانكوشيا وكاباردي‍ا - بلكاريا، وولايات الأدغيين وقرتشاي والشراكسة...

---

(6) انظر: A. Bennigsen. ..., Les Musulmans oubliés..., p. 171.

ونرى أنه من الضروري الرجوع ولو بإيجاز إلى مسألة سبق أن تحدثنا عنها في الفصل الأول من دراستنا والتي سوف توضح لنا عدداً من النقط التي سنتطرق لها في هذا الفصل، ويتعلق الأمر بالحركات التحريرية التي خاضتها الشعوب المسلمة في شمال القوقاز وخاصة منها تلك التي قادها الإمام شامل الگمراوي والتي كانت لها مكانة خاصة في الكتابات الروسية حول الإسلام في كل من الإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفييتي.

وقبل ذلك نشير إلى أن التعريف بالدين الإسلامي في مختلف الكتابات السوفييتية الرسمية[7] لا يختلف في جوهره عن التعريفات الأخرى التي ألفناها في جل الكتابات الاستشراقية الغربية، فهو لا يخلو مثلها من قلب لعدد من الحقائق التاريخية الثابتة وتشكيك في المقدسات الإسلامية... ونعتقد أنه لا داعي للوقوف عند هذه الظاهرة مرة أخرى، غير أن التعريف عند السوفييتيين يختلف عن التعريفات الأخرى باستعمال المصطلحات الماركسية اللينينية وبالتركيز على الإسلام داخل الإمبراطورية الروسية والاتحاد السوفييتي وكذلك بمحاولة تقديم المجاهدين والمقاتلين من أجل تحرير أوطانهم سواء في القوقاز أو في جهات أخرى من البلاد بمظهر عصابات من قطاع الطرق أو جماعات من الخونة والعملاء الذين يخدمون مصالح دول أجنبية كإنگلتيرا وتركيا. والملاحظ أن جل المستشرقين السوفييتيين الذين تناولوا هذا الموضوع بالدرس كانوا يعتبرون المسلمين في روسيا عملاء لسياسة الإمبراطورية القيصرية إن هم أطاعوا الحكم وعملاء للرجعية العالمية والدول المعادية لروسيا إن هم حاربوا النظام السائد!

وأما حركات المسلمين التحريرية فإنها تحتل مكانة خاصة في الكتابات الروسية لكن حصة الأسد فيها ترجع إلى الإمام شامل الگمراوي.

سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى أنه كان للطرق الصوفية في

---

(7) انظر على سبيل المثال مادة "الإسلام" في "دائرة المعارف السوفييتية الكبرى"، موسكو، 1953، ج. 18، ص. 516-519 (بالروسية).

شمال القوقاز دور بالغ الأهمية في تدبير وتسيير الشأنين المدني والعسكري في تلك الربوع. ومن هذه الطرق التي ما زالت حتى الآن تحتفظ بدورها الريادي في هذه المجتمعات نذكر على الخصوص الطريقة النقشبندية المنتشرة في الداغستان وجهات أخرى من القوقاز، والطريقة القادرية الموجودة في كل من الشيشان وإنگوشيا[8].

ولقد استطاع مسلمو شمال القوقاز تحت قيادة أئمة ومرشدي هذين الطريقتين مقاومة الجيوش الروسية في بلادهم على مر العصور، وبقيت عملياتهم العسكرية تُعرف في الكتابات الروسية "بالمريدية" نسبة لمريدي تلك الطرق الذين كانوا يشكلون غالبية المقاتلين.

وُلد الإمام شامل الگمراوي عام 1798 وتلقى تربية إسلامية متينة، ثم شغل مناصب سياسية وعسكرية واختير عام 1834 إماماً لداغستان وهو أعلى منصب في البلاد، وبقي يشغل هذا المنصب أزيد من خمس وعشرين سنة قاد خلالها العمليات العسكرية ضد الجيوش الروسية وحقق انتصارات باهرة عليها. ولقد اعترف العسكريون الروسيون أنفسهم بشجاعته ومهاراته[9].

ومعلوم أن الإمام شامل قضى، بعد هزيمته عام 1859، عشر سنوات في المنفى بداخل الأراضي الروسية في مدينتي "كالوگا" و"كييف" لكنه عاش موقراً ومكرماً. وسُمح له بمغادرة الإمبراطورية عام 1869 والتحق بالشرق العربي واستقر في المدينة المنورة التي توفي بها عام 1871 بعدما أدى فريضة الحج. وقد كانت مقاومة القبائل القوقازية فريدة من نوعها لا من حيث طول المدة التي استغرقتها المعارك ولا من حيث البطولات النادرة التي أظهرها المقاومون، رغم إمكاناتهم المحدودة. ورأى الباحثون الأوروبيون أنفسهم أن استماتة المجاهدين كانت نتيجة تضامنهم وتآزرهم

---

(8) لاندا، الإسلام في تاريخ روسيا، ص. 94.

(9) انظر على سبيل المثال ما جاء في باب "شامل" في "دائرة المعارف السوفييتية الكبرى"، موسكو، 1957، ج. 47، ص. 506-507. (بالروسية).

انظر كذلك ما جاء حوله في الفصل الأول من هذه الدراسة.

وإيمانهم الكبير بدينهم. وكان للمعارك التي دارت رحاها في جبال القوقاز، تحت قيادة الإمام شامل، صدى عميق لا في روسيا وحدها، بل في أوروبا كلها[10]. واحتل موضوع ملحمة الشعوب القوقازية المسلمة مكانة خاصة في كتابات المستشرقين وكذلك في مؤلفات المسلمين داخل الإمبراطورية الروسية. ومن ضمن هذه الكتابات نشير على الخصوص إلى مخطوطتين، الأولى حول ملاحم الإمام شامل عنوانها: "بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملية" من تأليف محمد طاهر القراخي المتوفى عام 1882، وتوجد هذه المخطوطة المكتوبة باللغة العربية في "سان بيترسبورگ" في ملحقة مكتبة معهد الاستشراق التابعة لأكاديمية العلوم الروسية[11]. أما المخطوطة الثانية فهي حول حياة الإمام شامل وعنوانها "خلاصة التفصيل عن أحوال الإمام شمويل"، وهي من تأليف عبد الرحمن بن جمال الدين الحسيني القبدي الغازي غموقي الداغستاني المتوفى عام 1308هـ/ 1890م. وهو صهر الإمام، وتوجد هذه المخطوطة المكتوبة باللغة العربية كذلك في نفس المكتبة المذكورة أعلاه[12]. وما زالت الشعوب القوقازية المسلمة تفتخر حتى الآن بملاحمها العسكرية هذه وتقدمها كأسمى عبارات التضحية من أجل الوطن والدين.

---

(10) Elie Kedouri, L'Islam aujourd'hui, problèmes et perspectives du XIXe et XXe siècles. in: Le Monde de l'Islam, sous la direction de Bernard Lewis, Elsevier - Sequoia, Bruxelles, 1976, p. 333.

كتب كراتشكوفسكي سلسلة من المقالات حول الإمام شامل والقوقاز الشمالي نذكر منها على الخصوص:

- رسالة غير منشورة لشامل (صدرت عام 1933).
- مخطوطة عربية في ذكر شامل (صدرت عام 1933)، يتعلق الأمر بـ"خلاصة التفصيل في أحوال الإمام شمويل" المذكورة أعلاه.
- الداغستان واليمن (صدرت عام 1938).
- مخطوطات جديدة حول تاريخ شامل بقلم محمد طاهر القراخي (صدرت عام 1939)، يتعلق الأمر بـ"بارقة السيوف..." المذكورة أعلاه.
- الأدب العربي في شمال القوقاز (صدرت عام 1948).

(11) تحمل رقم B 3712. قام الأستاذ بارابانوف بتحقيق هذا المؤلف تحت إشراف العالم كراتشكوفسكي الذي كتب له مقدمة. أصدر الكتاب معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية عام 1946. (سبق ورجعنا لهذا الكتاب في الفصل الأول من هذه الدراسة).

(12) تحمل رقم A 710.

I- الدراسات حول الإسلام قبل الثورة السوفييتية ومجموعة "اللامنتمين"

بعد هذا التمهيد نحاول إعطاء نظرة عن أبرز المستشرقين الروسيين وعن أهم أعمالهم حول الدين الإسلامي. ولقد اعتمدنا في دراستنا هذه عدداً من المؤلفات[1]، وخاصة منها كتاب "سميرنوف" (N. A. Smirnov) "أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي"، وكتاب "كراتشكوفسكي" "دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي".

---

(1) أهمها: - سميرنوف، أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي. منشورات أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، موسكو، 1954، (بالروسية).

كتب "نيكيتا يليسييف" (N. Elisseef) ملخصا لهذا الكتاب بالفرنسية وعلق عليه ونشره في إحدى منشورات "المعهد الفرنسي بدمشق" سنة 1957:

- N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, d'après un ouvrage récent. in: Mélanges Louis Massignon, T. II. Publication de l'Institut Français de Damas, Damas, 1957, p. 23-76.

- كراتشكوفسكي، دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي (بالروسية).

- بارتولد، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا (بالروسية)، وكذلك الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب.

- لاندا، الإسلام في روسيا. موسكو، 1995 (بالروسية).

- غريز نيفيتش، القرآن في روسيا، في كتاب "أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت". (الكتاب الأول)، موسكو، 1986، ص. 249-259.

- A. Bennigsen, et Ch. Quelquejay, Les Mouvements Nationaux chez les Musulmans de Russie.

- محمد حسين علي الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنية، بيروت، 1983.

- الشيخ طه الولي، القرآن الكريم في الاتحاد السوفييتي، في مجلة "الفكر العربي"، عدد 31، 1983، ص. 266-291.

- العقيقي نجيب، المستشرقون، ج 3، ص. 51-117.

وسوف نتعرف في البداية على أشهر الدارسين الروسيين للإسلام خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن الحالي، ثم ننتقل، من خلال مختلف المحاور التي تطرق لها الاستشراق الروسي والسوفييتي من بعده، إلى إبراز مميزات هذه المدرسة وإلى عرض أهم الكتابات التي ألفت في هذه الفترة.

يعتبر "بيريزين"[2] (I. N. Berézin) (1818-1896) أحد الممثلين الأوائل للمدرسة الاستشراقية الأكاديمية في روسيا. فقد درس على يد كاظم بك "بقازان"، وزار الشرق العربي كما زار بعض المناطق الجنوبية الروسية التي يسكنها المسلمون وكتب عنها عدة مؤلفات، وكان للتربية الدينية التي تلقاها عند الرهبان في "قازان" أثر بالغ في نفسه، وتجلى هذا التأثير بوضوح في مؤلفاته حول الإسلام. ففي كتابه "الدين الإسلامي وعلاقته بالتربية" (1855) يحكم على الدين الإسلامي بأنه عقبة في وجه التقدم... ويقوم "بيريزين" في مؤلفه "دليل المسافر في الشرق" بمحاولة لتحليل مفهوم "دار الإسلام" و"دار الحرب" ويستنتج أن الإسلام قضى على جميع المعتقدات والقوميات في هذه المناطق وانتشر فيها بالقوة. وخلال زيارته للقوقاز إبان الحركات التحريرية التي قادها الشيخ "شامل"، حاول هذا المستشرق فهم طبيعة "المريدية"، ورأى فيها طائفة من الزهاد المحاربين، لكنهم انحرفوا وتعاطوا الابتزاز والعنف عوض الزهد والابتعاد عن المسائل الدنيوية، كما مالوا إلى النهب والاغتصاب أكثر مما تمسكوا بالدين. وفي كتابه "المجددون الشرقيون" (1857) يحاول "بيريزين" فهم تأثير الدين الإسلامي على نشاط المجددين السياسيين في البلدان الإسلامية. ويفسر فشل سياستهم إلى سعيهم، حسب زعمه، مطابقة إصلاحاتهم مع تعاليم القرآن الكريم، وإلى خصوصيات طبيعة الإنسان الشرقي الذي تخضع حياته إلى التعاليم الدينية قبل كل شيء، وليس إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية، فالشرقي، في نظره، يضع عالم الغيب في

---

(2) سبق أن أشرنا إليه عند حديثنا عن جامعة سان بيترسبورگ في المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذه الدراسة. انظر حوله كذلك: العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 73.

مرتبة أعلى من مشاكله المادية... ويستنتج المؤلف في آخر بحثه أن الشعوب الشرقية غير قادرة على نهج الطريق المؤدية إلى التقدم[3].

يمكن اعتبار "گريگوريِيف" (1816-1886) ممثلا لفئة المستشرقين المخضرمين الذين عملوا في الحقل الجامعي والحقل الإداري. ففي المجال الأول أنتج هذا الباحث عدداً من الدراسات الأدبية، وقد سبق أن أشرنا إليه وإلى بعض أعماله في الفصل الثاني من دراستنا. أما اهتمامه بالدراسات الإسلامية فلم ينبع إلا حرصاً منه على خدمة السياسة الاستعمارية الروسية في المناطق الجنوبية الإسلامية في الفترة التي عمل بها حاكماً عاماً لمنطقة "أورينبورگ" ما بين 1852 و1863، حيث حاول استغلال الدين الإسلامي وأئمته لصالح الاستعمار، وإن كان لم يكتب سوى عدد قليل من المؤلفات. غير أنه حاول تطبيق بعض النظريات التي استنتجها من مختلف الأبحاث التي أنجزها غيره من المستشرقين الروسيين والأجانب. وجمع هذه الاستنتاجات في مقاله "علاقة الرحل بالسكن القار"[4]. ولقد سبق وأشرنا إلى أن أحد أساتذة أكاديمية الرهبان "بقازان"، وهو "إيلمينسكي"[5] الذي اشتهر بعدائه ومحاربته الدين الإسلامي والمسلمين، كان قد التحق بـ"گريگوريِيف" سنة 1858 وعمل كمستشار له في الشؤون الدينية وكأحد مساعديه في توطيد ركائز الاستعمار الروسي في تلك المناطق.

يعد "كريمسكي" أحد أبرز وجوه الاستشراق الروسي في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. وكانت له إسهامات كثيرة في ميدان دراسة الإسلام وتاريخه، ولقد خصصنا له في آخر الفصل الثاني من بحثنا عدة صفحات تعرفنا من خلالها على حياته ونشاطه العلمي[6].

(3) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 35.

(4) صدرت هذه المقالة على صفحات "مجلة وزارة التربية الوطنية الروسية"، عام 1875.

(5) انظر حوله في الفصلين الأول والثاني من هذه الدراسة.

(6) نذكر من بين مؤلفاته في مجال الأبحاث حول الإسلام:

- نبذة عن تطور الصوفية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، موسكو، 1895.

=

وفي بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر اهتم بموضوع الدراسات الإسلامية أحد كبار الفلاسفة الروسيين في عصره، ويتعلق الأمر بـ"دوبرولوبوف" (N. Dobroliubov) (1836-1861) الذي عرف كذلك بانتمائه للحركة "الثورية الاجتماعية الديمقراطية"، فلقد كتب هذا الفيلسوف سنة 1858 مقالة نقدية(7) خصصها لكتاب "واشنطون إيرڤينگ" (Washington Irwing) "حياة محمد"(8) الذي صدر سنة 1849، وتمت ترجمته إلى الروسية بعد ذلك بقليل. وقد أعطى "دوبرولوبوف" في مقاله نظرة عن المؤلفات الروسية التي تناولت هذا الموضوع بالدرس، وأبدى انتقادات نحو المؤلفين الذين يهملون التطور التاريخي للشعوب. وكان "دوبرولوبوف" أول الباحثين الروسيين الذين حاولوا إلقاء النور على شخصية الرسول وعلى دوره السياسي والديني(9). وفي مقاله "حول مغزى آخر مآثر جيوشنا في القوقاز" حاول الفيلسوف دراسة الطائفة "المريدية" وحركة الشيخ شامل في "داغستان". واستنتج أنه لا يجوز تفسير هذه الحركة بانتشار الطرق الصوفية فقط، بل يجب البحث عن أسبابها بالأخص في عداء السكان نحو الروسيين الذين يحاولون احتلال وطنهم. وانتهى إلى أن هزيمة شامل جاءت نتيجة الابتزاز والنهب الذي كان يقوم به نوابه في حق قبائل هذه المناطق(10).

يعتبر العالم "بارتولد"(11) أحد أبرز وجوه الاستشراق الذين أنجبتهم روسيا، وهو كما سبقت الإشارة إليه، أحد تلاميذ الأستاذ "روزين". لقد

= - الإسلام ومستقبله وماضيه والحالة الراهنة للشعوب الإسلامية ومواهبها العقلية وموقفها من الحضارة الأوروبية، موسكو، 1899. (أعيد طبع هذا الكتاب باللغة الأوكرانية بعدما أدخل عليه مؤلفه عدداً من التعديلات والإضافات، وجاء تحت عنوان "الإسلام ومستقبله"، لڤوف، 1914.

- محاضرات في القران، موسكو، 1902.

(7) صدر هذا المقال على صفحات مجلة "سوڤريمينيك" (Sovremennik)، سنة 1858.

(8) Irving Washington, Life of Mahomet, New-York, 1849.

(9) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 36.

(10) ن. سميرنوف، أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام، ص. 50-51-52.

(11) خصصنا المبحث الأخير من الفصل الثاني من دراستنا هذه "لبارتولد" ومؤلفاته.

انظر حوله كذلك، العقيقي، ج 3، ص. 79-80.

كتب هذا العالم عدداً كبيراً من المؤلفات حول تاريخ الشرق عامة والشرق الإسلامي خاصة. ومن بين كتاباته التي تناولت بالدرس موضوع الإسلام وتاريخ شعوبه نذكر على الخصوص:

- "الفكرة الثيوقراطية والسلطة الدنيوية في الدولة الإسلامية" (1902) و"الخليفة والسلطان" (1912). يرسم "بارتولد" في هذين المؤلفين تاريخ العلاقات بين السلطة الدنيوية والدين، ويستنتج أن الدين يخضع دائماً للسلطة، كما يستنتج أن الدين مرغم على مسايرة ظروف الحياة وليس العكس.

- "تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا"، صدر هذا الكتاب سنة 1911، ويعتبر من أهم مؤلفات "بارتولد"، ولو أن موضوع الإسلام لا يحتل فيه مكانة كبيرة[12].

- "الإسلام" (1918)، أعطى "بارتولد" في هذا الكتاب أهمية كبيرة للتيار التجديدي في البلدان الإسلامية، ويستنتج أن هذه الحركة قامت لمحاربة التأثيرات الأوروبية وكذا الأنماط القديمة للحياة في المجتمعات المسلمة...

- "حضارة الإسلام"[13] (1918). اعتنى فيه "بارتولد" بحضارة الشعوب الإسلامية عامة والعربية والفارسية والتركية خاصة. كما أبرز المكانة الخاصة التي يحتلها تاريخ العالم الإسلامي في تاريخ البشرية وركز على الأهمية العالمية للدين الإسلامي واللغة العربية وأدبها وعلى وحدة الفكر عند الشعوب الإسلامية. كما تناول بالدرس موضوع الثقافة الإسلامية في القرون الوسطى وسبب انحطاطها. واهتم العالم في المجلة التي كان يصدرها ("عالم الإسلام") بالدراسات البيبليوغرافية والنقدية للكتابات الروسية والأوروبية الغربية حول الإسلام. ومن المقالات التي

(12) انظر حوله في المبحث المخصص "لبارتولد" في الفصل الثاني من دراستنا.

(13) ف، بارتولد، حضارة الإسلام، بيتروگراد، 1918.

(14) انظر المبحث الخاص ببارتولد في الفصل الثاني من بحثنا.

نشرها نذكر على وجه الخصوص "القرآن والبحر" (1925) وهي المقالة التي يتساءل فيها المؤلف كيف استطاع النبي محمد ﷺ "الحصول على تلك المعلومات" الدقيقة التي وردت في القرآن الكريم في موضوع الزوابع البحرية"، لأن موضوع البحر لا وجود له البتة في الأدب الشعبي العربي في الجاهلية. ولقد كانت "لبارتولد" مواقف جد مشرفة في الدفاع عن الاستشراق العلمي في وجه التيارات الدينية المتعصبة التي تجمّع أصحابها حول مجلة "التبشير المناهض للإسلام" التي كانت تصدرها أكاديمية "قازان". وعن هذه المواقف يقول الدكتور سهيل رزق الله: «... لقد تابع "بارتولد" تقاليد أستاذه "روزين" في نقد اتجاه هذه المجلة، ومن ورائها منظري البلاط القيصري والمستشرقين اليهود المتأثرين بالإيديولوجية الصهيونية. ففي معرض تقويمه لكتاب المؤرخ الروسي "تسفيتكوف"، شن سهام نقده العلمي لكل من يتحيز للعصبية الدينية واللاتاريخية وكتب يقول: «إن الحضارة الإسلامية هي ظاهرة تاريخية، ليست من البساطة بمكان لكي يتناولها المرء بمقالة أو ببحث صغير، فلا يمكن إدراك الحياة المعاصرة للعالم الإسلامي بدون معرفة ماضيه. وفي هذا الحقل من المعرفة، كما هي الحال في أي حقل آخر، تقتضي الضرورة التوقف عند الإنجازات التي توصلت إليها الأبحاث العلمية، لا التسرع في الاقتباس العشوائي لبعض المقتطفات من الكتب المدرسية. فهذه الحقائق البسيطة لم يدركها للأسف في روسيا إلا عدد قليل من الاختصاصيين»[15].

إن الحديث عن الاستشراق الروسي لا بد أن يأتي بنا إلى ذكر العالم "كراتشكوفسكي" الذي نال شهرة واسعة، كما هو معلوم، في مجال الدراسات الأدبية، غير أنه لم يكتف بهذا المجال، وحده، بل تعداه ليتناول بالدرس موضوعات أخرى في اللغويات والتاريخ والجغرافية والدراسات الإسلامية... ونظراً لأهمية أعماله في شتى المجالات فقد

(15) سهيل رزق الله، بارتولد والحضارة العربية الإسلامية، مجلة "الفكر العربي"، عدد 31، 1983، ص. 334.

خصصنا له فصلاً كاملاً ضمن دراستنا هذه حاولنا فيه إبراز شخصيته ونشاطه العلمي. وسوف نكتفي هنا بذكر بعض إسهاماته في ميدان الدراسات الإسلامية الذي دخله سنة 1911 بترجمته كتاب "گولدزيهر" "الديانة الإسلامية" إلى اللغة الروسية[16]. وتجدر الإشارة إلى أنه أضاف إلى هذه الترجمة بيبليوغافية غنية أشار فيها إلى ضعف المؤلفات الروسية في مجال دراسة الدين الإسلامي. وأصدر "كراتشكوفسكي" عام 1930 مقالة عنوانها "معنى مصطلح" نجم "في القرآن".

ومن أهم مؤلفات "كراتشكوفسكي" كذلك كتابه الجامع "دراسات في تاريخ الاستعراب الروسي" الذي صدر سنة 1950. وهذا المؤلف عبارة عن دراسة شاملة ليس فقط لتاريخ الدراسات العربية الإسلامية في روسيا منذ نشأتها حتى العقد الرابع من هذا القرن، بل لجميع العلاقات الروسية العربية القديمة الرسمية منها وغير الرسمية. وهو يمثل دون شك المرجع الأساسي لكل مهتم بهذا الموضوع. ولعل أهم إنجاز قدمه هذا العالم الكبير للاستعراب الروسي والعالمي يتمثل في ترجمة معاني القرآن الكريم التي أنجزها مباشرة من الأصل العربي. وسوف نعود لهذا الحدث البارز في سياق حديثنا عن موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية.

يكوّن الأساتذة "ميدنيكوف" (N. A. Mednikov)[17] (1855-1918) و"جوكوفسكي" (Valentin. A. Jukovskiy)[18] (1858-1918) و"شميدت" (A. E. Shmidt)[19] (1871-1939) بالإضافة إلى "بارتولد" و"كراتشكوفسكي" و"كريمسكي" طائفة من العلماء لقبت خلال العهد السوفييتي "بمجموعة اللامنتمين"، وهذا المصطلح يعني أنهم لا يستندون في أبحاثهم إلى المنهج "الماركسي اللينيني" الذي سنه الحزب

---

(16) گولدزيهر، الإسلام (Die Religion des Islams). ترجمه إلى الروسية كراتشكوفسكي، سان بيترسبورگ، 1911.
(17) انظر حوله: العقيقي، المستشرقون، ج 3، ص. 76-77.
(18) نفسه، ص. 77.
(19) نفسه، ص. 80.

الشيوعي وفرضه على الباحثين ليكون لهم بمثابة إطار "علمي" لا بد من احترامه والعمل به في جميع العلوم. ويعيب الباحث السوفييتي "سميرنوف" على أفراد هذه المجموعة أنهم كانوا يجهلون مفهوم صراع الطبقات ولا يعرفون أدنى شيء عن مشاغل الأغلبية الساحقة من الشعب، وانطلاقا من وضعيتهم هذه فإنهم معرضون لكثير من الأخطاء في تحليلاتهم...[20]. ولقد بقيت هذه المجموعة من العلماء متشبثة بالتقاليد العلمية الجامعية التي ورثها أغلب أفرادها عن أستاذهم "البارون روزين". والجدير بالذكر أن "لمييدنيكوف" و"جوكوفسكي" و"شميدت" إسهامات مهمة في مجال الدراسات الإسلامية شأنهم في ذلك شأن زملائهم الآخرين الذين سبق أن تعرفنا عليهم. فلقد نال "مييدنيكوف" شهرة واسعة سنة 1903 بعد صدور كتابه "فلسطين منذ فتحها من قبل العرب إلى الحروب الصليبية". ويتألف هذا الكتاب من أربعة أجزاء وبه دراسة للمصادر التاريخية لأهم الأحداث التي عرفتها فلسطين، كما نجد به نبذة عن حياة عدد من قادة العالم الإسلامي، يقول العقيقي في حق "مييدنيكوف": «من تلاميذ "البارون روزين" المتضلعين في العربية. وتخرج عليه كثيرون»[21]. أما "شميدت" فقد تخرج كذلك على "روزين" ثم على "گولدزيهر"، وتضلع في العربية والتاريخ والفقه الإسلامي، وقد عمل مدة عشرين سنة أستاذا في جامعة "سان پيترسبورگ"، وانتقل بعد الثورة إلى "طاشقنت" (1920) حيث أنشأ جامعة بها وعين أول رئيس لها...[22] و"لشميدت" عدة مؤلفات في مجال الدراسات الإسلامية، نذكر منها على الخصوص:

- "عرض حول تاريخ الدين الإسلامي"، وهي مقالة نشرت سنة 1912 في مجلة "عالم الإسلام" التي كان يديرها "بارتولد".

---

(20) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 44-45.

(21) العقيقي، ...، ج 3، ص. 77.

(22) N. Elisseef, L'Islamologie..., p. 45.

- "عبد الوهاب الشعراني وكتاب الدرة المنثورة"، 1914.

- "النبي محمد"، وهي مقالة صدرت على صفحات "الحوليات الشرقية" عام 1916.

- "من تاريخ العلاقات السنية الشيعية"، وهي دراسة حول محاولة التقارب بين السنة والشيعة في عهد نادر شاه، 1927 [23].

ومن أهم كتابات المستشرق "جوكوفسكي" نذكر على سبيل المثال:

- "البهائية"، 1916.

- "الإعدامات الأخيرة في صفوف البابيين"، 1888.

- التصوف الفارسي"، 1928 [24].

---

(23) العقيقي...، ج 3، ص. 78.

(24) N. Elisseef, L'Islamologie, p. 45.

II- القرآن الكريم، ترجمة معانيه إلى اللغة الروسية ودراسات حوله

سبق في الفصل الأول من هذه الدراسة أن أشرنا إلى طبعات القرآن الكريم في أصله العربي التي أنجزت في روسيا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر في كل من "سان پيترسبورگ" و"قازان".

ويعتبر موضوع ترجمة معاني القرآن الكريم ودراسة بعض جوانبه أحد الموضوعات الأكاديمية الجادة التي أخذت حيزاً مهماً من اهتمامات عدد من المستشرقين الروسيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى الترجمات الأولى التي خضع لها المصحف الكريم في الإمبراطورية الروسية. وهي ثلاث، كانت أولاها عام 1716، وقد أنجزها "پوسنيكوف" (Posnikov) انطلاقا من الترجمة الفرنسية لـ"دي رييي" (A. Du Ryer) التي يرجع عهدها إلى عام 1647، وكانت الثانية عام 1790 وهي لـ"ڤيريوفكين" (Veryovkin) الذي نقلها عن نفس الترجمة الفرنسية المذكورة، أما الثالثة فكانت عام 1792 وهي لـ"كولماكوف" (Kolmakov) الذي أنجزها انطلاقاً من ترجمة "سالي" (J. Sale) الإنجليزية. غير أن هذه الترجمات لم تعد تساير اهتمامات ومتطلعات المدرسة الاستشراقية الجديدة، فبدأت الساحة تعرف عدداً من المنجزات، وذلك منذ الستينات من القرن التاسع عشر.

وهكذا صدرت في موسكو عام 1864 ترجمة لمعاني القرآن الكريم أنجزها "نيكولاييف" (K. Nikolaev) انطلاقاً من ترجمة "كازيميرسكي" (A. Birberstein Kazimirskiy) الفرنسية[1]، ونالت هذه الترجمة شهرة واسعة في روسيا وأعيد طبعها عدة مرات. يقول الباحث "غريزنييڤيتش" عن الدور الذي لعبته ترجمات المصحف الكريم الأولى إلى اللغة الروسية: «إنها مارست، على الرغم من كل ما اعتورها من نواقص، دوراً إيجابياً بإتاحتها الفرصة أمام القارئ الروسي للتعرف عن كثب - إلى هذا القدر أو ذاك - على المصحف الإسلامي الشريف. وساعد ذلك على نسخ ما خلفته المدونات التاريخية الإغريقية والمداخلات المسيحية القديمة من تصورات خرقاء عن الإسلام والقرآن، وعن شخصية "محمد" ونشاطه»[2]. غير أن "نيكولاييف" ألح علي تسمية ترجمته "قرآن محمد"[3] رغم أن الترجمة الفرنسية التي انطلق منها تحمل عنواناً واضحاً وهو "القرآن".

والجدير بالذكر أن ترجمة "نيكولاييف" كانت آخر ترجمة تنجز عن طريق لغة وسيطة.

وبدأ المستعربون الروسيون يعدون لنقل المصحف الكريم مباشرة من الأصل العربي. وهكذا أنجزت في نفس الوقت تقريباً ترجمتان، كانت الأولى عام 1871 للجنرال "بوگوسلافسكي" (D. N. Boguslavskiy) (1826-1893)[4] «الذي نال تحصيلا جيداً في علم الاستعراب في الكلية الشرقية بجامعة بطرسبورغ، وقضى سنوات طويلة في العمل كمترجم للسفارة الروسية في الاستانة. وكانت ترجمة "بوگوسلافسكي" التي أتمها

---

(1) Le Koran, traduit par Biberstein kasimirski, Paris, 1840, (1ere édition).
أعيد طبع ترجمة كازيميرسكي هذه مرات متعددة. وكانت الطبعة العشرون عام 1909. ويقول عنها العقيقي "تعوزها بعض الأمانة العلمية" (انظر العقيقي، المستشرقون، ج 2، ص. 499).

(2) غريزنييڤيتش، القرآن في روسيا، ص. 255.

(3) Koran Magometa..., perevod Nikolayeva, Moskva, 1864.

(4) اشتغل بوگوسلافسكي قبل ذلك مترجماً للزعيم القوقازي المسلم الإمام شامل بعد استسلامه عام 1859. وبقيت تجمع الرجلين صداقة حميمة حتى بعد مغادرة الإمام روسيا كما تشهد على ذلك بعض الوثائق (انظر مقالة كراتشكوفسكي "رسالة غير منشورة لشامل"، في مختاراته، ج 6، ص. 551-558).

خلال فترة مكوثه في الشرق تمتاز بالدقة العالية وبالمزايا الأدبية الفريدة، مما جعلها وقتذاك تحظى بتثمين نقاد مرهفي الحس والقلم، أمثال "روزين" و"كراتشكوفسكي"...»[5]. لكن هذه الترجمة بقيت مخطوطة[6]، ذلك أن صاحبها، لما رجع من الشرق، علم بصدور ترجمة أخرى نقلت عن النص العربي كذلك في مدينة "قازان". فتخلى "بوگوسلافكي" عن طبع عمله. وكانت الترجمة الثانية من إنجاز المستشرق القازاني "سابلوكوف" (G. S. Sablukov) (1804-1880) الذي كرس جزءاً مهماً من حياته لهذا العمل، وجاءت الطبعة باللغتين: كل صفحة من الأصل العربي تقابلها صفحة بترجمة معانيها بالروسية[7]. ولقد أضاف سابلوكوف سنة 1879 إلي ترجمته فهرساً للتعريف بعدد من الأحداث التاريخية والأماكن الجغرافية التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كما أنه أصدر سنة 1884 دراسة تحليلية للمصحف الكريم عنوانها "معلومات عن القرآن لكتاب قوانين تعليم الإسلام"، وهي الدراسة التي يقول عنها نجيب العقيقي: "... فيها جدل وحشو..."[8].

ويتفق جل الاختصاصيين على أن بهذه الترجمة عدداً كثيرا من الأخطاء التي يرجع سببها بالأساس إلى ضعف تمكن صاحبها من اللغة العربية.

وبقيت ترجمة "سابلوكوف" الترجمة الوحيدة التي كان المسلمون في روسيا والاتحاد السوفييتي يتداولونها مدة أزيد من 80 سنة.

مع بداية القرن العشرين، وبعد الازدهار الكبير الذي عرفته الدراسات الاستعرابية، لم تعد ترجمة "سابلوكوف" تتجاوب ومتطلبات العلوم

---

(5) غريزنيفيتش، القرآن في روسيا، ص. 55.
انظر حولها كذلك مقالة كراتشكوفسكي، القرآن في ترجمة بوگوسلافسكي، في مجلة "الاستشراق الروسي"، عدد 3، 1945، موسكو - لينينگراد، ص. 293-301.
(6) طبعت هذه الترجمة مؤخراً (1996) في موسكو.
(7) أعيد طبع هذه الترجمة عام 1905، كما أعيد طبعها عدة مرات في السنوات العشر الأخيرة.
(8) العقيقي نجيب، المستشرقون، ج 3، ص. 70.

العصرية. لذا بدأ التفكير في إنجاز عمل جديد يكون في مستوى طموحات المدرسة الاستشراقية الروسية الجديدة.

فقام العالم الأوكراني "كريمسكي"[9] مع مطلع القرن العشرين بإصدار ترجمة لعدد من السور القرآنية مصحوبة بالشروح ضمن سلسلته المشهورة "محاضرات حول القرآن"[10]. غير أن هذه المحاولة توقفت ولم يتمم صاحبها مشروعه هذا. فأخذ العالم "كراتشكوفسكي" على عاتقه هذه المهمة التي تطلبت منه وقتاً طويلاً ومجهوداً جباراً.

ويمكن القول بأن اهتمام "كراتشكوفسكي" بهذا الموضوع ظهر مع بداية خطواته الأولى في عالم الاستشراق ولم ينصرف عنه طوال حياته كلها. غير أن العالم لم يتمكن من رؤية عمله مطبوعا، إذ توفي عام 1951، ولم تصدر ترجمته إلا سنة 1963[11]. إن هذا العمل الذي استغرق أربعين سنة كاملة، مر من عدة مراحل. فقد كان الاهتمام بموضوعه أولاً، والتمهيد للخوض في غماره، ثم البحث المستمر لإنجازه تدريجيا، ومقارنة ما أنجز منه، في كل مرحلة، بأجود الترجمات الأوروبية الغربية.

وبالرغم من أن كراتشكوفسكي" قد وفق إلى حد بعيد في مهمته وأن عمله يعتبر، إلى حدود نهاية الثمانينات من القرن العشرين، أجود ترجمة لمعاني القرآن الكريم وإحدى أجود الترجمات العالمية، بالرغم من هذا كله، فإن عمله لا يخلو من هفوات متفاوتة الخطورة.

---

(9) انظر حوله المبحث الذي يحمل عنوان "سن رشد المدرسة الاستعرابية الروسية" في الفصل الثاني من هذه الدراسة.

(10) Agafangel Krymskiy, Lektsii po Koranu..., vypusk I, Moskva, 1902.

أعيد طبعه عام 1905.

(11) Moskva, Koran, perevod i kommentarii I. Kratchkovskovo, izd. Nauka, 1963.

(القرآن، ترجمة وتعاليق كراتشكوفسكي، دار النشر «ناووكا»، موسكو، 1963). وقد أعيد طبعه في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1979 في دار النشر Chalidze Publications بنيويورك. كما أعيد طبعه عدة مرات في كل من موسكو ودوشانبي بعد سقوط الاتحاد السوفييتي.

انظر الصفحات التي خصصناها لهذه الترجمة في مقالنا: "القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الروسية"، مجلة "التاريخ العربي"، العدد 8، 1998، ص. 153-169.

وبعد زوال الدولة السوفييتية، عاد الاهتمام من جديد بهذا الموضوع بشكل مثير للانتباه من قبل مسلمي جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق عموما وجمهورية روسيا الفيدالية خصوصا. وقد أدى هذا الإقبال الكبير على قراءة كتاب الله والتأمل في معانيه إلى إعادة طبع ترجمتي كل من "سابلوكوف" و"كراتشكوفسكي" عدة مرات كما طبعت ترجمة "بوگوسلافسكي" التي سبق أن أشرنا إليها والتي بقيت مخطوطة حتى هذا العهد. وظهرت في السنوات القليلة الأخيرة (بعد 1991) ترجمات جديدة أخرى أهمها ثلاث: الأولى للأستاذة "پوروخوڤا" (V. Porokhova)[12]، والثانية للأستاذ عثمانوف المعروف في ساحة الدراسات الشرقية بصفته اختصاصياً في اللغة الفارسية، والثالثة للأستاذ شوموفسكي (T. Chumovoskiy).

. ويعتقد الأستاذ علاء الدين فرحات أن "پوروخوڤا"، بسبب جهلها التام اللغة العربية واعتمادها أساساً على ترجمات أجنبية أخرى، قد ارتكبت العديد من الأخطاء[13]. ونعتقد من جهتنا أن هذه الترجمة تنطلق بالأساس من عمل "كراتشكوفسكي" مع بعض المستجدات وكثير من التحايل والتصنع[14].

---

(12) صدرت لها حتى الآن ثلاث طبعات مختلفة هي على التوالي:

- معاني القرآن الكريم باللغة الروسية، ترجمة وصياغة ڤاليريا پوروخوڤا، موسكو، 1991. (تجدر الإشارة إلى أن هذه الطبعة ناقصة، وعدد السور المترجمة 75 سورة وهي تمثل 35٪ تقريبا من مجموع المصحف الكريم. السور الناقصة: من السورة 4 إلي 35).

- معاني القرآن الكريم باللغة الروسية، ترجمة وصياغة ڤاليريا پوروخوڤا، موسكو، 1993، (هذه الطبعة ناقصة كذلك. السور الناقصة: من السورة 10 إلى 35).

- ترجمة معاني القرآن الكريم وتفسيره إلى اللغة الروسية، الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة، موسكو، 1997. (هذه الطبعة كاملة). (تجدر الإشارة إلى أن هذه الترجمة في مختلف طبعاتها أنجزت بمساعدة وتحقيق وإشراف الدكتور محمد سعيد الرشد، وهو زوج المترجمة السيدة إيمان ڤاليريا پوروخوڤا.

(13) علاء الدين فرحات، حول الترجمات الروسية للقرآن، مجلة "ڤيستنك" (مجلة الجمعية الدولية لأساتذة اللغة الروسية وأدبها)، عدد 13، موسكو، 1996، (بالروسية)، ص. 29-30.

(14) لنا دراسة نقدية مقارنة لعدد من الآيات القرآنية المترجمة في عملي كل من "كراتشكوفسكي" و"پوروخوفا". ونأمل نشرها في القريب إن شاء الله.

أما ترجمة عثمانوف التي لم تتح لنا بعد فرصة الاطلاع عليها، فقد أشاد بها الأستاذ علاء الدين فرحات واعتبر أن صاحبها وُفِّق في نقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية[15] غير أن عدداً من النقاد يخالفون هذا الرأي، ويعتبرون أن هذه الترجمة لا تخلو بدورها من عيوب. وهناك في الساحة العلمية في روسيا بعض الترجمات الجديدة التي لم تنشر بعد. ولعل أجودها حالياً وأجود ترجمات معاني القرآن إلى اللغة الروسية عموماً هي التي أنجزها الأستاذ بجامعة موسكو العالم والبحاثة المقتدر وصاحب العديد من الدراسات العلمية الدكتور توفيق إبراهيم الذي تفضل فأطلعَنا، مشكوراً، على بعض أجزائها.

من الملاحظ أن موضوع القران الكريم ودراسة سوره ومصطلحاته لم يلق، خلال العهد السوفييتي، إقبالاً كبيراً من لدن المستشرقين. فإذا ما استثنينا "بارتولد" و"كريمسكي" و"كراتشكوفسكي"... فإننا لا نجد إلا عدداً قليلاً ممن تناولوا هذا الموضوع بالدرس. ولعل أبرزهم: "ڤينيكوف" (I. N. Vinnikov) و"غريزنييڤيتش" (Piotr Grizničvitch) و"كاشتاليڤا" (K. S. Kachtalieva). فقد عُرف الأول بمقالاته حول رسالة خاتم الأنبياء وكذلك بمحاولته تفسير عدد من الآيات القرآنية[16]. وأسدى الثاني خدمات للاستعراب الروسي باهتمامه الواسع بموضوع تاريخ القرآن الكريم في روسيا[17]. أما "كاشتاليڤا" فإنها جعلت من المصحف الكريم مجالاً لأبحاثها. فقد نشرت خلال سنوات 1926-1927-1928 عدة مقالات تناولت فيها بالدرس مختلف قضايا ترجمة معاني القرآن الكريم ومصطلحاته

---

(15) علاء الدين فرات، المرجع المذكور أعلاه، ص. 29-30.

(16) غير أن "ڤينيكوف" عرف أكثر كاختصاصي في اللهجات العربية وفي تأريخ الاستشراق في روسيا وكذلك عرف بمقالاته حول عادات المسلمين في آسيا الوسطى. انظر: العقيقي، ج 3، ص. 101.

(17) انظر على سبيل المثال مقالته: القرآن في روسيا. والدكتور "غريزنييڤيتش" يعمل كباحث في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم في "سان بيترسبورگ"، وهو اختصاصي في تاريخ الثقافة العربية في العصر الجاهلي والقرون الوسطى.

وتسلسل سوره[18]، كما أنها كتبت سنة 1930 مقالة مهمة عنوانها "قصائد بوشكين "قبسات من القرآن، ومصدرها الأول"، واستنتجت من خلال دراستها هذه أن الشاعر حاول إبراز الجانب الديني والفلسفي للقرآن، وأنه لا ينبغي الاعتقاد، كما يروجه البعض، بأنه كان يقصد بعمله الإبداعي هذا التهكم على الكتاب المقدس"[19]. والباحثة على صواب في استنتاجها هذا، ولا أدل على هذا من كون "بوشكين" كتب في رسالة إلى أحد أصدقائه يقول «إن القرآن الكريم هو الكتاب الديني الوحيد الذي أذهل مخيلتي...»[20].

---

(18) أهم هذه المقالات هي:

- حول مصطلح "أسلم" في القرآن، في مجلة "محاضرات أكاديمية العلوم"، 1926، مايو - يونيو، ص. 52-55.
- حول مصطلح "أطاع" في القرآن، نفس المرجع أعلاه، ص. 56-57.
- مسألة التسلسل التاريخي لسور القرآن الثامنة والرابعة والعشرين والسابعة والأربعين، في "محاضرات أكاديمية العلوم" (DAN)، 1927، عدد 5، ص. 102-107.
- حول ترجمة الآيتين السابعة والسبعين والثامنة والسبعين من السورة الثانية والعشرين، (DAN)، 1927، عدد 6، ص. 121-124.
- حول مصطلح "شهد" في القرآن، المرجع نفسه، ص. 117-120.
- حول مصطلح "حنيف" في القرآن، المرجع نفسه، 1928، عدد 8، ص. 157-162.

(19) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 67.

(20) ب. غريزنييفيتش، القرآن في روسيا، ص. 254.

III- البابية والبهائية، الطوائف الدينية

بالرغم من أن البابية والبهائية بعيدتان كل البعد عن الدين الإسلامي ارتأينا إثارة اهتمام الاستشراق الروسي بهما وذلك لكون هاتين الحركتين ظهرتا في بلد مسلم هو إيران ثم انتقلتا إلى بلدان إسلامية أخرى وخاصة إلى آسيا الوسطى.

وقد شكل هذا الموضوع إحدى النقط التي شغلت بال المستشرقين الروسيين منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي، وتزايد اهتمامهم به فيما بعد وتكاثرت الكتابات حوله. ومما لا شك فيه أن عدداً من المستشرقين تناولوا هذا الموضوع بالدرس انطلاقا من انشغالهم بالعلم والمعرفة، غير أن قسطاً وافراً من هذا الاهتمام كان نابعاً من حرص المسؤولين عن الإدارة في المناطق المسلمة على فهم هاتين الظاهرتين واستغلالهما، إن اقتضى الحال، لأغراض سياسية تخدم مصالحهم الاستعمارية. ولم ينحصر هذا الاهتمام في المستشرقين وحدهم، بل تعداهم ليشغل بال الفلاسفة والأدباء كالكاتب والفيلسوف الروسي الشهير "لييف تولستوي" (Lev Tolstoy) الذي كانت له مراسلات في هذا الشأن مع عدد من رجال الفكر المسلمين المشرقيين. لقد كتب "تولستوي" في إحدى رسائله إلى الإمام محمد عبده يطلب منه «تزويده بمعلومات حول البابية في الأوساط العربية"، ويخبره بأنه مهتم كثيراً بهذه الحركة»[1]. وفي

---

(1) أ. شيفمان، لييف تولستويْ والشرق، دار النشر ناووكا، موسكو، 1971، ص. 384 (بالروسية).

A. Chifman, Lev Tolstoy i Vostok.

رسالة أخرى إلى أحد مراسليه يعرب الكاتب عن تعاطفه مع البابيين واستعداده التام للدفاع عن معتقداتهم[2]. ويفسر الباحث السوفييتي "سميرنوف" اهتمام مختلف الأوساط الروسية بالبابية والبهائية ويقول: «إنه تحت غطاء "البابية" كانت تختبئ حركة سياسية امتد نفوذها إلى الأوساط الشعبية، خاصة في المدن، وقامت هذه الحركة ضد السلطة الإقطاعية لشاه إيران في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. ولم يهتم المستشرقون وحدهم بهذه الحركة، ذلك أنها ظهرت وتقوت في بلد له حدود مع روسيا. وهذا ما دفع بالإدارة الاستعمارية في كل من آسيا الوسطى وبلاد القوقاز إلى الاهتمام بها، خاصة أنه بعد سحقها في إيران، التجأ العديد من أنصارها إلى مدينتي "عشقآباد" و"باكو"[3]. وبعد هزيمتها تخلت البابية عن السياسة وتحولت إلى طائفة تسعى إلى التكيف مع مصالح البورجوازية الجديدة التي بدأت تظهر أولى عناصرها في إيران آنذاك. واستبدلت البابية اسمها خارج إيران، وصارت تعرف بـ "البهائية"، ورحل مسيروها إلى فلسطين ثم إلى أوروبا قبل أن يستقروا نهائيا في أمريكا...»[4].

وكان "كاظم بك" أول من اهتم بهذا الموضوع من المستشرقين، وهو كما أشرنا إلى ذلك من أصل أذربيجاني، وله كتاب عنوان "الباب والبابيون: الاضطرابات الدينية والسياسية في بلاد فارس خلال الفترة الممتدة ما بين 1844 و1852"[5]، يقدم فيه صورة لحياة "الباب" ونشاطه إلى حين إعدامه، ولقد ركز الكاتب على الدور السياسي الذي لعبته البابية.

وتزايد الاهتمام بهذا الموضوع بشكل مثير للانتباه كما تزايد عدد المؤلفات حوله خاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن

---

(2) نفسه.
(3) هما مدينتان كانتا بداخل الإمبراطورية الروسية آنذاك...
(4) سميرنوف، أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي، ص. 71-72.
(5) نفسه، ص. 72.

العشرين وكذلك خلال العهد السوفييتي. ومن بين أهم هذه الكتابات نذكر على الخصوص:

- البابية، طائفة فارسية"، وهي دراسة للباحث "باتيوشكوف" (G. Batiuchkov) صدرت عام 1897.

- "كتاب الأقداس لبهاء الدين"، وهي ترجمة لهذا الكتاب إلى اللغة الروسية أنجزها "تومانسكي" (A. Tumanskiy) عام 1899.

- "البهائية" للباحث السوفييتي "أرشاروني" (A. Archaruni)، صدر هذا المؤلف بموسكو عام 1930. ويستنتج فيه صاحبه أن "البهائية" تمثل خطراً على وعي الطبقة العاملة، «شأنها في ذلك، حسب قوله، شأن جميع الديانات».

- "البهائية: الدين الجديد في الشرق"، صدرت هذه الدراسة في "لينينگراد" عام 1930، وهي بقلم "داروف" (I. Darov) الذي قام بتحليل خطاب "عبد البهاء" وكتاباته.

- "بهاء الدين النقشبندي البخاري"، وهي مقالة لـ "گوردليفسكي" (V. Gordlevskiy)[6] نشرت في "لينينگراد" سنة 1934 ضمن كتاب "منوعات" أولدنبورگ" (1934). وللمؤلف دراسات أخرى حول هذا الموضوع.

- "الثورات البابية في إيران (1848-1852)" للباحث "إيڤانوف" (M. Ivanov). صدر هذا الكتاب في لينينگراد عام 1939. وقد اعتمد المؤلف عدداً كبيراً من المؤلفات الروسية والأوروبية، وكذلك مراجع لمؤلفين من أنصار البابية، بالإضافة إلى مراجع في تاريخ إيران. ويرى "إيڤانوف" أن "الباب"، بحكم انتمائه إلى طبقة التجار، يعطي هذه الأخيرة مكانة خاصة في تعاليمه التي تتعارض في مجملها مع مصالح الطبقات الشعبية وخاصة منها طبقة الفلاحين الصغار.

---

(6) انظر حوله: العقيقي، ج 3، ص. 83.

وكان للطوائف الدينية الإسلامية نصيبها في الدراسات الاستشراقية الروسية والسوفييتية التي اهتمت أساسا بالإسماعيلية والدراويش؛ وخاصة بالطريقة النقشبندية التي ذاعت شهرتها في روسيا تحت اسم "المريدية". فلقد اهتم بها "كاظم بك" وكتب عنها بعض المؤلفات. وتجدر الإشارة إلى أنه أنصفها في كتابه "المريدية وشامل" حين رأى فيها طائفة دينية استطاعت أن تجمع حولها قبائل شمال القوقاز للجهاد في سبيل الله، كما أنه أنصفها حين اعتبر الحركة التي قادتها حرب تحرير حقيقية[7]، رغم ما أولاه من أهمية للدور الذي لعبته بعض الدول الأجنبية فيها.

واهتم بهذا الموضوع كذلك "ميرزا فتح الله أخوندوف" (1812-1878) وهو من أصل شرقي كذلك[8]. وكان من الموالين لسياسة التقارب مع الإمبراطورية الروسية، ولقد ترك هذا الباحث عدداً كبيراً من المؤلفات، وكان ينتقد في البعض منها طائفة "النقشبندية" ويتصدى بشدة لحركة الشيخ شامل. ووجه عدة نداءات إلى سكان المناطق الجبلية في القوقاز يدعوهم إلى "التحرر من الدين ونهج سبيل الديموقراطية"[9].

لم ينحصر اهتمام المستشرقين الروسيين على الطائفة النقشبندية وحدها، بل شمل كذلك عدداً من الطوائف الأخرى. وقد نشرت عدة أبحاث ودراسات حولها. وهكذا صدر عام 1886 كتاب "الدراويش في العالم الإسلامي"، وهو بقلم المستشرق القس "پوزدنييف" (P. Pozdneev) الذي عمل في بدايته ضمن سلك الإدارة الروسية في آسيا الوسطى. وقد قسم المؤلف كتابه إلى قسمين، تناول بالدرس، في قسمه الثاني، تنظيمات جماعات الدراويش وعاداتهم، وتعتبر هذه الدراسة نتيجة أبحاثه الميدانية التي قام بها في بلاد "التركمانستان". وفي عام 1893 صدر في مدينة "تيفليس"[10] كتاب للباحث "سيگال" (Segal) يحمل عنوان

(7) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 41.

(8) أصل "أخوندوف" و"كاظم بك" من بلاد "أذربايدجان".

(9) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 37.

(10) تيفليس" هو الاسم القديم لمدينة "تبيليسي" (Tbilissi) عاصمة جمهورية جورجيا حاليا، و"تيفليس" هو الإسم الذي كان متداولا في الكتابات العربية القديمة.

"الطوائف الإسلامية في بلاد ما وراء القوقاز" . ويخرج المؤلف بعدد من الاستنتاجات، أهمها أن الطائفة الدينية ما هي، في واقع الأمر، إلا تأويل خاص للقرآن الكريم(11).

ومن بين المستشرقين الذين كان لهم اهتمام خاص بالطائفة الإسماعيلة نذكر على سبيل المثال "بوبرينسكي" (A. Bobrinskiy)، مؤلف كتاب "الطائفة الإسماعيلية في المناطق الحدودية لآسيا الوسطى"، (1901). وكذلك "سيمينوف" (A. Semenov)(12)، صاحب عدد كبير من المقالات نذكر منها على الخصوص "المعتقدات الدينية عند الإسماعليين الشوگان"(13). ولا بد من الإشارة كذلك إلى كتاب "الصوفية في الإسلام" الذي صدر سنة 1906 في مدينة "سمرقند" بقلم الطبيب النفساني "كازانسكي" (K. Kazanskiy) الذي حاول دراسة طائفة الدراويش من وجهة نظر علم النفس الحديث ويرى الباحث، في سياقة حديثه عن تاريخ الصوفية، أنها نشأت في اليمن وانتقلت إلى العراق ثم إلى بلاد فارس حيث اتخذت أشكالا مغايرة للزهد عند العرب(14).

---

(11) N. Elisseef, L'Islamologie..., p. 43.

(12) انظر حوله: العقيقي، ج 3، ص. 82.

(13) صدرت هذه المقالة على صفحات مجلة "عالم الإسلام"، عام 1912.

(14) N. Elisseef, L'Islamologie..., p. 48-49.

IV- السياسة والإسلام والتشريع الإسلامي

يُشكل موضوع "الإسلام والسياسة" أحد الموضوعات التي اهتم بها المستشرقون الروسيون قبل الثورة البولشيفية وبعدها. فبالنسبة للفترة الأولى تصدر هذا الاتجاه كل من "گلاگولييف" (Glagolyev) و"تشيريڤانسكي" (Tcherevanskiy). وقد حاول الأول، وهو صاحب كتاب "الإسلام" أن يبرز الطابع السياسي للدين الإسلامي وينتهي فيه إلى أن القرآن كتاب للمبادئ وليس للقواعد. أما الثاني فهو أحد أبرز وجوه الاستشراق الروسي الذين كتبوا عن الإسلام، وتجدر الإشارة إلى أنه تقلد عدة مناصب سياسية وكان يعتبر أحد كبار المختصين في مجال السياسة الإسلامية للإدارة الاستعمارية.

كتب "تشيريفانسكي" عدداً من المؤلفات، لعل أهمها: "العالم الإسلامي ويقظته" و"ورقات حول قضايا عقيدة المسلمين السنيين" (1905). والمؤلف لا يخفي في كتاباته اندهاشه أمام نجاح فكرة الوحدة الإسلامية التي يرى فيها حركة مناهضة لإنگلتيرا وروسيا وأوروبا قاطبة، كما لا يخفي قلقه إزاء التقدم المتزايد للإسلام.

أما خلال العهد السوفييتي فإن أهم الأعمال التي أنجزت في هذا المجال تتلخص في ما يلي:

- "الإسلام والشرق المعاصر" بقلم "سميرنوف". صدرت هذه الدراسة سنة 1928 وحاول فيها صاحبها بحث تنظيمات الدين الإسلامي والدور السياسي للإسلام وإعطاء صورة للحالة الراهنة للإسلام في كل من مصر وتركيا وإيران والهند.

- "الإمبريالية والدين في المستعمرات" لـ "زوييڤا" (M. Zoeva) . طبع هذا الكتاب سنة 1930 ، وهو يتألف من خمسة فصول، هي : 1- الإمبريالية الإنكليزية ورجال الدين في أفغانستان، 2- التعصب الديني : سلاح الإمبريالية الإنكليزية في الهند، 3- السياسة الصهيونية لإنكلتيرا والحركات الفلسطينية، 5- المنافسة الفرنسية الإيطالية والكنيسة الكاثوليكية في الشرق الأوسط[1].

وبخصوص الأحداث التي وقعت في فلسطين قبل 1930 ، فإن المؤلفة تعتبرها مظهراً من مظاهر حركة التحرير الوطني التي عرفتها جميع الأقطار العربية آنذاك، وليس صراعاً دينيا بين العرب واليهود كما كانت تزعمه الصحافة الإنكليزية والأمريكية[2].

ومن الملاحظ أن الاستشراق السوفييتي بدأ منذ الثلاثينيات يولي اهتماماً كبيراً لدراسة القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة لبلدان الشرق الإسلامي، وأخذ يهتم بالدين الإسلامي خارج حدود الاتحاد السوفييتي وبحركات التحرير الوطني في الأقطار الإسلامية. كما أن سياسة التهجم على الإسلام ومحاولة النيل من سمعته التي بدأت في أواخر العشرينيات قد تقوت وعرفت تزايداً مستمراً. وتجند بعض المستشرقين لأداء هذه المهمة وركزوا في كتاباتهم على ما أسموه بتعامل رجال الدين المسلمين مع الإمبريالية والاستعمار في مختلف أنحاء العالم. ولعل أهم المؤلفات حول هذا الموضوع هي :

- "المسلمون في الهند" (1931) للباحث "كاموف" (A. Kamov) الذي حاول دراسة تاريخ الهند السياسي وتطور المجتمع المسلم بها. وركز في بحثه على ما أسماه "بدور الإسلام المناهض للثورة داخل الحركة الوطنية الهندية"[3].

---

(1) نفسه، ص. 67-68.

(2) نفسه، ص. 68.

(3) ن. سميرنوف، أبحاث حول تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي، ص. 231-232.

- "المسألة الوطنية في الهند والإمبريالية الإنكليزية"[4] (1948) بقلم "دياكوف" (A. Diakov) الذي اتبع فيه النهج الذي رسمه "كاموف" من قبله.

- "ضد الأيديولوجية الرجعية لفكرة الوحدة الإسلامية والوحدة التركية "للمستشرق سابيتوف" (V. Sabitov)، صدر هذا المقال سنة 1949[5] وحاول فيه المؤلف دراسة ما عبر عنه «بجذور فكرة الوحدة الإسلامية التي لها ارتباط خاص بالرجعية والبورجوازية، شأنها في ذلك شأن الوحدة العربية والوحدة الإيرانية والوحدة التركية...»[6].

- "الإسلام في روسيا القيصرية" لـ "كليموفيتش" (Klimovitch)، صدر هذا الكتاب عام 1935. وحاول فيه مؤلفه إظهار الدين الإسلامي كأداة لخدمة السياسة القيصرية الداخلية خلال تاريخ روسيا كله. فالإسلام، في نظره، كان دائما حليفاً لمضطهدي الشعب وعدوا للحركات السياسية الإصلاحية والتقدمية...

سبق أن أشرنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة إلى الدور الخطير الذي لعبته شعبة التنصير التابعة لأكاديمية الرهبان الأورثوذوكس بمدينة "قازان" في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولقد كانت للحملة المغرضة التي استهدفت الإسلام ومقدساته آثار سيئة على مستقبل الدراسات الإسلامية في ربوع روسيا كلها. ونتيجة لهذه الهجمات تجندت أقلام المستشرقين المبشرين والمستشرقين الموظفين للنيل من مقدسات الدين الإسلامي وسمعة نبيه محمد ﷺ. واستمرت هذه الحملة بشكل آخر تحت النظام السوفييتي، وخاصة في أواخر العشرينيات وبداية الثلاثينيات لما استقر الحكم في يد الشيوعيين وبدأت سياسة القبضة الحديدية التي ميزت عهد "ستالين". فعرفت الساحة الاستشراقية الروسية صدور العديد من المؤلفات التي جعلت من العداء للإسلام هدفها الأسمى.

(4) نفسه، ص. 263-265.

(5) صدر على صفحات مجلة "أخبار الأكاديمية الكازاخية".

(6) سميرنوف، أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام، ص. 260.

ومن مؤلفات هذا الاتجاه قبل الثورة البولشيفية نذكر على الخصوص:

- "محمد، حياته وتعاليمه الدينية" الذي صدر سنة 1896، وهو بقلم الفيلسوف "سولوفييف" (V. Soloviev) الذي حاول فيه إعطاء تحليل نفساني لشخصية الرسول ﷺ انطلاقاً من مختلف فترات حياته واستناداً إلى الحديث، كما حاول أن يتعمق من منظوره الخاص في فلسفة القرآن.

- "الدراسات الإسلامية"، هذا عنوان عام لمجموعة من خمسة كتب للمستشرق الموظف "أوستروؤموف" (N. Ostroumov) الذي تخصص في دراسة الدين الإسلامي، وتناول هذا الموضوع في كتاباته من منظور هيئات التنصير التابعة لأكاديمية قازان. وتحمل هذه الكتب الخمسة العناوين التالية: 1- الجزيرة العربية، 2- القرآن، 3- أركان عقيدة القرآن، 4- الشريعة، 5- مدخل إلى درس الدراسات الإسلامية. وتجدر الإشارة إلى أن "أوستروؤموف" كان يشغل منصباً سامياً في الإدارة الاستعمارية الروسية في آسيا الوسطى، فكان هدفه من وراء الأبحاث التي كان يقوم بها هو «فهم عقلية الشعوب التي ضمتها الإمبراطورية الروسية إليها ومحاولة استغلال هذه الدراسات لصالح الإدارة الاستعمارية قصد التحكم في مستقبل الشعوب المسلمة بهذه المناطق»[7].

- "الإسلام"، هو عنوان كتاب بقلم "تسفيتكوف" (P. Tsvetkov) الذي عاش بعض الوقت في آسيا الوسطى وخاصة في "تركمانستان"، وكان متأثراً بالهيئات التنصيرية الأورثوذوكسية التي كانت تعمل في هذه المناطق تحت إمرة أكاديمية قازان. وقد أعطى المؤلف في كتابه عدداً كبيراً من المعلومات حول الممارسات الدينية في آسيا الوسطى، وانتهى فيها إلى أن الدين الإسلامي لا يكون قوياً إلا في المجتمعات المتأخرة التي لم يدخلها التقدم بعد...»[8] وكما هو الشأن بالنسبة لهذا الصنف من

---

(7) نفسه، ص. 120.

(8) نفسه، ص. 117.

المؤلفات فإن الإدارة الاستعمارية الروسية استغلت كتاب "الإسلام" على نطاق واسع في مناهضتها للدين الإسلامي والمسلمين في آسيا الوسطى وفي غيرها من المناطق المسلمة التابعة لها(9).

أما في العهد السوفييتي فإنه لوحظ، خلال سنواته الأولى، توقف الحملة المعادية للإسلام، ويرجع سبب ذلك إلى أن النظام الجديد كان يبحث عن الدعم من طرف جميع الشعوب المكوّنة للإمبراطورية الروسية المنهارة، وخاصة منها الشعوب المسلمة. فبعد إصداره "البيان حول حقوق شعوب روسيا" عام 1917، وجه المجلس السوفييتي الأعلى سنة 1918 نداء إلى شعوب التتر والقرغيز والأوزبيك والتركمان وجبال القوقاز وغيرهم من الشعوب المسلمة، يعدهم بكامل الحرية في تسيير شؤونهم الدينية والدنيوية... لكن الأمور سرعان ما تغيرت خاصة مع بداية عهد "ستالين" الذي عرف تصعيداً لم يسبق له مثيل في محاربة الدين الإسلامي(10)، وشجعت الدولة الكتابات المعادية للإسلام. وهكذا أصدر "كليموفيتش" (L. Klimovitch) سنة 1928 كتاباً عنوانه "محتوى القرآن" عرض فيه ما أسماه بمبادئ الديانة الإسلامية وحاول، على حد تعبيره، "إبراز التناقضات"(11) الموجودة في المصحف الكريم، ولهذا المستشرق مؤلفات أخرى مناهضة للإسلام كمقالتيه "الحاج مصاص الدماء في الإسلام" (1930) و"عيد الأضحى" (1933)، واهتم "كليموفيتش" بموضوع "نشأة الإسلام" كذلك، وتوصل في الدراسات التي قام بها إلى نفس النتيجة التي توصل إليها جل المستشرقين السوفييتيين الذين تناولوا هذا الموضوع بالدرس، وهي أن الإسلام ما جاء إلا لخدمة مصالح تجار مكة. ولنفس المؤلف مقال عنوانه "هل عاش فعلا محمد؟" ينكر فيه

---

(9) نفسه، ص. 118.

(10) انظر على سبيل المثال: ف. پاريجا، الدراسات الإسلامية، بيروت، 1957-1963.

F. M. Pareja, Islamologie. Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1957-1963, p. 576.

(11) ن، سميرنوف. أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام ص. 166.

وجود الرسول عليه الصلاة والسلام ويتساءل إن كان قد عاش فعلا! كما يشكك في المعلومات الواردة في المصادر العربية لأنها، حسب رأيه، كتبت بعد وفاة النبي ﷺ[12].

وفي نفس السياق أصدر المستشرق "ياروسلافسكي" (E. Yaroslavskiy) سلسلة من الدراسات في كتاب جاء في أربعة أجزاء عنوانه "ضد الدين والكنيسة" (1931-1935)، خصص فيه جزءا كاملا حاول فيه النيل من الدين الإسلامي[13].

ويعتبر موضوع التشريع الإسلامي ومسألة الملكية العقارية أحد المواضيع التي أخذت حيزاً مهماً من اهتمامات المستشرقين الروسيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ومن أبرز المهتمين بهذا الموضوع نذكر على الخصوص "تورناو" (Tornau) و"گيرگس" (Guirgas) و"روستيسلاڤوف" (Rostislavov). فقد أصدر الأول سنة 1851 كتاباً عنوانه "عرض لمبادئ التشريع الإسلامي". ويتكون هذا المؤلف من قسمين، القسم الأول خاص بالعقائد والثاني خاص بالتشريع الإسلامي، وطبع سنة 1882 لنفس المؤلف كتاب آخر تحت عنوان "حق الملكية في التشريع الإسلامي" تناول بالدرس مسألة الملكية العقارية في الإسلام[14]، أما "گيرگس" وهو أستاذ اللغة العربية بجامعة "سان پيترسبورگ" والذي سبق أن أشرنا إليه في آخر الفصل الثاني من دراستنا، فقد تناول هذا الموضوع بالدرس كذلك، وخاصة في كتابيه "حقوق النصارى في الشرق حسب التشريع الإسلامي" (1865) و"أسس التشريع الإسلامي"[15]. وخلال المؤتمر العالمي للمستشرقين الذي انعقد في العاصمة "سان پيترسبورگ" قدم "روستيسلاڤوف" بحثاً تحت عنوان "عرض حول أنواع الملكية

---

(12) نفسه، ص. 202-203.

(13) نفسه، ص. 159-162.

(14) N. Elissef, L'Islamologie en URSS, p. 42.

(15) نفسه.

العقارية ومسألة الأراضي الفلاحية في منطقة "تركمانستان" تناول فيه مختلف أصناف الوقف في الإسلام[16].

وعاد المستشرقون السوفييتيون بدورهم إلى دراسة هذا الموضوع، فتناولته "توماراً" (Tomara) سنة 1930 في مقالها "الإسلام والملكية العقارية" الذي فندت فيه الفكرة السائدة التي تقول إن الإسلام يحرم الملكية العقارية. وتقدم في اخر بحثها استنتاجاً غريباً مفاده أن الأساس الحقيقي للتشريع الإسلامي ليس القرآن الذي يمكن تأويله، بل السنة التي لا يمكن مناقشتها[17]، وفي نفس السياق كتبت "توماراً" سنة 1931 مقالة أخرى عنونتها "الإسلام والشيوعية" أبرزت فيها أن الإسلام والشيوعية متناقضان، لا لأن كلا منهما خصم للآخر فحسب، بل لأن القرآن والتشريع الإسلامي لا يمكن موافقتهما مطلقا مع الشيوعية. فالإسلام يحمي الملكية، وهو حسب المؤلفة، «إيديولوجية الفلاحين والملاكين الصغار، وهذه الإيديولوجية تحولت فيما بعد إلى سلاح لقمع الطبقات الشعبية»![18]. وقد جاءت هذه المقالة كرد فعل عنيف على ما كان يسمى انذاك بـ"حركة المسلمين الشيوعيين"، التي تزعمها التتري "سلطان علييف"[19]...

كان لمسألة نشأة الإسلام حظ وافر من اهتمامات المستشرقين خاصة في الفترة السوفييتية، وكانت أعمالهم كلها تعتمد على النظرية المادية الماركسية اللينينية لتفسير نشأة الديانات بصفة عامة. فلا مجال بالطبع في هذه الكتابات للوحي والإيمان... فالأنبياء ما هم – حسب رأيهم – سوى قادة حركات سياسية واجتماعية قاموا بمحض إرادتهم بنوع من التمرد ضد النظام السائد لبناء نظام جديد. ولقد شكلت مسألة "نشأة الإسلام"

---

(16) نفسه.

(17) نفسه، ص. 58.

(18) نفسه، ص. 59.

(19) انظر حول هذه الحركة كتاب:

A. Bennigsen, et Ch. Quelquejay, Les Mouvements nationaux chez les Musulmans de Russie, Mouton, 1960.

موضوعاً لمناقشات كثيرة في الاتحاد السوفييتي في مستهل الثلاثينيات، ومن أبرز المؤلفين في هذا الموضوع نذكر على سبيل المثال:

– "ديتياكين" (V. Ditiakin) صاحب مقالة عنوانها "الإسلام، نشأته وطبيعته من منظور ماركس وإينگلس" (1927) يشير فيها أن "ماركس" و"إينگلس" لم يسبق لهما أن اهتما بشكل خاص بالمسائل الإسلامية واكتفيا بالإشارة إليها فقط. وحاول إقامة الدليل بأن نظرة هذين المنظرين تتطابق فيما يخص هذا الموضوع ونظرية "كيطاني" (L. Caetani)[20] وخاصة "لامينس" (Lammens)[21]، الذي أولى أهمية كبيرة لدور الرحل في نشأة الإسلام، وهذه النظرية – حسب المؤلف – قريبة من فكرة "طبيعة الرحل" التي أتى بها "ماركس"[22]. وتناول "ديتياكين" هذه المسألة مرة أخرى في مقاله "أسس المبادئ التاريخية المادية في تحليل نشأة الإسلام وتطوره"، الذي صدر سنة 1928[23].

– "ريسنير" (M. Reysner) الذي دافع عن الفكرة القائلة بأن البورجوازية التجارية في مكة ومدن عربية أخرى كانت بمثابة "القوة المحركة" للإسلام الناشئ وقد أتى "ريسنير" بنظريته هذه في مقالته "إيديولوجيات الشرق" (1927). وقد أثرت هذه النظرية كثيرا على مجموعة من المستشرقين السوفييتيين الذين أعجبوا بجانبها الاقتصادي. فالإسلام إذن – حسب هذه المجموعة – ما هو إلا "إيديولوجية الرأسمال التجاري"[24].

– "رويكوف" (N. Roykov) الذي اعتمد كثيرا على مؤلفات كل من "ميولير" (A. Müller)[25] و"گولدزيهر" (Goldziher)[26] و"كريمر" (Kremer)

---

(20) انظر حوله: العقيقي، المستشرقون، الطبعة 3، دار المعارف، 1963، ج 1، ص. 372.

(21) انظر حوله: العقيقي، الطبعة الرابعة، ج 3، ص. 293.

(22) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 61.

(23) نفسه.

(24) نفسه، ص. 60.

(25) انظر حوله: العقيقي، الطبعة 4، ج 3، ص. 40–41–42.

(26) انظر حوله: العقيقي، الطبعة 4، ج 2، ص. 391–392.

في كتابة مؤلفه "التاريخ الروسي من منظور المقارنة التاريخية" الذي صدر سنة 1928، فهو يعتبر أن ظهور الإسلام كان بمثابة ثورة إقطاعية.

- "موروزوف" (N. Morozov) الذي تناول هذا الموضوع في الجزء السادس من مؤلفه الضخم "المسيح" (1930)، ففي الفصل الذي يحمل عنوان "ومن أين أتى الإسلام إذن؟" يعتبر المؤلف أن الإسلام ما هو إلا تحريف "للأريوسية" (arianisme) وبأنه منذ نشأته وحتى الحروب الصليبية لم يكن يختلف إلا قليلاً عن اليهودية، كما أنه يعتقد أن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين مجرد شخصيات وهمية![27].

- "تولستوف" (S. Tolstov)، صاحب عدة مقالات، خصص إحداها لدراسة نظرية "كايطاني" حول إيديولوجية رحل الجزيرة العربية، واستنتج في مقالة ثانية أنه يجب البحث عن نشأة الإسلام عند البورجوازية التجارية في الحجاز، ودافع في مقالة ثالثة عن الفكرة القائلة بأن تطور الإسلام حددته القوة الاجتماعية للطبقات الفقيرة من الفلاحين. وقد أتى "تولستوف" بنظرية جديدة بعد ذلك في مقاله "دراسات حول الإسلام البدائي" (1932) الذي حاول أن يبرز فيه أن سبب ضعف كتاباته السابقة راجع بالأساس إلى عدم اعتماده على الإيديولوجية الماركسية اللينينية الرسمية لبحث مكونات الدين الإسلامي. وفي دراسته للقرآن الكريم يحاول أن "يثبت"، حسب مفهومه، العناصر الوهمية من حياة الرسول ﷺ والصحابة. ويرى "تولستوف" أنه لا يمكن فهم الإسلام في حقيقته التاريخية إلا إذا أدركنا العلاقة التي تربطه بباقي الديانات العالمية. وفي حديثه عن العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية يحاول المؤلف أن يبين أن أزمة التجارة العربية وارتباطها بالأزمة العامة التي خلفها تفكك الدولة الرومانية مكّنت بلاد فارس من تحقيق تقدم مؤقت في مجال التجارة

(27) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 62.

الدولية آنذاك. ويلخص المؤلف دراسته حول ما يسميه "بالوهم الإسلامي" في أربع نقط هي: 1- إن الحركة الإسلامية لم تكن أبداً حركة شاذة لا اجتماعياً ولا من حيث توقيتها، 2- لقد جمعت هذه الحركة مؤقتا في صف واحد كلا من البورجوازية التجارية والحرفيين والفلاحين والقبائل البدوية والقادة الإقطاعيين، 3- إن نقطة التقاء هذه القوى تتمثل في البنية الاجتماعية للعالم القديم في كل من الجزيرة العربية وسورية وإفريقيا، 4- كانت النتيجة النهائية هي إقامة بنية إقطاعية في بعض أجزاء آسيا وإفريقية[28].

- "توما را" (M. Tomara)، صاحبة مقال صدر سنة 1930 تحت عنوان "الإسلام، نشأته وأسسه الطبقية"، استنتجت فيه أن الفلاحة في شكلها البدائي ربما كانت الشغل الرئيسي عند أهل الحجاز، وأن الفترة ما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين عرفت ثلاث طبقات اجتماعية هي: 1- الرحل، 2- الفلاحون "المقيمون"، 3- الفلاحون الذين تحولوا إلى رحل أو شبه رحل. وتستنتج المؤلفة أن الإسلام يمثل إيديولوجية الطبقات الفقيرة في الحجاز[29]...

- "بيليايف" (I. Beliayev)[30]. أصدر هذا المستشرق سنة 1931 كتابا عنوانه "نشأة الإسلام"، وهو عبارة عن مقاطع مختارة من مؤلفات بعض العلماء المسلمين أمثال الشعراني وأبي إسحاق، وكذا بعض المستشرقين أمثال "كويي" (Goeje)[31] و"لامينس" (Lammens) و"سپرينجر" (Sprenger) و"كريم" (G. Grimme)[32]... وله مقالة أخرى نشرت سنة 1930 عنوانها "دور الرأسمال التجاري المكي في تاريخ نشأة

(28) نفسه، ص. 62-63.
(29) نفسه، ص. 61-62.
(30) انظر حوله: العقيقي، الطبعة 4، ج 3، ص. 99-100.
(31) انظر حوله: المرجع أعلاه، ج 2، ص. 312.
(32) انظر حوله: المرجع أعلاه، ج 2، ص. 414.

الإسلام "يتعرض فيها إلى الدور الذي كانت مدينة مكة تلعب في التجارة بين جنوب الجزيرة العربية من جهة ومصر وسورية من جهة أخرى، ويستنتج بأن الإسلام هو إيديولوجية الرأسمال التجاري، وهو الاستنتاج الذي توصل إليه "ريسنير"(33). غير أن "إيڤگيني بيلياييف" تخلى عن هذه الأفكار فيما بعد وصار يدافع عن نظريته الجديدة التي مفادها أن النبي محمد ﷺ وأتباعه بحكم انحدارهم من أوساط فقيرة أو متوسطة كانوا يدافعون عن مصالح هذه الأوساط. ولهذا المستشرق عدد كبير من الكتابات حول هذا الموضوع وموضوعات أخرى تتعلق بالخصوص حول نشأة الإسلام والدولة الإسلامية والخلافة العربية وغيرها(34).

- "نيكولاييف" (V. Nikolayev) صاحب مقالة عنوانها "الإسلام والدولة" انعكست فيها نظرية ما كان يُعرف بـ"مدرسة پوكروفسكي" التي تعتبر الرأسمال التجاري بمثابة "القوة التي خلقت الدين الإسلامي"(35).

---

(33) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 52-60.

(34) من بين كتاباته نذكر على الخصوص:

- العرب والإسلام والخلافة العربية في المرحلة الأولى من القرون الوسطى، موسكو، 1965.

- الإسلام والخلافة العربية بين القرنين السابع والتاسع الميلاديين، المجلة التاريخية، موسكو، 1938، عدد 7، ص. 56-70.

- Formation of the Arab State and the Origin of the Islam in the Seventh Century ("The Islamic Review", London, 1954, vol. 42, N° 10, pp. 12-14).

(35) N. Elisseef, L'Islamologie en URSS, p. 59.

V- كتاب "أبحاث في دراسة الإسلام" لسميرنوف
(أنموذج للكتابات السوفييتية حول دراسة الدين الإسلامي)

عني المستشرقون السوفييتيون بموضوع تأريخ الدراسات العربية الإسلامية في كل من روسيا والاتحاد السوفييتي. وعرفت الساحة الاستشراقية صدور عدة مؤلفات تناولت بالدرس هذا الموضوع، لعل أهمها، في مجال الدراسات حول الإسلام، كتاب "سميرنوف" (N. Smirnov) الذي يحمل عنوان "أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي"، ونظرا للمكانة المرموقة التي كان المؤلف يحتلها وسط زملائه المستشرقين من جهة ولشمولية دراسته من جهة أخرى، ارتأينا أن نخصص بعض الصفحات لكتابه الذي يمثل، في حقيقة الأمر، الخطوط الرئيسية لنظرة الاستشراق السوفييتي الرسمي لمعالجة قضايا دراسة الإسلام في فترة حكم "ستالين".

يبدأ المؤلف كتابه[1] الذي يقع في 276 صفحة بالدخول مباشرة في صميم الموضوع ليعلن الغاية من إصداره فيقول في المقدمة: «يهدف هذا العمل إلى انتقاء كل ما من شأنه أن يمثل إسهاماً في تاريخ الكتابات

(1) يتالف الكتاب من مقدمة (ص. 3-12) وقسمين عنوانهما: 1- المؤلفات الروسية حول الإسلام قبل 1918، 2- الكتابات السوفييتية حول الإسلام. ويضم القسم الاول ثلاثة فصول، هي: 1- المعلومات حول الإسلام في المخطوطات الروسية خلال الفترة الإقطاعية (ص. 13-57)، 2- الدراسات الإسلامية في عهد الرأسمالية (ص. 58-83) (1860-1890)، 3- الدراسات الإسلامية خلال الفترة الإمبريالية (ص. 84-129) (1895-1917). أما القسم الثاني فإنه يحتوي على فصلين هما: 1- الدراسات الإسلامية من 1918 إلى 1934 (ص. 130-236)، 2- الدراسات الإسلامية من 1935 إلى 1950 (ص. 237-271).

القديمة والحديثة حول الإسلام والتعريف بالمؤلفات التي يمكن أن تكون لها أهمية بالنسبة للعلم التاريخي السوفييتي (...) وذلك قصد إظهار الوظيفة الاجتماعية للإسلام في تاريخ الشعوب الشرقية ومحاربة بقايا هذا الدين في بلادنا...».

ويعترف المؤلف أن الكتابات "البورجوازية"[2] الروسية، أنجبت العديد من المؤلفات القيمة، لكنه يعيب عليها أنها لا تعتمد في تفسيرها لنشأة الإسلام وانتشاره إلا على نشاط بعض الشخصيات المسلمة البارزة دون إعارة أي اهتمام لدور الشعوب وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية. ومن الأهداف الأخرى للكتاب، إبراز ما أتى به "العلم التاريخي السوفييتي" المبني على الفلسفة المادية، من جديد في ميدان دراسات الدين الإسلامي. ويسعى المؤلف إلى إظهار أصالة المؤلفات السوفييتية في مجال المنهج وتحديد الأهداف... ويعتقد "سميرنوف" أنه يجب على الباحثين السوفييتيين الاعتماد على النظرية "الماركسية اللينينية" للقيام بدراسة نقدية معمقة لمؤلفات المستشرقين الغربيين لاستخراج الأخطاء التي وقعوا فيها ووقع فيها كذلك زملاؤهم الروسيون من مؤرخين وفلاسفة... ويوصي المؤلف بإعطاء أهمية بالغة للدعاية المناهضة للديانات بإصدار كتب ودوريات مبسطة لشرح نشأة الدين ودوره الطبقي في المجتمع البورجوازي العصري والعلاقات الوطيدة التي تربطه بالإمبريالية داخل البلدان الإسلامية، كما يوصي المستشرقين السوفييتيين في آخر مقدمته بدراسة النقط المتعلقة بكيفية القضاء نهائيا على البقايا الدينية في الاتحاد السوفييتي[3].

نلاحظ من خلال هذه السطور أن الغاية من إصدار الكتاب واضحة وضوح الشمس ولا تحتاج لشروح، وأما الدراسات الإسلامية فيجب

---

(2) أي تلك التي أنجزت قبل الثورة البولشيفية أو بعدها من لدن باحثين غير شيوعيين. وبعبارة أخرى من لدن علماء جامعيين غير متأثرين بالسياسة.

(3) انظر مقدمة الكتاب، ص. 3-12.

تناولها لا من أجل العلم المجرد والمعرفة، بل لبلوغ غرض "عملي" يتمثل في تبسيط طريق المكلفين بمحاربة الإسلام ومدهم بسلاح يسهل مهمتهم.

وينتقل "سميرنوف" فيما بعد للحديث عن العلاقات الأولى المباشرة وغير المباشرة التي كانت تربط الروسيين بالمسلمين، وتشمل هذه المدة الفترة الممتدة بين القرنين الميلاديين الحادي عشر والسابع عشر[4] . . . ومن اللافت للنظر أن المؤلف لا يولي أهمية تذكر لتاريخ التتر والحروب التترية الروسية. ومعلوم أن هذه الحقبة التاريخية بقيت بصماتها تؤثر على العلاقات بين الشعبين، وقد ترتب عنها احتلال أرض التتر واغتصاب ممتلكاتهم ومحاولة تنصيرهم واضطهادهم مدة قرون كاملة. . . كما أن المؤلف لا يذكر سقوط مدينة قازان التي كانت أكبر مركز إسلامي في هذه المناطق. إن القارئ لا يكاد يعرف أدنى شيء عن هذه الحقبة التاريخية لولا ما جاء في بعض السطور عن وجود "حوليات قازان" وهو مؤلف يسرد، من منظور الكنيسة الأورثوذوكسية، عدداً من الأحداث المرتبطة بغزو إمارة قازان[5] . ونحن نعتقد أنه بدون الرجوع إلى هذه الفترة من تاريخ المنطقة لا يستطيع المرء فهم الاتجاه الذي سارت عليه فيما بعد الدراسات الاستشراقية عموماً والإسلامية خاصة في روسيا.

ويقع "سميرنوف" في تناقض كبير حين يتناول بالدرس نهاية القرن السابع عشر، فيقول من جهة: «إن الحكومة الروسية الجديدة كانت تسعى إلى توسيع مجال تجارتها والبحث عن منافذ بحرية ومناطق استراتيجية لتعزيز مواقعها ونفوذها. . . »[6]، ويعود بعد قليل ليقول: «إن حرباً ضروساً دارت رحاها مع تركيا التي كانت مدفوعة من طرف فرنسا وإنكلتيرا والسويد لنهج سياسة عدائية في القوقاز وجنوب أوكرانيا ومنطقة بحر

---

(4) لقد خصصنا لهذه الفترة عدداً من الصفحات في الفصل الأول من هذا البحث.

(5) جاء ذكر "حوليات قازان" في عدد من صفحات الفصل الأول من كتاب سميرنوف.

(6) ن، سميرنوف. أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي، ص. 20.

قزوين، كما أن إيران بدأت تهدد أمن شعوب المنطقة الذين التجؤوا إلى روسيا لطلب حمايتها»[7]. والحقيقة أن سبب اندلاع هذه الحرب يعود إلى أن الإمبراطورية الروسية ببحثها عن منافذ بحرية كانت تسعى إلى احتلال المناطق المسلمة في الجنوب لإنجاز مشاريعها، وأما السكان المسلمون فقد تصدوا لها وقاموا بالدفاع عن أراضيهم وهويتهم، كما أن تركيا دخلت هذه الحروب التي كانت تدور رحاها بجوارها للدفاع عن مصالحها ولوقف زحف الاستعمار الروسي الذي كان يحلم دائماً باستعادة القسطنطينية وتنصيرها من جديد... ونلاحظ بهذا الصدد أن جل المستشرقين السوفييتيين ومن ضمنهم "سميرنوف" كانوا يدافعون دائماً في كتاباتهم عن السياسة التوسعية الروسية القيصرية، وهم في هذا المجال لا يختلفون عن زملائهم "البورجوازيين" الذين كتبوا قبل الثورة. وفي هذا السياق دائماً يعود "سميرنوف" التقدمي ليشيد بالتعاون الذي حصل بين عدد من المستشرقين والموظفين السامين للإدارة الاستعمارية، فيقول: «بعد الانتصار على "نابليون" سنة 1812 وانضمام جورجيا وآذربيجان وأرمينيا الشرقية إلى روسيا بدأ التيار التقدمي الاستشراقي يتقوى (...) إذ لوحظ تقارب ملموس بين الطليعة الأدبية والاستشراقية من جهة وبين الموظفين المكلفين بالسهر على تطوير البلدان التي أدمجت حديثاً في روسيا من جهة أخرى. وهكذا فإن دور الاستشراق أصبح يتجه نحو مساعدة هؤلاء الموظفين على فهم الشعوب الإسلامية...»[8].

لكن "سميرنوف" يعود إلى هذا الموضوع بعد بضع صفحات ويقدمه في شكل آخر مناقضاً تماماً ما سبق أن دافع عليه. ففي سياق حديثه عن النصف الثاني من القرن التاسع عشر يقول المؤلف: «إن الحكومة الروسية كانت ترغم العلماء على نشر مؤلفات تساند مواقفها الرسمية قصد تبرير سياستها الاستعمارية...»[9] فإذا كان "سميرنوف"

---

(7) نفسه.
(8) نفسه، ص. 30.
(9) نفسه، ص. 66-67.

يشيد فيما قبل بهذه السياسة فإنه الآن يعارضها معارضة شديدة. غير أنه يعود للدفاع عنها مرة أخرى لكن حين يتعلق الأمر بالعهد السوفييتي ليحث الباحثين على الاعتماد على النظرية الماركسية اللينينية لتنفيذ قرارات الحزب الشيوعي فيما «يتعلق بمحاربة بقايا الشعائر والعادات الدينية، وذلك قصد تربية العمال في جو الوطنية السوفييتية والصداقة بين الشعوب»[10]!

وفي نفس السياق دائماً يتصدى الكاتب إلى المؤرخين الذين اعتبروا انتفاضة شعوب شمال القوقاز بقيادة الإمام شامل حركة تحرير هذه المناطق من الاستعمار الروسي. ومعلوم أن الدولة السوفييتية في بدايتها كانت تسعى إلى جاب عطف المسلمين، فوعدتهم بحرية الرأي والعقيدة، بل حتى بالاستقلال عن الاتحاد السوفييتي إن هم رغبوا فيه... فكانت خطة الحزب آنذاك تعترف بأن حركة الإمام شامل كانت حركة تحرير موجهة ضد الاستعمار الروسي وتشيد بها، وهكذا تناول العديد من الباحثين هذا الموضوع انطلاقا من هذه الخطة. ومن أبرز المستشرقين الذي سلكوا هذا النهج نذكر على سبيل المثال "پوكروفسكي" (Pokrovskiy) و"ريسنير" (Reysner) و"بوشويف" (Buchuyev) الذين سبق أن أشرنا إليهم وإلى بعض أعمالهم. ولم يكن أحد يشك آنذاك في سلوكهم الماركسي، غير أن الأمر ما لبث أن تغير بعد ما تقوت أسس الدولة السوفييتية. فقد صدرت في الثلاثينيات وخاصة في الأربعينيات تعليمات رسمية تلزم الباحثين باعتبار الإمام شامل عميلا لقوات أجنبية واعتبار حركته لا تقدمية ولا ديمقراطية! وقد تناول "سميرنوف" هذه المسألة بالدرس و"حللها" كما يجب أن يحللها مستشرق موظف، يقول "سميرنوف" بهذا الصدد: «اتخذت العلوم التاريخية السوفييتية مدة طويلة نهجا خاطئا: إنها كانت تعتبر "المريدية" وحركة شامل مظهراً من مظاهر حركات التحرير الوطني قام بها أهالي الجبال القوقازية ضد الاستعمار

(10) نفسه، ص. 271.

الروسي... وإن التفسيرات المضادة للماركسية التي جاء به "بوكروفسكي" حول "المريدية" القوقازية والدور الذي لعبه الدين الإسلامي في هذه المنطقة[11]، وكذا أبحاث "ريسنر" الخاطئة حول القرآن ونشأة الإسلام قوبلت طوال فترة من الزمن كآخر استنتاج للعلم التاريخي الماركسي... ولقد عرقلت هذه الأخطاء تطور الدراسات حول الإسلام في الاتحاد السوفييتي...»[12].

ويقول "سميرنوف" عن موقف المسلمين من الثورة البولشيفية مباشرة بعد انهيار النظام القيصري «إن المسلمين، وخاصة قادتهم، ساندوا سنة 1918 الحركات المضادة للثورة وشاركوا في المقاومة المسلحة ضد "ديكتاتورية البروليتاريا" في كل من القوقاز والقرم وآسيا الوسطى (...) رغم الضمانات التي توصلوا بها في النداء الموجه إليهم من طرف المجلس السوفييتي الأعلى سنة 1917 مباشرة بعد صدور "البيان حول حقوق شعوب روسيا"، وقد جاء في النداء بأن لشعوب التتر والقرغيز والأزبيك والتركمان وجبال القوقاز (...) كامل الحرية في اختيار حياتهم الوطنية (...) وصدر بعد ذلك مرسوم 1918 الذي فصل الدين عن الدولة والتعليم عن الدين، وجاء في هذا المرسوم كذلك أن لكل مواطن حق اختيار الدين الذي يريده والقيام بشعائره ما دامت هذه الشعائر لا تخل بالنظام العام...»[13].

ويحاول "سميرنوف" من خلال هذه الوقفة عند تاريخ نشوء الدولة السوفييتية تقديم المسلمين ككتلة واحدة تتخذ موقفاً موحداً في موضوع المسائل المصيرية، والحقيقة أن الأمر كان يختلف من منطقة إلى أخرى، فهناك من حارب النظام الجديد، وهناك من آزره، لأنه كان يعتقد مخلصاً أن الثورة سوف تمنحه الحرية المنشودة منذ القدم.

---

(11) نفسه، ص. 250 و238.
(12) نفسه.
(13) نفسه، ص. 130 و131.

ومن أبرز ممثلي هذا التيار الأخير نذكر على سبيل المثال التتريين "نوروحيدوف" و"سلطان علييف" اللذين ترأسا "اللجنة التترية الاشتراكية المسلمة" ثم بعدها ما كان يعرف "بحركة الشيوعيين المسلمين" (14). ولقد تقلد "علييف" مناصب عالية في جهاز الدولة السوفييتية منذ إنشائها إلى غاية 1923، وهي السنة التي اختفى فيها بعدما ألقى "ستالين" القبض عليه... (15) أما مرسوم 1918 فإنه، كما يعلم الجميع، بقي مدة سبعين سنة من النظام السوفييتي حبراً على ورق. ولا يخفى على أحد أن السلطات الرسمية هي التي كانت تخرقه وتخل بالنظام العام بمحاربتها العلنية لجميع الديانات عامة والإسلام منها خاصة بواسطة الإهانات والاضطهاد المادي والمعنوي وبالتصفيات الجسدية، وكذا بإصدارها لملايين النسخ من الكتابات المناهضة للدين في شكل كتب ومنشورات ومجلات متخصصة في هذا الميدان كمجلة "الملحد" ومجلة "بدون إله" و"حياة القوميات" و"الشرق الجديد" وغيرها من المجلات التي ورثت مهمتها عن سابقاتها في العهد القيصري كمجلة "التبشير المناهض للإسلام"...

ويختم "سميرنوف" كتابه بتقديم عدد من الاستنتاجات والتوصيات، أهمها:

1- إن مدرسة "پوكروفسكي" التي تعتبر حركة الإمام شامل حركة تحرير وطني كانت خاطئة، وأن أبحاثها مضادة للماركسية، فهي إذاً رجعية وبورجوازية، ويجب محاربتها... (16).

2- على المؤرخين أن لا يكتفوا بدراسة الدين الإسلامي داخل حدود الاتحاد السوفييتي، بل عليهم الاهتمام به في الخارج كذلك، أي في كافة البلدان الإسلامية عبر أرجاء العالم. والهدف من كل هذا هو العمل على

---

(14) انظر حول هذه الحركات:

A. Bennigsen, et Ch. Quelquejay, Les Mouvement nationaux chez les Musulmans de Russie, Mouton and C°, 1960.

(15) نفسه، ص. 165-171.

(16) نفسه، ص. 269.

تهييء منهج إيديولوجي عام يساعد على نشر الشيوعية في مختلف بلدان الشرق، كما أن الدراسات التي سيقومون بها سوف تمهد الطريق أمام الدبلوماسية السوفييتية (17) في تعاملها مع الدول المسلمة.

3- على الباحثين السوفييتيين أن يبرزوا في دراساتهم الدور الذي يقوم به الإسلام المعاصر بدعمه الطبقات البورجوازية الحاكمة والأنظمة الاستعمارية. كما يجب عليهم إبراز الطابع الرجعي لإيديولوجية "الوحدة الإسلامية" التي "تحركها الولايات المتحدة الأمريكية" قصد استغلال الشعوب الشرقية (18).

4- لا بد من إصدار المزيد من الكتابات الرامية إلى "تعليم" شعوب الجمهوريات السوفييتية التي ما زال الإسلام بها حياً حتى يتمكن الساهرون على الدعاية المضادة للدين من محاربة بقاياه من شعائر وعادات... و«سوف تمكن هذه الكتابات من تربية العمال في جو من الوطنية السوفييتية والصداقة بين الشعوب...» (19).

من خلال كتاب "سميرنوف" أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام في الاتحاد السوفييتي" تتضح جليا الأهداف الرسمية التي كان على الباحثين السعي لتحقيقها، وتتمثل هذه الأهداف أساساً في محاربة الدين الإسلامي بجميع الوسائل بغية القضاء عليه، وإذا كانت هذه الخطة تتلاءم والفلسفة الماركسية التي تعتبر الدين "أفيون الشعوب"، فإنها كانت تخدم مصالح الدولة كذلك، فالمستشرقون مطالبون إذاً بإنجاز أعمال "علمية" تمكن الإدارة من استغلالها لتبرير سياسة القمع والاضطهاد التي كانت تنهجها تجاه الشعوب المسلمة. وعندما يعلم المهتم بشؤون المسلمين في الاتحاد السوفييتي الأسباب التي أدت إلى تقلص عدد المساجد مثلاً في

(17) من المعلوم أن الاتحاد السوفييتي أولى أهمية قصوى لعلاقاته مع الدول الإسلامية منذ الخمسينيات.

(18) ن. سميرنوف، أبحاث في تاريخ دراسة الإسلام، ص. 270.

(19) نفسه، ص. 271.

روسيا وحدها (دون الجمهوريات السوفييتية الأخرى) من 22000 عام 1917 إلى 3700 عام 1929 ليصل في آخر المطاف إلى 392 عام 1985 [20]، فإنه سوف يدرك لماذا لم يتوقف كفاح الشعوب المسلمة من أجل استقلالها السياسي والديني والثقافي لأنه في غياب التنظيمات الوطنية السياسية منها والاجتماعية، فإن طموحات هذه الشعوب كانت دائماً تتجسد كلها في دينها. ولعل أهم ما غاب عن ذهن المستشرقين الموظفين هو أن الإسلام بالنسبة لهذه الشعوب المحرومة من أبسط الحقوق يمثل في نفس الوقت كلا من الدين والوطن والثقافة وأشياء أخرى متعددة... وإن هذه المفاهيم التي تكوّن وحدة لا تتجزأ لا يمكن المس بأحدها دون المس بباقي المفاهيم الأخرى. فكلما وجهت حرب ضد الدين فإن هذه الحرب تكون موجهة في واقع الأمر ضد الوطن والعادات والتاريخ القومي والثقافة الوطنية... فالإسلام هو المبرر الوحيد لوجود هذه الشعوب واستمرارها في الحياة...

ورغم ما قلناه في حق الاستشراق السياسي الرسمي فإنه لا يجوز إطلاقاً اتهام جميع المستشرقين السوفييتيين بأنهم كانوا يسخِّرون معرفتهم لخدمة بعض أغراض الدولة والحزب الشيوعي، ذلك أن بعض العلماء ظلوا أوفياء لتقاليد العلم النبيلة. وهي الفئة من المستشرقين، التي تشرف العلم الروسي وتجعلنا ننظر إليه باحترام، وإن كنا لا نتفق معها في كثير من الأشياء. ولعل أبرز ممثلي هذا الاتجاه هم بالأساس أولئك العلماء الذين كانوا يعرفون بمجموعة "اللامنتمين" التي حاول أفرادها الحفاظ، في ظروف جد صعبة [21]، على موضوعية الاستشراق الروسي بالابتعاد عن التهجم على معتقدات الشعوب والشتم في مقدساتها.

---

(20) أخذنا هذه الأرقام من كتاب "لاندا"، الإسلام في تاريخ روسيا"، ص. 8.
وحسب نفس المصدر فإن عدد المساجد حالياً في ارتفاع ملموس، وقد بلغ إلى حدود 1994 أزيد من 4000 مسجداً.

(21) انظر حول هذا الموضوع:
- فاسيلكوف وآخرون، الاستشراق المضطهد، مجلة "نارودي آزي إي آفريكي" (شعوب آسيا وإفريقيا)، العدد الرابع، 1990، ص. 113-125.

الفصل الخامس

المكتبات الاستشراقية
والمخطوطات العربية في روسيا

تمهيد

تكوّن في روسيا طوال تاريخ مدرستها الاستشراقية عدد من المكتبات المتخصصة في خزن المطبوعات والمخطوطات الشرقية والمؤلفات حول الاستشراق. وقد عرفت هذه المؤسسات تطوراً مهماً خلال وجودها، مما جعلها تحتل مكانة مرموقة بين نظيراتها في بلدان أوروبا الغربية. ويمكن تقسيم هذه المكتبات إلى ثلاثة أصناف على النحو التالي:

1- المكتبات العلمية التابعة لمعاهد الاستشراق، وأهمها على الإطلاق مكتبة "ملحقة معهد الاستشراق" بسان پيترسبورگ.

2- المكتبات العامة في كبريات المدن الروسية، وأهمها مكتبة "صالتيكوف شدرين" العامة "بسان پيترسبورگ"، ومكتبة "لينين" بموسكو، و"مكتبة الآداب الأجنبية" بموسكو و"مكتبة التاريخ العامة" لجمهورية روسيا بموسكو...

3- المكتبات الجامعية، وأهمها مكتبة "گوركي" التابعة لجامعة "لومونوصوف" بموسكو، ومكتبة جامعة "قازان" ومكتبة "گوركي" التابعة لجامعة "سان پيترسبورگ"...

وتوجد كذلك مجموعات من المخطوطات العربية التي تتفاوت أهميتها في عدد من المكتبات التابعة لبعض الوزارات كالخارجية ورئاسة الدولة. وهي متمثلة بالأساس في وثائق ومستندات دبلوماسية. وأهم هذه الخزانات موجودة في موسكو، وهي "مديرية التاريخ الدبلوماسي التابعة

لوزارة الخارجية" وكذا "دار الأرشيف والوثائق القديمة للدولة الروسية" التي قام الباحث "موروزوف" بدراسة مخزونها وأصدر قبل ثلاث سنوات فهرساً لمخطوطاتها ووثائقها القديمة[1].

إن كل هذه المكتبات[2] تستحق أن ترصد لها دراسات وافية للتعريف بها وبتاريخها وبما تختزنه من نفائس. وبديهي أننا، في هذه الدراسة العامة، لن نستطيع القيام بمثل هذا العمل، غير أننا سنحاول إلقاء بعض النور على تاريخ هذه الخزانات ومحتوياتها مع التركيز بالأساس على مخطوطاتها، كما أننا سنولي اهتماما خاصا، بأقدم المكتبات الاستشراقية الروسية وأهمها على الإطلاق، ويتعلق الأمر بمكتبة ملحقة معهد الاستشراق "بسان پيترسبورگ" التي عُرفت خلال تاريخها الطويل "بالمتحف الآسيوي" ثم بمكتبة معهد الاستشراق وبمكتبة ملحقة معهد الاستشراق بعد رحيل المعهد إلى موسكو عام 1950 . وتغير اسمها فيما بعد لتصبح ملحقة معهد شعوب آسيا قبل أن تستقر في السنوات الأخيرة تحت اسمها الحالي.

ولقد ارتأينا تخصيص فصل كامل من دراستنا لموضوع المكتبات الاستشراقية والمخطوطات العربية في روسيا لأن الحديث عن الاستعراب لا يستقيم دون الرجوع إلى الكتابات الخطية التي كانت المنطلق للأبحاث

---

(1) دميتري مورزوف، فهرس المخطوطات والوثائق العربية في دار الوثائق الأثرية لدولة روسيا، موسكو، 1996 (بالروسية).

(2) لا نأخذ بعين الاعتبار سوى المكتبات الموجودة داخل حدود جمهورية روسيا الفيديرالية الحالية، ولا نتطرق إلى موضوع المكتبات في الجمهوريات السوفييتية السابقة الاخرى. ولا بد من الإشارة إلى أن المكتبات في جمهوريات القوقاز وآسيا الوسطى وخاصة مكتبتي "طاشقنت" الأزبيكية و"باكو" الآذربايجانية تحتضن من المخطوطات العربية الإسلامية كنوزاً لا تقدر بثمن، وهي جديرة بأن ترصد لها دراسات مستقلة. وكان العالمان "شميدت" (A. Shmidt) (1871-1939) و"سيمينوف" (A. Semenov) (1873-1958) قد أصدرا في بداية القرن العشرين عددا من فهارس مخطوطات "طاشقنت" وتابعت عملهما مجموعة من العلماء الروسيين والأزبيكيين، وهكذا صدر إلى حدود عام 1975 عشرة مجلدات من الحجم الكبير (حوالي 600 صفحة للواحد) تحت عنوان "مجموعة المخطوطات الشرقية باكاديمية العلوم لجمهورية أزبيكستان السوفييتية".

الاستشراقية في جميع أنحاء العالم والتي ركز "كراتشكوفسكي" على أهميتها حين كتب: «إنني كنت دائماً أعتبر المخطوطات بمثابة الحجر (في البناء)، فهي في عملنا تشكل في ذات الوقت المادة والمصدر الأساسيين»[3].

(3) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية...، ص. 216 (في الأصل الروسي). انظر كذلك الصفحة 355 في الترجمة العربية.

مكتبة جامعة "سان پيترسبورگ"
الجناح الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة "سان پيترسبورگ"

تأسس الجناح الشرقي لمكتبة جامعة "سان پيترسبورگ" (1) عام 1819 وارتبط تاريخه بتاريخ الاستشراق عموماً والاستعراب خصوصاً في روسيا. فلا غرابة إذاً أن يكون له دور مهم في هذه المسيرة العلمية. ولقد ساعده على القيام بهذا الدور وجود "المتحف الآسيوي" بجواره في نفس المدينة "سان پيترسبورگ". ومعلوم أن هذا الأخير كان دائماً بمثابة المحرك الرئيسي للدراسات الاستشراقية الروسية ومكتباتها. ولقد تعزز "الجناح الشرقي..." على مر العصور بأعداد كثيرة من المؤلفات وخاصة المخطوطة منها التي كانت تقدم كهدايا من قبل العلماء والأساتذة الذين كانوا يعملون في الجامعة وخاصة في شعبة اللغات الشرقية التي تحولت عام 1855 إلى كلية قائمة بذاتها، كما تعزز كذلك بمجموعات من

---

(1) انظر حول المخطوطات العربية بهذا الجناح:

- ف. بيليابيف، وبولگاكوف، المخطوطات العربية المحفوظة في جامعة ليننگراد، ضمن كتاب: "في ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي"، منشورات جامعة ليننگراد، 1958، ص. 21-35. (بالروسية).

V. Belyayev, i P. Bulgakov, Arabskiye rukopisi sobraniya Leningradskovo Gosudarstvennovo Universiteta. in: Pamyati Akademika I. Kratchkovskovo, izd. LGU, 1958, str. 21-35.

- المنتقى من مخطوطات جامعة بطرسبورغ، كلية الدراسات الشرقية، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث-دبي، إعداد خالد أحمد الريان وعبد القادر أحمد عبد القادر، أشرف عليه وقدم له الدكتور عبد الرحمن فرفور، دبي، 1996، (518 صفحة).

المؤلفات التي توصل بها في شكل هبات من قبل جامعة قازان بعد إغلاق الشعبة الشرقية بها عام 1855.

كان، إلى حدود عام 1962، العدد الإجمالي للكتب الخطية بهذا الجناح بمختلف لغات العالم أزيد من 50000 مخطوطة منها حوالي 800 باللغة العربية (2). لكن عدد هذه الأخيرة في الوقت الراهن بلغ 1040 مخطوطة حسب ما جاء في فهرس في غاية الأهمية صدر مؤخراً ضمن مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي عنوانه "المنتقى من مخطوطات جامعة بطرسبورغ" (3).

ومن بين النفائس الخطية العربية لهذه المكتبة نذكر على سبيل المثال العناوين التالية:

- أعلام النصر للأسعد بن مماتي، تاريخ نسخ المخطوطة في القرن السابع أو الثامن من الهجرة (4).

- روضة العلماء ونزهة الفضلاء لعلي بن يحيى الزندويستي البخاري المتوفى عام 992م.

- روضة العارفين لأبي الليث نصر بن إبراهيم السمرقندي المتوفى عام 993م.

---

(2) أ. أبراموف، الجناح الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة لينينگراد، في كتاب: "الدخيرة الاستشراقية المحفوظة في أهم مكتبات الاتحاد السوفييتي"، موسكو، 1962، ص. 224 (بالروسية).

(3) المنتقى...، المذكور أعلاه، ص. 5.

تجدر الإشارة إلى أن مؤلفي كتاب "المنتقى..." لم يعرّفوا بما فيه الكفاية بهذه المكتبة العريقة وبمكانتها بين المكتبات الاستشراقية الروسية، كما أنهم لم يذكروا الفهارس التي وضعت حول مخطوطاتها العربية والتي بلغ عددها إلى حدود 1958 ثلاثة فهارس: الأول لـ"زاليمان" و"روزين" والثاني لـ "روماسكيفيتش" والثالث لـ"بيليايف" و"بولگاكوف".

سبق لمركز جمعة الماجد بدبي أن أصدر بتعاون مع معهد المخطوطات في أكاديمية العلوم بآذربايجان فهرساً لعدد من المخطوطات العربية عنوانه: "المنتخب من مقتنيات معهد المخطوطات في باكو بأذربايجان"، إعداد: عبد الرحمن فرفور ومحمد مطيع الحافظ، تحت إشراف البروفسور الدكتور جها نكير قهرمانوف، دبي، 1994.

(4) رجعنا إلى "المنتقى..." في كثير من الأحيان خاصة لإثبات عدد من الأسماء والتواريخ، كما رجعنا كذلك للكتابات المذكورة أعلاه.

- كتاب الأمثال العربية للشيخ محمد عياد الطنطاوي المتوفى عام 1861 بـ"سان پيترسبورگ".

- التصريف العزي لعز الدين الزنجاني (كان حياً عام 1257م) يوجد في حاشية المخطوطة عدد من تعليقات الشيخ محمد عياد الطنطاوي.

- جواهر الكلام لعبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي المتوفى عام 1355م.

- القاموس المحيط للفيروز أبادي.

- الصحاح للجوهري المتوفى بين 1003م و1010م.

- كتاب الريح للحسين بن أحمد ابن خالوية، نُسخت المخطوطة عام 1003م.

- رسالة في أسماء الأيام والليالي والشهور والسنين والأعوام والدهور والهلال لمحمد بن عبد الوهاب بن أبي هاشم البغدادي البارودي غلام ثعلب المتوفى عام 345هـ. تاريخ النسخ 1028هـ.

- مقدمة الأدب للزمخشري، نسخت عام 669هـ، يقول عنها أصحاب "المنتقى...": "نسخة قيمة، بين الأسطر ترجمات بالفارسية" [5].

- المائة في الطب لعيسى بن يحيى الجرجاني المسيحي المتوفى عام 401هـ، نسخت عام 1024هـ.

- جوامع الأدوية المفردة والمركبة لمؤلف مجهول. نَسخ المخطوطة عام 1013م مجد الدين محمد الحسيني الكاشاني.

هذه نماذج قليلة من النفائس المتنوعة الموجودة بمكتبة جامعة "سان پيترسبورگ"، ويستطيع المهتم العربي بهذا الموضوع الرجوع إلى كتاب "المنتقى..." المذكور للوقوف على معلومات دقيقة ومفصلة حول

---

(5) المنتقى...، ص. 312.

أزيد من 400 مخطوطة من هذه المجموعة. ولا بد من الإشارة كذلك إلى أن المكتبة تخزن عدداً من النفائس الخطية الغريبة من حيث شكلها وزخرفتها، نذكر منها على الخصوص نسخة من القرآن الكريم في حجم علبة ثقاب نسخت عام 1601-1602 م. بمدينة شيراز خصيصاً للشاه عباس الأول[6].

(6) أبراموف، الجناح الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة ليننگراد...، ص. 225-226.

مكتبة صالطيكوف شيدرين العامة

أنشئت مكتبة "صالطيكوف شيدرين" [1] بالعاصمة سان پيترسبورگ عام 1795 وفتحت أبوابها للعموم سنة 1814 . وهي تعد الآن إحدى أهم الخزانات العالمية، وتخزن بها ملايين الكتب المطبوعة والمخطوطة وكذلك مختلف المجلات والجرائد المكتوبة بعدد كبير من لغات العالم. أما المخطوطات العربية بها فإن عددها كان، إلى حدود عام 1962 ، حوالي 800 سفر [2] من بينها أسفار تتألف من عدة مؤلفات. ومن أقدم وأنفس هذه الكتب الخطية - "مجموعة مارسيل" ، نسبة إلى صاحبها الأول المستشرق الفرنسي "مارسيل" ، وكانت المكتبة قد اشترتها من عند حفدته عام 1864 ، وهي تضم نحو مائة قطعة من نسخ القرآن الكريم منسوخة على الرق بالخط الكوفي خلال القرون الأولى للهجرة [3] . ومن بين النفائس العربية المخطوطة التي تخزن في هذه المكتبة نذكر على سبيل المثال:

- كتاب حل مشكلات الإشارات والتنبيهات لابن سينا لمحمد بن محمد بن الحسين النصير (نصر الدين) الطوسي المتوفى عام 672هـ. تاريخ النسخ: عام 1513م.

---

(1) انظر حولها: م. ديميدوڤا، وگ. كوصطيكوڤا، . الذخيرة المخطوطة والمطبوعة المنشورة بلغات الشعوب الشرقية المخزونة في المكتبة العامة "صالطيكوف شيدرين"، ضمن كتاب الذخيرة الاستشراقية المحفوظة في أهم مكتبات الاتحاد السوفييتي، موسكو، ص. 156-171 . (بالروسية).
M. Demidova, G. Kostygova, Fondy rukopisyey i petchatnykh izdanii na yasykakh narodov vostoka v Gosudarstvennoy Publitchnoy biblioteke im. M. E Saltykova Chedrina. in: AN SSSR, Vostotchnye fondy Krupneychikh bibliotek Sovetskovo Soyuza, str. 156-171.

(2) نفسه، ص. 164.

(3) نفسه.

- تعليق على مقامات الحريري لمؤلف مجهول. نسخت المخطوطة عام 1405م.

- مجموعة من مؤلفات ابن رشد في الطب منسوخة بخط مغربي عام 1270م.

- الجزء الأول من نحو سيبويه، تاريخ النسخ: عام 1152م.

- الجزء الثاني من كتاب "نزهة المشتاق" للإدريسي، وهو عبارة عن تحفة خطية تحتوي على عدد من الخرائط، نسخت خلال القرن الرابع عشر الميلادي.

- الأجزاء الأول والثاني والثالث من "المُحلّى في شرح المجلَّى" لابن حزم، تم النسخ عام 1490م.

- التاريخ اليميني لمحمد بن عبد الجبار العتبي، وهو من أهم المؤلفات حول تاريخ آسيا الوسطى وخراسان.

- الجزء الثاني من "وفيات الأعيان" لابن خلكان.

- الكشكول لبهاء الدين، وهو أنطولوجية عربية فارسية، نسخت المخطوطة خلال السنوات 1674 و1677.

- أوراق منسوخة من التوراة نسخت عامي 885م و1035م.

- رحلة البطريرك ماكاريوس الحلبي إلى روسيا في القرن السابع عشر، دونها ابنه بولوس، ويرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1849.

أما الكتب العربية المطبوعة الموجودة في هذه المكتبة فإن عددها يفوق 3000 مجلدا من بينها نسخ من جل مطبوعات مطبعة قازان خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ومن بين نفائسها المطبوعة بالعربية نذكر على سبيل المثال:

- نسخة من القرآن الكريم مطبوعة في مدينة "هامبورگ" الألمانية عام 1694 .

- نسخة من التوراة، طبعة روما عام 1541 .

- نسخ من المطبوعات القديمة لعدد من مؤلفات ابن الأثير والمسعودي وابن بطوطة وغيرهم من الجغرافيين والمؤرخين العرب .

وتحتضن المكتبة كذلك عدداً كبيراً من الكتب العلمية والأدبية التي يرجع تاريخ تأليفها وطبعها إلى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كما أنها تحفظ في رفوفها جل أعداد المجلات العلمية المكتوبة بالعربية التي صدرت في تلك الفترة .

مكتبة جامعة موسكو

تعتبر هذه المكتبة إحدى أقدم المكتبات الروسية، فلقد فتحت أبوابها عام 1756 أي بعد سنة واحدة من تأسيس جامعة "لومونوصوف" بموسكو. وتخزن بجناحها الشرقي[1] أعداد كبيرة من الكتب الشرقية والاستشراقية المؤلفة بمختلف اللغات والمطبوعة غالبيتها خلال القرن التاسع عشر أو بداية القرن العشرين. ولقد تكونت مخزوناتها بالأساس من مكتبات الخواص وعلى رأسهم العلماء والأساتذة الذين كانوا يوصون بإهداء كتبهم بعد موتهم إلى مكتبة جامعتهم. وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من الإهداء صار بالتدريج عادة في جميع أنحاء روسيا وعم جل المؤسسات التعليمية العليا. ومعلوم أنه يحتفظ بكل مجموعة مهداة بداخل المكتبة باسم صاحبها الأول. وتعتبر المجموعة المعروفة "بجناح العالم بيتروف" من أهم وأنفس المخزونات. واللغة العربية ممثلة فيها بالأساس ببعض من النماذج من أدبها الشعبي كسيرة عنترة وألف ليلة وليلة[2]. أما المخطوطات العربية بالمكتبة فهي قليلة جداً، ولعل أهمها

---

(1) انظر حول هذا الجناح:
- گ. كليينمان، الجناح الشرقي للمكتبة العلمية لجامعة "لومونوصوف" بموسكو، في كتاب: "الذخيرة الاستشراقية..."، المذكور أعلاه، ص. 202-218.

(2) نذكر منها على الخصوص:
- سيرة عنترة في عشرة أجزاء للشيخ يوسف المصري، بيروت، 1865-1871.
- "The Alif Laila or Book of the 1001 nights. Now for the first time Published complete in the original Arabic from an Egyptian mss...", Calcuta-London, 1839-1842.

على الإطلاق هو مؤلف الفيروزأبادي "القاموس المحيط"، وقد قام بنسخ المخطوطة التي تتألف من 818 صفحة عبد الرحمن بن الحسين الكاوي تراب أقدم الصالحين عام 1651.

مكتبة معهد الاستشراق بموسكو[1]

تأسست هذه المكتبة عام 1950 بعد ترحيل معهد الاستشراق من ليننگراد (سان پيترسبورگ) إلى موسكو، وقد تم دمج معهد المحيط الهادئ الذي كان يملك خزانة استشراقية صغيرة في المعهد المرحل الذي تواصل إغناؤه طيلة عقود بآلاف الكتب المطبوعة المهداة من طرف أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي وجهات أخرى. أما المخطوطات الشرقية لمعهد الاستشراق فقد بقيت في مدينة ليننگراد في الملحقة التابعة له.

وتخزن الآن في مكتبة المعهد أعداد كثيرة من الكتب العربية المطبوعة بالأساس في العالم العربي خلال النصف الأول من القرن العشرين. أما مطبوعات القرن التاسع عشر فهي نادرة وتكاد تنحصر في عدد قليل من المؤلفات من مطبوعات بولاق نذكر منها على الخصوص "كتاب العبر" لابن خلدون المطبوع عامي 1867 و1868[2].

---

(1) انظر حولها:
مكتبة معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية بموسكو، في كتاب: "الدخيرة الاستشراقية..."، المذكور أعلاه، ص. 59-101، انظر على الخصوص الصفحات 61-68 حول الكتب العربية وهي بقلم مالتسيفا.
(2) نفسه، ص. 62.

مكتبة جامعة قازان[1]

كانت جامعة قازان التترية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، تعتبر أحد أهم مراكز الاستشراق في الإمبراطورية الروسية. ولقد استطاعت أن تتبوأ هذه المكانة بفضل المستوى العلمي الرفيع للعلماء العاملين بها وكذلك بالنشاط المتميز لمطبعتها التي أحدثت عام 1802 والتي كانت مجهزة بالحروف الروسية (كيريليتسا) واللاتينية والعربية والأرمينية والسانسكريتية والأُيْغورية فضلاً عن علامات الكتابة الصينية[2]. ومعلوم أن هذه المطبعة أصدرت خلال القرن التاسع عشر آلاف العناوين بكثير من اللغات الأوروبية والشرقية. وكانت الجامعة تبعث بنسخ من كتبها إلى جل مراكز الاستشراق العالمية التي كانت تزودها بدورها بجميع مطبوعاتها. وما زالت المكتبة تحتفظ بالكتب التي توصلت بها من كل من لندن وباريز وأمستردام وبرلين ولايپسيگ وڤيينا وبوداپيشت وروما وليدن. وتحمل هذه المؤلفات كلمة الإهداء التالية المكتوبة باللغة الإنگليزية: «طبعت هذه النسخة خصيصاً للجامعة الإمبراطورية بقازان»[3]. وتوجد ضمن هذه المجموعة ترجمة إنگليزية لرحلة ابن بطوطة[4]. وكانت المكتبة تتوصل، بالإضافة إلى الكتب، بالمجلات الاستشراقية الأوروبية كالمجلة الآسيوية

---

(1) انظر حولها:
- كاريمولين، الدخيرة الشرقية لمكتبة جامعة قازان، في كتاب: "الدخيرة الاستشراقية..." المذكور آنفا، ص. 228-236.

(2) نفسه، ص. 230.

(3) نفسه، ص. 229.

(4) عنوانه: The travels of Ibn Batuta, London, 1829.

نفس المرجع أعلاه، ص. 230.

و"مجلة الجمعية الأسيوية بالبنغال" (Le Journal Asiatique) (Journal of the Asiatic Society of Bengal) و"مطبوعات مدرسة اللغات الشرقية الحية" (Publications de l'Ecole des langues Orientales Vivantes) وغيرها... كان مجموع عناوين الكتب العربية المطبوعة في المكتبة إلى حدود عام 1962 يناهز 5600 عنواناً[5]، وقد تم طبع هذه الكتب في قازان نفسها وكذلك في مصر وسورية واليمن وإيران وتركيا والهند[6]. ومن بين نفائس هذه المجموعة نذكر على سبيل المثال:

- القانون في الطب لابن سينا، طبعة روما، 1593.

- مقامات الحريري، طبعة باريز، 1847.

- تحفة الكبار في أسفار البحار لحاجي خليفة، استنبول، 1656.

- لغات، وهو قاموس عربي تركي لمحمد بن مصطفى وان قولي المتوفى عام 1588، طبع الكتاب في استنبول عام 1727.

أما الكتب الخطية العربية فإن عددها بلغ عام 1962 حوالي 3200 عنوانا نذكر منها على سبيل المثال:

- كتاب الشفا لابن سينا، نسخ في القرن السادس عشر.

- كتاب الأسئلة الأربعة لأبي سعيد بن أبي الخير وإجابات الشيخ الرئيس، نسخ في القرن السادس عشر.

- تعليق ناصر الدين الطوسي (المتوفى عام 1247م) على شرح الإشارات لابن سينا، بخط المؤلف.

- كتاب المصارعة للشهر ستاني (المتوفى عام 1274م)، وهو مخطوط نادر[7]. وهذا المؤلف معروف كذلك بعنوان آخر هو "كتاب مصارعات الفلاسفة".

---

(5) نفسه، ص. 232.

(6) نفسه.

- كتاب مصارعات المصارعة لعمر بن سهلان الساوي، وهو مخطوط فريد[8].

- كتاب الملل والنحل للشهر ستاني، نسخ في القرن السابع عشر.

- كتاب في حل شكوك كتاب أقليدس وشرح معانيه لابن الهيثم، نسخ في القرن الخامس عشر.

- كتاب العباب الزاخر واللباب الفاخر للصغاني، هذا قاموس بخط المؤلف وغير كامل، وهو آخر أعمال المؤلف.

- شرح المنظريات لعبد الله بن أحمد النسفي المتوفى عام 1310م. بخط المؤلف.

- المنهل الصافي في شرح الوافي (في الصرف والنحو) لمحمد بن أبي بكر المالكي الدماميني المتوفى عام 1424، بخط المؤلف.

- تذكرة أولي الألباب لداود بن عمر الأنطاكي المتوفى عام 1599، بخط المؤلف.

- حديقة الزوراء في سيرة الوزراء لأبي الخير عبد الرحمن السويدي المتوفى عام 1786، نسخ خلال القرن الثامن عشر.

- غاية الإتقان في تدبير بدن الإنسان لابن سلوم الحلبي المتوفى عام 1669.

- كتاب الفصل بين الروح والجسد لـ"قسطا بن لوقا" المتوفى عام 854، وهو مخطوط نادر[9] "(في الطب).

- أخلاق النبي، لأحمد بن فارس الرازي المتوفى عام 1005م، وهو مخطوط نادر[10].

---

(7) نفسه، ص. 223.

(8) نفسه.

(9) نفسه، ص. 234.

(10) نفسه.

- أدب الشطرنج للرقيب الإصفهاني المتوفى عام 1108م، مخطوط نادر [11].

- مناجاة الحسين بن منصور الحلاج حسب رواية ابنه حمد. هذه إحدى النسخ السبع التي اعتمدها ماسينيون (Massignon) لوضع كتابه "أخبار الحلاج" [12]. وكان العالم الفرنسي قد طلب نسخة منها من كراتشكوفسكي الذي بعثها له عام 1925.

- وفيات الأسلاف في تحفة الأحلاف لشهاب الدين المرجاني المتوفى عام 1889. الكتاب في ستة أجزاء، طبع الجزء الأول منها فقط بقازان عام 1883 وبقيت الأجزاء الأخرى مخطوطة. وقد سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول من هذه الدراسة.

- حسن المشرب في حرف لسان العرب (في الصرف والنحو) للعالم التتري عالم جان بن محمد البارودي القازاني (كان حيا عام 1909).

- رسالة في الحقيقة والمجاز لابن مراد حضرة القزاني المتوفى عام 1840-1841، المخطوطة بخط المؤلف الذي أنهى كتابتها عام 1813.

- شرح أشكال التأسيس (في علم الرياضيات) لموسى بن محمد قاضي زاده الرومي المتوفى عام 1412م.

- مبرز المعاني، شرح حرز الأماني (في علم القراءات) لأبي الرشاد محمد العمادي الحافظ، تم النسخ عام 1370م.

- المستصفى للغزالي، نسخت المخطوطة عام 1142 - 42م.

- الكشاف للزمخشري، تاريخ النسخ عام 98-1297م.

---

(11) نفسه.

(12) انظر: L. Massignon, Akhvar Al-Hallaj, recueil d'oraisons et d'exhortations du martyr mystique de l'Islam hussayn Ibn Mansur Hallaj, troisième édition, 1957.

- حرار المعاني لعلي بن أحمد الواحدي المتوفى عام 1075م، سنة النسخ 64-1263م.

- مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد لنجم الدين الرازي المتوفى عام 1256م.

- المحتسب لابن البابشاذي المتوفى عام 1076م (في علم المعاني).

- تقويم اللسان لابن قتيبة (في علم اللغة). تاريخ النسخ عام 1165م.

إن النماذج التي قدمناها في هذه الصفحات لا تمثل إلا القليل من نفائس المخطوطات العربية المخزونة في مكتبة جامعة قازان التي تمتاز كذلك باحتوائها على العديد من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون وخاصة في علوم اللغة العربية والدين الإسلامي وكذلك في تاريخ الشعوب التترية والتركية، وهذه المؤلفات بأقلام علماء تتريين أمثال شهاب الدين المرجاني المذكور أعلاه ومحمد كريم البلغاري وعلم جان بارودي والشيخ أبي نصر الكرساوي وغيرهم. وما زالت حتى الآن هذه المؤلفات مجهولة في العالم العربي كما أن مؤلفيها غير معروفين فيه إطلاقاً.

مكتبة ملحقة معهد الاستشراق
بسان پيترسبورگ
(المتحف الآسيوي السابق)

اقترن تاريخ المكتبات الروسية الخاصة بخزن الكتب والمخطوطات الشرقية بتأسيس "المتحف الآسيوي" "بسان پيترسبورگ" سنة 1818، وهي المؤسسة التي كلفت بجمع وتصنيف المخطوطات ودراستها. وقد سبق أن تحدثنا عن هذا "المتحف" وعن مختلف نشاطاته خلال القرن التاسع عشر، كما أشرنا إلى أبرز العلماء الذين اشتغلوا به أمثال "فرين" و"دورن" وغيرهما. غير أن الاهتمام بموضوع المخطوطات الشرقية في الإمبراطورية الروسية سبق تاريخ تأسيس هذه المؤسسة العلمية بنحو مائة سنة، ولقد كتبنا في موضوع حديثنا عن القيصر "بطرس" الأول[1] أن هذا الأخير أمر عام 1721 بإنشاء متحف خاص بالحضارات الشرقية، واقتنى هذا المتحف الذي ظل يعرف "بمكتب النوادر" بعض المخطوطات، العربية والفارسية والتركية وكذلك عدداً من المسكوكات الإسلامية. وقام أحد العاملين به بتأليف كتاب حوله[2]، ونشر هذا المؤلف الذي يعتبر أول وصف للمكتبات الروسية عام 1776. وقد شكل "مكتب النوادر" النواة الأولى "للمتحف الآسيوي" الذي بدأ يتوصل، بمجرد تأسيسه، بأعداد

(1) انظر المبحث الخاص ببداية الاستشراق في الفصل الأول من هذه الدراسة.

(2) نشر هذا الوصف باللغة الفرنسية:

J. Bacmeister, Essai sur la Bibliothèque et le Cabinet des curiosités et d'histoire naturelle de l'Académie des Sciences de Saint - Petersbourg, St-Petersbourg, 1776.

كبيرة من الكتب والمخطوطات الشرقية التي كان يقتنيها لفائدته الموظفون العاملون في السفارات الروسية في البلدان الشرقية. ومع نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت هذه المؤسسة العلمية قد اشترت العديد من المكتبات التي كانت في ملك الخواص. وتجدر الإشارة إلى أن الكتب والمخطوطات العربية لقيت اهتماماً فائقاً خاصة خلال العقود الأولى من حياة المتحف، وذلك بفضل عناية العالمين الألمانيين "فرين" و"دورن" اللذين تعاقبا على إدارة هذه المؤسسة. وقامت مجموعة من العلماء بتصنيف وترتيب المخطوطات الشرقية[3] عامة والعربية[4] منها خاصة ووضعت فهارس لها، كما أن عدداً كبيراً من الباحثين الأجانب، ومن ضمنهم بعض العرب، أولوا هذه المؤلفات أهمية خاصة وكتبوا عنها مقالات[5] تعريفية أو نقدية...

وتحول "المتحف الآسيوي" سنة 1930 إلى معهد الاستشراق الذي اتخذ موسكو مقراً له عام 1950 واحتفظ بملحقة له في "لينينگراد"، وفي عام 1960 أنشئ "معهد شعوب آسيا" التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية.

---

(3) انظر على سبيل المثال:

- أكاديمية العلوم... الذخيرة الاستشراقية المحفوظة في أهم مكتبات الاتحاد السوفييتي المذكور انفا.

(4) انظر على سبيل المثال:

- B. Dorn, Catalogue des ouvrages arabes, persans et turcs publiés à Constantinople, en Egypte et en Perse qui se trouvent au Musée Asiatique de l'Academie, in: "Mélanges asiatiques", V (1864-1868), St-Petersbourg, 1868, p. 465-528.

- Victor Rosen, Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée Asiatique. Première livraison, St-Petersbourg, 1881.

- أكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، معهد الاستشراق. (بالروسية).

- المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتي، تحت إشراف خاليدوف، دار "ناووكا"، موسكو، 1986، ج 1 و2 (بالروسية).

- Institut Vostokovedeniya AN-SSSR, Arabskiye rukopisi Instituta Vostokovedeniya - Kratkiy katakog, pod redaktsiey A. B. Khalidova, izd. "Nauka", Moskva, 1986, T. 1-2.

(5) انظر على سبيل المثال:

- عبد اللطيف الشاذلي، مخطوطات عربية في خزائن سوفييتية، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية I، الدار البيضاء، عين الشق، العدد السابع، ص. 21-48.

بعد ذلك تغير مرة أخرى اسم المتحف مرتين ليصير "ملحقة معهد شعوب آسيا بلينينگراد" ثم "ملحقة معهد الاستشراق بلينينگراد" [6] (سان پيترسبورگ). وظلت هذه الملحقة تعتبر بحق المحرك الرئيسي والقلب النابض لدراسة المخطوطات والكتب الشرقية عامة والعربية منها على وجه الخصوص. تتكون مكتبة هذه المؤسسة العلمية من جناحين رئيسيين هما:

1- القسم الخاص بالكتب المطبوعة.

2- القسم الخاص بالمخطوطات.

وسنتوقف عند هذين الجناحين للتعريف بهما وبأهم مخزوناتهما من كتب ومخطوطات عربية.

أ- القسم الخاص بالكتب المطبوعة:

كان هذا القسم يضم عام 1963 أزيد من عشرة آلاف كتاب عربي مطبوع [7]، سواء بواسطة المطبعة التيبوغرافية أو بواسطة المطبعة الحجرية. وتحتوي المكتبة على كتب دينية ودراسات في شتى مجالات المعرفة ومجموعة من القواميس القديمة والحديثة، وكذا مؤلفات من الأدب العربي الحديث وحوله ودراسات استشراقية مترجمة من لغات أوروبية غربية كالفرنسية والإنكليزية والألمانية، كما تشتمل على طبعات نادرة وقديمة لعدد من المؤلفات العربية في التاريخ والجغرافية والفلسفة والأدب... ونذكر من بين هذه الطبعات القديمة على سبيل المثال كتاب الإدريسي "نزهة المشتاق" المطبوع في روما عام 1592 ومؤلف ابن سينا "كتاب القانون في الطب" المطبوع في نفس المطبعة سنة 1593 [8]...

---

(6) تغير اسم "لينينگراد" مرة أخرى، واسترجعت المدينة اسمها القديم "سان پيترسبورگ"، منذ عام 1991.

(7) أكاديمية العلوم السوفييتية، الذخيرة الاستشاقية، ص. 10.

(8) نفسه.

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك فإن المتحف كان يقتني معظم هذه الكتب بمساعدة الدبلوماسيين الروسيين العاملين في مختلف السفارات الروسية في أوروبا والشرق العربي والإسلامي وخاصة في تركيا ومصر وإيران... ففي عام 1866، مثلا، لما وضع العالم "دورن" فهرسا" [9] لهذه المقتنيات وأرفقه بلائحة من الكتب المطبوعة في هذه البلدان التي يرغب المتحف في الحصول عليها، أرسلت هذه القوائم إلى مختلف السفارات الروسية المعنية بالأمر التي اقتنت فعلا الكتب الواردة عناوينها فيها وبعثتها إلى "سان بيترسبورگ". وبعد مرور سنة، أي عام 1867، أصدر "دورن" فهرساً آخر للكتب العربية والتركية والتترية المطبوعة في "قازان" [10] التي توصل بها المتحف. ومع بداية القرن العشرين صارت المكتبة تتوصل بأعداد متزايدة من الكتب العربية وخاصة منها المؤلفات المطبوعة في القاهرة والقدس وبيروت والقسطنطينة، كما تزايد في هذه الفترة اقتناء المكتبات التي كانت في ملك الخواص من علماء ومحبي الكتب النادرة في روسيا وأوروبا الغربية وآسيا الوسطى.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين كانت المكتبة تحصل بانتظام على أجود طبعات المؤلفات في الأدب العربي الحديث، وذلك بفضل العناية التي كان يوليها العالم "كراتشكوفسكي" لهذه المؤسسة واهتمامه الخاص بهذا الموضوع.

ورغم بعض الثغرات التي توجد به حاليا، فإن قسم الكتب المطبوعة بمكتبة "ملحقة معهد الاستشراق" "بسان بيترسبورگ" يحتضن في رفوفه عدداً كبيراً من النفائس كالمنشورات القديمة لمطبعة "ميديتشي"

---

(9) B. Dorn, Catalogue des ouvrages arabes, persans et Turcs...

(10) صدر هذا الفهرست باللغة الألمانية:

B. Dorn, Chronologisches Verzeichniss der seit dem Jahre 1801 bis 1866 in Kasan gedruckten arabischen, turkischen, tatarischen und persischen Werke, als Katalog der in dem asiatischen Museum befindlichen Schriften der Art., "Melanges asiatiques", V (1864-1868), St-Petersbourg, 1867, p. 533-649.

(Medecci) في روما التي يرجع عهدها إلى أواخر القرن السادس عشر، وكذلك مجموعة الكتب الأولى التي طبعت في مطبعة "حلب" المسيحية ومنشورات مطبعة "بولاق"... كما أنها تحتضن المجموعة الكاملة لجريدة "الجوائب" التي كان يصدرها محمد فارس الشدياق (1804-1887) في إستنبول... ولا بد من الإشارة إلى أن المطبوعات الحجرية المغربية التي تعتبر نادرة الوجود في عدد من المكتبات الأوروبية تكاد تكون كاملة في هذه المكتبة[11].

وخلاصة القول فإن هذه المكتبة تحتضن بين جدرانها منشورات جل المطابع العالمية التي كات تصدر كتبا بالحرف العربي وهذه المؤلفات كلها مصنفة ومفهرسة في جذاذات حسب حجمها وهي مرقمة كمثيلاتها الأجنبية، وتتميز عنها بإضافة حرف "A" الذي يعني هنا "عربي (arabskiy)".

ب- قسم المخطوطات:

تخزن المخطوطات العربية ضمن مجموعة كبيرة يطلق عليها اسم "خزانة المخطوطات الإسلامية"، وهي من حيث عدد أسفارها التي تقرب الخمسة آلاف سفر[12] تشكل أضخم وأهم مجموعة بداخل هذه "الخزانة"، ومصدر أغلب هذه المؤلفات من آسيا الوسطى وقازان والقوقاز، لكن أكثرها أهمية من حيث قيمتها العلمية هي تلك التي تنتمي أصلاً إلى المجموعات التي كانت في ملك الخواص أمثال "إيطالينسكي"[13] و"سوختيلين" و"زاليمان" و"روزين" وخاصة "روسو"، وكذلك "مجموعة بخارى" التي اقتناها لفائدة المتحف في بداية القرن العشرين المستشرق "إيڤانوف" (F. Ivanov) الذي يقول عنه "كراتشكوفسكي": «... ذلك الرجل البالغ الغرابة والمتخصص الكبير في التصوف والمحب الولهان للمخطوطات... وكان "صياداً" ناجحاً لهذه المخطوطات. فقد أرسلته

---

(11) الذخيرة الاستشراقية المحفوظة في أهم مكتبات، ص. 12.

(12) حسب "خاليدوف" في مقاله "المخطوطات العربية"، في كتاب "الذخيرة الاستشراقية"، ص. 33، ومعلوم أن كل سفر يحتوي على عدد من العناوين.

(13) "إيطالينسكي" (A. Italinskiy) (1743-1827) كان يشغل منصبا دبلوماسيا في تركيا.

الأكاديمية مرتين لجمعها في آسيا الوسطى. فاغتنى المتحف بالمجموعة الضخمة التي جمعها والتي تسمى بمجموعة "بخارى" »[14]... غير أن أهمها على الإطلاق هي مجموعة "روسو" التي كان لها تأثير إيجابي واضح لا على تطور المتحف الآسيوي فحسب، بل على ازدهار الدراسات الاستعرابية في روسيا كلها، وهي المجموعة التي اجتذبت إليها العديد من العلماء العالميين الكبار أمثال "فرين" و"دورن" وغيرهما. ولقد تحدث "كراتشكوفسكي" بإسهاب في كتابه "مع المخطوطات العربية" عن تاريخ أسرة "روسو" السويسرية الفرنسية في سوريا وعن مجموعة المخطوطات التي اقتناها أفرادها بالتدريج... وهكذا نعلم بأن شخصاً يدعى "روسو"، وهو ينحدر من عائلة الفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" استوطن سوريا قادماً إليها من "سويسرا" واستطاع هذا الرجل أن يجمع بعض الثروة بالتدريج، وعشية الثورة الفرنسية شغل ابنه منصب قنصل لفرنسا في حلب وبغداد، وترعرع حفيده الذي كان يمتلك ثقافة فرنسية عالية في هذا الوسط الشرقي، وتمكن من إتقان عدد من اللغات الشرقية كالعربية والتركية والفارسية. ويمضي "كراتشكوفسكي" في حديثه عن هذه الأسرة ويقول: « ... وقد اقتفى الحفيد خطوات أبيه كتاجر رسمي ووكيل قنصلي وصار أحسن من أبيه من حيث معارفه واهتمامه العلمي بتلك البلاد التي عاش بها. وأقام الحفيد في حلب وقتاً طويلاً. وإقامته في هذه المدينة التي كانت آنذاك "مركزاً ثقافياً" أصيلاً للمنطقة، طورت فيه ذوقا نحو الأدب وجمع المخطوطات فتجمعت لديه بالتدريج مجموعة كبيرة اختيرت بمهارة. أما النصف الثاني من حياة الحفيد فتغيرت فيه ظروفه المادية إلى حد جعله يفكر، عام 1815، في التخلص من مجموعة مخطوطاته ببيعها... فتوجه إلى الحكومة الفرنسية أول ما توجه يعرض عليها شراء المجموعة، إلا أن عجز الميزانية بعد حروب "نابليون" لم يمكّن الحكومة

---

(14) كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، صفحات الذكريات عن الكتب والناس، دار التقدم (Progres)، موسكو (دون ذكر سنة النشر ولا اسم المترجم إلى اللغة العربية).

I. Kratchkovskiy, Nad arabskimi rukopisiami...

من الموافقة على المبلغ الكبير الذي طلبه صاحب المجموعة... وهنا، يقول "كراتشكوفسكي": «جاء دور "سيلفيستر دوساسي" (Silvestre de Sacy)، أكبر مستشرق مشهور في عصره، الذي كان يقدر جيداً قيمة هذه المجموعة، فأخبر عنها، بواسطة تلاميذه الذين كانوا أساتذة زائرين في "بطرسبورغ"، وزير التعليم الشعبي الروسي "أوڤاروف" (Uvarov)... وقد بيعت المجموعة على دفعتين عامي 1819 و1825...»[15]، وتضم هذه المجموعة عدداً كبيراً من المخطوطات الفريدة والنادرة. ويكفي أن نشير إلى أنها تحوي "ديوان ابن قزمان المسمى بكتاب إصابة الأغراض في ذكر الأعراض"، وهو المخطوط الفريد الذي تعرف العالم من خلاله على جانب مهم من جوانب الثقافة الأندلسية. ولا بد من الوقوف هنا ولو قليلاً للتعريف بتاريخ هذه المخطوطة النفيسة كما ورد عند "كراتشكوفسكي" في كتابه "مع المخطوطات العربية"[16]. فبعدما تحدث العالم عن ابن قزمان وعصره في الأندلس وعن مجموعة "روسو" وطريقة وصولها إلى "المتحف الآسيوي"، انتقل للحديث عن مصير هذه المخطوطة بعد أزيد من خمسين سنة على اقتنائها. وهكذا نعلم أن أستاذه "البارون روزين"، لما انتخب عام 1879 عضواً في أكاديمية العلوم الروسية وضع خطة لطبع فهارس علمية للمخطوطات العربية المخزونة في المتحف. وقد كتب هذا الفهرس باللغة الفرنسية. وبفضله سرعان ما دخلت في حلبة العلم ثلاثمائة مخطوطة. وقد وجه "روزين" اهتماماً خاصاً نحو ديوان ابن قزمان. وكتب وصفاً مختصرا للشاعر وأورد بعض أشعاره التي طبعت هنا باللغة العربية لأول مرة. ولم يكتف "روزين" بهذا القدر من العمل، بل أراد، وهو العالم الذي كان يتفاعل دوماً مع مختلف الأنشطة العلمية الاستعرابية أن يجذب إلى عمله باحثين آخرين. فاتصل بالمستعرب الهولاندي "دوزي" (Dozy)، وهو ألمع الاختصاصيين في الأندلسيات في وقته. غير أن "دوزي" الذي كان يعيش أيامه الأخيرة لم يرد الارتباط بعمل شاق وطويل النفس، واكتفى

---

(15) إ. كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، ص. 153-155.
(16) نفسه، ص. 156-162.

بالرد على خطاب "روزين" برسالة تتضمن بعض التعليقات الطريفة حول ابن قزمان وحول شعره، بعد هذا، قامت المخطوطة برحلة خاصة إلى مدينة غرناطة حيث درسها الأستاذ الإسباني "سيمونيت" (Simonet) وعرف مواطنيه بها وبمؤلفها - الشاعر القرطبي ابن قزمان - من خلال مقالة خاصة. لكن أحدا لم يتجرأ على الخوض في إعداد طبعة محققة للديوان حتى اعتنى به أحد تلاميذ "روزين" وهو "البارون گينزبورگ" (D. Günzburg) الذي عرف كرجل أعمال ناجح ومحب للكتب النادرة، فقام بنشره في "برلين" على نفقته في شكل صورة فوتوغرافية جيدة[17]. وهكذا أصبحت المخطوطة في متناول كل الباحثين الذين كانوا يرغبون في التعرف عليها... وبدأت الدراسات حولها تتعاقب...

لقد قضى العالم "فرين"[18] جزءاً كبيراً من حياته في تصنيف هذه المجموعة الهائلة من المخطوطات، وتابع عمله هذا، بعد وفاته، زمرة من العلماء أمثال "دورن"[19] و"زاليمان"[20] وگيركس"[21] و"روزين"[22] و"كراتشكوفسكي"[23] و"بيليايف"[24] و"ميخايلوڤا"[25]

---

(17) D. de Günsburg, Le divan d'Ibn Guzman, Texte, traduction, commentaire, enrichi de considérations historiques, philologiques et littéraires sur les poèmes d'Ibn Guzman, sa vie, son temps, sa langue et sa métrique ainsi, que d'une étude sur l'arabe parlé en Espagne au VIe siècle de l'Hégire dans ses rapports avec les dialectes arabes en usage aujourd'hui et avec les idiomes de la péninsule ibérique. Fasc. 1. Le Texte d'après le manuscrit unique du Musée Asiatique Impérial de St-Petersbourg, Berlin, 1896.

(عن: كراتشكوفسكي، مع المخطوطات العربية، ص. 162).

(18) لم تنشر أبحاث كل من "فرين" و"زاليمان" حول مخطوطات المتحف الأسيوي العربية. وبقيت دراستهما مع وثائق "المتحف".

(19) Dorn, B., Das Asiatische Museum der kaiserlichen akademie der Wissenschaften zu St-Petersbourg, St-Petersbourg, 1846.

وله كذلك: ...Catalogue des ouvrages arabes

وله عدد من الأبحاث الأخرى حول هذا الموضوع.

(20) انظر الهامش (18)، لكنه نشر دراسة مع "روزين" حول المخطوطات الشرقية المحفوظة في جامعة سان پيترسبورگ، وعنوانها: لائحة المخطوطات الفارسية والتركية والتترية والعربية المحفوظة في جامعة سان پيترسبورگ، صدرت هذه الدراسة في مجلة ZVO، في العدد الثاني (1888)، ص. =

و"خاليدوف" (26) و"گريزنييڤيتش" (27) وغيرهم من العلماء...

=

241-266، وفي العدد الثالث (1889)، ص. 197-222.

(21) Abu Hanifa ad-Dinaweri, "Kitâb al-ahbâr at-Tiwâl", publié par Vladimir Guiragass. Leide, 1888.

(22) V. Rosen, Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée Asiatique. Première livraison, St-Petersbourg, 1881.

وله كذلك:

-Collections scientifiques de l'Institut des Langues Orientales du Ministère des Affaires Etrangères. Les Manuscrits de l'Institut des Langues Orientales décrits par le Baron Victor Rosen, St-Petersbourg, 1877.

وله كذلك:

-Indices alphabetici codicum manuscriptorum persicorum turcicorum arabicorum qui in Bibliotheca imperialis literarum Universitatis. Petropolitanae adservantur, Petropoli, 1888.

وهي الدراسة التي أنجزها بمساعدة "زاليمان" والمذكورة في الهامش العشرين.

وله أبحاث أخرى حول المخطوطات.

(23) إ. كراتشكوفسكي، الجناح العربي في المتحف الأسيوي التابع لأكاديمية العلوم الروسية، 1818-1918، دليل صغير، پيتروگراد، 1920، (بالروسية).

Arabskiy Otdel v Aziatskom Museye...

- وله كذلك: مع المخطوطات العربية.

- وله عشرات الدراسات حول مخطوطات المتحف وغيره من المؤسسات العلمية.

(24) ف. بيليابيف، المخطوطات العربية التي تنتمي إلى مجموعة بخارى، الموجودة في المتحف الاسيوي التابع لمعهد الاستشراق لأكاديمية العلوم السوفييتية II، ليننگراد، 1932، (بالروسية).

Arabskiye Rukopisi Bukharskoy Kollektsii Aziatskovo Muzeya.

وله أبحاث أخرى حول هذا الموضوع.

(25) ميخايلوڤا، الذخيرة العربية، في كتاب "الذخيرة الاستشراقية..."، ص. 10-13، بالروسية).

- ولها كذلك: فهرست المخطوطات العربية المحفوظة في معهد شعوب آسيا، موسكو، 1960، القسم الثاني، (بالروسية).

- ولها عدد كبير من الأبحاث حول هذا الموضوع.

(26) أ. خاليدوف، المخطوطات العربية، في كتاب "الدخيرة الاستشراقية..."، ص. 33-37، بالروسية.

- وله كذلك: المخطوطات العربية المحفوظة في معهد شعوب آسيا، موسكو، 1960. القسم الاول، (بالروسية).

- وله كذلك عدد كبير من الأبحاث حول هذا الموضوع.

(27) له: محمد الحموي، التاريخ المنصوري، تقديم ونشر "گريزنييڤيتش"، موسكو، 1960، (بالروسية). وله كذلك العديد من الدراسات في موضوع المخطوطات العربية.

وآخر دراسة صدرت حول هذه المجموعة من المخطوطات النفيسة هو كتاب "المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفييتي"[28] الذي يقع في جزئين. وإننا في هذا الفصل من دراستنا اعتمدنا بالدرجة الأولى هذا الفهرست الذي يعرّف بما يزيد على 10800 عنواناً.

وقد أعطى الأستاذ عبد اللطيف الشاذلي وصفاً لهذا الدليل في مقالته "مخطوطات عربية في خزائن سوفييتية" التي سبقت الإشارة إليها، يقول الأستاذ الشاذلي في وصف هذا الكتاب: «... (الجزء) الأول، في 527 صفحة مكون من ثلاثة أقسام، يهتم القسم الأول (وهو باللغة الروسية بالتعريف الإجمالي بمكتبة المعهد وتاريخ تكوينها ونبذة عن كيفيات تصنيف الكتب فيها. أما القسم الثاني فيستعرض محتويات المكتبة مصنفة إلى المجموعات التالية.

1- القرآن وعلومه.

2- الحديث.

3- الوعظ والتصوف (والعقيدة والصلوات).

4- الفقه.

5- الفلسفة وعلم النفس والأخلاق والسياسة.

6- النحو والمعاجم والعروض (والبلاغة).

7- الأدب (شعر ونثر).

8- التاريخ.

---

(28) أكاديمية العلوم للاتحاد السوڤييتي، المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفييتي، فهرست صغير، تحت إشراف "خليدوف"، دار النشر "ناووكا"، موسكو، 1986، ج 1-2.

AN SSSR., Arabskoye rukopisi Instituta Vostokovedeniya. Kratkiy Katalog..., M., 1986.

9- التراجم.

10- الجغرافيا والطبوغرافيا (والكوسموغرافية).

11- الرياضيات وعلم الفلك.

12- الموسوعات وأنواع العلوم.

13- البيبليوغرافيات.

14- العلوم الطبيعية.

15- السحر وما قاربه.

16- الطب.

17- البيطرة (وعلم الخيل).

18- الفلاحة.

19- الأمور الحربية.

20- المطبخ.

21- الموسيقى.

22- إجازات.

23- الآداب المسيحية المكتوبة بالعربية.

24- متنوعات.

أما القسم الثالث، يقول الأستاذ الشاذلي، فهو عرض مختصر باللغة الإنجليزية عن محتويات الدليل، في حين يتكون الجزء الثاني من الدليل من 336 صفحة، وهو كشاف لعناوين المؤلفات وأسماء المؤلفين...»[29].

---

(29) عبد اللطيف الشاذلي، مخطوطات عربية في خزائن سوفييتية، حوليات كلية الآداب والعلوم الرنسانية، I، العدد السابع، ص. 21-23.

وتجدر الإشارة إلى أن مكتبة "المتحف الآسيوي" استطاعت مزاولة نشاطها العلمي رغم الظروف القاسية التي اجتازتها روسيا خلال تاريخها الحديث، منذ اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية مروراً بالثورة البولشيفية والحرب الأهلية والتدخلات العسكرية الأجنبية... ولم تكتف هذه المكتبة، رغم كل الصعوبات، بصيانة مجموعات مخطوطاتها النفيسة فحسب، بل زادت فأغنت مخزونها خاصة عن طريق اقتناء مكتبات العلماء المستشرقين الروسيين وغيرهم... وهي الآن تعتبر بحق إحدى أغنى المكتبات الاستشراقية في العالم. ونظراً لأهميتها الخاصة فإننا ارتأينا التعريف بعدد من مؤلفاتها الخطية النادرة أو الفريدة، وكذلك بعدد من الأبحاث المنجزة حولها من قبل علماء روسيين قلما نجد ذكراً لهم لا في دراسات العلماء العرب ولا في أعمال المستشرقين في كل من أوروبا الغربية وأمريكا. وجدير بالذكر أن أقدم مخطوطات المكتبة يرجع عهد نسخها إلى بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ونذكر من بينها على الخصوص مخطوطتين اثنتين، هما:

1- "ديوان جرير"، جمعه محمد بن حبيب المتوفي عام 245هـ/ 860م. الديوان مرتب حسب التسلسل الزمني لشعر جرير. نسخت المخطوطة قبل 419هـ، وهي في حالة جيدة، عدد أوراقها: 203 ورقة، رقمها في المكتبة (19) C6[30].

2- "الألفاظ الكتابية" تأليف عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفى عام 320هـ/ 932م. تم نسخ هذه المخطوطة التي تقع في 123 ورقة عام 479هـ/ 1086م. ببغداد، رقمها في المكتبة (440) A199[31].

---

(30) هذه المخطوطة من مجموعة "روسو"، وتحمل رقم 125 في اللائحة التي وضعها "روسو" الحفيد، صاحب المجموعة، وقد ورد ذكرها عند "روزين" (Notices) تحت رقم 262، وعند بروكلمان GAL, I، 56-58 و SBI 86-87.

(31) تحمل هذه المخطوطة رقم 240 في مجموعة "روسو": ورد ذكرها عند بروكلمان: GAL, I، 127، رقم 1 و SBI، 195.

هنا وفيما بعد ستكون الاختصارات تعني:

=

ومن نفائس الخزانة كذلك عدد كبير من المخطوطات الصغيرة الحجم أو المزخرفة صفحاتها برسوم مختلفة والملونة والمذهبة، ويمثل

=

- Rousseau = Rousseau, J. L., Catalogue d'une collection de cinq cents manuscrits orientaux, Paris, 1817.

- Rosen, coll. sc. I = Rosen, V. Les manuscrits arabes de St-Petersbourg, 1877...

- Rosen, Coll. sc. VI = Rosen, V., Les manuscrits babys, St-Petersbourg, 1891.

- Rosen, Notices = Rosen, V., Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée Asiatique, St-Petersbourg, 1881.

- Dorn, Mel. as. = Dorn, B., Das Asiatische Museum...

- Sezgin = Sezgin, F., Geschichte der arabischen Schrifttums, Bd. I, Leiden, 1967.

- GAL = Brockelmann C., Geschichte der Arabischen litteratur, Bd I-II, Weimar-Berlin, 1898-1902.

- GAL, 2 Aufl = Brockelmann C., Geschichte der Arabischen litteratur. Zweite den Supplementbänden angepasste auflage, Bd. I-II. Leiden, 1943-1949.

- GAL Sb = Brockelmann, C., Geschichte der Arabischen litteratur. SBd I-III. Leiden, 1937-1942.

- SB = GAL SB.

- IAN = Bulletin de l'Académie des Sciences de St-Peterbourg.

Série V, T. I-XXV. St-Pbg, 1896-1906.

Série VI, T. I-XI, St-Pbg, 1907-1917.

أخبار أكاديمية العلوم الروسية، السلسلة VI، ج XXI-X، پيتروگراد - لينِنگراد، =IRAN-، 1917-1927. (بالروسية).

- گيرگس - روزين = گيرگس وروزين: مجموعة النصوص العربية، الملزمتان I وII، سان پيترسبورگ، 1876. (بالروسية).

- خاليدوف، فهرست المخطوطات العربية... النثر الأدبي، موسكو، 1960، =KAR, 1-، (بالروسية).

- ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، الجغرافية، موسكو، 1961، (بالروسية)، =KAR, 2-.

- ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، التاريخ، موسكو، 1965، (بالروسية)، =KAR, 3-.

- بيلياييف = بيلياييف، المخطوطات العربية المخزونة في معهد الاستشراق، المذكور انفا.

- بيلياييف مجموعة بخارى = بيلياييف، المخطوطات العربية التي تنتمي إلى مجموعة بخارى... المذكور انفا.

- بياييف الكتب العربية = بيلياييف، المخطوطات العربية المخزونة في معهد الكتاب والوثيقة التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، موسكو- لينِنگراد، 1936، (بالروسية).

- بيلياييف وبولگاكوف = بيلياييف وبولگاكوف، المخطوطات العربية المخزونة في جامعة لينِنگراد، في كتاب "ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي"، لينِنگراد، 1958، ص. 20-35، (بالروسية).

- كراتشكوفسكي، مختارات = كراتشكوفسكي، المؤلفات المختارة، ج VI-I، موسكو - لينِنگراد، 1955-1960، (بالروسية).

- كراتشكوفسكي، VI، 383-422 = كراتشكوفسكي، المخطوطات العربية الوافدة إلى المتحف الآسيوي من الجبهة القوقازية، في مجلة "أخبار أكاديمية الإمبراطورية للعلوم"، XI-VI، 1917، ص.

=

المصحف الكريم نسبة مهمة من هذه المجموعة. ومنها كذلك ما يحتوي على خرائط جغرافية كمقدمة ابن خلدون وكتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" لجلال الدين السيوطي وكتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي وغيرها من المخطوطات... كما أن المكتبة تضم في رفوفها عدداً كبيراً من النفائس الأخرى، وسوف نحاول التعريف ببعضها، وقد قسمناها إلى قسمين: المخطوطات الفريدة والمخطوطات النادرة.

I- المخطوطات الفريدة:

1- في الوعظ والتصوف:

- الجزء الخامس من "هداية المسترشدين"، تأليف أبي بكر محمد بن الطيب البصري الباقلاني المتوفى عام 403هـ/ 1013م. يرجع تاريخ نسخ هذه المخطوطة التي تقع في 182 ورقة إلى القرن الثاني عشر الميلادي رقمها في المكتبة: C245 (370a)[32].

- "در عقائد أهل السنة والجماعة"، تأليف علي بن محمد البزودي المتوفى عام 482هـ/ 1089م، لا يوجد من هذا المؤلف سوى الجزء الأول، عدد أوراقه 139، رقمه B2375[33].

- "مواقف الآخرة ولطائف الفاخرة"، تأليف علي دده بن مصطفى

=

949-913، (بالروسية).
- كراتشكوفسكي، VI، 444-423 = كراتشكوفسكي، المخطوطات العربية الوافدة من مجموعة "غريغوريوس" الرابع، لينگراد، 1920، (بالروسية).
- كراتشكوفسكي، أبو الفرج = كراتشكوفسكي، أبو الفرج الوأوأ الدمشقي، ليدن - بيتربورگ، 1914-1913، (بالروسية).
- كراتشكوفسكي، تاريخ الاستعراب الروسي = كراتشكوفسكي، تاريخ الاستعراب الروسي، موسكو - لينگراد، 1950، (بالروسية). (بالروسية).
- Zivan= نشرة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، لينگراد. (بالروسية).
- Zivan, VII = مصادر جديدة لدراسة لغة خوارزم...

(32) بليابيف 58 :; IAN, Serie V, T. 14, 1901. XXII, N°6; GALI, 197, N° 8; SB I, 349, Sezgin, I, 608, N° 18, 7.

(33) انظر حول المؤلف: GAL, I, 373, N° 4; SB, I, 637.

علاء الدين البسنوي المتوفى عام 1007هـ/ 1598م، رقم (A 829 (Nov 910 [34].

- "نجوم المريد ورجوم المريد"، تأليف محمد بن إبراهيم الحلبي بن الحنبلي، نسخ المخطوطة أبو المؤلف عام 954هـ/ 1547م، عدد أوراقها 40 ورقة، رقمها C941 [35].

2- في الفقه:

- "الرسالة في بيان الألفاظ من كتاب قنية المنية لتتميم الغنية للزاهدي الغزميني"، تأليف جلال الدين بن محمد العمادي، نسخت المخطوطة عام 755هـ/ 1354م، رقمها C2311 [36].

3- في النحو والبلاغة والعروض:

- "شرح على القسم الثالث من مفتاح العلوم"، تأليف علي بن مجد الدين الشاهرودي البسطامي مصنفك، المخطوطة بخط يد المؤلف الذي فرغ منها بتاريخ 25 رمضان عام 826هـ. وعدد أوراقها 297، رقمها C2321 [37].

- "أجوبة اعتراضات ذكرت في التلخيص والإيضاح على صاحب المفتاح"، تأليف عبيد الله بن مسعود المحبوبي، يرجع تاريخ كتابة هذا المؤلف إلى عام 745هـ/ 1344م. ونسخت المخطوطة عام 1005هـ/ 1597م. رقمها B2229 [38].

- "تبيين المناقب"، تأليف المظفر بن محمد بن المظفر المنبجي القزويني، المخطوطة مزخرفة وهي بخط يد المؤلف، هذا الكتاب في البلاغة والبديع وهو مهدى إلى الوزير مؤيد المنصور معين الدين ابن الوزير

---

(34) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 1066؛ .GAL, SBII, 635, N° 6, 4

(35) GAL, SB II, 495, N° 2, 17.

- كراتشكوفسكي، VI ، 418 (15، 7).

(36) Zivan, VII, 85-86.

(37) انظر حول المؤلف: GAL II, 234, N° 3; SB II, 329

(38) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 993، انظر حول المؤلف: .GAL, II, 214

الصالح نجم الدين أيوب (637هـ/ 1240م - 647هـ/ 1249م)، 127 ورقة، رقم المخطوطة (460) C 306[39].

- "درر البحار في شرح الأشعار"، تأليف أحمد بن محمود بن محمد. المؤلف حول مقارنة التعبيرات المجازية في القرآن الكريم والشعر. تاريخ نسخ المخطوطة: 698هـ/ 1299م. عدد الأوراق 261 ورقة، رقمها NB 3970.

4- في الأدب (شعر ونثر):

- "ديوان ابن قزمان المسمى بكتاب إصابة الأغراض في ذكر الأعراض". نسخت المخطوطة بخط شرقي قبل عام 683هـ/ 85-1284م. وجاءت في 74 ورقة وتضم 149 زجلاً. رقمها (136) B 86. وقد سبق ذكرها في بداية هذا الفصل من الدراسة[40].

- "الفاكهة البدرية"، تأليف بدر الدين محمد الدماميني المتوفى عام 827هـ/ 1424م. نسخت المخطوطة سنة 949هـ/ 1542م. عدد أوراقها 30 ورقة، رقمها (169) A 15[41].

- "ديوان عبد القادر المنوفي". عدد أوراق النسخة 159، رقمها في المكتبة (119) C 32[42].

- "كتاب المنازل والديار"، تأليف أسامة بن منقذ، النسخة بخط يد المؤلف الذي فرغ منها عام 568هـ/ 1172م. والكتاب عبارة عن أنطولوجية شعرية تتألف من 16 فصلا وتضم أزيد من ألف مقطع شعري لأكثر من مائتي شاعر. عدد أوراق المخطوطة 250 ورقة. رقمها (154) C 35[43].

(39) Rousseau, N° 253، انظر حول المؤلف: - GAL, SB III, 1241, K. C. 866.

(40) انظر: - Günzburg, D, Le divan d'Ibn Guzman.
- Rousseau, N° 147; Rosen, Notices, N° 296; GAL, I, 272, SBI, 481.
- GAL, II, 26, N° 14; SB II, 21.

(41) انظر حول المؤلف: - GAL, II, 26, N° 14; SB II, 21.

(42) حول المؤلف - Rousseau, N° 158; GAL, II, 357, N°4.

(43) رقم 289، 293 - Dorn, B. ; Das Asiatische Museum...
- كراتشكوفسكي، مؤلف مجهول للأمير السوري أسامة بن منقذ، مختارات كراتشكوفسكي...، =

- "حلية الصفات في الأسماء والصناعات"، تأليف ابن تغري بردي المتوفى عام 874هـ/ 1469م. هذه أنطولوجية شعرية جاءت في 167 ورقة، نسخت المخطوطة في مدينة حلب خلال حياة المؤلف سنة 860هـ/ 1456م. رقمها (158) C37[44].

- "زهر الرياض ونزه المرتاض"، تأليف منصور بن محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي صبيح الشنبكي الأسدي، هذه أنطولوجية نثرية وشعرية جاءت في جزئين، وهي مكتوبة بخط يد مؤلفها عام 769هـ/ 1367-68م. في بغداد. عدد أوراقها 209 ورقة، رقمها (160) B 99[45].

- "مراسلة بين الشيخ أحمد المقري وأحمد بن شاهين"، تأليف أحمد بن شاهين المتوفى عام 1053هـ/ 1643م. هذا المؤلف من نوع مكاتبات الأصدقاء، فيه رسائل نثرية وأخرى شعرية، ويحتوي على كثير من المعلومات حول المؤلف وأحمد المقري. رقم المخطوطة (140/558) B89[46].

- "الدرر المنظومة من النكت المفهومة من شرح الأنباري على مقامات الحريري"، تأليف شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الحجازي الشافعي الذي كان حيا حوالي عام 878هـ/ 1473م. نسخت المخطوطة عام 1114هـ/ 1702م. ناسخها يوسف بن محمد بن الوكيل. ورقمها في المكتبة (91) A8[47].

= ج 2، ص. 283-266.

GAL, SBI, 553, N11, 6.

(44) 288، أعلاه Dorn

- كراتشكوفسكي، مؤرخ مصر تغرى بردي أديبا، مختارات كراتشكوفسكي، ج II، ص. 145-139.

GAL, SB II, 39-40, N° 10,9.

(45) Rousseau, N° 69, KAR, 1, N° 88.

(46) Rosen, Noticesn, N° 269, 1.

انظر حول المؤلف: GAL, II, 275, N° 21; SB II, 385

(47) KAR, 1, N° 56.

5- في التاريخ :

- "التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"، تأليف محمد بن علي الكاتب الحموي الملكي المجاهدي المتوفى في أواخر ثلاثينيات القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي). نسخت المخطوطة في أربعينيات القرن السابع الهجري، عدد أوراقها 227 ورقة، رقمها (521) B 614 [48].

- "الروض الزاهر من سيرة مولانا السلطان الملك الناصر"، مؤلفه مجهول، لكنه يحتمل أن يكون أحد كتاب السلطان المذكور في العنوان الذي تولى الحكم ثلاث مرات في الفترة ما بين 693هـ/ 1293م و741هـ/ 1341م. نسخت هذه المخطوطة في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي بعد عام 702هـ/ 1302م. وهي مزخرفة ومكتوبة بخط جميل. عدد أوراقها 40 ورقة، رقمها (532) B 623 [49].

- "أخبار الأعيان، شرح نظم الجمان في ذكر من سلف في الزمان"، تأليف سريجة بن محمد الملطي المارديني المتوفى عام 788هـ/ 1386م. تاريخ نسخ المخطوطة: 811هـ/ 1409م. أوراقها 45 ورقة ورقمها في المكتبة (519) C 346 [50].

- "متن التواريخ" تأليف عبد العليم محمد سعيد شهزى زاده المتوفى عام 1178هـ/ 1764م. يدور موضوع الكتاب حول عدد من الأحداث التاريخية إلى حدود عام 1171هـ/ 1757م. المخطوطة بخط المؤلف الذي كتبها عام 1173هـ/ 1759م. عدد أوراقها: 70. رقمها 1038 [51].

---

(47) DAR, 1, N° 56.

(48) محمد الحموي، التاريخ المنصوري، نشر النص وكتب المقدمة ووضع الدليل الأستاذ "گريزنيبيقيتش"، موسكو، 1960، الطبعة الثانية، موسكو، 1963.

Rousseau, N° 12; Rosen, Notices, N° 159; KAR, 3. N° 22.

(49) Rousseau, N° 24; Rosen, Notices, N° 164; KAR, 3, N° 32.

(50) Rousseau, N° 43; Rosen, Notices, N° 170; KAR, 3, N° 41, GAL, II, 163, N° 5.

(51) Rosen, Coll, sc., I, N° 59; KAR, 3, N° 93; GAL, II, 429, N° 11.

- "منتقى من الشماريخ"، تأليف يوسف بن جمال الدين عبد الله الأرميوني. بخط يد مؤلفه وكتب حوالي عام 960هـ/ 1553م. رقمه في المكتبة A 214 [52].

- "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، تأليف محمد بن أحمد بن إياس المتوفى عام 928هـ/ 1522م. لا يوجد في المكتبة سوى الجزء ما قبل الأخير من هذا الكتاب الذي يتألف أصلاً من 11 جزءاً. ويعرض المؤلف في هذا الجزء الذي يقع في 307 ورقة تاريخ مصر في الفترة الممتدة ما بين عام 913هـ و921هـ (من 1507م إلى 1515م). نسخت المخطوطة في رجب من عام 1127هـ/ 1715م. رقمها C 728 [53].

- "تحفة الأساطين في أخبار بعض الخلفاء والسلاطين"، تأليف يوسف بن جمال الدين عبد الله الحسيني الأرميوني. يعود تاريخ كتابة هذا المؤلف إلى حوالي عام 960هـ/ 1553م. رقم المخطوطة في المكتبة B 2966 [54].

- "ذخيرة الاعلام بتواريخ سلاطين الجراكسة وسلاطين آل عثمان وأمراء مصر وقضاتها في الأحكام"، يعود تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1232هـ/ 1816م. عدد أوراقها 245 ورقة، رقمها (525) B 618 [55].

---

(52) KAR, 3, N° 67.
B. Dorn, Fraehnii opusculorum postumorum. I-III, Petropoli, 1855-1877, I, 442.

(53) Rosen, Coll. sc., I, N° 46.
KAR, 3, N° 63; GAL, II, 295, N° 1, 2; SB II, 405.
Die Chronik der Ibn Ijas in Gemeinschaft mit Moritz Sobernheim hrsg. von P. Kahle und M. Mustafa. III. (872-906). Istanbul-Leipzig, 1931-1936 (Bibliotheca Islamica, V, c, d, e).

(54) KAR, 3, N° 66.
انظر حول المؤلف: GAL, II, 325, paragr. 7, N° 1; SB II, 451.

(55) IAN, VI, 1908, 1299, N° 34; KAR, 3, N° 68; GAL, II, 298, N° 1, 1; SB II, 409.

- "جالب الأفراح وسالب الأتراح"، تأليف شرف الدين بن محسن بن أخي علامة زمانه الشيخ عبد العلي الشهير بابن رحما (؟) . تم تأليف الكتاب خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي . عدد أوراق المخطوطة : 126 ورقة، رقمها (505 f) C 340 .

- "متن التواريخ"، تأليف عبد العليم محمد سعيد شهرى زاده المتوفى عام 1178 هـ/ 1764م . وهو ملخص لأهم الأحداث التاريخية إلى حدود عام 1171هـ/ 1757م . والمخطوطة بخط يد المؤلف وعدد أوراقها : 70 ورقة، رقمها : B 1038[56].

6- في التراجم :

- "كتاب تراجم الرجال"، تأليف أبي الكرم عبد السلام بن محمد بن الحسن بن علي الحجي الفردوسي الخوارزمي الأندرسفاني، كتب المخطوط في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي في خوارزم، وهو بخط يد المؤلف، عدد أوراقه : 193 ورقة، رقمه في المكتبة C 2387[57].

- "ذيل لب اللباب للسيوطي"، تأليف أحمد ابن العجمي المتوفى عام 1086هـ/ 1676م . وهو قاموس النسب، يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1146 هـ/ 1733م . وعدد أوراقها 40 ورقة، رقمها في المكتبة B 976 (778)[58].

- "الخواطر البارودية في المشايخ والكتب التي اطلع عليها"، تأليف

---

(56) Rosen, Coll. sc, I, N° 59; KAR, 3, N° 93; GAL, II, 429, N° 11; SB II, 638.

(57) بيليايف، 66، 67، 76.

- خاليدوف، قاموس بيوغرافي مجهول من خوارزم يرجع عهده إلى القرن الثاني عشر الميلادي في : Folia Orientalia، ج XIII ، 1971، ص . 67-75 .

انظر حول المؤلف : GAL, I, 365, N° 10; SB I, 624

(58) Rousseau, N° 299; Rosen, Notices, N° 197; GAL, II, 308, N° 14, 3; SG II, 419-420.

عالم جان البارودي القازاني. تمت كتابة هذه المخطوطة بروسيا عام 1909، وهي بخط المؤلف رقمها B 2947.

7- في الجغرافيا والكوسموغرافيا:

- "الأرجوزة المسماة بالسفالية" نظم شهاب الدين أحمد بن ماجد المتوفى حوالي عام 1510، وهي حول رئاسة الملاحة البحرية في سواحل إفريقيا الشرقية. تم نسخ المخطوطة خلال القرن السادس عشر، رقمها B 992 (807)[59].

- "الأرجوزة المسماة بالمعلقية من بر الهند إلى بر سيلان"، نظم شهاب الدين أحمد بن ماجد، وهي وصف للملاحة البحرية في سواحل الهند وأندونيسيا وجنوب الصين. تم نسخ المخطوطة خلال القرن السادس عشر، رقمها B 992 (808)[60].

- "الأرجوزة التائية وهي من جدة إلى عدن"، لنفس المؤلف أعلاه، وهي حول رئاسة الملاحة البحرية في البحر الأحمر. نسخت المخطوطة خلال القرن السادس عشر، رقمها B 992 (809)[61].

- "زبدة الآثار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار"، تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن جمال الدين سكيكر المتوفى عام 987هـ/ 1579م. وهي وصف لسفر قام به المؤلف من مدينة حماة إلى حلب ثم إلى

---

(59) ت. شوموفسكي، ثلاث مرشدات غير معروفة وهي مخطوطة فريدة محفوظة في معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، تأليف أحمد بن ماجد، المرشد البحري "لفاسكو دوگاما"، موسكو - لينينگراد، 1957. (بالروسية).

- كراتشكوفسكي، I، 78-74؛ IV، 559-558.

بيليايف، 82-83.

- Rousseau, N° 472.

- KAR, 2, N° 38.

(60) - Rousseau, N° 472. KAR, 2, N° 39.

- كراتشكوفسكي، I، 78-74؛ IV، 559-558. بيليايف، 82-83؛ شوموفسكي، ثلاث مرشدات...

(61) نفسه.

القسطنطينية، كتبت بخط يد المؤلف عام 976هـ/ 1568م. عدد أوراق المخطوطة 81 ورقة، رقمها في المكتبة (608) B 801 [62].

- "كتاب الرحلة"، تأليف حجيج بن قاسم الوحيدي. وهو وصف لرحلة المؤلف من حلب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج عام 992هـ/ 1584م. ويتخلل النص عدد من المعلومات العلمية، وهو موضوع على شكل حوار. والمخطوطة التي جاءت في 128 ورقة منسوخة انطلاقاً من مسودة المؤلف عام 1100هـ/ 1688م في مدينة حلب. رقم المخطوطة (607) B 800 [63].

8- في علم الفلك:

- " البرهان على أن الفلك ليس هو في غاية الصفاء"، تأليف أبي سعد العلاء بن سهل الذي عاش خلال القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو ترجمة للكتاب الخامس لبطلميوس. تم نسخ المخطوطة قبل عام 587هـ/ 1191م. رقمها B 1030 [64].

9- في الكيمياء:

- "بغية الخبير في قانون طلب الإكسير"، تأليف أيدمر الجلدكي المتوفى عام 743هـ/ 1342م. أو 762هـ/ 1360م. ألف هذا الكتاب في دمشق عام 740هـ/ 1339-1340م، ويحتوي على مقدمة وستة فصول وخاتمة. تم نسخ المخطوطة عام 1085هـ/ 1675م. رقمها B 1066 [65].

- "رسالة في علم الإلهي"، تأليف علي جلبي المؤلف الجديد الذي

---

(62) - Rousseau, N° 415. Rosen, Notices, N° 241. KAR, 2, N° 43. GAL, II, 361, N° 5.
بيلياييف، 83. كراتشكوفسكي، IV، 669.

(63) Rosen, Notices, N° 242. KAR, 2, N° 45. GAL, II, 361. N° 6.
- بيلياييف، 83. كراتشكوفسكي، IV، 673، 674.

(64) Rosen, Coll, sc., I, 192, 12. GAL, SB I, 389. N° 7b, 3.

(65) Rosen, Coll., sc., I, N° 205, 2. GAL, II, 139, N° 2, 4.

عاش خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. تم نسخ المخطوطة عام 1155هـ/ 1742م، رقمها B 1046 (66).

- " مفيد العوائد في خير الفوائد" تأليف أبي حامد محمد الفجيجي نزيل فاس الذي عاش بعد 593هـ/ 1197م. إذ أن بالكتاب إحالة إلى كتاب "ديوان شذور الذهب في الصناعة الشريفة" لمؤلفه علي بن موسى بن ارفع رأسه المتوفى عام 593هـ/ 1197م (67). تم نسخ المخطوطة خلال القرن السادس عشر، رقمها B 1061 (68).

- "أرجوزة في الكيميا"، تأليف الفضل بن المهذب الراهب، نسخت المخطوطة عام 1085هـ/ 1675م. رقمها B 1066 (69).

10- في الطب:

- "كفاية الطبيب الجامعة للتجاريب"، تأليف داوود بن ناصر الأغبري الموصلي المتوفى بعد عام 820هـ/ 1417م. وهو كتاب حول التطبيقات الطبية وعرض لمختلف الأمراض ووسائل علاجها. تم نسخ المخطوطة حوالي عام 981هـ/ 1574م. رقمها (664) C 637 (70).

11- في الفنون الحربية:

- "المخزون في جامع الفنون" لمؤلف مجهول، النسخة جيدة وتحتوي على عدد من الرسوم التوضيحية، عدد أوراقها 108 . نسخت قبل عام 878هـ/ 1473م (71).

---

(66) Rosen, Coll. sc., I, N° 204, 1. GAL, II, 448, N° 2, 1.

(67) هذا الكتاب مهدى إلى السلطان يوسف بن أحمد من آل سعيد. هذا ما جاء في كتاب المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق... فهرست صغير، تحت إشراف خاليدوف. ج 1، ص. 480-479. غير أننا لم نقف على هذا السلطان!

(68) Rosen, Coll. sc., I. 202, 1. GAL, SB I, 908.

(69) Rosen, Coll. sc., I, 205, 8. GAL, SB II, 1034, N° 11, 3.

(70) Rousseau, N° 500.

(71) Dorn, As. Mus., 450-452.

II- المخطوطات النادرة والنفيسة:

إن المخطوطات النادرة في مكتبة "ملحقة معهد الاستشراق" بسان پيترسبورگ كثيرة وجد متنوعة. وقد يطول الحديث إذا ما نحن أردنا التعريف بها كلها. لذا حاولنا هنا انتقاء بعض النماذج منها في محاولة منا لتقديم صورة نرجو أن تعكس أهمية مجموعة المخطوطات العربية المخزونة في هذه المكتبة.

1 - القرآن الكريم والعلوم الدينية والتصوف:

يفوق عدد عناوين هذه المجموعة الستة آلاف عنوان، ويمثل المصحف الشريف نسبة كبيرة من الكتب المصممة بطريقة فنية تجمع بين الكتابة الجميلة الملونة والمذهبة والصفحات المزخرفة. ونذكر من بينها على الخصوص ثلاث نسخ للقرآن الكريم مكتوبة بخط مغربي[72]. كما أن عددا من مخطوطات هذه المجموعة مكتوب على الرق وبخط كوفي ويرجع تاريخ نسخها إلى القرن السادس الهجري، وأقدمها مؤرخ برجب من عام 547هـ. وتوجد ضمنها نسخة فريدة لكتاب الله عز وجل مع ترجمة لمعانيه إلى اللغة البيلاروسية[73]... وعدد أوراقها 480 ورقة... ولا بد من الإشارة إلى بعض النوادر في مجال العلوم الدينية التي تشتمل على كثير من أصناف العلوم كفضائل القرآن وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والتجويد والقراءات وغريب القرآن وإعجازه والتفسير والحديث والفقه والصوفية والوضوء والصلاة والأدعية والأذكار والأوراد... إلى غير ذلك من العلوم الدينية. ولقد اخترنا من بين هذه النوادر عدداً من المؤلفات نرى أنه لا بد من ذكرها في هذا الفصل من دراستنا، وهي:

- "التحصيل من التفصيل لمعاني التنزيل" لأحمد بن عمار المهدوي المتوفى بعد عام 430هـ/ 1038م. وهو تلخيص لهذا الكتاب،

(72) أرقامها في المكتبة: C 1688، C 1389، C 2504.

(73) رقم المخطوطة: D 723.

ومؤلفه مجهول، والمخطوطة التي نسخت عام 673هـ/ 1274م. جاءت في 189 ورقة ورقمها في المكتبة C 2045[74].

- "منهج التيسير إلى علم التفسير" تأليف منصور سبط الطبلاوي، وهو بخط مؤلفه، ويرجع تاريخ كتابته إلى عام 989هـ/ 1581م. ويحتوي على 41 ورقة، رقم المخطوطة B1727[75].

- "فصل البيان في علوم القرآن"، لمؤلف مجهول، يرجع تاريخ نسخه إلى عام 1000هـ/ 1592م. عدد أوراقه 316 ورقة، رقمه D 342 (Nov 912)[76].

- "زلة القارئ"، تأليف عمر النسفي المتوفى عام 537هـ/ 1142م. وهو حول الأخطاء في القراءات، نسخت المخطوطة عام 653هـ/ 1255م. رقمها B 2131 (Nov 897)[79].

- "تفسير القرآن"، تأليف أبي الليث السمرقندي المتوفى عام 373هـ/ 983م. نسخت المخطوطة عام 699هـ/ 1299م. وعدد أوراقها 298 ورقة، رقمها B 2209[78].

- "لباب التفاسير"، تأليف محمود بن حمزة الكرماني المتوفى بعد عام 500هـ/ 1106م. تم نسخ المخطوطة عام 677هـ/ 1287م. بمدينة كرمان، وهذا التفسير نادر جداً ولا يوجد منه في المكتبة سوى الجزء الأول. عدد أوراق المخطوطة 376 ورقة، ورقمها B 358 (331 a)[79].

---

(74) GAL, I, 411. N° 3; SB I, 730, N° 3.

(75) كراتشكوفسكي، VI، 417 (40، 20).
GAL, SB II, 443, N° 14 b, 5.

(76) كراتشكوفسكي، VI، 396 (27، 6).
GAL, SB II, 646, N° 22.

(77) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 459.
GAL, I, 427, N° 11, V; SB I, 758.

(78) GAL, I, 195, N° 6, 1; SB I, 347.

(79) GAL, I, 412, N° 7, 1; SB I, 732.

- "الكشاف في حقائق التنزيل"، تأليف الزمخشري، تم نسخ المخطوطة عام 679هـ/ 1280م. عدد أوراقها 173 ورقة، رقمها C 956 [80].

- "التلخيص في التفسير"، تأليف الكراشي المتوفى عام 680هـ/ 1281م. نسخت هذه المخطوطة وصححها المؤلف عام 647هـ/ 1248م. عدد أوراقها 253 ورقة، رقمها (Nov 583) C 1293 [81].

- "أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف البيضاوي المتوفى عام 716هـ/ 1316م. نسخت المخطوطة عام 698هـ/ 1299م. عدد أوراقها 256 ورقة، رقمها D 502 [82].

- "الجامع الصحيح"، تأليف محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى عام 256هـ/ 870م. تم نسخ المخطوطة قبل عام 1115هـ/ 04-1703م. عدد أوراقها 337 ورقة، رقمها C 918 [81].

وتوجد في المكتبة ثمان نسخ نفيسة أخرى من هذا المؤلف تختلف بعض أقسامها.

- "الثلاثيات"، تأليف محمد بن إسماعيل البخاري، نسخت المخطوطة عام 1016هـ/ 1607م. رقمها B 4250 [84].

- "مختصر الصحيح لمسلم"، تأليف عبد العظيم بن عبد القوي المندري. تاريخ النسخ قبل عام 656هـ/ 1258م. عدد الأوراق 271 ورقة، رقم المخطوطة C 1939 [85].

- "الشمائل" تأليف الترمذي، تم نسخ المخطوطة عام 1017هـ/ 1608م في قرية "أبزاندجي" قرب سمرقند. رقمها 4250هـ. وتوجد منها

---

(80) GAL, I, 289, N° 12, I; SB I, 507.

(81) بيلياييف، مجموعة بخارى، رقم 278. GAL, I, 416, N° 24, 1; SB I, 737.

(82) GAL, I, 416, N° 27, 1, SB I, 738.

(83) GAL, I, 157, N° 2, 1;: SB I, 260-264.

(84) GAL, I, 159, N° 2, II; SB I, 264.

(85) GAL, I, 160, N° 3, Auszüge, 2; SB I; 266.

نسخ كثيرة أخرى [86].

- "مصابيح السنة"، تأليف الحسين بن مسعود الفراء البغوي المتوفى عام 516هـ/ 1122م. تاريخ نسخ المخطوطة عام 690هـ/ 1291م. عدد أوراقها 223 ورقة، رقمها (Nov 1380) C1652 [87].

- "درة التاج في فوائد الحاج"، تأليف أبي العلاء الحسن بن أحمد ابن الحسن بن أحمد العطار الهمداني المتوفى عام 569هـ/ 1173م. لا يوجد منه سوى المجلد الثاني. وقد تكون هذه النسخة فريدة، عدد أوراقها 249 ورقة، رقمها (Nov 969) B 2154 [88].

- "الفقه الأكبر"، تأليف أبي حنيفة، يوجد عدد كبير من نسخ أخرى لهذا المؤلف، تاريخ نسخ المخطوطة 1115هـ/ 1703م. رقمها B 1382 [89].

- "التمهيد في بيان التوحيد"، تأليف أبي شكور محمد بن عبد السيد بن شعيب الكشي الحنفي السالمي (عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري). عدد صفحات المخطوطة 217 ورقة، رقمها (Nov 1082) A 848 [90].

- "إحياء علوم الدين"، تأليف أبي حامد محمد بن محمد الغزالي. نسخت هذه المخطوطة عام 606هـ/ 1209-10م. وتضم الخزانة عدداً آخر من النسخ من هذا المؤلف. عدد أوراق المخطوطة 283 ورقة، رقمها (Nov 837) D 338 [91].

---

(86) GAl. I, 161, N° 4, b, 2; SB I, 268-269, II.

(87) GAL, I, 363-364, N° 6, 1; SB I, 620.

(88) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 426.
GAL, SB I, 724, N° 11 d, 4; SB II, 975, N° 39.

(89) كراتشكوفسكي، VI، 410 (6b-24).
GAL, I, 169, N° 1, I; SB I, 285.

(90) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 294.
GAL, I, 419, N° 4; SB I, 744.

(91) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 68.
GAL, I, 419, N° 5, II, 25; SB I, 748.

- "البحر في علم الكلام"، تأليف ميمون بن محمد النسفي المكحولي المتوفى عام 508هـ/ 1114م. تاريخ نسخ المخطوطة 1228هـ/ 1813م. رقمها B 3734 [92].

- "العقائد النسفية"، تأليف عمر بن محمد النسفي المتوفى عام 537هـ/ 1142م. تاريخ نسخ المخطوطة 867هـ/ 1463م. ويوجد عدد كبير من النسخ من هذا المؤلف. رقم النسخة في المكتبة (817) C 688 [93].

- " شرح العقائد النسفية"، تأليف سعد الدين التفتازاني المتوفى عام 792هـ/ 1390م. تاريخ نسخ المخطوطة 854هـ/ 1450م. عدد أوراقها 85 ورقة، رقمها A 1132 [94].

- "عصمة الأنبياء"، تأليف فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى عام 606هـ/ 1209م. تم نسخ المخطوطة عام 1028هـ/ 1619م. رقمها B 2479 [95].

- "نهاية العقول في دراية الأصول"، تأليف فخر الدين محمد بن عمر الرازي، نسخت المخطوطة عام 595هـ/ 1199م. عدد أوراقها 291 ورقة، رقمها (369) B 436 [96].

- "تجريد العقائد"، تأليف نصير الدين محمد بن محمد الطوسي المتوفى عام 672هـ/ 1273م، عدد أوراق المخطوطة 314 ورقة، رقمها B 3033 [97].

وتضم المكتبة عدداً كبيراً من كتب الشيعة وكتب المذاهب السنية الأربعة. غير أن المؤلفات المالكية قليلة نسبيا، ونذكر من بينها على سبيل المثال:

---

(92) GAL, I, 426, N° 7, 1; SB I, 757.
(93) GAL, I, 427, N° 11, I; SB I, 758.
(94) GAL, I, 427, N° 11, I, commentare, 1; SB I, 758.
(95) GAL, I, 506, N° 6, IV, 14, 14; SB I, 922.
(96) IAN, serie V, T. 14, 1901, XXIII; GAL I, 506, N°6; SB I, 920.
(97) GAL, I, 508, N° 8, 2; SB I, 924.

- "الموطأ" لمالك بن أنس برواية محمد بن الحسن الشيباني، نسخت المخطوطة عام 1091هـ/ 1680م. عدد أوراقها 133 ورقة، رقمها B 1435 [98].

- "فتح المغطى في شرح الموطا برواية الشيباني"، تأليف علي القاري الهروي المتوفى عام 1014هـ/ 1605م. نسخت المخطوطة قبل عام 1234هـ/ 1818م بمكة المكرمة. عدد أوراقها 599 ورقة، رقمها C 1451 (Nov 963) [99].

2 - في الفلسفة وعلم النفس والأخلاق والسياسة:

تضم هذه المجموعة 1471 عنوانا، وتشتمل بالأساس على مؤلفات في المنطق وآداب البحث والمناظرة التي كانت منتشرة في العالم الإسلامي كله. ومن أبرز عناوين هذه المجموعة نذكر على الخصوص:

- "الإيساغوجي"، تأليف أثير الدين الأبهري المتوفى عام 663هـ/ 1265م. تاريخ نسخ المخطوطة عام 1050هـ/ 1640م. ويوجد في المكتبة عدد كبير من نسخ هذا المؤلف. رقم المخطوطة (B2094 (Nov 799 [100].

- "شرح على الإيساغوجي للأبهري" تأليف حسام الدين الكاتي المتوفى عام 760هـ/ 1359م. نسخت المخطوطة عام 1095 هـ/ 84-1683م. ومنها نسخ كثيرة. رقمها B 2553 [101].

- "حاشية على شرح الكاتي على الإيساغوجي للأبهري"، تأليف

---

(98) كراتشكوفسكي، VI ، 417 (26، 18).
GAL, I, 176, N° 1, I, 2; SB I, 298, II.

(99) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 1073.
GAL, I, 176, N° 1,2, commentare; SB I, 298, II commentare, a.

(100) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 122.
GAL, I, 464, N° 23, II; SB I, 841-843.

(101) GAL, I, 464, N° 23, II, commentare, 1, SB I, 841.

محمد صادق (عاش خلال القرن العاشر الهجري). نسخت المخطوطة عام 1806م. رقمها B 3651.

- "الرسالة الشمسية في القواعد المنطقية"، تأليف نجم الدين علي بن عمر الكاتبي المتوفى عام 675هـ/ 1276م. نسخت المخطوطة عام 1211هـ/ 97-1796م. في مدينة بخارى، رقمها B 4501 (102).

- "قسطاس الأفكار في تحقيق الأسرار"، تأليف محمد بن أشرف السمرقندي، وهذا المؤلف في المنطق، نسخت المخطوطة عام 692هـ/ 93-1292م. عدد أوراقها 156 ورقة، رقمها 1081 (103).

- "تهافت الفلاسفة"، تأليف محمد بن أحمد الغزالي، نسخت المخطوطة عام 555هـ/ 1160م. عدد أوراقها 87 ورقة، رقمها A 2167 (Nov 1002) (104).

- "مختصر في الميزان"، تأليف جابر بن حيان الطوسي، نسخت المخطوطة عام 1272هـ/ 56-1855م. رقمها C 252 (105).

- "الأمور التي قلنا لكل منها ماهية وهوية"، تأليف أبي نصر الفارابي. رقم المخطوطة A 266 (643 bd) (106).

- "رسالة في إثبات العشق في كل الموجودات"، تأليف ابن سينا. رقم المخطوطة A 345 (842) (107).

---

(102) GAL, I, 466, N° 26, I; SB I, 845.

(103) GAL, I, 468, N° 29, II; SB I, 850.

(104) كراتشكوفسكي، مخطوطة Destructio philosophorum للغزالي في المتحف الأسيوي، مختارات كراتشكوفسكي، ج 6، ص. 463-467. (بالروسية).

- كراتشكوفسكي، ناسخ مخطوطة "تهافت الفلاسفة" للغزالي الموجودة في المتحف الأسيوي، مختارات كراتشكوفسكي، ج 6، ص. 470-471. (بالروسية).

- بيليايف، مجموعة بخارى، رقم 305:

GAL, I, 419, N°5, IV, 55; SB I, 754.

(105) IAN, série V, 1898, XII, N° 19; GAL, SB I, 426, N° 1, 49.

(106) IAN, série V, 1901, T. 15, XVII; GAL, SB I, 375, N° 4, A, 13.

(107) Mél. as., IV, 35, N° 2, 14; GAL, I, 452, N°1, 39.

- "رسالة في إثبات العقل" لابن سينا. رقم المخطوطة A 345 (842 a)[108].

وفي المكتبة مجموعة من المؤلفات المترجمة عن الإغريقية، مثل:

- "المسائل الطبيعية المسماة بما بال"، تأليف الحكيم أرسطاليس. وهي حول قدرة التفكير التي تميز الإنسان عن الحيوان. رقمها A 1493.

- "مقالة في المادة والعدم والكون وحل مسألة أناس من القدماء أبطلوا بها الكون لاسكندر [الأفروديسي]. رقمها (842) A 345[109]...

وهناك كذلك عدد قليل من المؤلفات حول علم النفس، نذكر من بينها على الخصوص:

- "مختصر من قول الحكيم أرسطو في النفس وهي سبعة أقوال"، رقمها (842 a) A 345[110].

- "رسالة في النفس وقواها" تأليف ابن سينا؟، تم نسخ المخطوطة عام 680هـ/ 82-1281م. رقمها (29) A 2[111].

- "رسالة في النفس والجنس"، لمؤلف مجهول، وهي 14 فصلاً، نسخت المخطوطة عام 1098هـ/ 87-1686م. رقمها B 1041.

أما الأخلاق فإنها ممثلة في هذه المجموعة بعدد من المؤلفات نذكر من بينها على الخصوص:

- "كتاب شعب الإيمان"، تأليف الحسين بن الحسن الحليمي الشافعي المتوفى عام 403هـ/ 1012م. لا يوجد في المكتبة سوى الجزء

---

(108) Mél. as., IV, 36, N° 2, 25.

(109) Mél. as., IV, 36, N° 2, 26.

(110) Mél. as., IV, 34, N° 2, 2; Ahlwardt, IV, 5338.

(111) GAL, I, 452, N° 1, 30; SB I, 818.

الخامس من هذا المؤلف. عدد أوراق المخطوطة 298 ورقة، رقمها D 355 (Nov 1311)[112].

- "آداب الدنيا والدين"، تأليف علي بن محمد الماوردي. عدد أوراق المخطوطة 172 ورقة، تاريخ نسخها 549هـ/ 1154-55م. رقمها C 652 (685)[113].

وتحتضن المكتبة عدداً من الكتب حول السياسة، نذكر من بينها على الخصوص:

- "السياسة في تدبير الرياسة المسمى بسر الأسرار"، تأليف يوحنا بن بطريق، وهذا المؤلف هو الرواية العربية "لكتاب السياسة" لأرسطو، عدد أوراق المخطوطة 63 ورقة، رقمها B 920 (725)[114].

- "الأحكام السلطانية"، تأليف أبي الحسن علي بن محمد الماوردي. عدد أوراق المخطوطة 292 ورقة، رقمها في المكتبة B 894 (685 a)[115].

- "أساس السياسة"، تأليف علي بن ظافر الأزدي المتوفى عام 613هـ/ 1216م. عدد أوراق المخطوطة 65 ورقة، رقمها B 921 (726)[116].

- "منهاج الوزراء وسراج الأمراء"، تأليف أحمد بن محمود الجيلي الأصفهبدي. كتب هذا المؤلف عام 729هـ/ 1329م. رقم المخطوطة A 308 (727)[117].

---

(112) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 489.
GAL, I, 197, N° 9; SB I, 349.

(113) Dorn, As. Mus., 290; GAL, I, 386, N° 4, 8; SB I, 668.

(114) Rousseau, N° 489; GAL, I, 203, N° 2; SB I, 364.

(115) Rosen, Notices, N° 108; GAL, I, 386, N° 4, 1; SB I, 668.

(116) انظر حول المؤلف: GAL, I, 321, N° 1; SB I, 553, N° 1 a.

(117) GAL, II, 210, N° 1.

3- في النحو والعروض والبلاغة والمعاجم وعلم المكتبات:

يصل عدد عناوين هذه المجموعة إلى 1673 عنوانا، منها عدد كبير من المؤلفات النفيسة، ولقد اخترنا منها على الخصوص:

- "الكتاب في النحو"، تأليف أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تم نسخ المخطوطة عام 1138هـ/ 24-1725م. عدد أوراقها 280 ورقة، رقمها (403) C 272 [118].

- "كتاب الفصيح"، تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، عدد أوراق المخطوطة 45 ورقة، رقمها (407) B 481 [119].

- "مجالسات ثعلب"، تأليف أبي بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم المقري المتوفى عام 291هـ/ 904م. نسخت المخطوطة التي تقع في 132 ورقة خلال القرن الخامس عشر أو السادس عشر، رقمها A 321 (745 bis) [120].

- "كتاب اللمع في النحو"، تأليف أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي. نسخت المخطوطة عام 642هـ/ 1245م. عدد أوراقها 103، رقمها A 1113 [121].

- " ثمار القلوب في المضاف والمنسوب"، تأليف أبي منصور عبد

---

(118) Dorn, As. Mus., 286, N° 2; GAL, I, 100, N° 5; SB I, 160.

- نشر "ديرينبورگ" (Dérenbourg) هذا الكتاب عام 1882:

Le livre de Sibawaihi, Traité de grammaire arabe par Sîboûya, dit Sîbawaihi. Texte arabe publié d'après les manuscrits du Caire, de l'Escurial, d'Oxford, de Paris, de Saint-Pétersbourg et de Vienne, par Hartwig Dérenbourg, T. 1-2, Paris, 1881-1882.

(119) Dorn, As. Mus., 286, N° 6; GAL, I, 118, N° 9, 1; SB I, 181.

(120) كراتشكوفسكي، مخطوطة "كتاب المجالسات" لثعلب المحفوظة في المتحف الأسيوي، مختارات كراتشكوفسكي، ج 6، ص. 519-527. (بالروسية).

IAN, série V, T. 14, 1901, XXII, N° 15; GAL, SB I, 181, N° 9, 7, 183, N° 11 a.

(121) GAL, I, 125, N° 10, 6; SB I, 192.

الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي. نسخت المخطوطة ما بين 749 و822هـ/ 49-1348-1420م. عدد أوراقها 285 ورقة، رقمها A 1000 [122].

- "فقه اللغة وسر العربية" تأليف أبي منصور الثعالبي. تم نسخ المخطوطة قبل عام 1256هـ/ 41-1840م [123].

- "كفاية المتحفظ في اللغة العربية" تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن إسماعيل الطرابلسي ابن الأجدابي المتوفى قبل عام 600هـ/ 1203م. تم نسخ هذه المخطوطة التي تضم 43 ورقة عام 631هـ/ 34-1233م. رقمها B 526 (444) [124].

- "شرح على الكافية لابن الحاجب"، تأليف رضى الدين محمد بن الحسن الأستراباذي المتوفى عام 686هـ/ 1287م، تاريخ نسخ المخطوطة: عام 739هـ/ 1339م. عدد أوراقها 304، رقمها C 873 [125].

- "الألفية في النحو والصرف"، تأليف محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي. نسخت المخطوطة عام 841هـ/ 1437م. عدد أوراقها 50 ورقة، رقمها A 631 [126].

- "شرح الألفية"، تأليف ابن عقيل. تم نسخ المخطوطة خلال حياة المؤلف عام 764هـ/ 1363م. بمصر. عدد أوراقها 118 ورقة، رقمها في المكتبة B 4377 [127].

---

(122) GAL, I, 284, N° 1, 9; SB I, 500.

(123) كراتشكوفسكي، VI، 410 (26، 54).
GAL, I, 284, N° 1, 4; SB I, 500.

(124) Dorn, As. Mus., 285-286, N° 8; GAL, I, 308, N° 4; SB I, 541.

(125) كراتشكوفسكي، VI، 441، رقم 37.
GAL, I, 303, N° 8, I, commentare, 5; SB I, 532.

(126) كراتشكوفسكي، VI، 392 (30-37).
GAL, I, 298, N° 4, II, SB I, 522.

(127) بيليايف، الكتب العربية، رقم 33.
GAL, I, 298, N° 4, II, commentare, 7; SB I, 523.

- العروض الأندلسي، تأليف أبي عبد الله محمد بن حسين أبي الجيش الأنصاري الأندلسي المتوفى عام 626هـ/ 1229م. عدد أوراقها ثمانية، رقمها C 1001 [128].

- "التحفة في النحو" تأليف محمد بن عبد الله الأنصارى؟، تاريخ نسخ المخطوطة عام 680هـ/ 1282م. رقمها (31) A 2 .

- "تتمة اللغة" لمؤلف مجهول، جاء الكتاب في جزئين، وهو حول الأسماء والأفعال. تم نسخ المخطوطة عام 730هـ/ 1330م. رقمها B 520 (437c).

وتشتمل المكتبة على عدد من المؤلفات المعجمية، ولعل أهمها :

- "الألفاظ الكتابية"، تأليف عبد الرحمان بن عيسى الهمذاني المتوفى عام 320هـ/ 932م. تم نسخ المخطوطة التي تقع في 123 ورقة في بغداد عام 479هـ/ 87-1086م. رقمها (440) A 199 [129].

- " إصلاح المنطق"، تأليف أبي يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت المتوفى عام 243هـ/ 857م. يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى القرن الثاني عشر الميلادي (أو القرن الرابع عشر الميلادي)، عدد أوراقها 301 ورقة، رقمها B 2482 [130].

- "تاج اللغة وصحاح العربية"، تأليف إسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى عام 393هـ/ 03-1002م. نسخت هذه المخطوطة التي تقع في 265 ورقة عام 651هـ/ 1253م. بالقاهرة، رقمها في المكتبة (429) C 284 [131].

وتضم المكتبة ما يفوق 290 عنواناً في كل من العروض والبلاغة، ولقد اخترنا من بين نفائسها المخطوطات التالية :

---

(128) كراتشكوفسكي، VI ، 407 (26، 46)؛ GAL, I, 310, N° 9; SBI, 544

(129) Rousseau, N° 240; GAL, I, 127, N° 1; SB I, 195.

(130) GAL, I, A117, N° 7, 1; SB I, 180.

(131) Dorn, As. Mus., 285-286; GAL, I, 128, N° 3; SB I, 196.

- "الكافي في علمي العروض والقوافي"، تأليف أبي زكرياء يحيى بن علي بن الخطيب التبريزي المتوفى عام 502هـ/ 1109م. رقم هذه المخطوطة القديمة وغير المؤرخة B 1431 (132).

- "كتاب البيان والتبيين" تأليف الجاحظ. نسخت هذه المخطوطة عام 1160هـ/ 1747م. عدد أوراقها 190 ورقة، رقمها D179 (133).

- "الكناية والتعريض"، تأليف أبي منصور عبد الملك بن إسماعيل الثعالبي، تاريخ نسخ المخطوطة 1085هـ/ 1674م. رقمها B 527 (446) (134).

- "كنايات العرب"، تأليف أبي العباس أحمد بن محمد الجرجاجي. عدد أوراق المخطوطة 120 ورقة، رقمها (448) B 528 (135).

- "البديع في البديع"، تأليف أسامة بن منقذ، نسخت المخطوطة عام 1039هـ/ 1630م. عدد أوراقها 97 ورقة، رقمها (461) B 538 (136).

- "مفتاح العلوم"، تأليف السكاكي المتوفى عام 626هـ/ 1229م. وهو مؤلف في النحو والصرف والبلاغة. تقع المخطوطة في 350 ورقة، رقمها C 1517 (137).

- "شرح على علم المعاني والبيان للسكاكي"، تأليف يحيى بن أحمد الكاشي المتوفى حوالي عام 750هـ/ 1349م. تاريخ نسخ المخطوطة 780هـ/ 1379م. عدد أوراقها 285 ورقة، رقمها (406 bis) C 274 (138).

- "شرح على علم المعاني والبيان للسكاكي"، تأليف الجرجاني.

---

(132) كراتشكوفسكي، VI، 412 (26- 14a). GAL, I, 279, N° 3, 1; SB I, 492.

(133) Rosen, Coll. sc. I, N° 158; GAL, I, 152, N° 2, 1; SB I, 239-247.

(134) Rousseau, N° 281; GAL, I, 284, N° 1, 5; SB I, 499.

(135) Rousseau, N° 282; GAL, I, 288, N° 6; SB I, 505.

(136) كراتشكوفسكي، II، 268. GAL, I, 319, N° 11, 2.

(137) بيلياييف، مجموعة بخارى، رقم 963. GAL, I, 294, N° 16, I, SB I, 515.

(138) GAL, I, 294, N° 16, I, commentare zum 3, Teil, 4.

نسخت المخطوطة عام 840هـ/ 1437م. عدد أوراقها 233 ورقة، رقمها C 954 [139].

- "شرح على القسم الثالث من مفتاح العلوم"، تأليف علي بن مجد الدين الشاهرودي البسطامي مصنفك، وقد سبق ذكر هذا الكتاب مع المخطوطات الفريدة [140].

- "أجوبة إعتراضات ذكرت في التلخيص والإيضاح على صاحب المفتاح"، تأليف عبيد الله بن مسعود المحبوبي. وقد سبق ذكره كذلك مع المخطوطات الفريدة [141].

- "الشرح المختصر على تلخيص المفتاح"، تأليف التفتازاني المتوفى عام 792هـ/ 1390م. كتب هذا الكتاب بخط يد المؤلف عام 755هـ/ 1354م. عدد أوراقه 148 ورقة، رقمه (406 a a) A 191 [142].

- "تبيين المناقب"، تأليف المظفر بن محمد بن المظفر المنبجي القزويني. سبق ذكره مع المخطوطات الفريدة [143].

- "درر البحار في شرح الأشعار". سبق ذكره مع المخطوطات الفريدة.

- "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون"، تأليف مصطفى بن عبد الله كاتب چلبي حاجي خليفة. تم نسخ المخطوطة قبل عام 1164هـ/ 1750-51م. رقمها D 200 [144].

---

(139) كراتشكوفسكي، VI ، 415 (18، 4).
GAL, I, 294, N° 16, I, commentare zum 3, Teil, 5; SB I, 515.
(140) انظر حول المؤلف: GAL, II, 234, N° 3; SB II, 329.
(141) بيلياييف، مجموعة بخارى، رقم 993.
انظر حول المؤلف: GAL, II, 214.
(142) GAL, I, 294, N° 16, I, Auszüge aus Teil 3, commentare, 4B, SBI, 518.
(143) Rousseau, N° 253.
انظر حول المؤلف: GAL, SB, III, 1241, K. c. 866.
(144) Rosen, Coll. sc., I, N° 214; GAL, II, 427, N° 9, 1; SB II, 636.

4- في الأدب شعره ونثره:

تحتوي مكتبة "ملحقة معهد الاستشراق" على عدد كبير من النوادر الأدبية النثرية منها والشعرية. وكما سبقت الإشارة إليه فإن بعض هذه المؤلفات يعد فريداً ولا يوجد له نظير في المكتبات العالمية الأخرى. ويصل عدد دواوين الشعر المخزونة بها إلى 63 ديوانا، اثنان منها لأبي العلاء المعري وواحد يجهل مؤلفه. ولقد انتقينا من بين النفائس الأدبية المخطوطات التالية:

أ- في الشعر والسجع:

- "ديوان جرير" الذي سبق ذكره[145].

- "ديوان علقمة بن عبدة"، يرجع تاريخ نسخ المخطوطة التي تقع في 37 ورقة إلى عام 788هـ/ 1386م. رقمها في المكتبة C 5 (17)[146].

- "ديوان ابن قزمان المسمى بكتاب إصابة الأغراض في ذكر الأعراض". وقد سبق الحديث عنه[147].

- "شعر الأخطل"، رواية أبي عبد الله محمد بن العباس اليزدي عن أبي سعيد السكري عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي. تم نسخ المخطوطة التي تقع في 181 ورقة قبل عام 706هـ/ 1307م. رقمها D 164[148].

---

(145) Rousseau, N° 125; Rosen, Notices, N° 262; GAL, I, 56-58; SB I, 86-87.

(146) Dorn, As. Mus, 287; Rosen, Notices, N° 257; GAL, I, 24, N° 5; SB I, 48.

(147) Rousseau, N° 147; Rosen, Notices, N° 296; GAL, I, 272, N° 11; SB I, 481.

- نشر للمرة الأولى "گينزبورگ" (Günzburg) هذا الديوان عام 1896، انظر:

Günzburg, D. de --, Le Divan d'Ibn Guzman...

(148) Rosen, Coll. sc., I, N° 74; GAL, I, 49-52; SB I, 83-84.

- نشره للمرة الأولى الصالحاني، انظر:

Diwân Al-Ahtal, Texte arabe publié pour la première fois d'après le manuscrit de St-Petersbourg et annoté par A. Salhani, fasc. 1-4, Beyrouth, 1891-1892.

- "شرح ديوان أبي تمام"، تأليف الصولي. تم نسخ المخطوطة عام 616هـ/ 1219م. عدد أوراقها 151 ورقة، رقمها (24) C 8 [149].

- "ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة" (!) مع الشرح. عدد أوراقه 153 ورقة. رقم المخطوطة (Nov 1371) B 2279 [150].

- "ديوان أبي نواس" قام بتحرير قسمه الأول (من الصفحة الأولى إلى الصفحة 84) حمزة الإصبهاني (القرن العاشر الميلادي)، أما القسم الثاني فيغلب الظن أنه من تحرير إبراهيم بن أحمد توزون (القرن العاشر الميلادي). عدد أوراق المخطوطة 312 ورقة، رقمها (20) C 7 [151].

- "ديوان أبي العتاهية"، تاريخ نسخ المخطوطة 987هـ/ 1579م. عدد أوراقها 157 ورقة، رقمها (21) B 14 [152].

- "ديوان أبي الطيب أحمد المتنبي"، وهو مقسم إلى ستة أقسام حسب الترتيب الزمني لمختلف مراحل حياة الشاعر. تاريخ نسخ المخطوطة 592هـ/ 1196م. عدد أوراقها 181، رقمها C 771 [153].

---

(149) Dorn, As. Mus., 287; Rosen, Notices, N° 265; GAL, I, 84-85, N° 2; SB I, 134-137.

(150) كراتشكوفسكي، مخطوطة جديدة لأشعار ذي الرمة، مختارات كراتشكوفسكي، ج 2، ص. 209-220. (بالروسية).

- له كذلك: ديوان ذي الرمة ومخطوطة بيتروگراد، مختارات كراتشكوفسكي، ج 2، ص. 230-237. (بالروسية).

- بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 431.

GAL, I, 58-59; SB I, 87-90.

(151) Dorn., As. Mus, 287; Rosen, Notices, N° 263, GAL, I, 75, N° 6; SB I, 114.

صدرت "لڤاگنير" (E. Wagner) دراسة حوله باللغة الألمانية في "ڤيسبادين" (Wiesbaden) عام 1958.

(152) Dorn, As. Mus., 287; Rosen, Notices, N° 264; GAL, I, 77, N° 8; SB I, 119.

- كراتشكوفسكي، إبداعات أبي العتاهية الشعرية (حوالي 750-825)، مختارات "كراتشكوفسكي"، ج 2، ص. 15-51. (بالروسية).

(153) Rosen, Coll. sc., I, N° 78; GAL, I, 86-89; SBI, 138-142.

- "ديوان ابن هانئ الأندلسي"، ويضم 81 قصيدة شعرية، يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1020هـ/ 1611م. عدد أوراقها 135 ورقة، رقمها (123) C 33 [154].

- "ديوان الوأواء الدمشقي"، يحتوي على 260 قصيدة شعرية أغلبها كاملة وفيها المبتور. نسخت المخطوطة عام 1061 هـ رقمها في المكتبة (125) B 30 [155].

- "ديوان الباخرزي"، اختاره أبو الوفاء محمد بن محمد بن القسم الأخسيكتي، توفي الشاعر عام 465هـ/ 1075م. ويحتمل أن يكون تاريخ نسخ المخطوطة هو عام 845هـ/ 1441م. رقمها (51) 16 [156].

- "ديوان الطغرائي"، نسخت المخطوطة قبل عام 1060 هـ/ 1650م. عدد أوراقها 115 ورقة، رقمها (58) B 34 [157].

- "ديوان نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن قلاقس الاسكندراني" المتوفى عام 567هـ/ 1171م. تم نسخ المخطوطة عام 1045هـ/ 1636م. عدد أوراقها 89 ورقة، رقمها (65) B 40 [158].

- "ديوان عمارة اليمني" المتوفى عام 569هـ/ 1175م. نسخت المخطوطة عام 984هـ/ 1576م. عدد أواقها 196 ورقة، رقمها (66) B 41 [159].

- "إيضاح المبهم في شرح لامية العجم"، تأليف أبي جمعة سعيد بن مسعود الصنهاجي المراكشي، يرجع تاريخ كتابة المؤلف إلى عام

---

(154) Dorn, As. Mus., 287; Rosen, Notices, N° 280; GAL, I, 91, N° 3, SBI, 146-147.

(155) كراتشكوفسكي، أبو الفرج، 2-3. GAL, I, 86, N° 5; SB I, 138.

(156) Dorn, As. Mus., 287; Gal, SB I, 446, N° 3, 3.

(157) Rousseau, N° 155; Rosen, Notices, N° 288; GAL, I, 247, N° 1, 1; SB I; 439.

(158) Rosen, Notices, N° 297; GAL, I, 261, N° 3; SB I, 461.

(159) Dorn, As. Mus., 287; Rosen, Notices, N° 298; GAL, I, 333, N° 2, 3; SB I, 570.

990هـ/ 1582م، أما النسخة المخطوطة فقد تكون نسخت عام 1130هـ/ 1718م. رقمها (62) B 38 (160).

- "المعلقات"، تشتمل المخطوطة على أربع قصائد وبداية الخامسة، تاريخ نسخها: 729هـ/ 1329م. رقمها (Nov 597) C1298 (161).

- "كتاب الحماسة"، تأليف أبي تمام الطائي، نسخت المخطوطة عام 625هـ/ 1228م. عدد أوراقها 146 ورقة، رقمها C 770 (162).

- "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر"، تأليف الثعالبي، المؤلف في جزئين (عدد أوراق الجزء الأول: 304 ورقة، والجزء الثاني: 254 ورقة). تاريخ نسخ المخطوطة 1026هـ/ 1617م. رقمها (1) C 1 (163).

- "ديوان الصبابة"، تأليف ابن أبي حجلة المتوفى عام 776هـ/ 1375م. تم نسخ المخطوطة قبل عام 1011هـ/ 1603م. عدد أوراقها 175 ورقة، رقمها (85) B 56 (164).

- "كتاب المنازل والديار"، تأليف أسامة بن منقذ، وقد سبق ذكره مع المخطوطات الفريدة.

- "حلية الصفات في الأسماء والصناعات"، تأليف ابن تغري بردي. وقد سبق ذكره مع المخطوطات الفريدة.

ب- الأنطولوجيات المخضرمة (شعر ونثر):

- "عيون الأخبار"، تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المروزي (213هـ-828م/ 276هـ- 889م). عدد أوراق المخطوطة

---

(160) Dorn, As. Mus., 288; Rosen, Notices, N° 292, I; GAL, I, 248, N° 1, 2h; SB I, 440.

(161) بيليابيف، مجموعة بخارى، رقم 958. GAL, I, 17-18; SB I, 34-35.

(162) Rosen, Coll. sc, I, N° 75; GAL, I, 19-20; SB I, 39-40.

(163) Rousseau, N° 218-219; Rosen, Notices, N° 245; GAL, I, 284, N° 1, 1; SB I, 499.

(164) Rousseau, N° 316; GAL, II, 12-13, N° 17, 1; SB II, 5-6.

212 ورقة، رقمها (691) B 902[165].

- "الكامل"، تأليف المبرد. نسخت المخطوطة عام 537هـ/ 1142م. بخط مغربي جميل. عدد أوراقها 309 ورقة، رقمها (745) C 674[166].

- "العقد الفريد"، تأليف أبي عمر أحمد بن محمد ابن عبد ربه (246هـ-869م/ 328هـ-940م). عدد الأوراق 164 ورقة، رقم المخطوطة (747) B 959. تم نسخها خلال القرن الرابع عشر الميلادي[167].

- "كتاب الأغاني"، تأليف أبي الفرج علي الأصفهاني، وهو في جزئين (عدد أوراق الجزء الأول 333 ورقة، والثاني 327)، تاريخ نسخ الجزء الأول: 1138هـ/ 1726م والثاني 1139هـ/ 1727م. رقم المخطوطة (43) C 15[168].

- "شرح گلستان لسعدي"، تأليف السروري المتوفى عام 969هـ/ 1562م. وهو ترجمة لگلستان مع تعليقات وشروح مخضرمة عربية تركية. عدد أوراق المخطوطة 459 ورقة، رقمها (204) B 165[169].

- "زهر الآداب وثمر الألباب"، تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري المتوفى عام 413هـ/ 1022م. عدد أوراق المخطوطة 250

---

(165) Rousseau, N° 73; Dorn, As. Mus, 208; KAR, 1, N° 15; GAL, I, 120, N° 1, 1; SB I, 185.

- گيركس - روزين، القسم الأول، ص. 16-19، (رقم 1-4-5-6)، ص. 24-28 (رقم 13-14-15).

وهناك دراستان بالألمانية حولها، الأولى لروزين والثانية لبروكلمان.

(166) Rousseau, N° 279; GAL, I, 108-109, N° 18, 1; SB I 168-169.

هناك دراسة بالإنگليزية حولها أصدرها "رايت" (Wright):

The Kamil of el-Mubarrad, ed. for the German Oriental Society from the manuscripts of Leyden, St-Petersbourg, Cambrige and Berlin, by W. Wright Lpz. 1864-1881.

(167) KAR, 1, N° 17; GAL, I, 154, N° 8; SB I, 250.

(168) Rousseau, N° 98-99; GAL, I, 146, N° 1, 1; SB, I, 225-226.

(169) Rousseau, N° 264; Ahlwradt, VII, 8441-42.

ورقة، يرجع تاريخ نسخها إلى القرن السادس عشر. رقمها (746) C 675[170].

- "التمثيل والمحاضرة"، تأليف الثعالبي، يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1114هـ/ 1702م. عدد أوراقها 143 ورقة، رقمها (697) B 905[171].

- "سلوان المطاع في عدوان الأتباع"، تأليف محمد بن أبي محمد ابن ظفر الصقلي المتوفى عام 565هـ/ 1169م. تم نسخ المخطوطة عام 1066هـ/ 1556م. عدد أوراقها 100 ورقة، رقمها B 1058[172].

- "غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص الفاضحة"، تأليف محمد بن إبراهيم الوطواط الكتبي الوراق المتوفى عام 718هـ/ 1318م. تم نسخ المخطوطة في حلب عام 1015هـ/ 1606م. عدد أوراقها 188 ورقة، رقمها (709) B 912[173].

- "ألحان السواجع بين البادي والمراجع"، تأليف خليل بن أيبك الصفدي. عدد الأوراق 223 ورقة، رقم المخطوطة (166) B 104[174].

- "المستطرف من كل فن مستظرف"، تأليف محمد بن أحمد الأبشيهي المتوفى حوالي عام 850هـ/ 1446 م. يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 998هـ/ 1590م. عدد أوراقها 360 ورقة، رقمها D 199[175].

---

(170) Rousseau, N° 322; Dorn, As. Mus., 207; KAR, 1, N° 27; GAL, I, 267, N° 1, 1; SB I, 472.

بيلياييف، 90.

(171) Dorn, As. Mus., 290; KAR, 1, N° 29; GAL, I, 284, N° 1, 17; SBI, 501.

(172) Rosen, Coll. sc, I, N° 121; KAR, I, N° 70; GAL, I, 351-352, N° 5, 1; SB I, 595.

(173) Rousseau, N° 75; KAR, I, N° 82; GAL, II, 54, N° 2, 1; SBII, 53-54.

(174) Dorn, As. Mus., 288; GAl, II, 31, N° 3, 8; SB , 28.

(175) Rosen, Coll. sc., I, N° 109; KAR 1, N° 100; GAL, II, 56, N° 10; SB II, 55-54.

بيلياييف، 91.

- "نثر الدر" تأليف أبي سعيد منصور بن الحسين الآبي، تم نسخ المخطوطة قبل عام 985هـ/ 1577م. وهي في جزءين (عدد أوراق الجزء الأول: 233 ورقة، والثاني 174). رقمها (753) C 679 [176].

- "طرائف الطرف"، تأليف البارع الهروي (؟)، تاريخ نسخ المخطوطة عام 845هـ/ 1441م. رقمها (159) C 16 [177].

- "تذكرة ابن حمدون"، تأليف بهاء الدين كافي الكفاة أبي المعالي محمد بن أبي سعد الحسن بن محمد البغدادي ابن حمدون. تقع المخطوطة في 157 ورقة ورقمها (750) C 677 [178].

- "جوهرة الشرف وخبيئة التحف"، تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن موسى البياري الذي ربما عاش خلال القرن السابع الهجري. والمؤلف عبارة عن أنطولوجيا شعرية ونثرية من عشرة فصول، نسخت المخطوطة قبل 730هـ/ 1330م. عدد أوراقها 98 ورقة، رقمها (101) C 27 [179].

- "زهر الرياض ونزه المرتاض"، تأليف منصور بن محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي صبيح الشنبكي الأسدي، سبق ذكر هذا المؤلف مع المخطوطات الفريدة [180].

- "سلوة المستهام"، تأليف محمد بن محمد بن محمود

---

(176) Rousseau, N° 94-95; Dorn, As. Mus., 207; KAR, I, N° 28; GAL, I, 351, N° 1, SB I, 593.

- بيلياييف، 90.

وهناك عدد من الدراسات الروسية حول هذه المخطوطة، منها على الأخص:

- خاليدوف، أنطولوجية الآبي في مخطوطة معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، أبحاث حول تاريخ ثقافة الشعوب الشرقية، موسكو - لينينغراد، 1960، ص. 487-491. واعتمد كراتشكوفسكي هذه المخطوطة في دراسته بالفرنسية:

Le Kitab al-Adab d'Ibn al-Mu'tazz. in: Le Monde Oriental, XVIII, 1924, p. 56-121.

(177) Dorn, As. Mus., 288; GAL, SB I, 502, N° 1, 35.

(178) Rousseau, N° 60; Dorn, As. Mus, 207; KAR, 1, N° 68.

(179) بيلياييف، 91. Rousseau, N° 307.

(180) Rousseau, N° 69; KAR, 1, N° 88.

السمرقندي الذي ربما عاش خلال القرن التاسع الهجري. تم نسخ المخطوطة قبل عام 956هـ/ 1549م. عدد أوراقها 184 ورقة، رقمها (81) C 21 [181].

- "سفط الملح وزوج الترح"، تأليف سعد الله بن نصر بن الدجاجي الذي ربما عاش خلال القرن العاشر الهجري. تم نسخ المخطوطة عام 1010هـ/ 1601م. رقمها (764) B 970.

ج- المؤلفات النثرية:

- "كليلة ودمنة"، تأليف عبد الله بن المقفع، نسخت المخطوطة عام 1062هـ/ 1652م. في حلب، عدد أوراقها: 82 ورقة، رقمها (681) D 891 [182].

- "خبر الشيخ برلام وابن الملك يواصف"، رقمها B 1228 [183]. يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى القرن السادس عشر.

- "قصة حيقار الحكيم وزير سنحاريب الملك وما جرى له مع ناذان ابن أخته"، رقمها B 1121 [184].

- "وصية لقمان الحكيم الفيلسوف قالها لولده"، رقمها B 1229 [185].

- "مقامات الحريري"، تم نسخ المخطوطة عام 517هـ/ 24-1123م. عدد أوراقها 141 ورقة، رقمها (92a) B 60 [186].

---

(181) Dorn, As. Mus, 293.

(182) Dorn, As. Mus, 289; KAR, 1, N° 1; GAL, I, 151, N° 1, 1; SB I, 234-235.

(183) KAR, 1, N° 3.
كراتشكوفسكي، VI ، 438، رقم 30، 3.

(184) Rosen, Coll. sc, I, N° 125, 2; KAR, 1, N° 4.
بيلياييف، 92.

(185) كراتشكوفسكي، VI ، 439، رقم 31، V، IX. KAR, 1, N° 5.

(186) بيلياييف، 90-91.
KAR, 1, N° 42; GAL, I, 276, N° 4, 1; SB I, 486.

- "بستان العارفين"، تأليف أبي الليث نصر بن محمد السمرقندي المتوفى عام 373هـ/ 983م. هذا المؤلف عبارة عن أنطولوجيا تعليمية. تم نسخ المخطوطة عام 911هـ/ 1505م. رقمها A 518 (187).

- "الفرج بعد الشدة"، تأليف أبي علي محسن التنوخي المتوفى عام 384هـ/ 994م، كتب المؤلف كتابه هذا عام 373هـ/ 84-983م. يجهل تاريخ نسخ المخطوطة، عدد أوراقها 188، رقمها في المكتبة (756) A 680 (188).

- "ربيع الأبرار"، تأليف أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري. لهذا المؤلف عنوانان آخران هما "ربيع الأبرار في ما يسر الخواطر والأفكار" و"ربيع الأبرار والنصوص والأخيار". تم نسخ المخطوطة التي تقع في 314 ورقة عام 739هـ/ 1339م. رقمها (747 a) C 676 (189).

- "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"، تأليف أبي العباس أحمد بن محمد ابن عربشاه. صحح المؤلف هذه النسخة ووقعها. ونجد بآخرها الجملة التالية، وهي بخط يد المؤلف: «أنهى مؤلفه مطالعة فصح إن شاء الله». ويرجع تاريخ نسخها إلى عام 852هـ/ 1448م. رقمها في المكتبة (682) C 651 (190).

- "غرر البلاغة"، تأليف هلال الصابي المتوفى عام 448هـ/ 1056م. يقع الكتاب في 182 صفحة وهو موزع إلى 21 فصلا، رقم المخطوطة (439) B 522 (191).

---

(187) كراتشكوفسكي، VI، 395 (7-10)
KAR, 1, N° 19; GAL, I, 195, N° 6, 8; SB I, 348.

(188) Dorn, As. Mus, 291-292; KAR, 1, N° 24; GAL, I, 155, N° 10, 1; SB I, 252-253.
بيليابيف، 90. طبع هذا الكتاب في القاهرة عام 1903-1904، وجاء في جزئين.

(189) KAR, 1, N° 63; GAL, I, 289, N° 12, XVI; SB I, 512.

(190) Rousseau, N° 76; Dorn, As. Mus., 208; KAR, 1, N° 103; GAL, II, 28, N° 5, 3.
بيليابيف، 91.

(191) Rousseau, N° 438; KAR, 1, N° 36; GAL, SB I, 556, N° 2, 4.

د- الأدب الشعبي والأمثال والحكم:

تحتوي المجموعة كذلك على عدد كبير من المؤلفات في الأدب الشعبي كـ"ألف ليلة وليلة" و"قصة كلعاد الملك وشيماس وزيره" و"خبر الترجمانة والقهرمانة"... وحكاية "دانيال عليه السلام" و"قصة سليمان الحكيم وابنه داود عليه السلام"... إلى غير ذلك من المؤلفات.

كما أن هذه المجموعة تشتمل على عدد آخر من كتب الأمثال والحكم، ولعل أهم مخطوطاتها هي:

- "نزهة الأنفس وروضة المجلس"، تأليف محمد بن علي العراقي المتوفى عام 561هـ/ 1170م. تم نسخ المخطوطة عام 590هـ/ 1194م. عدد أوراقها 169 ورقة، رقمها (752) C 678 [192].

- "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، تأليف أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي المراكشي. تم نسخ المخطوطة عام 1161هـ/ 1748م. عدد أوراقها 195 ورقة، رقمها D 155 [193].

5- في التاريخ:

تحتوي المكتبة على عدد كبير من المخطوطات حول التاريخ، وخضع جل مؤلفات هذه المجموعة إلى عدد من الدراسات والتحقيقات داخل روسيا وخارجها. وقد عرّفت الباحثة "ميخايلوڤا" سنة 1965 بأزيد من مائة مخطوطة نادرة منها [194]. وقامت بتقسيم المجموعة إلى عدة أقسام، أهمها: التاريخ العام وتاريخ الخلافة والتاريخ الجهوي وتاريخ المدن وكذلك التراجم والسياسة والموسوعات التاريخية وقسم خاص بعلم الاجتماع، إلى غير ذلك من الأقسام، ولقد اخترنا بعضها لتقديمها كنماذج

---

(192) Rousseau, N° 495; GAL, I, 280, N° 7, 1; SB I, 493.

(193) Rosen, Coll. sc. I, N° 164; KAR, I, N° 137; GAL, II, 455-456; SB II, 675.

مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، I، 188. (مخطوطة المكتبة البلدية بتطوان).

(194) ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية لمعهد شعوب آسيا، (تاريخ)، موسكو، 1965.

من هذه المجموعة للتعريف بها نظرا لقيمتها العلمية والتاريخية، وللتعريف ببعض الدراسات التي أنجزت حولها خاصة من قبل العلماء الروسيين.

- "كتاب الأخبار الطوال" لأبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفى عام 282هـ/ 895م. أي خلال فترة حكم المعتصم، قام بنسخ هذه المخطوطة شخصان، أحدهما هو حسين ابن (..؟) عباس العصيبي (؟) الشافعي، يرجع تاريخ نسخها عام 1061هـ/ 1651م في الجزيرة العربية(195)، عدد أوراقها 211 ورقة رقمها في المكتبة B 1052. وقد خضعت هذه المخطوطة إلى عدد من التحقيقات والدراسات التي قام بها في روسيا كل من "گيرگس" و"روزين" و"كراتشكوفسكي" وغيرهم(196).

- "تحفة ذوي الألباب في من حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب"، تأليف خليل بن أيبك الصفدي المتوفى عام 764هـ/ 1363م. هذه قصيدة شعرية يدور موضوعها على حكام دمشق مع تعاليق كتبت نثراً. نسخ المخطوطة ابن المؤلف بخط جميل عام 776هـ/ 1375م. عدد أوراقها 162، رقمها في المكتبة (514) C 344(197).

- بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملية"، تأليف محمد طاهر القراخي المتوفى عام 1882. موضوع الكتاب حول مختلف المعارك التي خاضها الداغستانيون والشيشانيون تحت قيادة الإمام شامل الگمراوي الداغستاني ضد الجيوش الروسية في القوقاز الشمالي في الفترة

---

(195) حسب كراتشكوفسكي.

(196) Rosen, Coll. sc., I, N° 29; KAR, 3, N° 11, GAL, I, 123, N° 2; SB I, 187.

Abu hanifa ad-Dinaweri. Kitab al-Ahbar at-tiwal, Publié par V. Guirgass, Leide, 1888.

Abu Hanifa ad-Dinaweri. Kitab al-ahbar at-tiwâl. Préface, variantes et index publiés par I. krarchkovsky, Leide, 1912.

(197) Dorn, As. Mus., 225; Rosen, Notices, N° 166; KAR, 3, N° 39; GAL, II, 32, N° 3, 5; SB II, 28.

الممتدة ما بين 1830 و1859، تم نسخ المخطوطة عام 1317هـ/ 1899. رقمها في المكتبة B 3712 [198].

وتوجد في المكتبة نسخة أخرى منه تحتوي على عدد من الإضافات ومعجم للكلمات الروسية الموجودة بالنص مع ترجمتها العربية أتى بها ابن المؤلف حبيب الله بن محمد طاهر القراخي. تم نسخ المخطوط عام 1322هـ/ 1904. رقمها B 2521.

- "خلاصة التفصيل عن أحوال الإمام شمويل"، تأليف عبد الرحمن ابن جمال الدين الحسيني القبدي الغازي غموقي الداغستاني كان حياً عام 1308هـ/ 91-1890م، وهو صهر الإمام شامل. وقد رافقه في سنوات الحرب الأخيرة وكذلك في منفاه في مدينة "كالوگا" بروسيا. المخطوطة بخط المؤلف الذي كتبها عام 1281هـ/ 65-1864م في "كالوگا" وتحتوي على إضافات في الحواشي. رقمها (Nov 222) A 710 [199].

- روسيا، "أحوال المسلمين في الممالك الروسية"، لمؤلف مجهول، يدور موضوع الكتاب حول الظروف القاسية لأحوال المسلمين في روسيا القيصرية، كتبت المخطوطة في مدينة قازان التترية عام 1902. رقمها A 1219 [200].

- "تاريخ الخلفاء" لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر (الميلادي). هكذا يعرف هذا المؤلف الذي يرجع تاريخ نسخه إلى القرن الثالث عشر الميلادي، ولم يثبت عنوانه الأصلي الكامل. وقد توصل كل من "بيليابيف" [201] و"گريزنييفيتش" [202] في دراستهما لهذه المخطوطة

(198) كراتشكوفسكي، VI، 605-607. KAR, 3, N° 100; GAL, SB II, 871, N° 4.

(199) بارتولد، الموسوعة الإسلامية، IV، 330؛

- كراتشكوفسكي، مخطوطة عربية حول ذكريات عن شامل، مختارات كراتشكوفسكي، VI، 559-570. KAR, 3, N° 99.

(200) KAR, 3, N° 110.

(201) بيليابيف، مخطوطة مجهولة في التاريخ من مجموعة "إيڤانوف" في المتحف الآسيوي، مجلة "نشرة جمعية مستشرقي المتحف الأسيوي..." (Z. V. K)، V، 1930، ص. 15-37. (بالروسية).

(202) گريزنييفيتش، مؤلف عربي مجهول من القرن الحادي عشر، مدخل، دراسة وتعليق، موسكو، 1960 (بالروسية).

=

أن المؤلف المجهول عاش في نهاية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والربع الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). ويدور موضوع الكتاب حول تاريخ الخلافة، ويبتدئ بخلافة عمر بن الخطاب وينتهي بوصول العباسيين إلى الحكم. وهذه المخطوطة التي تضم 296 ورقة مبتورة البداية والآخر. رقمها في المكتبة C 1911 (Nov 1129).

- "الكتاب اليميني" أو "التاريخ اليميني" أو "التاريخ العتبي" لمؤلفه أبي النصر محمد بن عبد الجبار العتبي المتوفى عام 427هـ/ 1036م أو 431هـ/ 1040م. يرجع تاريخ تأليف الكتاب إلى عام 412هـ/ 1021م. في حين أن النسخة المخطوطة مؤرخة بجمادى الأولى من عام 663هـ/ 1265م. ويعتبر هذا المؤلف مصدراً مهماً لتاريخ آسيا الوسطى في النصف الأخير من القرن العاشر الميلادي والربع الأول من القرن الحادي عشر. وقد تمت ترجمته إلى اللغتين الفارسية والتركية، عدد أوراق المخطوطة 164 ورقة ورقمها (510) C 342. اسم ناسخها محمد ابن أبي زيدة النسفي. وتوجد في المكتبة نسخة أخرى من هذا الكتاب (عدد أوراقها 113، ورقمها (C 729)[203]، وعنوانها الكامل: "الكتاب اليميني في شرح أخبار السلطان يمين الدولة وأمين الملة أبي القاسم محمود بن سبكتكين ومدح مقاماته في عديده وأنصاره وما يتصل بها من أخبار ولاة الأطراف في جواره بما جمعه أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي"[204].

- "الآثار الباقية عن القرون الخالية"، تأليف أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني، ألف الكتاب عام 390-91هـ/ 1000م. وكان عدد أوراقه في الأصل 203 ورقة. نسخت هذه المخطوطة عام 616هـ/ 1219م. وهي أقدم النسخ المعروفة وعدد أوراقها 127 ورقة، غير أن عدداً من أجزائها لا يوجد

= - تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر، صورة طبق الأصل مع مقدمة وموجز لمحتوى الكتاب، بقلم گريزنييفيتش، موسكو، 1967، (بالروسية). KAR, 3, N° 15.

(203) Rosen, Coll. sc., I, N° 34; KAR, 3, N° 17.

(204) ميخايلوڤا، أ، فهرست المخطوطات العربية، ص. 31-32-33.

في أي من النسخ الأخرى المعروفة. وبذلك فإنها تسد الفراغات الكثيرة عند "ساخاو" (Sachau)[205] وعند باحثين آخرين. رقم المخطوطة في المكتبة (505، D 58. اسم ناسخها مسعود بن عبد الله المولعي الدهستاني[206].

- (الجزء الخامس من) "تجارب الأمم وتعاقب الهمم" لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه المتوفى عام 421هـ/ 1030م. يتألف الكتاب أصلاً من ستة أجزاء، ويعرض فيه مؤلفه في المقدمة آراءه حول التطور التاريخي عامة وأهمية تدوين الأحداث ودور المؤرخ ثم ينتقل إلى الحديث عن تاريخ إيران منذ القدم إلى حدود النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي، يولي عناية خاصة للساسانيين والبويديين. المخطوطة التي تقع في 251 ورقة غير مؤرخة، لكن تاريخ نسخها يعود، دون شك، إلى عام 595هـ/ 1199م. وهي نفس السنة التي نسخ فيها من قبل نفس الناسخ الجزءان الأول والثالث اللذان يوجدان في مكتبات "طاشقند" و"قازان". رقم المخطوطة في المكتبة (Nov 1001 D345 اسم الناسخ: حسن بن علي ابن أبي الحسن بن الحسين المؤدب[207].

---

(205) The Chronology of Ancient Nations, an English Version of the Arabic text of Athar-ul bakiya of Al-Biruni, Transl. By E. Sachau, London, 1878.

(206) S. Saleman, Zur handschriftenkunde. I. Al-Biruni's al-Athâr al-bâqiyah, IAN, VI série, T. VI, 1912, p. 861-870.

أبو الريحان البيروني، المؤلفات المختارة، I، آثار القرون الخالية، قام بترجمته والتعليق عليه "م. ساليي" (M. Salye)، طاشقنت، 1957، (بالروسية).

واحيدوف، إضافات إلى "الآثار الباقية"... للبيروني مأخوذة من مخطوطتي "ليننگراد" و"إستنبول"، "المجلة الفلسطينية"، 4(67)، 1959، ص. 147-171. (بالروسية).

- ميخايلوڤا، ص. 26-27. KAR, 3, N° 12; GAL, I, 475, N° 1, 1; SB I, 872.

(207) كراتشكوفسكي، نسخة مخطوطة جديدة للجزء الخامس من تاريخ ابن مسكويه، المؤلفات المختارة لكراتشكوفسكي، ج 6، ص. 373-382. (بالروسية).

- بيلياييف، مجموعة بخارى، X، XII، 7، رقم 166.

- ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 29-30-31.

KAR, 3, N° 14; GAL, I, 342, N° 2, 1; SB I, 582-583.

- "كتاب الفتح القُسِّي في الفتح القدسي" (أو "كتاب الفيح القسي في الفتح القدسي")، تأليف محمد بن محمد عماد الدين الكاتب الإصبهاني" (519هـ/ 1125م-597هـ/ 1201م). نجد بداخل المخطوطة العنوان الكامل لهذا المؤلف، وهو "كتاب الفائح القسي في الفتح القدسي، سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب". والكتاب حول تاريخ تحرير سوريا وفلسطين من الاحتلال الصليبي على يد صلاح الدين الأيوبي خلال الفترة الممتدة من 583 إلى 589هـ (من 1187 إلى 1193م). يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 595هـ/ 1199م، أي في وقت كان المؤلف فيه ما زال على قيد الحياة. رقم المخطوطة (516) C 345، عدد أوراقها 366 ورقة، وناسخها هو: محمد بن محمد بن البزدي بن عكرمة الجزيري الكاتب[208].

- "التاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"، تأليف محمد بن علي الكاتب الحموي الملكي المجاهدي المتوفى في أواخر ثلاثينيات القرن السابع الهجري. هذا الكتاب الذي يعرض لتاريخ البشرية إلى حدود عام 631هـ هو ملخص لمؤلف آخر لم يصل إلينا سبق للحموي أن كتبه وعنوانه "كشف البيان في حوادث الزمان"، وقد أعد المؤلف هذا الملخص للمنصور إبراهيم وهو ابن الملك المجاهد حاكم حمص، وفرغ من كتابته عام 631هـ/ 1234م. يعود تاريخ نسخ المخطوطة إلى أربعينيات القرن السابع الهجري، رقمها في المكتبة (521) B 614، عدد أوراقها: 227 ورقة. قام الباحث الروسي "گريزنييقيتش" بنشر هذا المؤلف عام 1960[209].

---

(208) ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 37-38.
Rousseau, N° 458; Rosen, notices, N° 158; KAR, 3, N° 19; GAL, I, 315, N° 2, 1; SB I, 548.

(209) محمد الحموي، التاريخ المنصوري، قام بنشر النص العربي وكتب المقدمة والفهارس گريزنييڤتش، موسكو، 1960؛ الطبعة الثانية، موسكو، 963. (بالروسية).
- ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 42-43-44.
Rousseau, N° 12; Rosen, Notices, N° 159; KAR, 3, N° 22.

- (الجزء الثالث والأخير من) "الكامل في التاريخ"، تأليف علي بن أبي الكرم ابن الأثير المتوفى عام 630هـ/ 1233م. يعرض الكتاب لتاريخ البشرية إلى حدود عام 628هـ/ 1230م. ويمثل الجزء الثالث هذا مصدرا في غاية الأهمية لدراسة تاريخ الفترة التي عاشها المؤلف، كما أنه يعتبر مرجعاً ثميناً في تاريخ آسيا الوسطى والقوقاز، وتعد هذه المخطوطة من أقدم مؤلفات ابن الأثير، إذ أنها نسخت عام 686هـ/ 1287م، أي بعد 65 سنة فقط من وفاة المؤلف. عدد أوراقها 430 ورقة، ورقمها B 373 (Nov 1517)[210].

- "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، تأليف محمود بن أحمد العيني المتوفى عام 855هـ/ 1451م. هذه المخطوطة التي يرجع تاريخ نسخ بعض أجزائها إلى وسط القرن الثامن عشر الميلادي تتألف من ثلاثة مجلدات من أصل أربعة (ج 2و 3 و4). عدد أوراق المجلد الثاني 827 ورقة، والثالث 677، والرابع 820. رقمها في المكتبة C 350 (524 bcd)[211].

- "كتاب تاريخ مكة المشرفة"، تأليف أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي المتوفى عام 244هـ/ 858م. ولهذا الكتاب عنوان آخر هو "أخبار مكة"، ويعرض لتاريخ الكعبة ومكة المكرمة، كما يعطي وصفاً شاملاً لأحيائهاوأزقتها وبناياتها. ولقد استقى المؤلف جل أخباره هذه من المعلومات التي جمعها ودونها عمه أبو الوليد أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقي المتوفى عام 219هـ/ 834م. (أو 222هـ/ 837م). تم نسخ

---

(210) ميخايلوفا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 40-41-42.
Rosen, IRAN, V série, T. XXII, 1905, OXIX - OXX.
KAR, 3, N° 21; GAL, I, 345, N° 10, 1; SB I, 588.

(211) ميخايلوفا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 82-83-84-85.
Dorn, As. Mus., 83, 745-750; Rosen, Notices, N° 177; KAR, 3, N° 48. GAL, II, 52, N° 14, 1; SB II, 51.
- كراتشكوفسكي، IV، ص. 480.

المخطوطة في الأندلس خلال الربع الأول من القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي). رقمها (507) B 607[212].

- "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، تأليف محمد بن أحمد بن إياس. وقد سبق ذكره مع المخطوطات الفريدة.

- "كتاب الإمامة والسياسة"، تأليف عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المروزي، نجد في نسخ أخرى عنواناً ثانياً هو "أحاديث الإمامة والسياسة". يرجع عهد تأليف الكتاب، حسب "دوزي" (Dozy)، إلى فترة الحروب الصليبية[213]. ويرى "دوگيانگوس" (P. de Gayangos) بأنه وضع في مصر أو المغرب من قبل مؤلف مجهول عاش خلال نفس الفترة التي كان ابن قتيبة فيها حيا[214]. أما جبرائيل جبور فينسبه إلى علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم المتوفى عام 456هـ/ 1064م[215]. ويعرض هذا الكتاب لتاريخ الخلافة منذ أبي بكر رضي الله عنه إلى عصر المامون. ويتناول قسم مهم منه تاريخ فتح الجزء الشمالي الغربي لإفريقيا وإسبانيا. وهو يمثل بالتالي مصدراً مهماً لدراسة تاريخ منطقة الغرب الإسلامي. يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1041هـ/ 1632م. عدد أوراقها 234 ورقة، رقمها B 606 (506 d)[216].

---

(212) ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 19-20-21.
Rousseau,.N° 10; Rosen, Notices, N° 152; KAR, 3. N° 7; GAL, I, 137, N° 1; SB I, 209.

استغل العالم الألماني "ڤوستنفيلد" (Wüstenfeld) هذه المخطوطة لنشر مؤلفه:
Geschichte und Beschreibung der Stadt Mekka von Abul-Walid Muhammed ben Abdallah el-Azraki. (Die chroniken der Stadt Mekka, I), hrsg. von F. Wüstenfeld. Leipzig, 1858.

(يوجد وصف للمخطوطة الروسية في الصفحتين XXI وXXII).

(213) ميخايلوڤا، ص. 23-24.
Dozy, R. Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen âge, 3e-ed., T. I., Leyde, 1881, p. 21-28.

(214) Gayangos, P. The History of the Mohammedan Dynasties in Spain, Vol. I, Appendice E. Vol. II, appendice A., London, 1840-1843.

(215) جبرائيل جبور، كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة، من مؤلفه؟ الأبحاث، 13، ج 3، ص. 383-395. (انظر: ميخايلوڤا، ص. 24).

(216) ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 23-24.
Mel. As.. VII, 398, 399, N° 4;
Rosen, Notices, N° 156; Kar, 3, N° 10;
GAL, I, 122-123; SB I, 187.

- "المقدمة"، تأليف عبد الرحمان بن خلدون. هذه النسخة غير كاملة، وتنتهي في الفصل السادس بالحديث عن علم أسرار الحروف، وهذه النسخة كنظيرتها التي التي نقلها "روزينطال" (Rosenthal) إلى الإنكليزية[217] تمتاز على النسخ الأخرى المعروفة باحتوائها على خريطة منقولة من أصل خريطة الإدريسي، تم نسخ المخطوطة عام 1116هـ/ 1705م. وعدد أوراقها 252 ورقة، رقمها، رقمها (505) C 337. وتوجد نسخ أخرى من هذا المؤلف في المكتبة[218].

- "ذات الشفاء في سيرة النبي والخلفاء"، تأليف محمد بن محمد الجزري (القرشي الدمشقي الشيرازي) المتوفى عام 833هـ/ 1429م في شيراز. تم نسخ هذه المخطوطة عام 1182هـ/ 1762م. وناسخها هو ابن الشيخ نظام الدين. ولا فرق يذكر بينها وبين نسخة برلين. عدد أوراق المخطوطة 39 ورقة، رقمها (Nov 1473) A 890[219].

- "اختصار الجمان في أخبار ملوك الزمان"، تأليف محمد بن أحمد بن علي بن محمد الأندلسي، المعروف بالحاج الشطيبي الذي كتب مؤلفه هذا حوالي عام 870هـ/ 1465م. وهو مختصر للجزء الثالث من كتاب نفس المؤلف الذي يحمل عنوان "عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان". و"اختصار الجمان..." هو موجز لتاريخ مصر منذ الفاطميين وكذلك لتاريخ بعض مدن وحكام بلدان شمال إفريقيا إلى حدود عهد الموحدي

---

(217) F. Rosenthal, Ibn Khaldûn. the Muqaddimah. An Introduction to history, transl. from arabic by F. Rosenthal, I-III, New-York, 1958 (Bollingen series, XLIII).
(ميخايلوڤا، ص. 76).

(218) باتسييڤا، النظرية التاريخية الفلسفية عند ابن خلدون، مجلة الاستشراق السوفييتي (Sovietskoye Vostokovedeniye)، 1958، عدد 1، ص. 57-86. (بالروسية).
- ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 75-76-77.
Dorn, As. Mus., 284; Rosen, Notices, N° 172; KAR, 3, N° 42; GAL, II, 242-245; SB II, 342-344.

(219) ميخايلوڤا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 77-78.
GAL, II, 203, N° 6, 18; SB II, 277.

الواثق بالله (665-667هـ/ 1266-1269م). تم نسخ المخطوطة في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، عدد أوراقها 26 ورقة، رقمها C 730 (220).

- رسالة الانتصار تأليف علي دده بن مصطفى البسنوي السغتواري شيخ التربة، نسخت المخطوطة عام 1018هـ/ 1609م. يدور موضوعها حول الحرب التي خاضها السلطان مراد الثالث (982-1003هـ/ 1574-1595م) في منطقة "دربنت" رقمها في المكتبة (565) C 371 (221).

- "العيلم الزاخر في أحوال الأوائل والأواخر"، تأليف مصطفى بن حسن الجنابي المتوفى عام 999هـ/ 1590م. وقد اشتهر هذا المؤلف تحت عنوان "تاريخ الجنابي"، ويسميه حجي خليفة "البحر الزخار والعيلم التيار"، كما أن بداخل نسخة "سان بيترسبورگ" هذه عنوانا آخر هو "تحفة الأديب وهدية الأريب" (222)... والكتاب يحتوي أصلا على مقدمة و82 فصلا، خصص كل واحد لتاريخ دولة من الدول الإسلامية إلى حدود عام 997هـ/ 1588م. ومن جملة دول المغرب التي تعرض إليها نذكر على سبيل المثال: الأدارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والوطاسيين... تم نسخ المخطوطة عام 996هـ، أي خلال فترة حياة المؤلف، وهي مبتورة البداية وتنعدم فيها المقدمة. عدد أوراقها 364 ورقة، رقمها C 354 (528) (223). وتوجد في المكتبة نسخة أخرى من هذا المؤلف (رقمها D 173).

6- في الجغرافيا والكوسموغرافيا والطوبوغرافيا:

تحتوي مكتبة "ملحقة المعهد"... على عدد من المخطوطات حول الجغرافيا، وهي قليلة نسبيا، إذا ما قورن عددها بعدد مثيلاتها حول

(220) ميخايلوفا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 86-87.
Rosen, Coll. sc, I, N° 63; KAR, 3, N° 50; GAL, II, 263, N° 5; SB II, 373.
(221) Rosen, Notices, N° 194; KAR, 3, N° 76; GAL, SB II, 634, N° 4.
(222) ميخايلوفا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 110.
(223) ميخايلوفا، فهرست المخطوطات العربية، ص. 110-111-112.
Rousseau, N° 19; Dorn, Auszüge, IV, 468-472; Rosen, Notices, N° 183; KAR, 3, N°72; GAL, II, 300, N° 2, 1; SB II, 411-412.

علوم أخرى. لكن بعضها يكتسي أهمية بالغة ويستحق أن نعرف به هنا. ولقد اخترنا من بين هذه المؤلفات عدداً من المخطوطات ورتبناها على الشكل التالي:

- "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب"، تأليف أبي حامد محمد بن عبد الرحيم الغرناطي المتوفى عام 565هـ/ 1169م. نجد بداخل المخطوطة عنوانا آخر لهذا المؤلف هو "مختار من مختصر من تحفة الألباب لمجالسة الأحباب". يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 973هـ/ 1565م. رقمها في المكتبة (593 a) B 782 [224].

- "كتاب العجائب الكبير"، تأليف إبراهيم بن وصيف شاه الذي عاش قبل عام 607هـ/ 1211م. العنوان في المخطوطة مذهب ومزخرف. وغالبا ما يقع خلط بين هذا الكتاب وكتاب آخر لمؤلِّف آخر يحمل نفس الاسم، لكنه متأخر وعاش وسط القرن السادس عشر. تم نسخ المخطوطة التي تقع في 194 ورقة عام 607هـ/ 1211م. رقمها (518) B 613 [225].

- "معجم البلدان"، تأليف ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى عام 626هـ/ 1229م. تقع النسخة في جزءين، عدد أوراق الأول 356 والثاني 310. وينقص الجزء الثاني عدد من أوراق مادتي "الكاف" و"اللام". يرجع تاريخ نسخ المخطوطة إلى عام 1224هـ/ 1809م. رقمها (591) C 588. ويوجد في المكتبة عدد آخر من النسخ من هذا الكتاب [226].

---

(224) استغل "فيران" (G. Ferrand) هذه النسخة المخطوطة لنشر هذا الكتاب. انظر:
Ferrand, G. La thufat al-albab de Abu Hamid al-Andalusi al-Garnati, "Journal asiatique", série 11. T. 206-207, 1925.

جاء وصف للمخطوطة عند: بيليابيف، 80، وكذلك في:
Rosen, Notices, N° 228, 2; Mel. as., VI, 671-677; KAR, 2, N° 6; GAL, I, 477, N° 5, 1; SB I, 878.

(225) جاء وصف للمخطوطة عند: بيليابيف، 97، وكذلك في:
Rousseau, N° 417; Dorn, As. Mus., 204; Rosen, Notices, N° 220; KAR, 2, N° 7; GAL, I, 335, N° 5; SB I; 574.

(226) بيليابيف، 79.
Rousseau, N° 424, 425; Rosen, Notices, N° 229; KAR, 2, N° 8; GAL, I, 479, N° 10, 1; SB I; 880.

- فرين، ابن فضلان... سان بيترسبورگ، 1823، ص. XLVIII-XLVII (بالألمانية).

- "كتاب جغرافيا في الأقاليم السبعة (جغرافية)"، تأليف علي بن موسى بن سعيد المغربي المتوفى عام 673هـ/ 1274م. تم نسخ المخطوطة عام 1097هـ/ 1686م. عدد أوراقها 20 ورقة، رقمها (592) C 591 [227].

- "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، تأليف زكرياء بن محمد بن محمود القزويني المتوفى عام 682هـ/ 1283م. هذه المخطوطة عبارة عن تحفة فنية، فهي مزخرفة وحجمها صغير جدا، وكتبت بخط جميل، يرجع تاريخ نسخها إلى القرن الرابع عشر الميلادي، عدد أوراقها 215 ورقة، رقمها E. 7. ويوجد في المكتبة عدد آخر من نسخ هذا المؤلف [228].

- "تحفة العجائب وطرفة الغرائب"، تأليف أبي الفداء إسماعيل بن أحمد بن الأثير المتوفى عام 699هـ/ 1299م. تم نسخ المخطوطة عام 1046هـ/ 37-1636م، رقمها (601) A 252 [229].

- "نخبة الدهر في عجائب البر والبحر"، تأليف شمس الدين بن أبي طالب الدمشقي المتوفى عام 727هـ/ 1327م. خضعت هذه المخطوطة إلى عدد من الدراسات وقام العالم "ميهرين" (A. F. Mehren) بنشرها عام 1866 في "سان بيترسبورگ" [230]، نسخت عام 1098هـ/ 1687م. عن مخطوطة لأحد أمراء طرابلس التي يرجع تاريخ نسخها إلى عام 795هـ/ 1393م. عدد

(227) بيليابيف، 79-80.
- فران، ابن فضلان...، ص. 30-32.
- بارتولد، جغرافية ابن سعيد...، (بالروسية)، في كتاب:
Recueil des travaux dirigés en mémoire du jubilié scientifique de D. Chwolson, B., 1899, p. 226-241.
Rousseau, N° 406; dorn, As. Mus., 204-205; KAR, 2, N° 12; GAL, I, 337, N° 3, 3; SB I, 576-577.

(228) بيليابيف، 80-81.
Rosen, Coll. sc, N° 64; KAR, 2, N° 13; GAL, I, 481, N° 12; SB I, 882, N° 12, 1.

(229) KAR, 2, N° 18; GAL, I, 358, N° 15...; SB I, 609; SB I, 581, N° 11.

(230) A. F., Mehren, Cosmographie de Chems-ed-din ed-Dimichqui, Edition commencée en 1820 par feu Fraehn, d'après le manuscrit du Musée Asiatique de l'Académie Impériale des Sciences, Saint-Petersbourg, 1866.

أوراقها 148 ورقة، رقمها (593) B 781 [231].

- "جامع الفنون (العلوم) وسلوة المحزون"، تأليف نجم الدين أحمد بن حمدون الحراني الحنبلي الذي كان يسكن مصر عام 732هـ/ 1332م. هذا المؤلف في الكوسموغرافيا، جاء في أربع مقالات، ويضم 184 ورقة، تم نسخ المخطوطة عام 966هـ/ 1559م. رقمها (603) B 279 [232].

- "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار"، تأليف أحمد بن عبد القادر المقريزي المتوفى عام 845هـ/ 1442م. تم نسخ المخطوطة خلال القرن الخامس عشر الميلادي، عدد أوراقها 110 ورقة، رقمها (526) D 62 [233].

- "خريدة العجائب وفريدة الغرائب"، تأليف سراج الدين أبي حفص عمر ابن الوردي المتوفى عام 861هـ/ 1457م. (أو حوالي عام 850هـ/ 1446م). يحتوى النص الذي جاء في 92 ورقة على خريطة للعالم وتصميم للكعبة المكرمة، تم نسخ المخطوطة عام 972هـ/ 1565م. رقمها B 1053 [234].

- "رسالة الحجج المبينة في التفضيل بين مكة والمدينة"، تأليف السيوطي المتوفى عام 911هـ/ 1505م. رقم المخطوطة D 539 [235].

- "كوكب الروضة"، تأليف السيوطي، هذا المؤلف وصف جغرافي لنهر النيل وجزر الروضة، جاء في قالب شعري، تم نسخ المخطوطة عام

---

(231) Rousseau, N° 427; Dorn, As. Mus., 36, 205; Rosen, Notices, N° 222; KAR, 2, N° 19; GAL II, 130, N° 1, 1; SB II, 161.

(232) كراتشكوفسكي، IV، 387.

Rousseau, N° 405; Dorn, Auszüge, 348-364; Rosen, Notices, N° 294; KAR, 2, N° 24; GAL, II, 130, N° 3.

(233) KAR, 2, N° 25; GAL, II, 39, 1; SB II, 36.

(234) بيليابيف، 82.

Rosen, Coll. sc., I, N° 66; KAR, 2, N° 28; GAL, II, 131-132, N° 8; SB II, 163.

(235) GAL, II, 143, N° 7; 204; SB II, 191.

1047هـ/ 38-1637م. عدد أوراقها 192 ورقة، رقمها 525 a) B 617 (236) bis).

- "نزهة الأنام في محاسن الشام"، تأليف عبد الله بن محمد البدري الدمشقي الوفائي المتوفى عام 917هـ/ 1511م. وهو وصف لمعمار مدينة دمشق وبساتين نواحيها، نسخت المخطوطة عام 1061هـ/ 1650م. رقمها (513) B 610 (237).

- "المطالع البدرية في المنازل الرومية". تأليف أبي البركات بدر الدين بن الغزي العامري الدمشقي المتوفى عام 984هـ/ 1577م. المؤلف الذي كتب سجعاً عبارة عن وصف لرحلة قام بها المؤلف من دمشق إلى القسطنطينية ذهاباً وإياباً. تم نسخ المخطوطة عام 1066هـ/ 1656م. عدد أوراقها 112 ورقة، رقمها (606) B 799 (238).

- "زبدة الآثار فيما وقع لجامعه في الإقامة والأسفار"، تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن جمال الدين سكيكر المتوفى عام 987هـ/ 1579م. وهي وصف لرحلة قام بها المؤلف انطلاقا من مدينة حماة إلى حلب والقسطنطينية وأنهاها بتاريخ 13 محرم 976هـ/ 7 يوليوز 1568م. تم نسخ المخطوطة في حلب في الفترة ما بين 976 و987هـ (1568-1579م)، عدد أوراقها 81 ورقة، رقمها (608) B 801 (239).

- "كتاب الرحلة" تأليف حجيج بن قاسم الوحيدي. وهي وصف لرحلة قام بها المؤلف من حلب إلى الديار المقدسة عام 992هـ/ 1584م.

---

(236) Rosen, Notices, N° 236; KAR, 2, N° 36; GAL, II, 157, N° 7, VII, 282; SB II, 196.

(237) بيلياييف، 83، كراتشكوفسكي، IV، 497.
Dorn, AS. Mus., 285, N° 7; Rosen, Notices, N° 239, 2; KAR, 2, N° 35; GAL, II, 132, N° 11, 1; SB II, 163.

(238) بيلياييف، 83، كراتشكوفسكي، IV، 669.
Rosen, Notices, N° 240; KAR, 2, N° 42; GAL, II, 360, N° 3, 1.

(239) بيلياييف، 83؛ كراتشكوفسكي، IV، 669.
Rousseau, N° 415; Rosen, Notices, N° 241; KAR, 2, 43; GAL, II, 361, N° 5.

لأداء فريضة الحج، وتشتمل كذلك على مواضيع علمية، وقد بنيت على شكل حوار. تم نسخ المخطوطة عام 1100هـ/ 1688م في حلب، عدد أوراقها 128 ورقة، رقمها (607) B 800[240].

- "قطف الأزهار من الخطط والآثار"، تأليف محمد بن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي المتوفى حوالي عام 1060هـ/ 1650م. وهي شهادات تاريخية وجغرافية حول مصر، وكذلك وصف طوبوغرافي لمدينة القاهرة. تم نسخ المخطوطة عام 1074هـ/ 1663م، عدد أوراقها 260 ورقة، رقمها (527) B 621[241].

- "رحلة البطريرك مكاريوس"، تأليف بولص بن الزعيم الحلبي المتوفى عام 1669. وهي وصف لرحلة قام بها البطريرك مكاريوس إلى روسيا في الفترة ما بين 1652 و1659، نسخت المخوطة عام 1700م، عدد أوراقها 366 ورقة، رقمها B 1230[242].

- "الأرجوزة المسماة بالسفالية"، تأليف شهاب الدين أحمد بن ماجد، سبق ذكرها مع المخطوطات الفريدة.

- "الأرجوزة المسماة بالمعلقية"... لابن ماجد، سبق ذكرها مع المخطوطات الفريدة.

- "الأرجوزة التائية..."، لابن ماجد، وقد سبق ذكرها كذلك مع المخطوطات الفريدة[243].

7- في التراجم:

- "الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية"، تأليف أحمد بن

(240) بيلياييف، 83؛ كراتشكوفسكي، IV، 673، 674.
Rosen, Notices, N° 242; KAR, 2, N° 45; GAL, II, 361, N° 6.

(241) Rosen, Notices, N° 237; KAR, 2, N° 47; GAL, II, 39, N° 7, 1, b; SB II, 36.

(242) كراتشكوفسكي، IV، 700؛ VI، 440، رقم 33.
بيلياييف، 83؛ KAR, 2, N° 51.

(243) انظر: أحمد بن ماجد (مع المخطوطات الفريدة في هذا الفصل من دراستنا).

مصطفى طاشكبرى زاده المتوفى عام 968هـ/ 1561م. يدور موضوع الكتاب حول أكبر العلماء ورجال التصوف في الدولة العثمانية منذ القرن الرابع عشر إلى حدود وفاة المؤلف، نسخت المخطوطة عام 980هـ/ 1572م. رقمها (554 a) B 639 [244].

- "مناقب أبي نصر عبد النصير بن إبراهيم البلغاري القازاني المتوفى عام 1227هـ/ 1812م. يغلب الظن أن الكتاب حول أول المجددين التتريين في مجال التعليم العالم أبي نصر الكرساوي الذي سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول من دراستنا، تم نسخ المخطوطة في قرية كرسة التترية عام 1818. رقمها A 1241.

8- في الفنون الحربية:

- "التدابير السلطانية في سياسة الصنائع الحربية"، تأليف محمد بن منكلي الناصري المتوفى ما بين 769 و778هـ/ 1367-68 و 1376-77م. نسخت هذه المخطوطة التي كتبت بخط جميل خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي. عدد أوراقها 114. رقمها C 726 [245].

- "الفلاح في علم السلاح"، لمؤلف مجهول. تم نسخ المخطوطة عام 1225هـ/ 1810م، رقمها A 575 [246].

نعتقد أننا، رغم ما عرفنا به من نفائس المخطوطات من خلال هذه اللائحة، لم نلق، في واقع الأمر، سوى نظرة خاطفة على جزء قليل من كنز المخطوطات العربية المخزونة في مكتبة "ملحقة معهد الاستشراق" بسان پيترسبورگ التي تستحق أن يرصد لها المزيد من الدراسات للتعريف بما تحتويه من نوادر من جهة، وبما وُضع لها من فهارس وما كتب عنها من دراسات من جهة أخرى. كما تستحق المكتبات الاستشراقية الروسية الأخرى نفس العناية ونقصد بهذه المكتبات "مكتبة صالطيكوف شيدرين

---

(244) كراتشكوفسكي، VI، 407 (24، 8)؛
Rousseau, N° 27; Rosen, Notices, N° 204; GAL, II, 425, N° 4, 2; SB II, 633.
(245) Rosen, Coll. sc., I, N° 213; GAL, SB II, 167, N° 5, 3.
(246) كراتشكوفسكي، VI، 410 (25، 31).

العامة" ومكتبات جامعات "موسكو" و"قازان" وخاصة "سان پيترسبورگ" التي بدأ الاهتمام العربي بها مؤخراً بصدور كتاب "المنتقى من مخطوطات جامعة بطرسبورغ" الذي سبقت الإشارة إليه.

ولا بد من الإشارة، في ختام هذا الفصل من دراستنا، إلى "صفحة منسية" حول العلاقات العلمية بين الجامعة المغربية والجامعة الروسية، وتتمثل في مراسلة جرت بين الأستاذ "جورج كولان" (G. Colin) من معهد الدراسات العليا المغربية (I. H. E. M) بالرباط والأستاذ "كراتشكوفسكي" خلال عامي 1932 و1934 في شأن مخطوطة مغربية محفوظة في مكتبة جامعة "سان پيترسبورگ" (لينينگراد آنذاك). ويتعلق الأمر بمؤلف عنوانه "أنس العاشق ورياض (الحب) الوامق"[247]، وهو مجهول المؤلف ومبتور البداية. ولم يرد ذكر هذه المخطوطة سوى في فهرست واحدة، وهي التي وضعها العالمان "زاليمان" و"روزين" عام 1888[248]. وقد اهتم بها "كراتشكوفسكي" وحاول التوصل إلى معرفة اسم مؤلفها. فبعث رسائل حولها إلى عدد من العلماء في أوروبا والعالم العربي. وبدا له من خلال أجوبة جلهم أن النسخة اللينينگرادية قد تكون فريدة. إلا أن الأستاذ "كولان" أخبره برسالة مؤرخة بـ 15 أكتوبر 1932 أنه اكتشف نسخة أخرى لهذا المؤلف في مدينة فاس[249] وأنه يعتزم القيام بوصفها في دراسة قد تصدر قريبا. ثم كتب "كراتشكوفسكي" مقالة باللغة الفرنسية في المجلة الإسبانية "الأندلس" (Al-Andalus) حول النسخة الروسية[250] في محاولة منه

---

(247) هكذا ورد العنوان أول مرة عند كراتشكوفسكي. انظر: مختارات كراتشكوفسكي، ج 6، ص. 533.

(248) "Indices alphabetici codicum manuscriptorum persicorum, turcicorum, arabicurum qui in Bibliotheca Imperialis Literarum Universitatis Petropolitanae adservantur". Confecorunt C. Salemann, et V. Rosen, Petropoli, 1888.

(249) توجد هذه الرسالة ضمن "رسائل العالم" "كراتشكوفسكي"، في سان پيترسبورگ.

(250) Ign. Kratchkovsky, Une anthologie magribine inconnue à Léningrad, in Al-andalus, Madrid-Granada, 1934, Vol. II, fasc. 1, p. 197-205.

انظر كذلك: كراتشكوفسكي، أنطولوجية مغربية مجهولة المؤلف بلينينگراد. في: مختارات الأكاديمي كراتشكوفسكي... ج 6، ص. 533-541. (بالروسية).

(وهذه المقالة ترجمة روسية للأولى مع عدد من الإضافات خاصة في الهوامش...).

لإثارة انتباه العلماء الإسبانيين المستعربين إليها ولحثهم على البحث عن نسخ أخرى. وفي نفس السنة توصل "كراتشكوفسكي" برسالة أخرى من "جورج كولان"[251] أورد فيها بعض الإيضاحات، وخاصة منها أن عنوان المؤلف هو "أنس العاشق ورياض المحب (وليس الحب) الوامق"[252] وأن مؤلفها يبقى مجهولا بالرغم من أن النسخة الفاسية كاملة وغير مبتورة...

من خلال هذه الصفحات يتجلى مدى ثراء المكتبات الاستشراقية الروسية وأهميتها العلمية. وإذا كانت نفائسها معروفة عند المختصين في عدد من البلدان في أوروبا وأمريكا وذلك بفضل الفهارس والدراسات التي صدرت حولها، فإنها تبقى، مع الأسف، شبه مجهولة في الأقطار العربية التي يعنيها الأمر بالدرجة الأولى، فالمكتبات العربية لا تملك إلا القليل من هذه الدراسات والفهارس. ونعتقد أنه من واجب الجامعات العربية أن توجه عناية خاصة لهذا الموضوع وأن تخصص منحا دراسية لبعض من طلبتها في مختلف شعب العلوم الإنسانية الذين لهم دراية باللغة الروسية وأن ترسلهم إلى روسيا قصد القيام بالتنقيب في مجموعات مخطوطاتها العربية وترجمة الفهارس والدراسات حولها. وإذا ما تمكنت الجامعات العربية من تنفيذ هذه الخطة فإنها ستكون قد أسدت خدمات في غاية الأهمية إلى البحث العلمي في كل من الوطن العربي وجمهورية روسيا الفيديرالية...

---

(251) توجد هذه الرسالة كذلك ضمن "ربائد العالم كراتشكوفسكي"، وتاريخ إرسالها: 30 شتنبر 1934.

(252) توجد نسختان مخطوطتان من هذا المؤلف في الخزانة العامة بالرباط رقمهما: (D 1655) 1971 و1972 (D 972)، وعنوانه الكامل "أنس العاشق ونزهة الشائق ورياض المحب الوامق"، انظر حوله:

I. S. Allouche, et A. Regragui, Catalogue des manuscrits arabes de Rabat, deuxième série (1921-1953), Rabat, 1958, p. 79.

الخاتمة

كان هدفنا بالأساس في هذا العمل المتواضع إلقاء نظرة تاريخية على مسيرة المدرسة الاستعرابية الروسية منذ نشأتها إلى حدود منتصف القرن العشرين، وكذلك تسليط النور على العلاقات التي كانت تجمع الروسيين القدامى بجيرانهم المسلمين وخاصة منهم الشعب التتري. وأملنا أن تكون الفصول الخمسة المكونة لهذا الكتاب قد مكنت القارئ من أخذ صورة متكاملة حول هذا الموضوع.

أما استنتاجات هذه الدراسة فهي، في نظرنا، متعددة ومتنوعة، غير أنه يمكن حصر أهمها في النقط التالية:

- شكل حدثان هامان في تاريخ العلاقات الروسية الإسلامية أهمية قصوى بالنسبة لمصير شعوب المنطقة، تمثل الأول في الاحتلال المغولي التتري لروسيا مدة أزيد من قرنين، وكان الثاني احتلال الروس لبلاد المسلمين في الشرق ثم الجنوب والجنوب الشرقي. وتسبب هذان الحدثان في إذكاء روح الكراهية والحقد المتبادلين. وانعكست هذه المشاعر على جميع المجالات وتضررت بسببها صورة المسلم عند الروسي وصورة الروسي عند المسلم. كما تضرر بسببها فهم الشرق الإسلامي ودراسته في روسيا التي ظلت طوال قرون ترى في المسلمين خطراً على أمنها. وزاد في تصدع العلاقات الروسية الإسلامية الكتابات الأولى التي كان الروس يتداولونها، وهي بيزنطية بالأساس، وكانت كلها معادية للإسلام.

وبقيت روسيا طيلة قرون دولة متخلفة رغم انتصاراتها العسكرية منذ أواسط القرن السادس عشر، وتجلى هذا التخلف في مجالات العلم والرقي والأدب... ولم تبدأ البلاد تخرج من وضعيتها هذه إلا بعدما أعطت إصلاحات "بطرس" الأول الجوهرية ثمارها، فتكوّن عند الحكام الروسيين تصورٌ خاص بهم لبناء الدولة مبني على مسايرة التقدم العلمي الذي حصل في أوروبا الغربية دون التخلي عن جوهر طبيعة النظام الاستبدادي الذي كان يميِّز دولتهم. وتم وضع استراتيجية شاملة للتدبير الإداري والعسكري وأحدثت الجامعات والمعاهد والأكاديميات على نمط عصري واستُدعيت نخبة من العلماء الأجانب لتدريس العلوم والفنون. وقامت الإمبراطورة "كاتيرينا" الثانية، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، بترسيخ النهج الذي رسمه "بطرس" الأول في مطلع نفس القرن. وبعملها هذا تكون الإمبراطورة "كاتيرينا" قد فتحت الباب على مصراعيه أمام الدولة الروسية للدخول إلى عالم العلوم العصرية بما فيها العلوم الاستشراقية.

- عرف المسلمون منذ أن استولى الروس على أوطانهم فترات طويلة من الاضطهاد الديني الذي كانت تتزعمه الإدارة الاستعمارية تارة والكنيسة تارة أخرى أو كلاهما معاً. غير أنه يجب الاعتراف بأن ريح الانفتاح والتسامح النسبيين كانت تهب من حين لآخر مثلما حصل في فترة معينة من حكم "كاتيرينا" الثانية. ومع ذلك فإن سياسة القمع والتنصير ومحاولات قطع الجسور بين مختلف القوميات المسلمة داخل الإمبراطورية وخارجها هي التي طغت على علاقة الدولة والكنيسة مع المسلمين الذين استطاعوا رغم كل هذا مقاومة الغزو الفكري والتشبث بعقيدتهم وثقافتهم. ولقد نجحوا فعلاً في مقاومتهم هذه، فعرفت بلاد التتر وجهات أخرى من الإمبراطورية نهضة علمية وثقافية عارمة. ويمكن القول إن المسلمين في روسيا كانوا سباقين إلى نهج سبيل التجديد والإصلاح الذي عرفه العالم العربي الإسلامي خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر. ومن بين المجددين الأوائل المنحدرين من "تترستان" نذكر

على سبيل المثال الشيخ أبا نصر الكرساوي (1783-1814) والشيخ شهاب الدين المرجاني (1818-1889).

- كان لمسلمي روسيا وخاصة منهم التتر دور طلائعي في استعمال الطباعة بالحرف العربي ونشرها على نطاق واسع منذ مطلع الربع الأخير من القرن الثامن عشر. غير أن الاختصاصيين العرب في هذا المجال لا يعيرون أدنى اهتمام لهذه "المرحلة الروسية" من تاريخ الطباعة العربية. ولا بد من الإشارة إلى أن للمسلمين في روسيا وخاصة في تترستان وشمال القوقاز آلاف المؤلفات التي كتبوها باللغة العربية في علوم شتى والتي ما زال معظمها مخطوطاً وحبيس الرفوف في بعض الخزانات المحلية.

- يمكن القول بدون تردد إن المدرسة الاستشراقية الروسية تشكل نتاجاً للمدرسة الاستشراقية الألمانية، ذلك أن أكبر روادها كلهم من جنسية ألمانية. ولعل أبرزهم على الإطلاق العالمان "فرين" و"دورن". ولقد رسم العلماء الألمان الخطوط العريضة للبحث العلمي في روسيا كما أنهم استطاعوا تكوين جيل من المستشرقين الروسيين البارزين الذين تمكنوا من الارتقاء بمدرستهم إلى أعلى الدرجات العلمية.

- عرفت الدراسات الاستشراقية الروسية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازدهاراً كبيراً، وقطعت أشواطاً مهمة في مجال البحث العلمي، خاصة في العاصمة "سان پيترسبورگ". ويمكن تفسير هذا التطور السريع بنشاط مجموعة من العلماء الكبار من ألمانيين وروسيين في كلية اللغات الشرقية من جهة وفي "المتحف الآسيوي" من جهة أخرى. وإن الطلبة الذين كانوا يترددون على هاتين المؤسستين العلميتين هم الذين أصبحوا فيما بعد أكبر علماء روسيا في ميدان الاستشراق. ولعل أبرزهم "گيرگس" وخاصة "روزين" الذي استطاع بدوره تكوين مجموعة من الباحثين أمثال "بارتولد" و"كراتشكوفسكي" و"شميدت" وغيرهم ممن تزعموا المدرسة الاستشراقية الروسية بـ"سان پيترسبورگ" خلال العقود الأولى من القرن العشرين.

ويعد العالم الأوكراني الأصل "كريمسكي" خير ممثل لمدرسة موسكو الاستشراقية. ويبقى "كريمسكي"، مع الأسف الشديد، غير معروف في الأوساط الأدبية العربية، كما أن أعماله التي لا تقل أهمية عن أعمال علماء "سان پيترسبورگ" تبقى بدورها شبه مجهولة.

- إذا كانت الأبحاث الأدبية عند المستشرقين الروسيين قبل الثورة السوفييتية وبعدها تتسم بكثير من الموضوعية فإن الوضع كان يختلف كلما تعلق الأمر بالدراسات حول الدين الإسلامي التي غالباً ما كانت تأخذ طابعاً معادياً للإسلام. وقد تزعم هذه الحملات على الخصوص بعض أساتذة وخريجي أكاديمية الأورثوذوكس في مدينة قازان. ويمكن القول إنه لا يوجد بين الاستشراق الروسي والاستشراق السوفييتي في هذا المجال إلا اختلاف في الشكل، أما المضمون فإنه كان لا يتغير، وكان هؤلاء "العلماء" يسعون دائماً إلى إنتاج مؤلفات "علمية" تخدم مصالح الإدارة الاستعمارية الروسية في الفترة الأولى، ثم مصالح الدولة السوفييتية والحزب الشيوعي في الفترة الثانية. غير أنه يجب الاعتراف أن كبار علماء روسيا لم يشاركوا أبداً في الحملات المعادية للإسلام ولم يسخروا أقلامهم لشتم الشعوب الإسلامية ومقدساتها، بل كانت أصواتهم ترتفع من حين لآخر لشجب كتابات المستشرقين المبشرين والموظفين.

- من مميزات الاستشراق الروسي حول الدين الإسلامي أنه كان في غالب الأحيان ينطلق من دراسة المجتمعات الإسلامية في روسيا نفسها وفي مستعمراتها التي لا تفصلها عنها أية حدود، لأن الشرق الإسلامي كان وما زال موجوداً بداخل الدولة الروسية. وهذا شيء لم يكن متوفراً عند المستشرقين في أوروبا الغربية وأمريكا الذين كان عليهم قطع المسافات الطوال للوصول إلى الشرق الإسلامي للقيام بأبحاثهم.

- تكوّن في روسيا طوال تاريخ مدرستها الاستشراقية عدد من المكتبات المتخصصة في خزن المطبوعات والمخطوطات الشرقية في كل

من "سان بيترسبورگ" وموسكو وقازان. وتعتبر مكتبة ملحقة معهد الاستشراق "بسان بيترسبورگ" إحدى أهم الخزانات الاستشراقية العالمية وأغناها من حيث مخزونها الخطي العربي الذي يناهز عدد عناوينه 11.000 عنواناً. وهي تضم في رفوفها العديد من المخطوطات العربية الفريدة والنادرة.

- دخل العالم الروسي الكبير "كراتشكوفسكي" عالم الاستعراب من بابه الواسع بفضل أبحاثه المتعددة حول جل جوانب الحضارة العربية الإسلامية، وخاصة حول الأدب العربي قديمه وحديثه.

- إن ما ميز "كراتشكوفسكي" عن باقي المستشرقين في بداية القرن العشرين هو تعاطيه دراسة الأدب العربي الحديث في وقت كان فيه مفهوم الاستشراق العالمي عبارة عن حفريات في ماضي الشعوب الشرقية. وكانت مقالته "الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث" أولى الدراسات الاستشراقية الأكاديمية حول هذا الموضوع. وقد اعترف كثير من المستشرقين المرموقين عالمياً بأن "كراتشكوفسكي" كان سباقاً في هذا الميدان.

- كان للاهتمام الخاص الذي كان "كراتشكوفسكي" يوليه لدراسة الأدب العربي الحديث أثر بالغ الأهمية على سير الاستعراب في روسيا. ويمكن نعث الاتجاهات الجديدة التي ظهرت على الساحة الأدبية بـ"مدرسة كراتشكوفسكي". فلقد تزايد الاهتمام العلمي بالأدب العربي الحديث الذي خضع لمئات الدراسات والترجمات. ولم يكن المستعربون الروسيون ينتظرون المناسبات، كما هو الشأن في جهات أخرى من العالم، لترجمة الأعمال الأدبية الرفيعة، فروايات نجيب محفوظ مثلا نقلت إلى اللغة الروسية قبل حصول هذا الأخير على جائزة "نوبل" بعشرات السنين، وكذلك الشأن بالنسبة لمؤلفات الزهاوي وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس والبياتي وغيرهم من مؤلفات الكتاب والشعراء العرب.

- تعتبر كتابات "كراتشكوفسكي" حول العلاقات الأدبية الروسية العربية مادة في غاية الأهمية لدراسة هذا الموضوع. فقد عرّف العالم بمختلف مراحل هذه العلاقات منذ أقدم العصور إلى حدود العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين. كما عرّف بمترجمي الأدب الروسي إلى اللغة العربية وبالأساتذة العرب الذين درسوا اللغة والأدب العربيين في الجامعات الروسية، وأولى اهتماماً خاصاً بالشيخ المصري محمد عياد الطنطاوي وبمؤلفاته التي يمكن اعتبار البعض منها تكملة لكتابات رفاعة الطهطاوي وغيره من المثقفين العرب في وصف البلدان الأوربية خلال القرن التاسع عشر.

- نعتقد، في ختام هذه الدراسة، أنه بإمكان الجامعة المغربية والجامعات العربية الأخرى كذلك التي قطعت أشواطاً مهمة في ميدان البحث العلمي أن توسع دائرة اهتماماتها العلمية لتشمل أقطاراً، ربما كانت بعيدة عن بلداننا، لكن جامعاتها ومعاهدها تنتج الكثير من المؤلفات الرفيعة المستوى حول لغتنا وأدبنا وحضارتنا، كما أن بعضاً من مكتباتها تزخر بعدد هائل من المخطوطات العربية النفيسة. وربما وجد الباحث العربي فيها ما لا يخطر على البال وإن كان جل هذه النفائس مدوّناً ومفهرساً بلغات أجنبية. ونقصد بهذه البلدان بعض دول أوروبا الوسطى وروسيا والجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى والقوقاز وخاصة منها "أزبكستان" و"أذربيجان".

المصادر والمراجع

1- المصادر والمراجع باللغة العربية :

- أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت، الكتاب الأول، موسكو، 1986 .

- ابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله، كتاب المسالك والممالك، قدم له بالفرنسية وحققه ووضع له فهارس "دوكويي" (M. J. De Goeje)، بريل (Brill)، 1889 .

- ابن المعتز، كتاب البديع، تحقيق إغناطيوس كراتشكوفسكي، مكتبة التراث، القاهرة، 1973 .

- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1955 .

- إدوارد، سعيد، الاستشراق، تعريب كمال أبو ديب، الطبعة الثانية، بيروت، 1984 .

- بارتولد، ف.، تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958 .

- بارتولد، ف.، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، الطبعة الرابعة، دار المعارف، مصر، 1966 .

- بالنثيا انخيل جونثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955 .

- بحوث سوفييتية جديدة في الأدب العربي، موسكو، 1986 .

- بدسين، الدروس الشرقية في الدانمارك، تعريب محمد كرد علي، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 4، 1924 ، ص . 170-175 .

- بروكلمان، كارل، الدروس العربية في ألمانيا، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 3-4، 1923 ، ص . 86-87 .

- بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1988 ، (الطبعة الحادية عشرة) .

- البعلبكي، منير، المورد، قاموس إنكليزي - عربي، دار العلم للملايين، بيروت، 1971 ، (الطبعة الرابعة) .

- پلا شارل، الجاحظ رائد الجغرافيا الإنسانية، في مجلة "المشرق"، عدد 2، 1966 ، ص . 169-205 .

- بن شريفة، محمد، أبو تمام وأبو الطيب في أدب المغاربة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 .

- بوغوليوبسكي، ألكسيس، رحلة السائح الروسي دانيل إلى الأراضي المقدسة في أول عهد الصليبيين، مجلة "المشرق" عدد 9، 1926 .

- التازي، عبد الهادي، في الاتحاد السوفييتي مع ابن بطوطة من البحر الأسود إلى نهر جيحون (دون ذكر السنة ولا الناشر) .

- توتل، فردينان، المنجد في الأدب والعلوم، معجم لأعلام الشرق والغرب، ضمن القاموس "المنجد" (وهو قسمه الثاني)، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1966 ، (الطبعة التاسعة عشرة) .

- تولستويْ، لييف، حكم النبي محمد، ترجمة سليم قبعين، الطبعة الثالثة، القاهرة، 1987 .

- تيمور باشا، أحمد، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة "المجمع العلمي العربي"، 1924، ج 8-9.

- الجاحظ، أبو عثمان، كتاب الحيوان، طبعة الساسي، مطبعة التقدم، القاهرة، 1906.

- الجندي، أنور، سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الإسلامية، بيروت، القاهرة، 1985.

- الجندي، سليم، ديوان الزهاوي، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 3، 1925، ص. 117-121.

- حجي، محمد، فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، 1985.

- الحسيني، إسحاق موسى، الاستشراق، نشأته وتطورته وأهدافه، مطبعة الأزهر، القاهرة، 1967.

- الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، القاهرة، 1923.

- الخربوطلي، علي حسن، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1988.

- الخولي، أمين، صلات بين النيل والفولجا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادي، في كتاب "أعمال المؤتمر العالمي الخامس والعشرين للمستشرقين" (موسكو 9-16 غشت 1960)، دار النشر الشرقية، موسكو، 1963، ج 2، ص. 5-8.

- داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، المطبعة المخلصية، بيروت، 1961.

- دراسات في تاريخ الثقافة العربية (القرون 5-15)، بقلم مجموعة من المؤلفين، ترجمة الدكتور أيمن أبو شعر، دار التقدم، موسكو، 1989.

- رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية، 1840-1850م. المسماة بتحفة الأذكيا بأخبار بلاد الروسيا، قدم لها وحررها د. محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992.

- رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة 309هـ/ 921م. حققها وعلق عليها وقدم لها الدكتور سامي الدهان، مكتبة الثقافة العالمية، بيروت، 1987 (الطبعة الثانية).

- ريخمان، جان، الآثار الإسلامية في بولندا، فرسوفيا، 1958.

- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار الملايين، ط. السابعة، 1986.

- الزيات، أحمد حسن، تاريخ الأدب العربي، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، (دون ذكر التاريخ).

- زيدان، جرجي، تاريخ أدب اللغة العربية، دار الهلال، القاهرة، 1911.

- زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، دار الهلال، القاهرة، (دون ذكر سنة الطبع).

- السباعي، مصطفى، الاستشراق والمستشرقون، مالهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، الطبعة الثالثة، 1985.

- سترستين، تاريخ المشرقيات في السويد، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 10، 1924، ص. 442-446.

- سمايلوفتش، أحمد، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1980.

- سهيل إدريس وجبور عبد النور، المنهل، قاموس فرنسي عربي، دار الآداب ودار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1970.

- سهيل، رزق الله، بارتولد والحضارة العربية الإسلامية، مجلة "الفكر العربي"، العدد 31، 1983، ص. 323-337.

- سهيل، فرح، الاستشراق الروسي، نشأته ومراحله التاريخية، مجلة "الفكر العربي"، 1983، عدد 31.

- الشاذلي، عبد اللطيف، مخطوطات عربية في خزائن سوفييتية، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1، (الدار البيضاء عين الشق)، العدد السابع، ص. 21-48.

- شاكر، محمود، المسلمون تحت السيطرة الشيوعية، المكتب الإسلامي، بيروت - دمشق، الطبعة الثالثة، 1982.

- الشرقاوي، محمد عبد الله، الاستشراق - دراسة تحليلية تقويمية، القاهرة، 1993.

- شوقي، أحمد، الشوقيات، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1961.

- شيخو، لويس، الأداب العربية في القرن التاسع عشر، بيروت، 1924.

- صبري، مصطفى، مسألة ترجمة القرآن، المطبعة السلفية، القاهرة، 1351هـ.

- الصغير، محمد حسين علي، المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1983.

- ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، 1971.

- الطريسي أعراب، أحمد، الإبداع الشعري والتحولات الاجتماعية والفكرية بالمغرب... الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1992.

- عثمان، عبد الرحمن، الأدب الحديث في البلاد العربية، دار الكاتب العربي، 1965.

- العطاوي، عبد الرحيم، كتابات روسية حول مدينة طنجة، في كتاب "طنجة في التاريخ المعاصر" (1800-1956)، دار النشر العربي الإفريقي، الرباط، 1991، ص. 187-195.

- العطاوي، عبد الرحيم، اللغات السلاڤية، مجلة "البحث العلمي"، عدد 20-21، 1972-1973، ص. 52-58.

- العطاوي، عبد الرحيم، نفض غبار النسيان عن بعض أمجاد شعب تتارستان، مجلة "التاريخ العربي"، العدد الثاني، 1997، ص. 217-229.

- العطاوي، عبد الرحيم، القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الروسية، مجلة "التاريخ العربي"، العدد الثامن، 1998، ص. 153-169.

- العطاوي، عبد الرحيم، المشموم الزاهي المختار (منتخبات من قصائد شعراء روسيا الكبار)، مطبعة MBH، أسْفي، 1998.

- العطاوي، عبد الرحيم، الشيخ محمد عياد الطنطاوي والمدرسة الاستشراقية الروسية، في كتاب "محمد بن تاويت الطنجي"، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة، طنجة، 1998، ص. 215-225.

- عطية، عامر، دراسات في الأدب العربي الحديث، دار المغرب العربي، تونس، 1970.

- العقيقي، نجيب، المستشرقون، الطبعة الرابعة، القاهرة، 1981.

- غريزنيفيتش، ب.، القرآن في روسيا، في "كتاب أبحاث جديدة للمستعربين السوفييت" (الكتاب الأول)، موسكو، 1986.

- الغمري، مكارم، الرواية الروسية في القرن التاسع عشر، سلسلة عالم المعرفة، 1981.

- الغمري، مكارم، مؤثرات عربية وإسلامية في الأدب الروسي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 155، الكويت، 1991.

- غومس، إميليو غرسيه، الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966.

- ڤاسيليڤا، كلثوم نصرعودة، المنتخبات العصرية لدرس اللغة العربية، ليننگراد، 1929، ج 1-2.

- الفيروزابادي، مجد الدين، القاموس المحيط، المطبعة المصرية، القاهرة، 1933.

- القراخي، محمد طاهر، بارقة السيوف الداغستانية في بعض الغزوات الشاملية، حقق النص في أصله العربي الأستاذ بارابانوف وكتب له مقدمة باللغة الروسية ووضع له فهارس، منشورات معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفييتية، موسكو - ليننگراد، 1946.

- القرآن، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 1407هـ.

- كاباتون، أنطوان، إيطاليا والمشرقيات، مجلة المجمع العلمي العربي، ج 5-6، 1926، ص. 207-216.

- كتاب الأخبار الطوال، تأليف أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري، تصحيح ڤلاديمير جرجاس، الطبعة الأولى، في مدينة ليدن المحروسة، بمطبعة بريل، سنة 1888 مسيحية.

- كراتشكوفسكي، إغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987.

- كراتشكوفسكي، إ.، ترجمته بقلمه العربي، في مجلة "المجمع العلمي العربي"، عدد 7، 1927، ص. 122-126.

- كراتشكوفسكي، إ.، دراسات في تاريخ الأدب العربي، منتخبات، ترجمة جماعية، دار النشر "علم"، موسكو، 1965.

- كراتشكوفسكي، إ.، درس الآداب العربية الحديثة، مجلة "المجمع العلمي العربي"، ج 1-2، 1930، ص. 17-28.

- كراتشكوفسكي، إ.، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث ودراسات أخرى، ترجمة وتقديم عبد الرحيم العطاوي، دار الكلام، الرباط، 1989.

- كراتشكوفسكي، إ.، الشعر العربي في الأندلس، ترجمة محمد منير مرسي، عالم الكتب، القاهرة، 1971.

- كراتشكوفسكي، إ.، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، ترجمة كلثوم عودة ڤاسيلييڤا، تحقيق عبد المجيد حسن ومحمد عبد الغني حسن، القاهرة، 1963.

- كراتشكوفسكي، إ.، الشيخ محمد عياد الطنطاوي، مجلة "المجمع العلمي العربي"، 1924، ج 12.

- كراتشكوفسكي، إ.، في الأدب العربي الحديث، ترجمة محمد أمين حسونة، مجلة "الرسالة"، عدد 170-171.

- كراتشكوفسكي، إ.، مخطوط نادر في روسية، مجلة "المجمع العلمي العربي"، ج 6، 1924، ص. 275-276.

- كراتشكوفسكي، إ.، مع المخطوطات العربية، صفحات الذكريات عن الكتب والناس، دار التقدم، موسكو، (دون ذكر اسم المترجم وسنة النشر).

- گريزنييڤيتش، ب. ، انظر: غريزنييڤيتش .

- كريم، سامح، طه حسين في معاركه الأدبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1974 .

- گنون، عبد الله، أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، دار الرائد للطباعة، القاهرة، 1964 .

- كوفالسكي، تاريخ المشرقيات في بولونيا، مجلة "المجمع العلمي العربي" ، ج 1-2 ، 1924 ، ص. 30-31 .

- الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سوريا، دار المعارف، القاهرة، 1968 .

- لوليس، دافيد، المشرقيات في البرتقال، مجلة "المجمع العلمي العربي" ، ج 1-2 ، 1923 ، ص. 54-55 .

- مصريان اليسوعي، الأب يوحنا، إغناطيوس كراتشكوفسكي، في مجلة "المشرق" ، تشرين الأول - كانون الأول، عام 1951 .

- المعلوف، توماديبو، اللغة العربية في المملكة الروسية، مجلة "المجمع العلمي العربي" ، ج 5 ، 1924 ، ص. 204-210 ؛ ج 6، ص. 264-270 .

- المعلوف، عيسى اسكندر، رحلة البطريرك ماكاريوس الحلبي إلى روسية، مجلة" المجمع العلمي العربي" ، ج 7-8 ، 1927 ، ص. 255 .

- معلوف، لويس، المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1966 (الطبعة التاسعة عشرة)، ص. 1-976 .

- المنتقى من مخطوطات جامعة بطرسبورغ، كلية الدراسات الشرقية، مطبوعات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، إعداد خالد أحمد الريان وعبد القادر أحمد عبد القادر، إشراف وتقديم الدكتور عبد الرحمن فرفور، دبي، 1996 .

- المنجد، صلاح الدين، قواعد تحقيق المخطوطات، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1970 .

- المنوني، محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ج 1 ، 1983 ، ج 2، 1989 .

- موساتوفا، ت.، العلاقات الروسية المغربية في القرن التاسع عشر، مجلة "دار النيابة"، تعريب عبد الرحيم العطاوي، 1988 ، عدد 18 .

- الموسوي، محمد جاسم، الاستشراق في الفكر العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993 .

- النكدي، عارف، الوأواء الدمشقي وديوانه، في مجلة "المجمع العلمي العربي"، ج 8 و9، 1924 ، ص. 339-348 .

- هوار، كليمان، (Huart, Clément)، الدروس العربية في فرنسا، ترجمة عبد الله بك رعد، مجلة "المجمع العلمي العربي"، ج 4-5، 1925، ص. 157-178 .

- هوتسما، المشرقيات في هولانده، تعريب محمد كرد علي، مجلة "المجمع العلمي العربي"، ج 2، 1924 ، ص. 64-71 .

- الولي، الشيخ طه، القرآن الكريم في الاتحاد السوفييتي، في مجلة "الفكر العربي"، عدد 31، 1983 ، ص. 266-291 .

2- المصادر والمراجع باللغتين الفرنسية والإنكليزية:

- Allouche, I. S. et Regragui, A., Catalogue des manuscrits arabes de Rabat, deuxième série (1921-1953), Rabat, 1958.

- Amar, E., Prolègomènes à l'étude des historiens arabes par as-Safadi, Paris, 1912.

- Barthold, V. V., La découverte de l'Asie. Histoire de

l'Orientalisme en Europe et en Russie. Traduit du russe et annoté par B. Nikitine, Payot, 1947.

- Bennigsen, A. et Lemercier - Quelquejay, Ch., Les Musulmans oubliés. L'Islam en Union Soviétique. Maspero, Paris, 1981.

- Bennigsen, A. et Quelquejay, Ch., Les Mouvements nationaux chez les musulmans de Russie, Mouton et C°, 1960.

- Blachère, R., et Darmoun, H. Extraits des principaux géographes arabes du Moyen - Age, 2e ed., Librairie C. Klincksieck, Paris, 1957.

- Blachère, R., Un poète arabe du IVe siècle de l'Hégire (Xe siècle de J.. C.): Abou t- Tayyib al- Motanabbi, . Essai d'histoire littéraire. Paris, 1935.

- Blachère, R., La vie et l'œuvre du poète épistolier andalou Ibn Darrag al-Kastalli, in: Hespéris, T. XVI, 1er-3ème trimestre 1933, fasc. I-II, pp. 99-121.

- Le Calendrier de Cordoue, publié par R. Dozy. Nouvelle ed. accompagnée d'une traduction française annotée par Ch. Pellat. Brill, Leiden, 1961.

- The Cambridge Histoiry of Islam, edited by P. M. Hot, Ann K. S. Lambton, Bernard Lewis, The University Press, Cambridge, 1970, Vol 1-2.

- Chaplyn, Majorie A., Le Roman mauresque en France de Zayde au dernier Abencérage, Nemours, 1928.

- Chateaubriand, R., Les aventures du dernier abencérage, Paris, 1926.

- Le Coran, traduction et notes de Muhammad Hamidullah, préface de Louis Massignon, Le Club français du livre, Paris, 1959.

- Derenbourg, E., Les manuscrits arabes de l'Escurial, I, Paris, 1884.

- Dictionnaire des religions, sous la direction de Paul Poupard, 2e ed., PUF. Paris, 1985.

- Dozy, R., Histoire des musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711/1110), I-IV, Leyde, 1861.

- Dozy, R., Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne pendant le Moyen âge, III ed., T. I., Leyde, 1861.

- D'un Orient de l'autre, Paris, CNRS, 1991, 2 vol.

- Elisseef, N., L'Islamologie en URSS, d'après un ouvrage récent. in-Melanges Louis Massignon, T. II, Publication de l'Institut Français de Damas, Damas, 1957, pp. 23-76.

- Gibb, H. A. R., Studies in Contemporary Arabic literature. I. The Nineteenth Century. Bulletin of the School of Oriental studies, London Institution, 1928, IV.

- Günzburg, D. de__, Le divan d'Ibn Guzman, texte, traduction, Commentaire, Berlin, 1896.

- Ibn Khaldun, Discours sur l'histoire universelle (al-Muqaddima), traduction nouvelle, préface et notes par Vincent Monteil, Beyrouth, 1967, T. 1, 1968, T. 2-3.

- L'Islam en France, sous la direction de Bruni Etienne, Paris, CNRS, 1991.

- Karmi, Hasan S., Al Mughni Al-Akbar, English - Arabic, Librairie du Liban, 1987.

- Kedourie, Elie., L'Islam aujourd'hui, Problèmes et perspectives du XIXe et XXe siècles. in: Le Monde de L'Islam, sous la direction de Lewis, Elsevier-Sequoia, Bruxelles, 1976.

- Kratchkovsky, I., Avec les manuscrits arabes (Souvenirs sur les livres et les hommes), traduit du russe par M. Canard, Alger, 1954.

- Kratchkovsky, I., Daghestan et Yémen, in: Melanges de géographie et d'orientalisme, offerts à E. F. Gautier, Tours, 1937, pp. 288-296.

- Kratchkovsky, I., Une anthologie magribine inconnue à Léningrad, in: Al Andalus, Madrid - Granada, 1934, Vol. II fasc 1, p. 197-205.

- Kratchkovsky, I. Le Kitab al- Adab d'Ibn al- Mu' tazz, édité par I. Kratchkovsky, in: Le monde Oriental, Vol. XVIII, 1924 (1926), pp. 56-121.

- Kratchkovsky, I., Kitab al - Badi of' Abd Allah Ibn al Mu'tazz, G. M. S., X, London, 1935.

- Kratchkovsky, I., Une liste des oeuvres d'Ibn al Mu' tazz, in: Rocznik Orjentalisticzyny", T. III, 1925 (1927), pp. 255-268.

- Landa, R., Recherches soviétiques historiques et sociologiques sur le Maroc, in: Recherches sur l'histoire du Maroc. "Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines", Rabat, 1989, pp. 89-96.

- Lataoui, abderrahim, Etudes arabes en URSS (1917-1972), in: Traces, N° 4, 1980, (1ère partie), p. 81-100.

- Lataoui, Abderrahim, "La littérature Russe", in: Langues et littératures, Faculté des Lettres et des Sciences humaines, Rabat, vol. XV, 1997, pp. 79-98.

- Massignon, L.,

أبو الفرج أحمد الغساني الملقب بالوأواء الدمشقي (. . .)، ديوان، سهر على نشره كراتشكوفسكي، بيتروگراد، 1914-1924.

in: Revue du Monde Musulman, L VII, 1924, p. 259.

- Mieli, Aldo, La Science arabe et son rôle dans l'évolution scientifique mondiale, Leide, 1939.

- Monteil, V., Les Musulmans soviétiques, ed. Seuil, 1982.

- Pareja, F. M., L'Islamologie, Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1964.

- Pascal, P., Histoire de la Russie des origines à 1917, Collection "Que sais-je?", PUF, 7e édition, 1972.

- Pérès, Henri, L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610 à 1930..., Paris, 1937.

- Pérès, Henri, La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle, ses aspets généraux et sa valeur documentaire..., Paris, 1937.

- Potocki, J., Voyages en Turquie et en Egypte, en Hollande, au Maroc, Fayard, Paris, 1980.

- Robert, P., Le Grand Robert de la langue Française, Paris, 1989.

- Rosen, V., Les Manuscrits arabes de St-Petersbourg, St Petersbourg, 1877.

- Rosen, V., Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée Asiatique, St-Petersbourg, 1881.

- Rousseau, J. L., Catalogue d'une collection de cinq cents manuscrits orientaux, Paris, 1817.

- La Russie et l'Afrique, sous la direction de A. Davidson, D. Olderogge, V. Solodovnikov, éd. "Naouka", Moscou, 1966.

- Sarton, G., Introduction to the history of science, I. II, Washington, 1927-1931.

- Les Slaves et l'Orient, sous la direction de Tikhomirov et autres. Publication de l'UNESCO, Tours, 1965.

- Taheri, Amir, Islam URSS. La Révolte de l'Islam en URSS, traduit de l'anglais par J. Lahana, ed. Tsuru, Paris, 1990.

3 - المصادر والمراجع باللغة الروسية:

- Alladin, Farahat Hassan, O ruskikh perevodakh Korana, in: Vestnik MAPRIAL, N° 13, str. 29-30.

(علاء الدين فرحات حسن، حول الترجمات الروسية للقرآن . . .).

- An SSSR, Aziatskiy Muziey..., izdatelstvo "Nauka", Moskva, 1972.

(أكاديمية العلوم السوفييتية، المتحف الآسيوي).

- AN SSSR. Ignatii Yulianovitch Kratchkovskiy, izd. AN SSSR, Moskva-Leningrad, 1949.

(أكاديمية العلوم السوفييتية، إگناتي كراتشكوفسكي . . .).

- AN SSSR, Vostokovedniye Fondy Krupneychikh Bibliotek sovetskovo soyuja, izd. Vostotchnoy literatury, Moskva, 1963.

(الذخيرة الاستشراقية المخزونة في مكتبات الاتحاد السوفييتي . . .).

- An SSSR, Institut Vostokovedeniya im. Abu Réyhana Biruni, Sobraniye Vostotchnykh Rukopisey Uzbekskoy SSR, izd - "FAN" USSR, Tachkent, 1967 (T. 8), 1971 (T. 9), 1975 (T. 10), 1987 (T. 11).

(مجموعة المخطوطات الشرقية المخزونة في جمهورية أوزبيكستان).

- Arabskiye rukopisi Instituta Vostokovedeniya - kratkiy katakog-pod redaktsiey A. B. khalidova, Moskva, 1986, tchast I i II.

(المخطوطات العربية لمعهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم بالاتحاد السوفييتي، فهرست صغير، تحت إشراف "خاليدوف"، موسكو، 1986، ج 1 و2).

- Baranov, Kh. K., Arabsko-ruskiy slovar, Moskva, 1962.

(بارانوف، خ. قاموس عربي روسي، موسكو، 1962).

- Bartold, V., Islam, izd. "Ogni", Petrograd, 1918.

(بارتولد، الإسلام، پيتروگراد، 1918).

- Bartold, V. Istoriya izutcheniya Vostoka v Evrope i Rosii, Leningrad, 1925.

(بارتولد .، تاريخ دراسة الشرق في أوروبا وروسيا).

- Bartold, V., Turkestan v epokhy mongolskovo nachestviya, Petersburg, 1898-1900.

(بارتولد، التركستان خلال الغزو المغولي) .

- Bartold, V., Ulugbek i evo vremya. Petrograd, 1918.

(بارتولد، أولوغ بيك وعصره) .

- Batsieyeva, S. M., Arabistika, v knige: "Aziyatskiy Muzey", izd. "Nauka", Moskva, 1972.

(باتسييڤا، س. م.، الدراسات العربية، في كتاب: المتحف الآسيوي) .

- Belyayev, V. i Bulgakov, P. Arabskiye rukopisi sobraniya Leningradskovo Gosudarstvennovo Universiteta, in - Pamyati akademika I. Yu. Kratchkovskovo, izd. L. G. U., 1958.

(بيلياييف وبولگاكوف، المخطوطات العربية المحفوظة في جامعة لينىنگراد، ضمن كتاب "في ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي"، ص. 21-35) .

- Bolchaya Sovetskaya Entsiklopediya, Vtoroye izdaniye, Moskva, T. 4, 1950, T. 18, 1953, T. 47, 1957.

(الموسوعة السوفييتية الكبرى، الطبعة الثانية، ج 4، 1950، ج 18، 1953، ج 47، 1957) .

- Borisov, B. M., Rusko-arabskiy slovar, izd. "Ruskiy yazyk", Moskva, 1981, T. 1-2.

(بوريسوف، ب.، قاموس روسي عربي، موسكو، 1981، ج 1-2) .

- Charbatov, G. Ch., Arabistika v SSSR, izd. Vostotchnoy literatury, Moskva, 1959.

(شارباتوف، گ.، الدراسات العربية في الاتحاد السوفييتي) .

- Cherba, L. I, Matusevitch, M., Rusko-frantsuskiy slovar, Gosudarstvennoye izdatelstvo inostrannykh i natsionalnykh slovarey, Moskva, 1959.

(شيربا، ل.؛ وماتوسييڤيتش، م.، القاموس الروسي الفرنسي) .

- Chidfar, B. Ya. Andaluskaya literatura, Moskva, 1970.

(شيدفار، ب.، الأدب الأندلسي، موسكو، 1970).

- Chifman, A., Tolstoy i Vostok, izd. 2oe, Moskva, 1971.

(شيفمان، أ.، تولستوي والشرق).

- Chumovskiy, T. A., Vospominaniya arabista, izd. "Nauka" (léningradskoye otdeleniye), Leningrad, 1977.

(شوموفسكي، ت.، ذكريات مستعرب).

- Dantsig, B., Ruskiye putechestvenniki na blijnem vostoke, izd. "Mysl", Moskva, 1965.

(دانتسيگ، ب.، الرحالة الروس في الشرق الأوسط).

- Dolinina, A. A., Otcherki istorii arabskoy literatury novovo vremeni., izd. "Nauka", Moskva, 1968.

(دولينيا، أ.، دراسات في تاريخ الأدب العربي المعاصر، موسكو، 1968).

- Entsiklopeditcheskiy slovar v dvukh tomakh / pod redaktsiey B. Vvedenskovo i drugikh..., izd. "Sovetskaya Entsiklopediya", Moskva, 1963 (T. 1), 1964 (T. 2).

(القاموس الموسوعي في جزءين، موسكو، 1963-1964).

- Filchtinskiy, I. M., Istoriya arabskoy literatury. Moskva, 1991.

(فيلشتينسكي، إ.، تاريخ الأدب العربي، موسكو، 1991).

- Filchtinskiy I. M., Chidfar, B., Otcherk arabo-musulmanskoy kultury, Moskva, 1971.

(فيلشتينسكي، وشيدفار، دراسات في الحضارة العربية الإسلامية، موسكو، 1971).

- Firsov, N., Prochloye Tatarii, Kazan, 1926.

(فيرسوف، ن.، ماضي تتريا).

- Gadjiyev, A., Kavkaz v ruskoy literature pervoy poloviny 19v., Baku, 1982.

(گادجييف، أ.، القوقاز في الأدب الروسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر).

- Ganchina, K. A., Frantsusko-ruskiy slovar. Moskva, 1939.

(گانتشينا، ك.، قاموس فرنسي - روسي، موسكو، 1939).

- Grigoriyev, A., Materialy po istorii Tatarii, T. 1, Kazan, 1948.

(گريگورييف، أ.، مواد حول تاريخ تتريا).

- Gurnitskiy, K., Agafangel Efimovitch Krymskiy, izd. "Nauka", Moskva, 1980.

(گورنيتسكي، ك.، أگافانگيل كريمسكي).

- Ibragimov, A., Tatary v revoliutsii 1905 goda, Kazan, 1926.

(علم جان إبراهيموف، التتر في ثورة 1905).

- Istoriya riskoy literatury XIX veka/pod redaktsiey F. Goloventchenko i S. Petrova, vtoroye izdaniye, Moskva, 1963. t. 1-2.

(تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، موسكو، 1963، ج. 2-1).

- Kamiliyev, S., Marokkanskiy dialect arabskovo yazyka, izd. "Nauka", Moskva, 1968.

(كاميلييف، سعيد، اللهجة المغربية للغة العربية).

- Karimullin, A., Vostokovednye Fondy Biblioteki Kazanskovo Universiteta..., in: AN SSSR, Vostotchnye Fondy Krupneychikh Bibliotek Sovetskovo Soyuza, izd. Vostotchnoy literatury, Moskva, 1963.

(كريمولين، أ.، الذخيرة الشرقية بجامعة قازان... ضمن كتاب الذخيرة الاستشراقية المحفوظة في أهم مكتبات الاتحاد السوفييتي، ص. 236-228).

- Khamid, Abd El Hawwal, Akademik I. Yu. Kratchkovskiy. Disertatsiya na soiskaniye utchonoy stepeni kandidata filologitcheskikh nauk. Vostotchniy Fakultet L. G. U., Leningrad, 1970.

(حامد، عبد الهوال، الأكاديمي كراتشكوفسكي والأدب العربي الحديث، أطروحة لنيل الدكتوراه. . .، لينينگراد، 1970، غير منشورة).

- Khronika Mokhammeda Tahira al- Karakki o dagestanskikh voynakh v period Shamilja, vvedeniye, arabskiy tekst podgotovlenniy A. M. Barabanovym, pod redaktsiyey akad. Kratchkovskovo, izd. AN SSSR, Moskva - Leningrad, 1946.

(بارقة السيوف الداغستانية، هيأ النص العربي وقدم له بارابانوف تحت إشراف كراتشكوفسكي، موسكو - لينينگراد، 1946).

- Kidliyev, Devlet, Magomet kak prorok, SPb, 1881.

(كيدلييف ديڤليت، محمد رسولا).

- Kirpitchenko, V. N., Sovremennaya egipetskaya proza, izd. "Nauka", Moskva, 1986.

(كيرپيتشينكو، ڤ.، النثر المصري المعاصر، موسكو، 1986).

- Kleynman, G., Vostotchnye Fondy Nautchnoy Biblioteki im. Gorkovo Moskovskovo Universiteta im. Lomonosova, in: AN SSSR, Vostotchnye Fondy Krupneychikh Bibliotek Sovetskovo Soyuza, izd. Vostotchnoy literatury, Moskva, 1963. str. 202-217.

(كلينمان، گ.، الذخيرة الشرقية في المكتبة العلمية لجامعة موسكو، ضمن كتاب الذخيرة الاستشراقية المحفوظة في أهم مكتبات الاتحاد السوفييتي، ص. 202-217).

- Konrad, N., Zapadi vostok, Moskva, 1970.

(كونراد، ن.، الغرب والشرق).

- Koran, Perevod i kommentarii Akademika I. Kratchkovskovo, predisloviye V. Beliyaeva i Grayaznevitcha, Moskva, 1990, (vtoroye izd).

(القرآن، ترجمة وتعليق الأكاديمي كراتشكوفسكي، تقديم بيلياييف وگريزنييفيتش، موسكو، 1990 ، الطبعة الثانية) .

- Koran, Perevod smyslov i kommentarii V. Porokhovoy, izd. Al- furqan, Moskva, 1997 (3oe izd).

(القرآن، ترجمت معانيه وعلقت عليه ڤ . پوروخوڤا، مركز الفرقان، موسكو، 1997 ، الطبعة الثالثة) .

- Koran, Perevod s arabskovo yazyka J. S. Sablukova, Kazan, 1907 (3e idz).

(القرآن، ترجمه من اللغة العربية سابليكوف، قازان، 1907 ، الطبعة الثالثة) .

- Kovalievskiy, A. Perevody i kommentarii v knige "Putechestviye Ibn-Fadlana na Volgu", M.- L., 1939.

(كوڤالييفسكي، أ . ، ترجمات وتعاليق في كتاب "رحلة ابن فضلان إلى الفولگا) .

- Kratchkovskaya, V. A., Pervye chagi v nauke magistranta I. Yu. Kratchkovskovo, in: Pamyati Akademika I. Kratchkovskovo, izd. L. G. U., 1958, str. 3-20.

(كراتشكوفسكايا، ڤ . ، الخطوات العلمية الأولى للطالب كراتشكوفسكي في الدراسات العليا، ضمن كتاب "في ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي") .

- Kratchkovskiy, I., Izbrannye sotcheneniya, T. 1... 6, Moskva-Leningrad, 1955-1960.

(كراتشكوفسكي . . . ، مختارات كراتشكوفسكي) .

- Krymskiy, A., Istoriya musulmanstva, T. 1-2, Moskva, 1903.

(كريمسكي، أ . ، تاريخ الديانة الإسلامية) .

- Krymskiy, A., Musulmanstvo i evo buduchnost..., Moskva, 1899.

(كريمسكي، أ.، الديانة الإسلامية ومستقبلها ...).

- Krymskiy, A., Istoriya novoy arabskoy literatury, Moskva, 1971.

(كريمسكي، أ.، تاريخ الأدب العربي الجديد ...).

- Krymskiy, A., Pisma iz Livana, Moskva, 1975.

(كريمسكي، أ.، رسائل من لبنان).

- Kudelin, A. B., K interpretatsii odnoy kasydy al-Mutanabii, in: Prolemy arabskoy kultury, izd. "Nauka", Moskva, 1987, str. 66-77.

(كوديلين، أ.، نحو تأويل إحدى قصائد المتنبي ...).

- Kudelin, A. B., Klasitcheskaya arabo-ispanskaya poeziya..., M. 1973.

(كوديلين، أ.، الشعر الكلاسيكي العربي الإسباني، موسكو، 1973).

Kudelin, A. B., Srednevekoya arabskaya poetika, izd "Nauka", Moskva, 1983.

(كوديلين، أ.، الشاعرية العربية في القرون الوسطى، موسكو، 1983).

- Landa, R. G., Islam v istorii Rosii, Vostotchnaya literatura, RAN, Moskva, 1995.

(لاندا، ر.، الإسلام في تاريخ روسيا ...، موسكو، 1995).

- Lermontov, M., Sobraniye sotcheneniy v tcheteryokh tomakh, izd. AN SSSR, Moskva-Leningrad, 1958.

(ليرمونتوف، م.، مجموع مؤلفاته).

- L. G. U., Pamyati Akademika Ignatiya Yulianovitcha Kratchkovskovo, izd. L. G. U., 1958.

(جامعة لينينگراد، في ذكرى الأكاديمي كراتشكوفسكي) .

- Likhatchiov, D., Poetika drevnoy ruskoy literatury, Moskva, 1977.

(ليخاتشوف، د.، شاعرية الأدب الروسي القديم) .

- Likhatchyov, D., Velikoye naslediye, Moskva, 1975.

(ليخاتشوف، د.، الإرث العظيم) .

- Lobikova; N., Puchkin i vostok, Moskva, 1974.

(لوبيكوڤا، ن.، پوشكين والشرق) .

- Miliband, S. D., Biobibliografitcheskiy slovar sovietskikh vostokovedov, izd. "Nauka", Moskva, 1977.

(ميليباند، س.، القاموس البيوبيبليوغرافي للمستشرقين السوفييت، موسكو، 1977) .

- Morozov, D. A., Kratkiy katalog arabskikh rykopisiye i dokumentov rosiyskovo gosudarstvennovo arkhiva drevnikh aktov, Arkheografitcheskiy tsentr, Moskva, 1996.

(فهرس المخطوطات والوثائق العربية في دار الوثائق الأثرية لدولة روسيا، موسكو، 1996) .

- Ojegov, S., Slovar ruskovo yazyka, Izdaniye III, Moskva, 1953.

(أوجيگوف، س.، قاموس اللغة الروسية، موسكو، 1953) .

- Puchkin, A., Polnoye sobraniye v desyati tomakh, Izdaniye tretye, izd. AN. SSSR, Moskva, 1963.

(پوشكين، مجموع مؤلفاته) .

- Saidov, M., Dagestanskaya literatura XVIII-XIX v.v. na arabskom yazyke, Trudy 25 mejd. Kongr. vostokovedov, M., 1968, T. II.

(سعيدوف، م.، الأدب الداغستاني المكتوب باللغة العربية . . .) .

- Smirnov, N. A., Otcherki istorii izutcheniya Islama v SSSR., izd. AN SSSR, Moskva, 1954.

(سميرنوف، ن.، أبحاث في تاريخ الإسلام في الاتحاد السوفييتي) .

- Tartakovskiy, P., Ruskiye poety i vostok, Tachkent, 1986.

(تارتاكوفسكي، پ.، الشعراء الروسيون والشرق) .

- Tcherkasskiy, L. E., Ruskaya literatura na vostoke, izd. "Nauka", Moskva, 1987.

(تشيركاسكي، ل.، الأدب الروسي في الشرق، موسكو، 1987) .

- Vasilkov, Ya. i drugiye..., Repressirovannoye vostokovedeniye... in: "Narody Azii i Afriki, N° 4, 1990.

(ڤاسيلكوف، يا.، وآخرون، الاستشراق المضطهد . . .) .

- Vegner, M., Predki Puchkina, Moskva, 1937.

(ڤيگنر، م.، أسلاف پوشكين) .

- Zavadovskiy. Yu., Kultura arabskoy Afriki. in: "Arabskiye Strany", Moskva, 1970.

(زاڤادوفسكي، ي.، حضارة إفريقيا العربية . . .) .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محتويات الكتاب